



۲۲

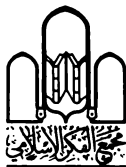
مجله القرآن الكريم

تأليف

السيد محمد باقر المكي

الطبعة الرابعة

مطبعة ومكتبة



۲۲

علوم القرآن

تأليف

السيد محمد باقر الحكيم

الطبعة الثالثة

منقحة ومزودة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المجمع

القرآن الكريم هو الوحي الالهي المنزل على خاتم الانبياء محمد بن عبد الله ﷺ لفظاً ومعنىً واسلوباً والمكتوب في المصاحف والمنقول عنه بالتواتر.

وهو سند الإسلام الحي ومعجزته الخالدة التي تحدث ولا زالت تتحدى جموع البشرية على مرّ القرون. وهو دستور الإسلام الجامع لكافة مبادئ الحياة الانسانية تجاوباً مع الفطرة وانبثاقاً من صميم الانسانية.

وللقرآن الكريم هيمنته الخارقة على نفوس بشرية أثبت الرضوخ لغير الحق فاستسلمت لقيادته الحكيمة، فأقبلت على دراسته بشوق وشغف وتقديس.

وكان الرسول الاعظم ﷺ هو النير العذب للعلوم الإسلامية فأحاط به اصحابه الاجلاء يقبسون منه سناء العلم ويستضيئون بهداه. وكان أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام الرجل الاول الذي احرز قصب السبق في مضمار تدوين القرآن وتفسيره وبيان علومه وقد برع في هذا المجال حتى روي عنه انه أُملي ستين نوعاً من انواع علوم القرآن، وذكر لكل نوع مثلاً يخصّه.

وكان للائمة من أهل البيت عليه السلام وأصحابهم أبلغ الاهتمام بالقرآن العظيم وعلومه بعد أن كان القرآن يمثّل الهدى الالهي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وبعد أن كان القرآن بحق هو المفجر للعلوم البشرية بل هو عماد العلوم الإسلامية وأساسها.

واستمر العلماء في اغناء المكتبة الإسلامية طيلة القرون الأربعة عشر الماضية

بصنوف المؤلفات والابحاث التي تدور حول القرآن الكريم الذي يمدّ البشرية بأنوار الهداية والرشاد ويدلّهم على الطريق المستقيم والحياة الحرة الكريمة.

ومن جملة ما أُلّف للتعرف على علوم القرآن الكريم وحاز قصب السبق في عصرنا الحاضر هو كتاب (علوم القرآن) الذي كتب شطراً منه آية الله العظمى الشهيد الصدر رضوان الله تعالى عليه ثم أكمله تلميذه البارِع والاستاذ المحقق آية الله السيد محمد باقر الحكيم دام ظلّه. وقد روعي فيه العمق ووضوح العرض والمنهجية في الطرح والحداثة التي نجدها في اكثر ما قدّمه الشهيد الصدر من بحوث وأفكار ورؤى، مع مراعاة المستوى العلمي لطلاب الجامعات والاهتمام بالموضوعات ذات العلاقة بالنهضة الثقافية الإسلامية المعاصرة وحركة الأمة الإسلامية نحو التجديد في تطبيق الإسلام النقي المستنبط من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وقد اعاد النظر سيدنا المؤلف في هذه الطبعة الثالثة للكتاب وأضاف اليه موضوعات مهمّة بلغت حوالي ثلث الكتاب حجماً مع التصحيح والتنقيح وإعادة الترتيب بالشكل الذي يتناسب مع المناهج الدراسية المطلوبة في الحوزات العلمية والجامعات الإسلامية.

ونحن اذ نشكر للمؤلف جهوده ونبارك له خطاه، نسأله تعالى أن يتغمّد شهيدنا الصدر برحمته منه ورضوان ويميّن علينا بالسير على خطاه في الاهتمام بعمق الدراسات الإسلامية واصالتها وتميّزها بالتجديد والابداع وتلبية حاجات العصر. وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على نبيه سيد المرسلين محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه المنتجبين. اللهم اهدنا بالقرآن، ووفقنا لفهمه وتدبره والعمل به، وثبتنا على هداه، وأعنا على تحمل اعبائه وابلاغه ﴿...ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرأ كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾^(١)

وبعد ...

هذه محاضرات كنت قد وفقت لالقائها على طلبة كلية اصول الدين في بغداد منذ بداية تأسيسها في عام ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م)، وكان قد كتب الجزء الاول منها -وهو ما يخص طلبة الصف الاول وبداية الصف الثاني- سيدنا آية الله العظمى الشهيد الصدر رضوان الله عليه، وقد راعى هذا التدوين المستوى العلمي البسيط لهذه المرحلة، ولكن مع ذلك جاءت هذه الكتابة مشتملة على لفتات علمية وابتكارات نظرية في هذا العلم الشريف.

وقد اكملت المنهج للسنوات الأخرى، حيث كنت أواكب في التدوين مسيرة التدريس. وقد حاولت الاستفادة فيها مما دونه أو ذكره أعظم العلماء في هذا الفن

أو بعض الباحثين الذين كانت له ممارسات في هذا المجال، مراعيًا في ذلك النقاط التالية :

- ١- غزارة المادة وعمقها.
- ٢- وضوح العرض ومنهجيته والتركيز على النقاط المهمة والاساسية.
- ٣- طرح الأفكار الصحيحة والأصيلة وتهذيبها.
- ٤ - مراعاة المستوى العلمي المطلوب لطلاب الكليات المختصة، وللأوساط العلمية في الحوزات والمدارس الدينية التقليدية على مستوى مرحلة (المقدمات) و(السطح الاول).
- ٥ - الاهتمام بالموضوعات ذات العلاقة بالنهضة الثقافية الاسلامية المعاصرة وحركة الامة نحو التجديد في التطبيق مع التمسك بالاسلام الاصيل النقي المستنبط من الكتاب الكريم والسنة النبوية.
- ٦ - الالتزام بالمنهج العلمي الذي يتسم بالاحترام، والدقة الموضوعية في القضايا ذات الطابع المذهبي والابتعاد عن اثارة المشاعر والحساسيات المذهبية أو الطائفية وبالشكل الذي لا يضر ببيان الحقائق العلمية.
- وقد كانت الظروف الموضوعية السياسية والاجتماعية الخاصة والعامة - عند كتابة هذه المحاضرات - لا تسمح لي بأن أعطي الوقت الكثير لهذه الأوراق، ولذا تم اعدادها في البداية بسرعة وفي وقت محدود، الأمر الذي جعل توثيق المصادر بالطريقة الفنية أمراً عسيراً خصوصاً فيما كتبه أستاذنا الشهيد الصدر رضوان الله عليه وان هذه الكتابة لم تعد للنشر.
- ولكن قامت كلية اصول الدين في البداية بنشرها من خلال مجلتها (رسالة الاسلام) في مجموعة من أعدادها وبشكل تدريجي، فكان هذا النشر يمثل (الطبعة الاولى) لهذه المحاضرات.

وبالرغم من أنني كنت قد أدخلت الكثير من التعديلات والملاحظات عليها من خلال تكرار تدريسها في الكلية المذكورة، وطبعت هذه الملاحظات في (الملازم) الخاصة بالطلبة، إلا أنني لم تأخذ طريقها إلى (المجلة).

ولم تتم لي في حينه مراجعة (المجلة) عند الطبع، فجاءت هذه الطبعة - بالرغم من فائدتها والعمل المشكور الذي قامت به المجلة - مليئة بالاختلاف وأحياناً سقوط بعض الفقرات فضلاً عن الجوانب الفنية الأخرى.

ثم قام المجمع العلمي الاسلامي الذي يشرف عليه سماحة العلامة السيد مرتضى العسكري مؤسس وعميد كلية اصول الدين سابقاً، بطبع هذه المحاضرات مرة أخرى على شكل كتاب، حيث تم استنساخه وتصويره على اساس اوراق المجلة آنفة الذكر مع ايجاد تطوير لها في جانبين :

أحدهما : هو تقديم وتأخير بعض الموضوعات بافتراض ان ذلك أكثر انسجاماً مع المنهج التدريسي، ومن اهتمامات المجمع هو اعداد وطبع الكتب الدراسية للحوزات والمدارس الدينية.

والآخر : وضع فهرس جيدة في آخر الكتاب للآيات والأحاديث والاعلام والأمكنة والشعوب والنحل والكتب وغيرها.

وباعتبار أن السادة الافاضل في المجمع كان هدفهم تقديم الخدمات المجانية بقصد كسب مرضاة الله تعالى وهو هدف مشترك، كما أن هذه المحاضرات لهم حق الاشتراك فيها فقد قاموا بطبعها بدون مراجعتي، ولعله مراعاة لظروفي الخاصة التي لم تكن تسمح لي - بسهولة - مراجعة الكتاب، أو اعطاء النظر فيه مرة أخرى. فجاءت (الطبعة الثانية) مفيدة ونافعة ولكنها ناقصة.

وقد طلب مني بعض الاخوة الأعزاء، ومنهم الاخوة في مجمع الفكر الاسلامي طبعها مرة أخرى، وكنت أطلب منهم تأجيل ذلك حتى تسمح لي

الفرصة باعادة النظر في هذه المحاضرات علماً بأن الملاحظات السابقة قد افتقدتها بسبب ظروف الهجرة والمطاردة ومصادرة الكتب وجميع الممتلكات من قبل سلطات البعث العفلقى، حتى تمكنت أخيراً -والحمد لله- باقتطاف فرصة قصيرة ومحدودة وعلى السرعة من اعادة النظر فيها، فأدخلت فيها -مع مراعاة النقاط المذكورة آنفاً في أصل الاعداد- التعديلات التالية :

أولاً: تم تنقيح الكتاب على مستوى التصحيح والتوضيح بالنسبة الى مجموع المحاضرات، وازافة بعض النقاط أو حذفها بالنسبة الى القسم الذي كنت قد دونته .

ثانياً: اضافة بعض الموضوعات المهمة أو تكميلها مثل موضوع (نزول القرآن باللغة العربية) و(الهدف من نزول القرآن) و(التفسير بالرأى) و(مرجعية أهل البيت عليه السلام الفكرية) و(التفسير عند أهل البيت عليه السلام) وبعض الموضوعات ذات العلاقة بالقصص القرآني، والفصل الثاني من خلافة الانسان وغيرها من الاضافات المهمة .

ثالثاً: تمت اعادة ترتيب الكتاب مرة أخرى بالشكل الذي يتناسب مع التدرج في الموضوعات والمستوى العلمى لها . وقد قسمت الكتاب الى اربعة اقسام :

يتناول القسم الأول موضوعات عامة حول القرآن .

والقسم الثاني يتناول أبحاثاً حول بعض الموضوعات القرآنية كالمحكم والمتشابه والنسخ، وكذلك معالجة بعض الشبهات المهمة التي أثيرت حول القرآن الكريم .

والقسم الثالث تناول موضوع (التفسير والمفسرون) كأبحاث معنى التفسير والتأويل وشروط المفسر والتفسير بالرأى وتأريخ التفسير والتفسير عند أهل البيت عليه السلام .

والقسم الرابع تناول موضوع التفسير الموضوعي، حيث عرّفناه، وبيّنا أهميته وميزته الرئيسة، ثم تناولنا ثلاثة موضوعات بالبحث وهي: القصص القرآني، والحروف المقطعة في أوائل بعض السور القرآنية، وخلافة الانسان.

وقد لوحظ في إعادة الترتيب والتقسيم المستوى العلمي المتدرج، بحيث يتطابق مع تطور الدرس عند الطالب.

رابعاً: لاحظنا في كتابة البحث ان يكون العرض مدرسياً، ولذا استخدمنا التقسيم الى نقاط ومقاطع وفصول تسهيلاً للدارسين.

خامساً: حاولنا - بقدر الامكان - الاحتفاظ بكتابة استاذنا الشهيد الصدر رضوان الله عليه إلا بقدر محدود من التوضيح والتعديل مع الاشارة الى نسبة الكتابة اليه في الهامش، ويمكن الرجوع لمعرفة النص الدقيق لما كتبه الى الطبعة الاولى والثانية.

وختاماً أسأله تعالى أن يجعل هذا الكتاب نافعاً للأخوة المطالعين والدارسين، وأن يتفضل عليّ بالقبول ويصلح لنا نياتنا وأعمالنا، ويجعله ذخيرة لنا في الآخرة ويوفق المسلمين للمزيد من الاهتمام بالقرآن والعمل به ويحقق النصر لهم على أعدائهم.

والحمد لله رب العالمين.

محمد باقر الحكيم

١٥ جمادى الثانية ١٤١٤ هـ

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الانبياء وسيد المرسلين محمد وآله الطاهرين.

وبعد فان كلية اصول الدين ببغداد كانت قد قدمت مناهج علوم القرآن الى ساحة آية الله العظمى الشهيد الصدر رضوان الله عليه ليكتب موضوعاتها ثم يلقيها على الطلبة استاذ علوم القرآن فيها حجة الاسلام السيد محمد باقر الحكيم، فكتب بعضها هو ^{هو} وأتم تأليف الباقي السيد الحكيم، وكانت مجلة الكلية «مجلة رسالة الاسلام» تنشر تلك البحوث في اعدادها. ولما رأينا ضرورة تدريس تلك البحوث في السنوات الاربع الاولى من الدراسات الحوزوية، طبعنا تلك البحوث بـ(الافست) من «مجلة رسالة الاسلام» ونشرناها في ما يلي، راجين من الاساتذة الكرام أن يوافونا بملاحظاتهم القيمة لنتفع بها في الطبقات القادمة ان شاء الله تعالى.

لجنة تنظيم الكتب الدراسية

لطلاب العلوم الاسلامية

المجمع العلمي الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّيِّ هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾^(١).

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٢).

(١) الاسراء : ٩ .

(٢) البقرة : ٢٣ - ٢٥ .

القسم الاول

موضوعات عامة حول القرآن

تمهيد

نزول القرآن الكريم

أسباب النزول

الهدف من نزول القرآن

المكي والمدني

ثبوت النص القرآني

تمهيد

القرآن وأسماءه* :

القرآن الكريم هو الكلام المعجز المنزل وحياً على النبي ﷺ المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته . وقد اختار الله تعالى لهذا الكلام المعجز الذي اوحاه الى نبيه أسماء مخالفة لما سمى العرب به كلامهم جملة وتفصيلاً . فسماه الكتاب قال تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ (١) .

وسماه القرآن : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ (٢) .

والاهتمام بوضع أسماء محددة ومصطلحات جديدة للقرآن الكريم ، يتمشى مع خط عريض سار عليه الاسلام ، وهو تحديد طريقة جديدة للتعبير عما جاء به من مفاهيم وأشياء .

وتفضيل ايجاد مصطلحات تتفق مع روحه العامة على استعمال الكلمات الشائعة في الاعراف الجاهلية وذلك لسببين :

أحدهما : أن الكلمات الشائعة في الاعراف الجاهلية من الصعب أن تؤدي المعنى الاسلامي بأمانة ، لانها كانت وليدة التفكير الجاهلي وحاجاته ، فلا تصلح

(*) كتبه الشهيد الصدر : ١٧ - ٢٤ .

(١) البقرة : ٢ .

(٢) يونس : ٣٧ .

للتعبير عما جاء به الاسلام، من مفاهيم وأشياء لا تمت الى ذلك التفكير بصلة.
والآخر: أن تكون مصطلحات واسماء محددة يتميز بها الاسلام، سوف
يساعد على ايجاد طابع خاص به، وعلامات فارقة بين الثقافة الاسلامية وغيرها
من الثقافات.

وفي تسمية الكلام الالهي بـ«الكتاب» اشارة الى الترابط بين مضامينه
ووحدتها في الهدف والاتجاه، بالنحو الذي يجعل منها كتاباً واحداً.
ومن ناحية أخرى يشير هذا الاسم الى جمع الكلام الكريم في السطور، لان
الكتابة جمع للحروف ورسم للالفاظ.

وأما تسميته بـ«القرآن» فهي تشير الى حفظه في الصدور نتيجة لكثرة
قراءته، وترداده على اللسان، لان القرآن مصدر القراءة، وفي القراءة استكثار
واستظهار للنص.

فالكلام الالهي الكريم له ميزة الكتابة والحفظ معاً، ولم يكتف في صيانه
وضمانه بالكتابة فقط، ولا الحفظ والقراءة فقط لهذا كان كتاباً وقرآناً.
ومن أسماء القرآن أيضاً (الفرقان).

قال تعالى:

﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل * من قبل
هدى للناس وأنزل الفرقان ... ﴾^(١).

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾^(٢).

ومادة هذا اللفظ تفيد معنى التفرقة، فكأن التسمية تشير الى أن القرآن هو
الذي يفرق بين الحق والباطل، باعتباره المقياس الالهي للحقيقة في كل ما يتعرض

(١) آل عمران : ٣، ٤.

(٢) الفرقان : ١

له من موضوعات .

ومن أسمائه أيضاً «الذكر» .

قال تعالى :

﴿... وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾^(١) .

﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه...﴾^(٢) .

ومعناه الشرف ، ومنه قوله تعالى :

﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم...﴾^(٣) .

وهناك الفاظ عديدة أطلقت على القرآن الكريم على سبيل الوصف لا

التسمية ، كالمجيد ، والعزیز ، والعلي ، في قوله تعالى :

﴿بل هو قرآن مجيد﴾^(٤) .

﴿... وانه لكتاب عزيز﴾^(٥) .

﴿وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾^(٦) .

علوم القرآن :

وعلوم القرآن هي : جميع المعلومات ، والبحوث التي تتعلق بالقرآن الكريم ،

(١) النحل : ٤٤

(٢) الانبياء : ٥٠ .

(٣) الانبياء : ١٠ . الظاهر من استعمالات الذكر في القرآن انه يراد منه الوحي الالهي او

التذكير - المؤلف .

(٤) البروج : ٢١ .

(٥) فصلت : ٤١ .

(٦) الزخرف : ٤ .

وتختلف هذه العلوم في الناحية التي تتناولها من الكتاب الكريم.
فالقرآن له اعتبارات متعددة، وهو بكل واحدة من تلك الاعتبار موضوع
لبحث خاص.

وأهم تلك الاعتبار، القرآن بوصفه كلاماً دالاً على معنى، والقرآن بهذا
الوصف، موضوع لعلم التفسير.

فعلم التفسير يشتمل على دراسة القرآن باعتباره كلاماً ذا معنى، فيشرح
معانيه، ويفصل القول في مدلولاته، ومقاصده.

ولاجل ذلك كان علم التفسير من أهم علوم القرآن وأساسها جميعاً.
وقد يعتبر القرآن بوصفه مصدراً من مصادر التشريع، وبهذا الاعتبار يكون
موضوعاً لعلم آيات الاحكام، وهو علم يختص بآيات الاحكام من القرآن،
ويدرس نوع الاحكام التي يمكن استخراجها بعد المقارنة لجميع الادلة الشرعية
الأخرى من سنة، واجماع، وعقل.

وقد يؤخذ القرآن بوصفه دليلاً لنبوة النبي محمد ﷺ فيكون موضوعاً لعلم
اعجاز القرآن، وهو علم يشرح: أن الكتاب الكريم وحي الهي ويستدل على
ذلك بالصفات والخصائص التي تميزه عن الكلام البشري.

وقد يؤخذ القرآن باعتباره نصاً عربياً جارياً وفق اللغة العربية فيكون
موضوعاً لعلم اعراب القرآن، وعلم البلاغة القرآنية، وهما علمان يشرحان مجيء
النص القرآني وفق قواعد اللغة العربية في النحو والبلاغة.

وقد يؤخذ القرآن بوصفه مرتبطاً بوقائع معينة في عهد النبي ﷺ فيكون
موضوعاً لعلم أسباب النزول.

وقد يؤخذ القرآن باعتبار لفظه المكتوب، فيكون موضوعاً لعلم رسم القرآن،
وهو علم يبحث في رسم القرآن، وطريقة كتابته.

وقد يعتبر بما هو كلام مقروء، فيكون موضوعاً لعلم القراءة، وهو علم يبحث في ضبط حروف الكلمات القرآنية وحركاتها، وطريقة قراءتها إلى غير ذلك من البحوث التي تتعلق بالقرآن.

و(علوم القرآن) جميعاً تلتقي وتتشرك في اتخاذها القرآن موضوعاً لدراستها، وتختلف في الناحية الملحوظة فيها من القرآن الكريم.

تأريخ علوم القرآن :

كان الناس على عهد النبي ﷺ يسمعون إلى القرآن، ويفهمونه بذوقهم العربي الخالص، ويرجعون إلى الرسول ﷺ في توضيح ما يشكل عليهم فهمه، أو ما يحتاجون فيه إلى شيء من التفصيل والتوسع.

فكانت علوم القرآن تؤخذ وتروى عادة بالتلقين والمشافهة، حتى مضت سنون على وفاة النبي ﷺ، وتوسعت الفتوحات الإسلامية وبدرت بوادر تدعو إلى الخوف على علوم القرآن، والشعور بعدم كفاية التلقي عن طريق التلقين والمشافهة، نظراً إلى بُعد العهد بالنبي نسبياً واختلاط العرب بشعوب أخرى، لها لغاتها وطريقتها في التكلم والتفكير، فبدأت لاجل ذلك حركة، في صفوف المسلمين الواعين لضبط علوم القرآن ووضع الضمانات اللازمة لوقايته وصيانه من التحريف.

وقد سبق الامام علي عليه السلام غيره في الإحساس بضرورة اتخاذ هذه الضمانات، فانصرف عقيب وفاة النبي ﷺ مباشرة إلى جمع القرآن.

ففي «الفهرست» لابن النديم^(١)، أن علياً عليه السلام حين رأى من الناس عند وفاة النبي ما رأى أقسم أنه لا يضع عن عاتقه رداءه حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته

(١) كتاب الفهرست لابن النديم : ٣٠ بتصرف. طبعة طهران.

ثلاثة أيام، حتى جمع القرآن؛ وسيأتي البحث عن ذلك في البحث عن جمع القرآن. وما نقصده الان من ذلك، أن الخوف على سلامة القرآن والتفكير في وضع الضمانات اللازمة، بدأ في ذهن الواعين من المسلمين، عقيب وفاة النبي ﷺ، وأدّى الى القيام بمختلف النشاطات، وكان من نتيجة ذلك (علوم القرآن)، وما استلزمته من بحوث وأعمال.

وهكذا كانت بدايات علوم القرآن، وأسسها الأولى على يد الصحابة والطلبة من المسلمين في الصدر الاول الذين أدركوا النتائج المترتبة للبعد الزمني عن عهد النبي ﷺ والاختلاط مع مختلف الشعوب.

فأساس علم إعراب القرآن وضع تحت اشراف الامام علي عليه السلام، إذ أمر بذلك أبا الاسود الدؤلي وتلميذه يحيى بن يعمر العدواني رائدي هذا العلم والواضعين لاساسه؛ فان أبا الاسود هو : أول من وضع نقط المصحف؛ وتروى قصة في هذا الموضوع، تشير الى شدة غيرته، على لغة القرآن، فقد سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿... ان الله بريء من المشركين ورسوله...﴾ بجر اللام من كلمة (رسوله) فأفزع هذا اللحن أبا الاسود الدؤلي وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله، فعزم على وضع علامات معينة تصون الناس في قراءتهم من الخطأ، وانتهى به اجتهاده الى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة السكون نقطتين^(١).

الحث على التدبر في القرآن :

وقد ورد الحث الشديد في الكتاب العزيز، والسنة الصحيحة على تدارس القرآن والتدبر في معانيه، والتفكر في مقاصده وأهدافه.

(١) سير اعلام النبلاء ٤ : ٨١ - ٨٣ للذهبي.

قال تعالى :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ ^(١).

وفي هذه الآية الكريمة توبيخ عظيم على عدم اعطاء القرآن حقه من العناية والتدبر.

وفي حديث عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ أنه قال : « اعرّبوا القرآن واتمسّوا غرائبه » ^(٢).

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال : « حدثنا من كان يقرئنا من الصحابة أنهم كانوا يأخذون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل » ^(٣).

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام انه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم ، فقال له رجل : جعلت فداك ، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت . فقال : إنّه كان يعرف تفسير قوله تعالى : ﴿ ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد ... ﴾ ^(٤).

ولعل أروع ما قيل في هذا المجال كلام الامام علي عليه السلام قال : « واعلموا ان هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش ، والهادي الذي لا يضل ، والمحدث الذي لا يكذب ، وما جالس هذا القرآن احد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان : زيادة في هدى ، أو نقصان من عمى .

واعلموا أنّه ليس على احد بعد القرآن من فاقة ولا لاحد قبل القرآن من غنى فاستشفوه من ادوائكم واستعينوا به على لأوائكم ، فان فيه شفاء من اكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال ، فاسألوا الله به وتوجهوا اليه بحبه ولا تسألوا

(١) محمد : ٢٤.

(٢) و (٣) بحار الأنوار ٩٢ : ١٠٦.

(٤) قريب منه في تفسير القمي ٢ : ١٤٧ (القصص : ٨٥).

به خلقه أنه ما توجه العباد الى الله تعالى بمثله ... فانه ينادي مناد يوم القيامة :
«الا إنّ كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن» فكونوا من
حرثته واتباعه واستدلوه على ربكم واستنصحوه على انفسكم، واتهموا عليه
آراءكم واستغشوا فيه اهواءكم...»^(١).

وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : «ألا لا خير في علم ليس فيه تفهّم، ألا
لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقّه»^(٢).
وعن الزهري قال سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول : «آيات القرآن خزائن
العلم، فكلما فتحت خزائنه فينبغي لك أن تنظر فيها»^(٣).
والاحاديث في فضل التدبر في القرآن ودفع المسلمين نحو ذلك كثيرة، وقد
ذكر شيخنا المجلسي طائفة كبيرة من هذه الاحاديث^(٤).

ومن الطبيعي أن يتخذ الاسلام هذا الموقف، ويدفع المسلمين بكل ما يملك من
وسائل الترغيب الى دراسة القرآن والتدبر فيه، لان القرآن هو الدليل الخالد على
النبوّة، والدستور الثابت من السماء للأمة الاسلامية في مختلف شؤون حياتها،
وكتاب الهداية البشرية الذي اخرج العالم من الظلمات الى النور، وانشأ أمةً،
واعطاها العقيدة، وامدها بالقوة، وأنشأها على مكارم الاخلاق، وبنى لها اعظم
حضارة عرفها الانسان الى يومنا هذا.

(١) نهج البلاغة. د. صبحي الصالح - الخطبة : ١٧٦.

(٢) بحار الانوار ٩٢ : ٢١١.

(٣) المصدر السابق : ٢١٦.

(٤) بحار الانوار : الجزء ٩٢، طبعة دار احياء التراث العربي.

نزول القرآن الكريم*

نزول القرآن عن طريق الوحي :

تلقى النبي ﷺ القرآن الكريم عن طريق الوحي، ونظراً إلى أنه ﷺ كان يتلقى الوحي الإلهي من جهة عليا معنوية وهي الله سبحانه يقال عادة : إن القرآن نزل عليه، للإشارة باستعمال لفظ النزول إلى علو الجهة التي اتصل بها النبي عن طريق الوحي وتلقى عنها القرآن الكريم.

والوحي لغة هو : (الاعلام في خفاء)، أي الطريقة الخفية في الاعلام، وقد اطلق هذا اللفظ (الوحي) على الطريقة الخاصة التي يتصل بها الله تعالى برسوله، نظراً إلى خفائها ودقتها وعدم تمكن الآخرين من الاحساس بها.

ولم يكن الوحي هو الطريقة التي تلقى بها خاتم الانبياء وحده كلمات الله، بل هو الطريقة العامة لاتصال الانبياء بالله، وتلقيهم الكتب السماوية منه تعالى، كما حدث الله بذلك رسوله في قوله عز وجل : ﴿ انا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان ... ﴾ (١).

(*) كتب هذا البحث آية الله الشهيد الصدر رحمه الله.

صور الوحي :

ويبدو من القرآن الكريم أنّ الوحي هذا الاتصال الغيبي الخفي بين الله واصفيائه له صور ثلاث :

الاولى: 'لقاء المعنى' في قلب النبي أو نفته في روعه بصورة يحس بأنه تلقاه من الله تعالى.

والثانية: تكليم النبي من وراء حجاب، كما نادى الله موسى من وراء الشجرة^(١) وسمع نداءه.

والثالثة: هي التي متى أُطلقت انصرفت الى ما يفهمه المتدين عادة من لفظة الايماء حين يلقي ملك الوحي المرسل من الله الى نبي من الانبياء ما كلف القاؤه إليه، سواء انزل عليه في صورة رجل ام في صورته الملكية، وقد اشير الى هذه الصور الثلاث في قوله تعالى: ﴿وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء انه عليّ حكيم﴾^(٢).

وتدل الروايات على ان الوحي الذي تلقى عن طريقه الرسالة الخاتمة وآيات القرآن المجيد كان بتوسيط الملك في كثير من الاحيان، وبمخاطبة الله لعبده ورسوله من دون واسطة في بعض الاحيان، وكان لهذه الصورة من الوحي التي يستمع فيها النبي الى خطاب الله من دون واسطة أثرها الكبير عليه؛ ففي الحديث أنّ الامام الصادق سئل عن الغشية التي كانت تأخذ النبي أكانت عند هبوط جبرئيل فقال: لا وانما ذلك عند مخاطبة الله عز وجل إياه بغير ترجمان وواسطة.

(١) المقصود من وراء الشجرة، أنّ الكلام سمع من الشجرة وما حولها.

(٢) الشورى: ٥١.

نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ مرتين * :

في رأي عدد من العلماء أن القرآن الكريم نزل على النبي مرتين، أحدها: نزل فيها جملة واحدة على سبيل الاجمال، والأخرى: نزل فيها تدريجاً على سبيل التفصيل خلال المدة التي قضاها النبي في أمته منذ بعثته الى وفاته.

ومعنى نزوله على سبيل الاجمال: هو نزول المعارف الالهية التي يشتمل عليها القرآن وأسراره الكبرى على قلب النبي لكي تمتلئ روحه بنور المعرفة القرآنية.

ومعنى نزوله على سبيل التفصيل هو نزوله بالفاظه المحددة وآياته المتعاقبة والتي كانت في بعض الاحيان ترتبط بالحوادث والوقائع في زمن الرسالة وكذلك مواكبة تطورها.

وكان انزاله على سبيل الاجمال مرة واحدة، لأن الهدف منه تنوير النبي وتثقيف الله له بالرسالة التي أعده لحملها.

وكان انزاله على سبيل التفصيل تدريجاً، لأنه يستهدف تربية الأمة وتنويرها وترويضها على الرسالة الجديدة، وكذلك تثبيت النبي في مواقفه وتسديده فيها، وهذا يحتاج الى التدرج.

وعلى ضوء هذه النظرية في تعدد نزول القرآن يمكننا أن نفهم الآيات الكريمة الدالة على نزول القرآن بجملته في شهر رمضان، أو انزاله في ليلة القدر بصورة خاصة نحو قوله تعالى: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان... ﴾ ^(١) وقوله: ﴿ انا انزلناه في ليلة القدر ﴾ ^(٢) وقوله: ﴿ انا انزلناه

(*) كتبه الشهيد الصدر رحمه الله.

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) القدر: ١.

في ليلة مباركة انا كنا منذرين ﴿^(١)﴾ فان الانزال الذي نتحدث عنه هذه الآيات ليس هو التنزيل التدريجي الذي طال اكثر من عقدين، وانما هو الانزال مرة واحدة على سبيل الاجمال.

كما ان فكرة تعدد الانزال بالصورة التي شرحناها تفسر لنا أيضاً المرحلتين اللتين أشار اليهما القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿... كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾^(٢) فان هذا القول يشير الى مرحلتين في وجود القرآن، اولاهما: إحكام الآيات، والثانية: تفصيلها وهو ينسجم مع فكرة تعدد الانزال فيكون الانزال مرة واحدة على سبيل الاجمال هي مرحلة الاحكام، والانزال على سبيل التفصيل تدريجياً هي المرحلة الثانية اي مرحلة التفصيل.

التدرج في التنزيل * :

استمر التنزيل التدريجي للقرآن الكريم طيلة ثلاث وعشرين سنة، وهي المدة التي قضاها النبي ﷺ في أمته منذ بعثته الى وفاته، فقد بُعث ﷺ لأربعين سنة من ولادته، ومكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم هاجر الى المدينة وظل فيها عشر سنين، والقرآن يتعاقب ويتواتر عليه حتى مات وهو في الثالثة والستين من عمره الشريف.

وقد امتاز القرآن عن الكتب السماوية السابقة عليه بانزاله تدريجياً بخلاف ما يشير إليه القرآن الكريم من انزال التوراة على شكل الواح دفعة واحدة أو في مدة زمنية محدودة.

(١) الدخان : ٣.

(٢) هود : ١.

(*) كتبه الشهيد الصدر .

وكان لهذا التدرج في انزاله أثر كبير في تحقيق أهدافه وإنجاح الدعوة وبناء الأمة.

كما أنه كان آية من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، ويتضح كل ذلك في النقاط التالية :

١- مرت على النبي والدعوة حالات مختلفة جداً خلال ثلاث وعشرين سنة، تبعاً لما مرت به الدعوة من محن وقاسته من شدائد وما أحرزته من انتصار وسجلته من تقدم، وهي حالات يتفاعل معها الإنسان الاعتيادي وتنعكس على روحه وأقواله وأفعاله ويتأثر بأسبابها وظروفها والعوامل المؤثرة فيها، ولكن القرآن الذي واكب تلك السنين بمختلف حالاتها في الضعف والقوة، في العسر واليسر، في لحظات الهزيمة ولحظات الانتصار، والتنازل تدريجاً خلال تلك الاعوام كان يسير دائماً على خطه الرفيع لم ينعكس عليه أي لون من ألوان الانفعال البشري الذي تثيره تلك الحالات.

وهذا من مظاهر الإعجاز في القرآن التي تبرهن على تنزيله من لدن علي حكيم؛ حيث لا يمكن أن توجد الانفعالات أو التأثيرات الأرضية على الذات الإلهية، ولم يكن القرآن ليحصل على هذا البرهان لولا انزاله تدريجاً في ظروف مختلفة وأحوال متعددة^(١).

٢- إن القرآن بتنزيله تدريجاً كان امداداً معنوياً مستمراً للنبي ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾^(٢).

فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية

(١) سوف نتعرف على مزيد من التوضيح لهذا المعنى في بحث إعجاز القرآن .

(٢) الفرقان : ٣٢ .

بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك نزول الملك إليه وتجدد العهد به وتقوية أمله في النصر، واستهاتته بما يستجد ويتعاقب من محن ومشاكل.

ولهذا نجد أنّ القرآن ينزل مسلياً للنبي مرة بعد مرة مهوناً عليه الشدائد كلها وقع في محنة، يأمره تارة بالصبر أمراً صريحاً، فيقول: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأ جميلاً﴾^(١) وينهاه تارة أخرى عن الحزن كما في قوله: ﴿ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعاً﴾^(٢) ويذكره بسيرة الانبياء الذين تقدموه من اولي العزم، فيقول: ﴿... فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل...﴾^(٣) ويخفف عنه احياناً، ويعلمه ان الكافرين لا يجرحون شخصه ولا يتهمون به بالكذب لذاته، وانما يعاندون الحق بغياً كما هو شأن الجاحدين في كل عصر كما في قوله: ﴿قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾^(٤).

٣ - إنّ القرآن الكريم ليس كتاباً كسائر الكتب التي تؤلف للتعليم والبحث العلمي، وانما هو عملية تغيير الانسان تغييراً شاملاً كاملاً في عقله وروحه وإرادته، وهدفه الاساس هو صنع أمة وبناء حضارة، وهذا العمل لا يمكن ان يوجد مرة واحدة وانما هو عمل تدريجي بطبيعته، ولهذا كان من الضروري ان ينزل القرآن الكريم تدريجاً، ليحكم عملية البناء وينشئ أساساً بعد اساس، ويحتذ جذور الجاهلية ورواسبها بأناة وحكمة.

وعلى أساس هذه الأناة والحكمة في عملية التغيير والبناء نجد أنّ الاسلام تدرج في علاج القضايا العميقة بجذورها في نفس الفرد أو نفس المجتمع، وقاوم

(١) المزمل : ١٠ .

(٢) يونس : ٦٥ .

(٣) الاحقاف : ٣٥ .

(٤) الانعام : ٣٣ .

بعضها على 'مراحل حتى' استطاع ان يستأصلها ويحتث جذورها، وقصة تحريم الخمر وتدرج القرآن في الاعلان عنها من أمثلة ذلك، وكذلك الموقف من مختلف قضايا الأخلاق والقتال والشرعية؛ فلو ان القرآن نزل جملة واحدة بكل احكامه ومعطياته الجديدة لنفر الناس منه، ولما استطاع أن يحقق الانقلاب العظيم الذي أنجزه في التاريخ.

٤ - إن الرسالة الاسلامية كانت تواجه الشبهات والالتهامات والمواقف السياسية والاطروحات الثقافية والاثارات والاسئلة المختلفة من قبل المشركين، وكان النبي ﷺ بحاجة الى أن يواجه كل ذلك بالموقف والتفسير المناسبين، وهذا لا يمكن أن يتم إلا بشكل تدريجي، لأن طبيعة هذه المواقف والنشاطات المعادية هي طبيعة تدريجية وتحتاج الى معالجة ميدانية مستمرة؛ وهذا لعله المراد من سياق قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِ إِلَّا جُنَّاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(١).

نزل القرآن الكريم باللغة العربية :

لقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية دون غيرها من اللغات، وهذه الظاهرة قد يكون سببها الميزات التي تختص بها اللغة العربية من بين اللغات الأخرى، مما يجعلها أشرف اللغات وأقدرها على استيعاب أوسع المعاني أو التعبير عنها، كما قد يوحي ذلك بعض النصوص، أو تنتهي إليه دراسات علم اللغات وخصائصها. ولكن الشيء الذي يمكن ان يستفاد من القرآن الكريم - وكذلك التأمل في هذه الظاهرة - هو تفسيرها على اساس ارتباط هذه الظاهرة - أيضاً - بالهدف التغييري الذي أشرنا إليه، ولا ينافي هذا الارتباط شرف اللغة العربية وخصائصها البلاغية.

فبالرغم من أنّ القرآن نزل هداية للعالمين، ومن أجل أن يرسم الطريق لكل البشرية، ولا يختص بقوم دون قوم، ولكن باعتبار أنّ الجماعة الأولى التي كان يراد مخاطبتها بالقرآن هم عرب، واستهدف القرآن الكريم أن يخلق ضمن هذه الجماعة القاعدة التي ينطلق منها الاسلام - كما أشرنا الى ذلك سابقاً - اقتضى ذلك نزول القرآن باللغة العربية، ولولا ذلك لأمكن ان نفترض - والله العالم - نزول القرآن بلغة أخرى، وبذلك ترتبط هذه الظاهرة بقضية الهدف التغييري، وإلاّ لأمكن أن نفترض أنّ الهداية والمضمون يمكن أن يعطيا بأي لغة أخرى.

ولما كانت ضرورات التغير - الذي يريد القرآن أن يحققه في البشرية - اقتضت أن يكون منطلق هذا التغير هو الجزيرة العربية^(١)، لذا أصبح من الضروري أن يكون القرآن باللغة العربية للأسباب التالية التي أشار القرآن الى بعضها في تفسير هذه الظاهرة :

أ - اللغة العربية عامل مؤثر في استجابة العرب الأوائل للقرآن :

إنّ القرآن لو نزل بغير اللغة العربية لكان من الممكن ان لا يستجيب العرب لهدايته ونوره بسبب حاجز (الأنّ) والتعصب الذي كان يعيشه العرب في الجاهلية، كما تشير الى ذلك بعض الآيات القرآنية :

﴿ لو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾^(٢).

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من

(١) هذه القضية لا بدّ أن نأخذها في هذا البحث كبديهية مسلمة، وإثباتها يحتاج الى بحث آخر تناولناه في بعض محاضراتنا عن البعثة النبوية واختصاص الجزيرة العربية ومكة والمدينة بالذات بها.

(٢) الشعراء : ١٩٨ ، ١٩٩ .

مكان بعيد ﴿^(١)﴾.

ب - التفاعل الروحي أفضل مع لغة القوم :

إنَّ التفاعل الروحي والنفسي الكامل مع الهداية والنور والمفاهيم القرآنية انما يتحقق إذا كان الكتاب بلغة القوم الذين يراد ايجاد التغيير الفعلي فيهم، لأن إثارة العواطف والأحاسيس انما تكون من خلال التخاطب باللغة نفسها، وأما المضمون فهو يتفاعل مع العقل والتفكير المنطقي، وتبقى العواطف والأحاسيس محدودة على الأقل في مجال التفاعل وبعيدة عن التأثير.

ولعل هذا السبب يمثل خلفية السنة الالهية في اختيار الأنبياء لكل قوم من أولئك الأفراد الذين يتكلمون بلغة القوم نفسها، حتى تكون الحجة بهؤلاء الرسل أبلغ على أقوامهم، وحتى تكون قدرتهم على التأثير أكثر :

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾ ^(٢).

﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ ^(٣).

ج - التحلي انما يكون بلغة القوم :

إنَّ القرآن الكريم كان معجزة ببيانه واسلوبه - إضافة الى المضمون - وهذا الجانب من الاعجاز لا يمكن ان يتحقق إلا إذا كان بلغة القوم، لأن (التحدي) -الذي هو محتوى الاعجاز - انما يكون مقبولا إذا كان باللغة التي يتكلم بها الناس، وإلا فلا معنى لأن تتحدى من يتكلم بلغة أن يأتي بكتاب من لغة أخرى :

(١) فصلت : ٤٤.

(٢) ابراهيم : ٤.

(٣) الشورى : ٧.

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (١).

﴿ أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٢).

﴿ أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٣).

وقد كان التحدي في هذا الجانب من الإعجاز باعتبار ما كان يوليه ذلك العصر من أهمية خاصة للبلاغة والبيان، الأمر الذي كان له أثر كبير في الخضوع النفسي لهؤلاء العرب لبلاغة القرآن وبيانه.

وقد لا يكون للمضمون في منظور بعض أولئك الجاهلين الأميين مثل هذه الأهمية الخاصة للبيان، ولعله لهذا كان القرآن يُتهم بأنه شعر وسحر.

د - اللغة طريق التصور الكامل للرسالة :

إنّ التصور الكامل لأبعاد المضمون واستيعابه بمحدوده لا يمكن أن يتم - خصوصاً في المرحلة الأولى من الرسالة - بلغة أخرى للتخاطب خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ الكثير من المضامين القرآنية ترتبط بقضايا وآفاق بعيدة عن تصورات وآفاق الانسان الجاهلي المعاصر لنزول القرآن، إما لارتباطها بعالم الغيب أو لطرحها مفاهيم عقائدية أو اجتماعية وإنسانية تمثل طفرة في النظرة المحدودة لذلك الانسان وللعلاقات الاجتماعية والإنسانية.

ونحن نلاحظ أنّ القرآن الكريم يضطر - أحياناً - من أجل أن يشرح المفهوم أو

(١) البقرة : ٢٣ .

(٢) يونس : ٣٨ .

(٣) هود : ١٣ .

يقربه لأذهان أولئك الجاهليين الى أن يستخدم صوراً متعددة أو يكرر صورة واحدة بأساليب مختلفة.

وحينئذ يصبح استخدام لغة التخاطب نفسها ضرورة من أجل خلق القاعدة المستوعبة ولو نسبياً للرسالة ومفاهيمها، لتكون منطلقاً لنشرها في الأمم والأقوام الأخرى.

ولعل تأكيد القرآن وصفه باللسان العربي إنما هو باعتبار الإشارة الى أهمية لغة التخاطب في توضيح الحقائق والالتزام بالحجة والتأثير النفسي :

﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ * ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا ويشرئ للمحسنين ﴿ (١).

ومن الظاهر أن المراد من الذين ظلموا في هذه الآية هم المشركون من أهل الحجاز، لأن القرآن الكريم يعبر عن الشرك بالظلم كما ورد في قوله تعالى :
﴿ ... يا بني لا تُشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (٢).

وكذلك ما يفهم من الإشارة الى كتاب موسى والانتهاام بالافك .
ويزداد ذلك وضوحاً إذا لاحظنا أن وصف القرآن بالعربي جاء في القسم المكي من السور فقط ؛ الأمر الذي يؤكد التفسير القائل بأن قضية التغير كانت منظورة في ذلك، لأن مرحلة المكي هي مرحلة تأسيس القاعدة وانطلاق التغير.

وقد اقترن هذا الوصف بوصف آخر وهو وصف (مين) :
﴿ وانه لتنزّل رب العالمين ﴾ * نزل به الروح الأمين ﴾ * على قلبك لتكون من

(١) الاحقاف : ١١، ١٢.

(٢) لقمان : ١٣.

المنذرين * بلسان عربي مبين ﴿١﴾.

كما انه جاء في آيات كثيرة وصف القرآن بأنه الكتاب المبين، والقرآن المبين^(٢). وهذا ما يؤكد قضية الوضوح في القرآن التي جاءت لتتناسب في كونها بلغة التخاطب نفسها مع القاعدة التي يريد أن يحدثها في التغيير فعلا. ونجد النقاط الأربع السابقة كلها تصب في مهمة الهدف التغييري للقرآن الكريم الذي يهتم بخلق القاعدة للانطلاق كقضية مركزية وأساسية بالنسبة الى المهمات الأخرى التي اهتم بها القرآن الكريم، وأشار إليها في مجمل الأهداف.

(١) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥.

(٢) تُراجع سورة المائدة : ١٥، والأنعام : ٥٩، ويونس : ٦١، وهود : ٦، ويوسف : ١، الشعراء : ٢، والنمل : ١، والقصص : ٢، وسبأ : ٣، ويس : ٦٩، والزخرف : ٢.

أسباب النزول*

معنى سبب النزول :

نزل القرآن الكريم لهداية الناس وتنوير أفكارهم وتربية أرواحهم وعقولهم، وكان في نفس الوقت يحدد الحلول الصحيحة للمشاكل التي تتعاقب على الدعوة في مختلف مراحلها، ويجيب عن ما هو جدير بالجواب من الاسئلة التي يتلقاها النبي من المؤمنين أو غيرهم، ويعلق على جملة من الاحداث والوقائع التي كانت تقع في حياة الناس، تعليقاً يوضح فيه موقف الرسالة من تلك الأحداث والوقائع كما ذكرنا آنفاً.

وعلى هذا الأساس كانت آيات القرآن الكريم تنقسم الى قسمين :

أحدهما: الآيات التي نزلت لأجل الهداية والتربية والتنوير دون وقوع سبب معين - في عصر الوحي - أثار نزولها؛ كالآيات التي تصور قيام الساعة ومشاهد القيامة وأحوال النعيم والعذاب وغيرها، فإن الله تعالى أنزل هذه الآيات لهداية الناس من غير أن تكون إجابة عن سؤال، أو حلاً لمشكلة طارئة، أو تعليقاً على حادثة معاصرة.

والآخر: الآيات التي نزلت بسبب مثير وقع في عصر الوحي واقتضى نزول القرآن فيه؛ كمشكلة تعرض لها النبي والدعوة وتطلبت حلاً أو سؤالاً استدعى الجواب عنه، أو واقعة كان لا بد من التعليق عليها، وتسمى هذه الاسباب التي

استدعت نزول القرآن بأسباب النزول، فأسباب النزول هي : أمور وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول الوحي بشأنها.

وذلك من قبيل ما وقع من بناء المنافقين لمسجد ضرار بقصد الفتنة؛ فقد كانت هذه المحاولة من المنافقين مشكلة تعرضت لها الدعوة واثارت نزول الوحي بشأنها، اذ جاء قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين...﴾^(١).

وكذلك سؤال بعض أهل الكتاب مثلاً عن الروح من النبي فقد اقتضت الحكمة الالهية ان يجاب عنه في القرآن فنزل قوله تعالى: ﴿... قل الروح من أمر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلاً﴾^(٢) وبهذا أصبح ذلك السؤال من أسباب النزول.

وكذلك أيضاً ما وقع من بعض علماء اليهود، إذ سألهم مشركو مكة من أهدى سبيلاً محمد وأصحابه أم نحن؟ فتملقوا عواطفهم وقالوا لهم: أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه، مع علمهم بما في كتابهم من نعت النبي المنطبق عليه، وأخذ المواثيق عليهم أن لا يكتموه، واشتراكهم مع المسلمين بالعقيدة الالهية والايان بالوحي والكتب السماوية واليوم الآخر، فكانت هذه واقعة مثيرة أدت على ما جاء في بعض الروايات الى نزول قوله تعالى:

﴿ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾^(٣).

وكذلك المعارك التي خاضها المسلمون وأعدوا في بدر وأحد والأحزاب والحديبية وحنين وتبوك وغيرها.

(١) التوبة : ١٠٧.

(٢) الاسراء : ٨٥.

(٣) النساء : ٥١.

فهذه قضايا وقعت في عصر الوحي، وكانت داعية الى نزول الوحي بشأنها، فكانت لأجل ذلك من أسباب النزول.

ويلاحظ في ضوء ما قدمناه من تعريف لأسباب النزول أن أحداث الأمم الماضية التي يستعرضها القرآن الكريم ليست من أسباب النزول، لأنها قضايا تاريخية سابقة على عصر الوحي وليست أموراً وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول القرآن بشأنها، فلا يمكن ان نعتبر حياة يوسف وتأمر اخوته عليه ونجاته وتمكنه منهم سبباً لنزول سورة يوسف، وهكذا سائر المقاطع القرآنية التي تتحدث عن الانبياء الماضين وأممهم فانها في الغالب تندرج في القسم الاول من القرآن الذي نزل بصورة ابتدائية ولم يرتبط بأسباب نزول معينة.

الفائدة من معرفة السبب :

ولمعرفة أسباب النزول أثر كبير في فهم الآية وتعرف اسرار التعبير فيها، لأن النص القرآني المرتبط بسبب معين للنزول تجيء صياغته وطريقة التعبير فيه وفقاً لما يقتضيه ذلك السبب، فما لم يعرف ويحدد قد تبقى أسرار الصياغة والتعبير غامضة عنه، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما...﴾^(١) فان الآية ركزت على نفي الاثم والحرمة عن السعي بين الصفا والمروة دون أن تصرح بوجود ذلك، فلماذا اكتفت بنفي الحرمة دون أن تعلن وجوب السعي؟

إنّ الجواب عن هذا السؤال يمكن معرفته عن طريق ما ورد في سبب نزول الآية من أنّ بعض الصحابة تأثموا من السعي بين الصفا والمروة، لانه من عمل الجاهلية فنزلت الآية الكريمة، فهي اذن بصدد نفي هذه الفكرة من اذهان الصحابة

والاعلان عن أنّ الصفا والمروة من شعائر الله، وليس السعي بينهما من مختلقات الجاهلية ومفترياتها.

وقد أدى الجهل بمعرفة سبب النزول في هذه الآية عند بعضهم الى فهم خاطئ في تفسيرها:.. اذ اعتبر اتجاه الآية - نحو نفي الاثم بدلاً من التصريح بالوجوب - دليلاً على أنّ السعي ليس واجباً وانما هو امر سائغ، اذ لو كان واجباً لكان الاجدر بالآية ان تعلن وجوبه بدلاً من مجرد نفي الاثم، ولو كان هذا يعلم سبب النزول والمهدف المباشر الذي نزلت الآية لتحقيقه، وهو ازالة فكرة التأثم من اذهان الصحابة لعرف السر في طريقة التعبير، والسبب في اتجاه الآية نحو نفي الاثم والتركيز على ذلك.

تعدد الاسباب والمنزل واحد والعكس :

قد يتفق وقوع عدة اشياء في عصر الوحي كلها تتفق في اشارة واحدة وتستدعي نزول القرآن بشأنها، كما اذا تكرر السؤال - من النبي مثلاً - عن مشكلة واحدة، فان كل سؤال يقتضي نزول الوحي بجوابه، ويقال في هذه الحالة إنّ الاسباب متعددة والمنزل واحد.

ومن هذا القليل ما يروى في أنّ النبي سئل مرتين عنمن وجد مع زوجته رجلاً كيف يصنع؛ سأله عاصم بن عدي مرة، وسأله عويمر مرة أخرى، واتفق في مرة ثالثة أنّ هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي بشريك بن سماء، فكانت هذه اسباباً متعددة تستدعي نزول الوحي لتوضيح موقف الزوج من زوجته اذا اطلع على خيانتها، وما اذا كان من الجائز له أن يقذفها ويتهمها بدون بينة أو لا يجوز له ذلك الا ببينة، فان اتهم بدون بينة استحق حد القذف، كما هو شأن غير الزوج اذا قذف امرأة أخرى، ولاجل ذلك نزل قوله تعالى: ﴿والذين يرمون ازواجهم ولم

يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ﴿١﴾ فكان السبب متعدداً والمنزل واحد.

وفي حالة تعدد السبب قد يوجد فاصل زمني كبير بين أحد السببين والآخر، فيؤدي السبب الاول الى نزول الآية فعلاً، ثم يتجدد نزولها حينما يوجد السبب الثاني بعد ذلك بمدة، فيكون السبب متعدداً والنزول متعدداً وان كانت الآية النازلة في المرتين واحدة.

ويقال: إن سورة الاخلاص من هذا القبيل اذ نزلت مرتين؛ احداها: بمكة جواباً للمشركين من اهلها، والاخرى بالمدينة جواباً لاهل الكتاب الذين جاورهم النبي ﷺ بعد الهجرة.

وكما يتعدد السبب والمنزل واحد كذلك قد يتفق كون السبب واحداً لآيات متفرقة فقد روي أن ام سلمة قالت للنبي ﷺ يا رسول الله لا اسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فنزل قوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾ (٢) ونزل قوله تعالى: ﴿ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات ...﴾ (٣).

فهاتان آيتان متفرقتان نزلتا بسبب واحد أدرجت احداها في سورة آل عمران، والاخرى في سورة الاحزاب، وبذلك كان السبب في النزول واحداً وهو حديث ام سلمة مع النبي والمنزل متعدد.

(١) النور: ٦.

(٢) آل عمران: ١٩٥.

(٣) الاحزاب: ٣٥.

وعلى هذا الاساس يجب أن لا نسرع الى الحكم بالتعارض بين روايتين تحدثان عن اسباب النزول اذا ذكرت كل منهما سبباً لنزول آية يغير السبب الذي ذكرته الرواية الأخرى لنزول نفس تلك الآية، أو اذا تحدثت الروايتان عن سبب واحد فذكرت كل منهما نزول آية بذلك السبب غير الآية التي ربطتها الرواية الأخرى به لأنّ من الممكن في بعض الموارد فهم الاختلاف بين الروايتين والتوفيق بينهما على اساس امكان تعدد سبب النزول لآية واحدة أو تعدد الآيات النازلة بسبب واحد فلا يوجد بين الروايتين تعارض على هذا الاساس.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب :

اذا نزلت الآية بسبب خاص، وكان اللفظ فيها عاماً فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يتقيد بالمدلول القرآني في نطاق السبب الخاص للنزول أو الواقعة التي نزلت الآية بشأنها، بل يؤخذ به على عمومه، لان سبب النزول يقوم بدور الاشارة لا التخصيص، وقد جرت عادة القرآن أن ينزل بعض احكامه وتعليماته وارشاداته على اثر وقائع واحداث تقع في حياة الناس وتتطلب حكماً وتعليماً من الله، لكي يجيء البيان القرآني أبلغ تأثيراً وأشد أهمية في نظر المسلمين وان كان مضمونه عاماً شاملاً؛ فآية اللعان مثلاً تشرع حكماً شرعياً عاماً لكل زوج يتهم زوجته بالخيانة وان نزلت في شأن هلال بن امية، وآية الظهار تبين حكم الظهار بصورة عامة وان كان نزولها بسبب سلمة بن صخر.

وعلى هذا الاساس اتفق علماء الاصول على أنّ المتبع هو مدى عموم النص القرآني وشمول اللفظ فيه، وأنّ سبب النزول مجرد سبب مثير لنزول الحكم العام وليس تحديداً له في نطاقه الخاص؛ لان مجرد نزول حكم اللعان عقيب قصة هلال ابن امية مثلاً لا يدل اطلاقاً على أنّ الحكم يختص به، ولا يبطل عموم اللفظ

وشمول النص لسائر الأزواج.

وقد جاءت نصوص عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تعزز هذا المعنى وتؤيده؛ ففي تفسير العياشي عن الامام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: «... إن القرآن حي لا يموت، والآية حية لا تموت، فلو كانت الآية اذا نزلت في الاقوام ماتوا فمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضيين»^(١).

وعن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «إن القرآن حي لم يمت وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أولنا»^(٢) «... فلا تكونن ممن يقول للشيء: إنه في شيء واحد»^(٣).

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكافي ٢: ١٥٦، الحديث ٢٨.

الهدف من نزول القرآن*

المقدمة : أهمية الموضوع :

يحسن بنا قبل الدخول في بحث أصل الموضوع (الهدف من نزول القرآن) أن نتناول أهمية البحث فيه .

ويمكن أن نشير بهذا الصدد وبشكل مختصر الى النقاط التالية :

الأولى: ان فهم القرآن الكريم يتأثر بمجموعة من القضايا : كأن تكون الرؤية في تفسيره إسلامية ، ومن منطلق أنه وحي إلهي وليس نتاجاً بشرياً ، وأن نعرف الظروف التي نزل فيها القرآن الكريم ، وأسباب النزول التي تمثل القدر المتيقن من المصادق في المفهوم القرآني .

ومن أهم هذه القضايا التي تؤثر في فهم القرآن الكريم معرفة الهدف من نزوله ، لأن الهدف بطبيعة الحال يلقي بظلاله على 'المعنى' القرآني ، بحيث يكون احدي القرائن العامة المنفصلة التي تكتنف النص .

فعندما يتحدث القرآن الكريم عن الكتاب أنه تبيان لكل شيء ﴿... ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾^(١) ، يمكن ان نفهم (كل شيء) هنا على ضوء (الهدف من نزول القرآن) ، فالمراد من التبيان هو التبيان الشامل لما يرتبط بهذا الهدف ، وهكذا في الموارد الأخرى .

(*) لخصنا هذا الموضوع من كتابنا الهدف من نزول القرآن .

الثانية : ان معرفة الهدف القرآني سوف تساهم في تفسير مجموعة من الظواهر القرآنية ؛ حيث قد يختلف تفسير الظاهرة باختلاف تفسير الهدف من القرآن ، كما في تكرار القصة الذي يتجه بعضهم الى تفسيره على اساس بلاغي ، بينما قد يكون الأساس التربوي هو التفسير الصحيح .

الثالثة : ان القرآن الكريم يحظى بقدسية واهتمام بين المسلمين ، باعتباره الوحي الالهي الذي لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه ، وباعتباره الصيغة والنص الالهي لهذا الوحي والمضمون .

ولذا لا بد للمسلمين أن يبقوا متفاعلين مع القرآن دائماً ، كما كانوا كذلك في مختلف عصور التاريخ الاسلامي وإن كان بمستويات متفاوتة .

ولتشخيص الهدف من نزول (القرآن) أثر كبير على طبيعة هذا الاهتمام والتفاعل ومستواه ومضمونه ، إذ إن الاهتمام والتفاعل يكونان تارة على مستوى حفظ النص القرآني وسلامة تركيبه ، وأخرى على مستوى الاهتمام بالمضمون القرآني وفهمه ، وثالثة على مستوى التعرف على هداية القرآن الكريم والحقائق العلمية والتأريخية والاجتماعية و... التي احتواها القرآن الكريم ، ورابعة على مستوى طرحه كشعار للإنسان المسلم ، يتزين به ويردده في الصباح والمساء من خلال الاذاعات أو المناسبات أو المجالس الدينية .

يبقى الاهم من ذلك أن يكون التفاعل والاهتمام بالقرآن على مستوى تحقيق الهدف الحقيقي منه ، الذي يجسد التفاعل والاهتمام الروحي الحقيقيين ، ويشمل في الوقت نفسه مختلف المستويات الأخرى ، التي هي بمنزلة المقدمة أو الطريق للوصول الى هذا الهدف .

القرآن وتشخيص الهدف من نزوله :

قد يكون من الافضل الرجوع الى القرآن الكريم نفسه لتشخيص الهدف من نزوله، ومن خلال استعراض الآيات القرآنية التي فسرت نزول القرآن.

وفي مراجعة للقرآن الكريم نجد مجموعة كبيرة من الآيات والظواهر يمكن أن تلقي الضوء على الهدف من نزول القرآن، ولكن هذه الآيات قد تبدو وكأنها تتحدث عن أهداف متعددة أو مختلفة، وسوف نشير الى نماذج من هذه الآيات والاحتمالات المتعددة لها، ثم نستخلص من خلال المقارنة الهدف الرئيسي المركزي من نزول القرآن :

١- ورد في القرآن الكريم بصدد تشخيص الهدف أنه جاء (للإنذار والتذكرة) مثل قوله تعالى:

﴿... وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ...﴾^(١).

٢- وفي آيات أخرى جاء القرآن لضرب الأمثال والعبر والدروس مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ...﴾^(٢).

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ...﴾^(٣).

٣- وفي مكان آخر يبدو وكأن الهدف من القرآن هو إقامة الحجة والبرهان والمعجزة، كما في قوله تعالى:

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أن تقولوا إنما أنزل

(١) الانعام : ١٩ .

(٢) الاسراء : ٨٩ .

(٣) الزمر : ٢٧ .

الكتاب على طائفتين من قبلنا ... ﴿^(١)﴾.

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ ^(٢).

٤ - وفي مواضع أخرى يبدو القرآن وكأنه كتاب دستور وشريعة وتفصيل للأحكام :

﴿... ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ ^(٣).

٥ - وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم أنه جاء من أجل الحكم وفصل الخلاف والتفريق بين الحق والباطل :

﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ ^(٤).

٦ - كما نجد في مواضع أخرى أن الهدف من القرآن هو تصديق الرسالات السابقة وإمضاؤها وتصحيحها والهيمنة عليها، وبذلك يكون له دور تصحيحي وتكميلي :

﴿وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ ^(٥).

وبالرغم من أن هذه الأهداف التي أشرنا إليها قد تكون متداخلة يؤثر بعضها

(١) الانعام : ١٥٥، ١٥٦.

(٢) النساء : ١٧٤.

(٣) النحل : ٨٩.

(٤) النحل : ٦٤.

(٥) المائدة : ٤٨.

بالآخر ويرتبط به في وجه من الوجوه، إلا أنها تبدو متعددة عندما تطرح في الآيات الكريمة، ونريد أن نفسر الظاهرة القرآنية ونسعى الى تشخيص الهدف الأساس لها؛ بحيث يفهم أن القرآن الكريم جاء لتحقيق غايات وأهداف عديدة، تتوزع على آيات القرآن وسوره ومضامينه.

ومن أجل أن نكون أكثر وضوحاً في تحديد محور البحث لا بد لنا أن نطرح السؤال التالي :

ماهو الهدف الأساس الذي سعت الظاهرة القرآنية الكريمة الى تحقيقه من خلال وجودها، بحيث يفسر لنا هذا الهدف كل آية في القرآن الكريم مهما كان مضمونها ومحتواها وصيغتها ؟

ومن خلال استعراض الأهداف السابقة والمقارنة بينها، يمكن أن نخرج بنتيجة واضحة للجواب عن السؤال السابق، حيث نلاحظ أن القرآن الكريم استهدف من نزوله تحقيق هدف واحد رئيس، له أبعاد ثلاثة، وساهمت بقية الأهداف الأخرى بشكل أو بآخر في تحقيق هذا الهدف الرئيس.

بل أشار القرآن الكريم أحياناً الى هذه المساهمة والترابط بين هذا الهدف الرئيس وبقية الأهداف كما سنلاحظ ذلك فيما بعد.

وهذا الهدف الرئيس هو ايجاد التغيير الاجتماعي (المجذري) للانسانية، من خلال رسم (الطريق والمنهج) لهذا التغيير، و(خلق القاعدة الثورية) التي تميزت بهذا المنهج والتزمت وتغيرت على اساسه.

ابعاد الهدف الرئيس من نزول القرآن :

أ- التغيير المجذري :

(فالبعد الأول) هو (التغيير المجذري) وهو ما يعبر عنه بلغة العصر : بالثورة

وعبر عنه القرآن بعملية الاخراج من الظلمات الى النور :

﴿ ... يخرجهم من الظلمات الى النور... ﴾ ^(١) على 'اساس قاعدة : ﴿ ... ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... ﴾ ^(٢).

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... ﴾ ^(٣).
وقد أشار القرآن الكريم الى هذا البعد في آيات عديدة تضمنت الهدف الأصلي من القرآن، كما تضمنت أيضاً الهدف الأصلي من مهمة النبي ﷺ :

﴿ ... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ﴾ ^(٤).

﴿ أَلَمْ يَكُنْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ^(٥).

﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وان الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ ^(٦).

ففي هذه الآيات يشير القرآن الكريم الى أنّ عملية التغير الجذري التي يعبر عنها بعملية الخروج من أحد القطبين المتناقضين الى القطب الآخر (النور والظلمات)، ليست فقط من الأهداف التي يحققها ويتصف بها، كما في الآية الاولى، بل هي الهدف من أصل نزول القرآن، كما في الآية الثانية والثالثة.

(١) البقرة : ٢٥٧.

(٢) الرعد : ١١.

(٣) الانفال : ٥٣.

(٤) المائدة : ١٥، ١٦.

(٥) ابراهيم : ١.

(٦) الحديد : ٩.

ويؤكد هذا ما جاء في القرآن الكريم من وصف الله سبحانه بأنه: ﴿ نور السماوات والارض ﴾ الذي يعني أنّ هذا النور هو (الله) سبحانه، فيكون الهدف من القرآن تغيير هذا الانسان تغييراً يجعله مرتبطاً بالله تعالى:

﴿ الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ (١).

ومما يلقي الضوء على أن عملية التغيير الجذري (الايخارج من الظلمات الى النور) هي الهدف الرئيس، ما أُشير إليه في القرآن الكريم من ربط هذه العملية بشكل متضاد ومتعاكس بتوجهات علاقات الانسان المؤمن والكافر بالقطين (الله) و(الطاغوت) في مختلف مجالات حياته وممارساته ونتائج مسيرته:

﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ (٢).

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنبأوا الى الله لهم البشرى فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ (٣).

كما جاء في القرآن الكريم أنّ الهدف الرئيس الذي وضع على عاتق الرسل هو تحقيق هذا الهدف: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسلاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان

(١) النور: ٣٥.

(٢) النساء: ٧٦.

(٣) الزمر: ١٧، ١٨.

عاقبة المكذبين ﴿١﴾.

وانما كان الأمر كذلك لأن ولاء الله يعني الخروج من الظلمات الى النور، وولاء الطاغوت هو الخروج من النور الى الظلمات، و(الصيرورة) الى الجنة والنار، انما تكون على أساس هذا الولاء :

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (٢).

ولعل التعبير بالمفرد عن النور، وبالجمع عن الظلمات للاشارة الى أن طريق الله واحد، والطريق الى الطاغوت يأخذ اشكالاً متعددة، لأن الله واحد والطاغوت متعدد.

شمولية عملية التغيير الاجتماعي :

وقد أشار القرآن الكريم الى الأبعاد الشمولية لعملية التغيير هذه، بحيث يكون لنا صورة عن اعماق الجذور التي تتناولها هذه العملية التغييرية : ﴿يخرجهم من الظلمات الى النور﴾، وذلك عندما تحدث عن مهمة النبي محمد ﷺ تجاه أهل الكتاب :

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (٣).

(١) النحل : ٣٦.

(٢) البقرة : ٢٥٧.

(٣) الاعراف : ١٥٧.

وكذلك عندما تحدث عن مهمة النبي تجاه (الأميين) من الناس :

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾^(١).

أولو العزم ومهمة التغيير الاجتماعي :

ولعل هذا البعد هو الذي يميز مهمة الأنبياء أولي العزم من الرسل عن غيرهم من أنبياء الرسالات، حيث قد يكون المقصود من تلاوة الآيات : ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ هذا البعد من العملية التغييرية.

وقد تكون الآية التي وردت في سورة إبراهيم بشأن موسى عليه السلام تشير الى هذه الحقيقة :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾^(٢).

خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنها وردت في سياق قوله تعالى :

﴿ ألق كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ﴾^(٣).

حيث قد يكون المقصود هو المقارنة بين المهمة الأصلية للنبي محمد ﷺ من خلال القرآن ومهمة موسى عليه السلام التغييرية.

ب- المنهج الصحيح للتغيير :

وهذا التغيير الجذري بطبيعة الحال يحتاج الى (منهج صحيح) وطريق مستقيم يمثل (البعد الثاني) للهدف، ويتمثل هذا المنهج بالكتاب والحكمة : ﴿ ويعلمهم

(١) الجمعة : ٢.

(٢) ابراهيم : ٥.

(٣) ابراهيم : ١.

الكتاب والحكمة ﴿ : «الكتاب» الذي يمثل الشريعة والدين، و«الحكمة» التي تمثل معرفة الحقائق الكونية والروحية والقوانين والسنن العامة التي تتحكم في الوجود، وفي تأريخ الانسان وحركته وتطوره، وتؤثر على سعادته وشقائه.

ومن هنا جاء القرآن الكريم ليرسم هذا الطريق، فهو المنهج الشامل الذي يحدد العلاقات العامة في هذا الكون - ويمثل الانسان المحور الرئيس فيه - ويتعرض لكل مناحي حياة الانسان ويتناول تفاصيلها، كما أنه يحدد المواقف تجاه كل القضايا، ولا يختص بجماعة من الناس دون أخرى، بل يتكفل مسيرة الانسانية، حاضرها ومستقبلها.

﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾^(١).

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾^(٢).

﴿... ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾^(٣). وهذا المنهج الصحيح هو الذي يعبر عنه القرآن الكريم في مواضع عديدة بالصراط المستقيم، والذي يمثل الطريق الى الكمال الانساني، وتمام النعمة للبشرية، ومنتهى طموحاتها وآمالها :

﴿اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾^(٤).

(١) الاسراء : ٩.

(٢) الاسراء : ٨٢.

(٣) النحل : ٨٩.

(٤) الفاتحة : ٦، ٧.

﴿ قل إني هداي ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾^(١).

﴿ ان ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم ﴾^(٢).

ج - خلق القاعدة الثورية :

إنّ عملية التغيير الاجتماعي المجذري تحتاج أيضاً - بطبيعة الحال - الى خلق (القاعدة الثورية) التي تمثل (البعد الثالث) للهدف، ولعل هذا هو المراد بما أُشير إليه في عدة آيات من القرآن الكريم بالتزكية «ويزكهم».

ولذلك سعى القرآن الكريم الى خلق هذه القاعدة الثورية، وأعطى ذلك أهمية خاصة، واهتم بمعالجة القضايا الآتية والمستجدة التي يعيشها الرسول بشكل خاص، وتابع الأحداث التي كانت تواجه الرسالة، واتخذ المواقف تجاهها ليحقق هذا الهدف العظيم.

ومن الواضح أنّ خلق هذه القاعدة وتكوينها في الوقت الذي يمثل مهمة صعبة وبالعلة التعقيد، كذلك يمثل دوراً ذا أهمية في مستقبل الرسالة وقدرتها على البقاء والاستمرار، إضافة الى قدرتها على الشمول والانتشار.

فإضافة الى البعد الكيفي في عملية التغيير التي استهدفها القرآن، كان هناك بعد كمي في الهدف يتوخى بشكل خاص أن يقوم النبي ببناء القاعدة للرسالة بحيث يمكن لهذه الرسالة بعد ذلك - أي بعد وفاة الرسول وانقطاع الوحي - أن تستمر وتنتشر من خلال هذه القاعدة التي أولاهها القرآن الكريم أهمية خاصة، وأعطاهها قسطاً كبيراً وحظاً وافراً، كما نلاحظ ذلك في مجمل الآيات التي تناولت الأحداث

(١) الانعام : ١٦١.

(٢) النحل : ١٢٠، ١٢١.

في عصر الرسالة وتفصيلاتها، وكذلك بعض التقاليد والعادات والقوانين، إضافة إلى عنصر اللغة وأساليبها في القرآن.

فهناك توجه خاص في القرآن الكريم إلى سكان الجزيرة العربية: ﴿... أم القرى ومن حولها...﴾^(١) من أجل أن يخلق منهم القاعدة الثورية للانطلاق بالرسالة.

وهذا التوجه الخاص ليس على أساس وجود الامتياز لأبناء الجزيرة على غيرهم من البشر، وإنما هو على أساس تحقيق الهدف الكمي (المرحلي) للرسالة الإسلامية، باعتبارهم مجال عمل النبي والجماعة التي بدأت الرسالة فيها^(٢):

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون وبالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾^(٣).

﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير﴾^(٤).

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾^(٥).

وفي مجال آخر يؤكد القرآن استمرار مسيرة التغيير نحو الأصلاح وورثة عباد الله الصالحين للأرض:

(١) الانعام: ٩٢.

(٢) لتفسير نزول القرآن في هذه المنطقة دون غيرها بحث آخر تناولناه في محاضراتنا القرآنية حول البعثة، كما أشرنا إلى ذلك في نزول القرآن باللغة العربية.

(٣) الانعام: ٩٢.

(٤) الشورى: ٧.

(٥) الجمعة: ٢.

﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾^(١).

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾^(٢).

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون﴾^(٣).

ولكن هذه المسيرة التاريخية للانسان لا تتقيد أو ترتبط بجماعة معينة من الناس أو أحد من البشر :

﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم...﴾^(٤).

﴿... وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾^(٥).

ومن المحتمل جداً أن أحد خلفيات تأكيد مجموعة من القضايا والمفردات في القرآن الكريم هو قضية هذا التوجه الخاص لأبناء الجزيرة والاهتمام بهم، ويمكن أن نلاحظ ذلك في قضية تأكيد ابراهيم عليه السلام، وكذلك تأكيد (الوحي) ومعالجته بشكل خاص، وتأكيد رفض الأصنام، وكذلك قضية اللغة العربية والاسلوب في القرآن أهمية خاصة كما نشاهده في السور القصار، الى غير ذلك من المفردات والقضايا.

وفي ضوء هذا التفسير للهدف القرآني الرئيس، يمكن ان نفهم دور الأهداف الأخرى التي استعرضناها في تحقيق هذا الهدف، اضافة الى موقعها الأصلي من

(١) المجادلة : ٢١.

(٢) المؤمن : ٥١.

(٣) الانبياء : ١٠٥.

(٤) المائدة : ٥٤.

(٥) محمد : ٣٨.

الهدف الرئيس، فضلاً عن أن يكون كل واحد منها هو الهدف الرئيس.

١ - فالانذار والتذكير اللذان ورد في القرآن ذكرهما كهدف لنزوله، كما في بعض الآيات التي استعرضناها، كذلك ورد ذكرهما كمهمة يتولاها الأنبياء في عملهم، هذا الانذار يمثل جزءاً من مهمة الانبياء، وجانباً من الهدف القرآني والأسلوب الرئيس لتحقيق عملية التغيير الاجتماعي.

ويتضح ذلك عندما نلاحظ (الانذار) مذكوراً الى جانب قضايا أخرى يتكفلها القرآن والنبي :

﴿... قد جاء تكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾^(١).
فالموعظة الى جانب الشفاء والهدى والرحمة.

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث...﴾^(٢).

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الى جانب تحليل الطيبات وتحريم الخبائث ورفع الاصر والأغلال.

كما أن الانذار يقترن في كثير من الآيات بالبشارة :

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾^(٣).

(١) يونس : ٥٧.

(٢) الاعراف : ١٥٧.

(٣) البقرة : ٢١٣.

ولعل هذه الآية الكريمة تلقي الضوء بشكل واضح على دور الانذار في القرآن وعمل النبيين، وأن الانذار مهمة يقوم بها النبي الى جانب الكتاب الذي يحكم بالحق ويحل الاختلافات ويهدي الى المنهج والصراط المستقيم.

وإذا عرفنا أن المعادلة الأصلية للدين تتوقف على قضية (الانذار) بالعقاب و(البشارة) بالثواب في الدار الآخرة، عرفنا السبب في تأكيد القرآن الانذار هدفاً لنزوله ومهمة للانبياء، ذلك أن صورة الحياة ومقاييسها التي يعتمد عليها الدين في القسط والميزان ترتبط بشكل رئيس بقضية الحياة الآخرة والبشارة بالثواب والانذار بالعذاب فيها.

وإقامة الحجة على الناس تجاه القضايا التي يطرحها الدين والنبي تدخل كعنصر اساسي في هذه المعادلة، ولذا أكد القرآن هذا المفهوم.

كما أن تأكيد مهمة النبي هي (الانذار) أو (البلوغ) أو (اقامة الحجة)، وحده يمكن ان يكون لمعالجة نفسية للنبي الذي قد يتصور أن تحقيق التغيير - الخارجي - من مسؤوليته، بحيث عندما لا يتحقق هذا التغيير في الخارج يكون النبي أمام موقف حرج عند الله، بالرغم من بذله لكل ما في طاقته من الجهد لتحقيقه؛ ولذا جاء تأكيد القرآن: أن مهمة النبي والرسول تنتهي عند تحقيق الانذار والبلاغ الأفضل:

﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾^(١).

وحينئذ يحدد القرآن المسؤولية بـ(الانذار)؛ وهناك فرق بين المسؤولية وبين المهمة والهدف الذي يتولاه النبي، فالنبي عليه ان يبذل كل طاقته، وهو مسؤول عن الانذار وإقامة الحجة.

وأما التغيير فهو وإن كان هدفاً له ومن المهمات التي يسعى إليها، ولكنه ليس مسؤولاً عن النتائج الخارجية له وعن تحقيق الهداية، وإنما عليه أن ينجز (المقدمات الأساسية لها) وهما الانذار والبلاغ :

﴿ انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ... ﴾ (١).

كما أنّ تأكيد قضية الانذار أحياناً، لتوضيح أنّ النبي ليس له طمع في السلطان والجاه والأجر المادي، وإنما يريد القيام بواجبه وبمسؤوليته وهي الانذار :

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم ان كان كبرُ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا الي ولا تنظرون ﴾ فان توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ (٢).

٢- وضرب الامثال في القرآن إنما جاء من أجل الانذار والتذكير، كما أشارت الى ذلك بعض الآيات :

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴾ (٣).

٣ - وعندما يكون القرآن حجة وبرهاناً ومعجزة، فهو يساهم في عملية الانذار والهداية، ولذلك نجد أنّ البرهان يقترب بالهداية والنور والصراط المستقيم في القرآن نفسه :

﴿ يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً ﴾ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾ (٤).

(١) القصص : ٥٦.

(٢) يونس : ٧١، ٧٢.

(٣) الزمر : ٢٧.

(٤) النساء : ١٧٤، ١٧٥.

٤ - وتفصيل الاحكام يمثل المنهج الذي تعتمد عليه عملية التغيير بصورة اساسية - كما أشرنا الى ذلك - ولذا يقترن تبيان كل شيء بالهداية والرحمة في القرآن، الهداية التي تمثل المنهج والصرط المستقيم :

﴿... ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾^(١).

٥ - وهكذا هدف الفصل وحسم الخلاف والتفريق بين الحق والباطل، حيث إن هذا جزء من المنهج العام والهدى والنور^(٢).

٦ - (وتصديق) الرسالات وتكملها الذي أشر إليه في بعض الآيات هدفاً للقرآن، لا يعني أن التغيير ليس (جذرياً) في المجتمع، لأن الانحراف الاجتماعي قد يصل الى مستوى بحيث يكون المجتمع بعيداً عن منظور الرسالات السابقة وتأثيرها فضلاً عن الرسالة الجديدة، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم في مناسبات عديدة، خصوصاً عند مناقشته لأهل الكتاب وتعصبهم وانحرافهم وشرائهم بآيات الله ثمناً قليلاً؛ فالقرآن في الوقت الذي يكمل الرسالات السابقة ويصدقها ويهيمن عليها في عملية الاصلاح والكمال، يقوم أيضاً بعمل (جذري) تجاه المجتمع الذي ابتعد (عملياً) عن منظور تلك الرسالات ومفاهيمها، ويبين تلك الرسالات التي تعرضت للتحريف على مستوى (النظرية) والأفكار والمفاهيم، إضافة الى بعد المجتمع عنها على مستوى الواقع العملي، اي على مستوى (النظرية) (والتطبيق) معاً.

وتُصبح عملية التصديق للرسالات والهيمنة عليها جزءاً من الهدى والصرط المستقيم الذي يمثل عمل كل الأنبياء والرسل.

كما أشرنا الى ذلك في الهدف الأساس للقرآن الكريم :

(١) النحل : ٨٩.

(٢) كما ورد في سورة البقرة : ٢١٣.

﴿ قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ (١).

وبهذا نجد أن كل الأهداف الأخرى على أهميتها، إنما هي أهداف فرعية بالنسبة الى الهدف الاساس، وهي تساهم في تحقيقه الى حد بعيد، وهذا ما حصل بالفعل في تأريخ القرآن.

القرآن الكريم يحقق الهدف من نزوله * :

عندما نراجع مسيرة القرآن الكريم في عصر النبوة، نجد أنه استطاع أن يحقق هذا الهدف التغييري بكل أبعاده الثلاثة، حيث تمكن ان يوجد الأمة الاسلامية التي هي خير أمة أخرجت للناس والتي حملت اعباء الرسالة الى العالم أجمع.

ابعاد التغيير في مجتمع الجزيرة العربية :

ويمكن ان نلاحظ ابعاد التغيير الذي احده القرآن الكريم في مجتمع الجزيرة العربية لنعرف هذه الحقيقة القرآنية، وذلك من خلال مراجعة الأبعاد الثلاثة التالية :

أ- تحرير القرآن للانسان من الوثنية :

كان العرب - الذين نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ في حوزتهم - يعتقدون في الله أنه خالق، مدير للعالم : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ... ﴾ (٢) ولكنهم افترضوا - لضعف تفكيرهم، وبعد عهدهم من النبوة والانبياء - وجود وسطاء

(١) الانعام : ١٦١.

(*) كتبه الشهيد الصدر رحمه الله.

(٢) الزخرف : ٨٧.

وهيمن بينهم وبين الله تعالى، وزعموا لهؤلاء الوسطاء الذين تخيلوهم قدرة على النفع والضرر، فجسدوهم في أصنام من الحجارة، وأشركوا هذه الأصنام مع الله في العبادة، والدعاء حتى تطورت فكرة الوساطة في أذهانهم إلى الاعتقاد بالوهية الوسطاء، ومشاركة تلك الأصنام لله في تدبير الكون :

﴿إلا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ...﴾^(١).

وكادت تمحي بعد ذلك فكرة التمييز بين الوسطاء والله تعالى، وسادت الوثنية بأبشع أشكالها، وانغمس العرب في الشرك وعبادة الأصنام، وتألّوها، فكان لكل قبيلة أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي، فقد قال الكلبي : «كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً»^(٢)، وقد كان في جوف الكعبة وفي فنائها ثلاثمائة وستون صنماً.

وأدى الأمر بالعرب إلى تقديس الحجارة بصورة عامة، وإسباغ الطابع الإلهي عليها، ففي صحيح البخاري عن أبي رجاء الطاردي قال : «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحللنا عليه ثم طفنا به»^(٣)، وقال الكلبي : «كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربّاً

(١) الزمر : ٣.

(٢) الأصنام للكلبي : ٣٣.

(٣) صحيح البخاري ٥ : ٢١٦.

وجعل ثلاث أثافي لقدره واذا ارتحل تركه»^(١).

ولم يقتصر العرب على عبادة الاحجار، بل كان لهم آلهة شتى، من الملائكة والجن والكواكب، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، واتخذوا من الجن شركاء له وآمنوا بقدرتهم وعبدوهم :

﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿^(٢).

ويروى عن حمير عبادة الشمس، وعن كنانة عبادة القمر، وعن لخم وجذام عبادة المشتري، وعن اسد عبادة عطارد، وعن طي عبادة سهيل^(٣).

وكان في العرب يهود ونصارى الى جانب تلك الكثرة من المشركين، ولكن اليهودية والنصرانية لم يكن بإمكانها أن تصنع شيئاً بعد أن منيت هي نفسها بالتحريف والزيف، واصبحت مجرد شعارات وطقوس، وبعد أن امتزجت المسيحية العالمية بوثنية الرومان، وأضحت لوناً من ألوان الشرك؛ فلم تكن النصرانية أو اليهودية في بلاد العرب الا نسختين من اليهودية في الشام، والنصرانية في بلاد الروم والشام، تحملان كل ما منيت بها هاتان الديانتان من نكسات وزيف.

وهذه الصورة العامة عن الوثنية والشرك في بلاد العرب، تكفي لكي نتصور ما بلغه الانسان الجاهلي من ضعة، وميوعة، وتنازل عن الكرامة الانسانية، حتى أصبح يدين بعبادة الحجر، ويربط وجوده وكل آماله وآلامه بكومة من تراب.

(١) الاصنام : ٣٣.

(٢) سبأ : ٤٠، ٤١.

(٣) الاصنام : ٢٢ للكلبي.

وما من ريب في أنّ عبادة الاصنام، والاحساس بالعبودية والذلة بين يديها، والسجود أمامها، كل ذلك يترك في النفس من الآثار الروحية والفكرية ما يفقد الانسان كرامته، ويجمد فيه طاقاته المتنوعة، ويجعله أقرب للخضوع والخنوع والاستسلام، لكل قوة أو قوى ما دام يستسلم لأخس الكائنات واتفهاها.

ولم يكن وضع العقيدة والعبادة، في سائر ارجاء العالم أحسن حالاً منه في بلاد العرب، لأن الوثنية بمختلف اشكالها كانت هي المسيطرة، اما بصورة صريحة، كما في الهند والصين وإيران، أو بصورة مبطنة، كما في اوربا المسيحية التي تسللت فيها وثنية الرومان الى النصرانية وشوهدت معالمها.

والعبادة للاصنام، أو للملوك، ولأرباب الاديان، كانت في كل مكان فلا تجد الا انساناً يعبد نظيره أو ما هو أخس منه من الكائنات، أو انساناً يزعم لنفسه العبادة والحق الالهي في الطاعة والسيادة.

في هذا الجو الوثني المسعور جاء القرآن الكريم ليرفع بالانسان من الحضيض الذي هو إلى، ويحرره من أسر الوثنية ومهانتها، ومختلف العبوديات المزيقة التي مني بها، ويركز بدلاً منها فكرة العبودية المخلصة لله وحده لا شريك له، ويعيد للانسان إيمانه بكرامته وربّه.

فانظروا الى هذه النصوص القرآنية التالية لتجدوا كيف يؤكد القرآن فكرة العبادة لله وحده، ويهيب بالانسان الى التحرر من كل عبادة سواها :

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز ﴿^(١).

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به

شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله... ﴿١﴾.

﴿ اتخذوا ابحارهم وrehبانهم ارباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلهاً واحداً لا اله الا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ﴿٢﴾.

وقد استطاع القرآن أن ينتصر على الوثنية وألوانها المختلفة، ويصنع من المشركين أمة موحدة تؤمن بالله، لا ايماناً نظرياً فحسب بل ايماناً يجري مع دماؤها وينعكس في كل جوانب حياتها.

وقد كان لهذا الايمان الذي زرعه القرآن في النفوس مثل فعل السحر؛ فما يدخل في قلب الانسان الا حوله انساناً آخر، في مشاعره وعواطفه وقوة نفسه وعظمة أهدافه واحساسه بكرامته؛ وفي المثاليين التاليين نستطيع ان نتبين ذلك بوضوح :

١ - عن ابي موسى قال : « انتهينا الى النجاشي وهو جالس في مجلسه، وعمره ابن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسييسون جلوس سماطين وقد قال له عمرو وعمارة : انهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا، بدرنا من عنده من القسييسين والرهبان : اسجدوا للملك، فقال جعفر : لا نسجد الا لله عز وجل » ﴿٣﴾.

٢ - أرسل سعد قبل القادسية ربيعي بن عامر رسولاً الى رستم قائد الجيوش الفارسية واميرهم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالتمارق والزرايبي الحرير، وقد جلس على سرير من ذهب وعليه تاجه المزين بالياوقيت واللائي الثمينة، ودخل ربيعي بشياب صفيقة، وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبا حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه

(١) آل عمران : ٦٤.

(٢) التوبة : ٣١.

(٣) البداية والنهاية ٣ : ٨٩.

وبيضته على رأسه. فقالوا له : ضع سلاحك فقال : ان تركتموني هكذا والا رجعت، فقال رستم : ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمح، فقال له : ما جاء بكم فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا الى سعتها، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام^(١).

هكذا استطاع القرآن عن طريق زرع الايمان بالله وتربية المسلمين على التوحيد والشعور بالعبودية لله وحده، استطاع عن هذا الطريق أن يجعل من أولئك الذين كانوا يخضعون للحجارة، ويدينون بسيادتها أمة موحدة لا تخضع الا لله، ولا تتذلل لقوة على وجه الارض ولا تستكين لجبروت الملك وعظمة الدنيا، ولو في أخرج اللحظات وتمتد بأهدافها نحو تغيير العالم، وهداية شعوب الارض الى التوحيد والاسلام، وانفاذها من أسر الوثنية، ومختلف العبوديات للآلهة المزيفة والارباب المصطنعة.

ب - تحرير القرآن للعقول :

كانت الاساطير والخرافات شائعة بين العرب، نظراً لانخفاض مستواهم الفكري وأميتهم بصورة عامة، فكانوا يعتقدون - مثلاً - أن نفس الانسان طائر ينسبط في جسم الانسان، فاذا ما مات أو قتل يكبر هذا الطائر حتى يصير في حجم البوم، ويبقى ابدأ يصرخ ويتوحش ويسكن في الديار المعطلة والمقابر ويسمونه الهام. كما كانوا يعتقدون بالغيلان ويؤمنون بأساطيرها، ويزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات، ويظهر لخواصهم في أنواع من الصور، فيخاطبونها وربما ضيفوها، وكانت لهم أبيات من الرجز يتناقلون حفظها، ويعتقدون أن فائدتها هي طرد الغيلان اذا اعترضتهم في طريقهم واسفارهم، الى غير ذلك من العقائد الخرافية التي كانوا يؤمنون بها.

وقد جاء القرآن الكريم برسالة الاسلام، فحارب تلك العقائد والخرافات، ومحا تلك الاوهام عن طريق تنوير عقول العرب والدعوة الى التفكير الاصيل، والتدبر والاعتماد على العقل، والمطالبة برفض التقليد، وعدم الجمود على تراث السلف، بدون تحييص أو تحقيق؛ قال الله تعالى: ﴿واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه اباءنا أو لو كان اباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ (١).

وقد أدت هذه الدعوة من القرآن الى تعريض كل الافكار السابقة والموروثة الى الامتحان من جديد في ضوء المنطق، والعقل، وعلى هدى الاسلام، فأسفر ذلك عن اضمحلال تلك الخرافات، وزوال تلك العقائد الجاهلية، وتحرر العقول من قيودها، وانطلاقها في طريق التفكير السليم.

وقد حث القرآن بصورة خاصة على التفكير في الكون، والتأمل في أسرارهِ، واكتشاف آيات الله المنتشرة فيه، ووجه الانسان هذه الوجهة الصالحة بدلاً من التشاغل بخرافات الماضين وأساطيرهم:

﴿قل انظروا ماذا في السماوات والارض﴾ (٢).

﴿قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير﴾ (٣).

﴿أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ (٤).

(١) البقرة : ١٧٠.

(٢) يونس : ١٠١.

(٣) العنكبوت : ٢٠.

(٤) الحج : ٤٦.

﴿ افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ﴾ والى السماء كيف رُفعت ﴾ والى الجبال كيف نُصبت ﴾ والى الارض كيف سُطحت ﴾ (١).

ولم يكتف القرآن بالحث على دراسة الكون وما فيه من اسرار بل ربط ذلك بالايان بالله واعلن ان العلم هو خير دليل للايمان بالله وان الايمان يتأكد كلما ازداد اكتشاف الانسان وتقدم في ميادين العلم لانه يطلع على عظيم آيات الله، وحكيم صنعه وتدييره، قال الله تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ﴾ (٢).

وبذلك أعطى القرآن مفهوم مواكبة الايمان للعلم، وأن العقيدة بالله تتمشى مع العلم على خط واحد، وأن اكتشاف الاسباب والقوانين في هذا الكون يعزز هذه العقيدة بأنه يكشف عن عظيم حكمة الصانع وتدييره.

وعلى أساس هذا الموقف القرآني، وما رفضه من التقليد، وما شجع عليه من التفكير والتدبر كانت الامة التي صنعها الكتاب الكريم مصدر العلم والثقافة في العالم، بدلاً من خرافات البوم والغيلان، حتى اعترف المؤرخون الاوربيون بهذه الحقيقة أيضاً؛ فقال الدوري الوزير والمؤرخ الفرنسي: «إنّ النبي جمع قبائل العرب أمة واحدة رفعت أعلام التمدن في اقطار الارض، وكانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم، من بين سائر الامم، وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التي امتدت على أوربا».

ج - تحرير القرآن للانسان من عبودية الشهوة :

كما حرر القرآن عقيدة الانسان من الوثنية وعقله من الخرافة كذلك حرر إرادته من سيطرة الشهوة، فصار الانسان المسلم - نتيجة لتربية القرآن له - قادراً

(١) الغاشية : ١٧ - ٢٠ .

(٢) فصلت : ٥٣ .

على مقاومة شهواته وضبطها والصمود في وجه الاغراء وألوان الهوى المتنوعة؛ وفيما يلي نموذج قرآني من نماذج تغذية هذا الصمود وتركيزه في نفوس المسلمين : قال الله تعالى: ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ قل أُؤْتِيَكُمْ بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴿^(١).

بهذا وغيره من نماذج التربية والترويض استطاع القرآن والاسلام ان يحررا الانسان من العبودية لشهواته الداخلية التي تختلج في نفسه، لتُصبح الشهوة اداة تنبيه للانسان الى ما يشتهي، لا قوة دافعة تسخر إرادة الانسان دون ان يملك بازائها حولاً أو طولاً؛ وقد اطلق الرسول الاعظم ﷺ على عملية تحرير الانسان هذه من شهواته الداخلية اسم «الجهاد الاكبر».

واذا لاحظنا قصة تحريم الخمر في الاسلام استطعنا أن ندرك - من خلال هذا المثال - مدى نجاح القرآن في تحرير الانسان المسلم من أسر الشهوة وتنمية إرادته وصموده ضدها؛ فقد كان العرب في الجاهلية مولعين بشرب الخمر معتادين عليها، حتى أصبح ضرورة من ضرورات الحياة بحكم العادة والالفة، وشغلت الخمر جانباً كبيراً من شعرهم وتأريخهم وأدبهم، وكثرت اسماؤها وصفاتها في لغتهم، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً ترفرف عليها الاعلام، وكان من شيوخ تجارة الخمر أن أصبحت كمة التجارة مرادفة لبيع الخمر في مثل هذا الشعب المغرم بالخمر نزل القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والاتصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾^(٢).

(١) آل عمران : ١٤ ، ١٥ .

(٢) المائدة : ٩٠ .

فما قال القرآن ﴿اجتنبوه﴾ الا وانطلق المسلمون الى زقاق خمورهم يشقونها بالمدى والسكاكين يريقون ما فيها، يفتشون في بيوتهم لعلهم يجدون بقية من خمر فاتهم ان يريقوها، وتحولت الأمة القرآنية في لحظة الى أمة تحارب الخمر وتترفع عن استعماله، كل ذلك حدث لأن الأمة كانت مالكة لارادتها، (حرة) في مقابل شهواتها، قادرة على الصمود امام دوافعها الحيوانية، وأن تقول بكل صرامة وجد حين يدعو الموقف الى ذلك، وبكلمة مختصرة كانت تتمتع «بحرية (حقيقية) تسمح لها بالتحكم في سلوكها».

وفي مقابل تلك التجربة الناجحة التي مارسها القرآن الكريم لتحريم الخمر نجد أن أرقى شعوب العالم الغربي مدنية وثقافة في هذا العصر فشل في تجربة مماثلة؛ فقد حاولت الولايات المتحدة الاميركية في القرن العشرين أن تخلص شعبها من مضار الخمر فشرعت في سنة (١٩٢٠) قانوناً لتحريم الخمر، ومهدت لهذا القانون بدعاية واسعة عن طريق السينما والتثيل والاذاعة ونشر الكتب والرسائل، وكلها تبين مضار الخمر مدعومة بالاحصائيات الدقيقة والدراسات الطبية.

وقد قدر ما انفق على هذه الدعاية (٦٥) مليوناً من الدولارات، وسودت تسعة آلاف مليون صفحة في بيان مضار الخمر والزجر عنها، ودلت الاحصائيات للمدة الواقعة بين تأريخ تشريعه وبين تشريع الاول (١٩٣٣) أنه قُتل في سبيل تنفيذ هذا القانون مائتا نسمة، وحبس نصف مليون نسمة، وغرم المخالفون له غرامات تبلغ مليوناً ونصف المليون من الدولارات، وصودرت اموال بسبب مخالفته تقدر باربعائة مليون دولار، وأخيراً اضطرت الحكومة الاميركية الى الغاء قانون التحريم في أواخر سنة (١٩٣٣)، وفشلت التجربة.

والسبب في ذلك أن الحضارات الغربية بالرغم من مناداتها بالحرية لم تستطع بل لم تحاول ان تمنح الانسان الغربي (الحرية الحقيقية) التي حققها القرآن الكريم

للانسان المسلم، وهي حريته في مقابل شهواته وامتلاكه لارادته امام دوافعه الحيوانية، فقد ظنت الحضارات الغربية أنّ (الحرية) هي ان يقال للانسان : اسلك كما تشاء وتصرف كما تريد، وتركت لاجل ذلك معركة التحرير الداخلي للانسان من سيطرة تلك الشهوات والدوافع، فظل الانسان الغربي أسير شهواته عاجزاً عن امتلاك ارادته والتغلب على نزعاته، بالرغم من كل ما وصل إليه من علم وثقافة ومدنية.

المكي والمدني*

ينقسم البحث حول المكي والمدني من القرآن الى عدة بحوث نشير الى بحثين منها :

الاتجاهات في معنى المكي والمدني :

يقسم القرآن في عرف علماء التفسير الى مكي ومدني، فبعض آياته مكية وبعض آياته مدنية. وتوجد في التفسير اتجاهات عديدة لتفسير هذا المصطلح :
احدها : الاتجاه السائد وهو تفسيره على أساس الترتيب الزمني للآيات، واعتبار الهجرة حداً زمنياً فاصلاً بين مرحلتين، فكل آية نزلت قبل الهجرة تعتبر مكية، وكل آية نزلت بعد الهجرة فهي مدنية وإن كان مكان نزولها (مكة)، كآيات التي نزلت على النبي حين كان في مكة وقت الفتح، فالمقياس هو الناحية الزمنية لا المكانية.

والاتجاه الآخر هو الاخذ بالناحية المكانية مقياساً للتمييز بين المكي والمدني، فكل آية يلاحظ مكان نزولها، فان كان النبي ﷺ حين نزولها في مكة سميت مكية، وإن كان حينذاك في المدينة سميت مدنية.

والاتجاه الثالث يقوم على أساس مراعاة اشخاص المخاطبين، فهو يعتبر أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

ويمتاز الاتجاه الاول عن الاتجاهين الآخرين بشمول المكي والمدني على أساس الاتجاه الأول لجميع آيات القرآن، لأننا اذا أخذنا بالناحية الزمنية كانت كل آية في القرآن إما مكية وإما مدنية، لأنها اذا كانت نازلة قبل هجرة النبي إلى المدينة ودخوله فيها فهي مكية، وان نزلت على النبي في طريقه من مكة إلى المدينة، أو كانت نازلة بعد دخول النبي مهاجراً إلى المدينة فهي مدنية، مهما كان مكان نزولها.

وأما على الاتجاهين الآخرين في تفسير المصطلح فقد نجد آية ليست مكية ولا مدنية، كما اذا كان موضع نزولها مكاناً ثالثاً لا مكة ولا المدينة ولم يكن خطابها لأهل مكة أو أهل المدينة، نظير الآيات التي نزلت على النبي ﷺ في معرجه أو أسرائه.

ترجيح أحد الاتجاهات الثلاثة :

واذا أردنا أن نقارن بين هذه الاتجاهات الثلاثة لنختار واحداً منها فيجب ان نطرح منذ البدء الاتجاه الثالث، لانه يقوم على (اساس خاطئ) وهو الاعتقاد أن من الآيات ما يكون خطاباً لأهل مكة خاصة ومنها ما يكون خطاباً لأهل المدينة؛ وليس هذا بصحيح، فان الخطابات القرآنية عامة وانطباقها حين نزولها على أهل مكة أو على أهل المدينة لا يعني كونها خطاباً لهم خاصة أو اختصاص ما تشتمل عليه من توجيه أو نصح أو حكم شرعي بهم، بل هي عامة ما دام اللفظ فيها عاماً كما عرفنا.

والواقع أن لفظ المكي والمدني ليس لفظاً شرعياً حدد النبي مفهومه لكي نحاول اكتشاف ذلك المفهوم، وانما هو مجرد اصطلاح تواضع عليه علماء التفسير؛ وما من ريب في أن كل احد له الحق في أن يصطلح كما يشاء، لا نريد هنا أن نخطئ الاتجاه الاول أو الاتجاه الثاني ما دام لا يعبر كل منهما الا عن اصطلاح، من حق اصحاب

ذلك الاتجاه ان يضعوه، ولكننا نرى أنّ وضع مصطلح المكي والمدني على أساس الترتيب الزمني - كما يقرره الاتجاه الاول - أنفع وأفيد للدراسات القرآنية، لان التمييز من ناحية زمنية بين ما أنزل من القرآن قبل الهجرة وما أنزل بعدها أكثر أهمية للبحوث القرآنية من التمييز على أساس المكان بين ما أنزل على النبي في مكة وما أنزل عليه في المدينة، فكان جعل الزمن أساساً للتمييز بين المكي والمدني واستخدام هذا المصطلح لتحديد الناحية الزمنية أوفق بالهدف.

وتتجلى أهمية التمييز الزمني من التمييز المكاني في نقطتين :

احدهما : (فقهية) أي أنّها ترتبط بعلم الفقه ومعرفة الاحكام الشرعية، وهي أنّ تقسيم الآيات على أساس الزمن الى 'مكية ومدنية وتحديد ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها يساعدنا على معرفة الناسخ والمنسوخ، لأن الناسخ متأخر بطبيعته على المنسوخ زماناً، فاذا وجدنا حكيمين ينسخ أحدهما الآخر استطعنا ان نعرف الناسخ عن طريق التوقيت الزمني، فيكون المدني منها ناسخاً للمكي لأجل تأخره عنه زماناً^(١).

والأخرى هي : أنّ التقسيم الزمني للآيات الى 'مكية ومدنية يجعلنا نتعرف على مراحل الدعوة التي مر بها الاسلام على يد النبي، فإن الهجرة المباركة ليست مجرد حادث عابر في حياة الدعوة، وانما هي حد فاصل بين مرحلتين من عمر الدعوة،

(١) هذه النقطة انما تكون مهمة بناء على المذهب المعروف في علوم القرآن الذي يقول بوجود النسخ بين الآيات القرآنية، من خلال افتراض وجود حكيمين متخالفين احدهما متأخر عن الآخر زماناً فيفترض أنّ الثاني ناسخ للاول؛ وأما اذا التزمنا بعدم وجود النسخ بهذا الشكل وانما موارد النسخ في القرآن مبينة من خلال نظر الآية الناسخة للآية المنسوخة في مضمونها ...، فلا تبقى قيمة لهذه النقطة وانما تكون مجرد فرضية، وللمزيد من التوضيح يراجع بحث (النسخ) - المؤلف.

وهما مرحلة العمل في ضمن المجتمع الذي تحكمه السلطة الكافرة المهيمنة على جميع الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية، ومرحلة العمل ضمن دولة الاسلام، ولئن كان بالامكان تقسيم كل من هاتين المرحلتين بدورها أيضاً الى مقاطع زمنية، فمن الواضح على أي حال أن التقسيم الرئيس هو على اساس الهجرة. فاذا ميزنا بين الآيات النازلة قبل الهجرة وما نزل منها بعد الهجرة استطعنا أن نواكب تطورات الدعوة والخصائص العامة التي تجلت فيها خلال كل من المرحلتين.

وأما مجرد أخذ مكان النزول بعين الاعتبار وإهمال عامل الزمن فهو لا يمدنا بفكرة مفصلة عن هاتين المرحلتين، ويجعلنا نخلط بينهما، كما يحرمنا من تمييز الناسخ عن المنسوخ من الناحية الفقهية. وسوف يتضح أيضاً مزيد من الأهمية عند دراستنا لخصائص المكي والمدني؛ فلهذا كله نؤثر الاتجاه الاول في تفسير المكي والمدني، وعلى هذا الاساس سوف نستعمل هذين المصطلحين.

طريقة معرفة المكي والمدني :

بدأ المفسرون عند محاولة التمييز بين المكي والمدني بالاعتماد على الروايات والنصوص التاريخية، التي تؤرخ السورة أو الآية وتشير الى نزولها قبل الهجرة او بعدها، وعن طريق تلك الروايات والنصوص التي تتبعها المفسرون واستوعبوها استطاعوا أن يعرفوا عدداً كبيراً من السور والآيات المكية والمدنية ويميزوا بينها.

وبعد أن توفرت لهم المعرفة بذلك اتجه كثير من المفسرين الذين عنوا بمعرفة المكي والمدني الى دراسة مقارنة لتلك الآيات والسور المكية والمدنية التي اكتشفوا

تأريخها عن طريق النصوص، وخرجوا من دراستهم المقارنة باكتشاف خصائص عامة في السور والآيات المكية وخصائص عامة أخرى في المدني من الآيات والسور فجعلوا من تلك الخصائص العامة مقاييس يقيسون بها سائر الآيات والسور التي لم يؤثر توقيتها الزمني في الروايات والنصوص، فما كان منها يتفق مع الخصائص العامة للآيات والسور المكية حكموا بأنه مكي، وما كان أقرب إلى الخصائص العامة للمدني وأكثر انسجاماً معها أدرجوه ضمن المدني من الآيات بالسور.

وهذه الخصائص العامة التي حددت المكي والمدني بعضها يرتبط بأسلوب الآية والسورة، كقولهم: «إنَّ قصر الآيات والسور وتجانسها الصوقي من خصائص القسم المكي، وبعضها يرتبط بموضوع ومضمون النص القرآني، كقولهم مثلاً: «إنَّ مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم من خصائص السور المكية، ومحاوره أهل الكتاب من خصائص السور المدنية».

ويمكن تلخيص ما ذكره من الخصائص الأسلوبية والموضوعية للقسم المكي فيما يأتي:

- ١- قصر الآيات والسور وإيجازها وتجانسها الصوقي.
 - ٢- الدعوة إلى أصول الإيمان بالله والوحي وعالم الغيب واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار.
 - ٣- الدعوة للتمسك بالاخلاق الكريمة والاستقامة على الخير.
 - ٤- مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.
 - ٥- استعمال السورة لكلمة «يا أيها الناس» وعدم استعمالها لكلمة «يا أيها الذين آمنوا».
- وقد لوحظ أنَّ سورة الحج تستثنى من ذلك لأنها استعملت الكلمة الثانية،

بالرغم من أنها مكية، فهذه الخصائص الخمس يغلب وجودها في السور المكية^(١).

وأما ما يشيع في القسم المدني من خصائص عامة فهي :

١ - طول السورة والآية واطنابها.

٢ - تفضيل البراهين والادلة على الحقائق الدينية.

٣ - مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم الى عدم الغلو في دينهم.

٤ - التحدث عن المنافقين ومشاكلهم.

٥ - التفصيل لاحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين السياسية

والاجتماعية والدولية.

موقفنا من خصائص السور المكية والمدنية :

وما من ريب في أنّ هذه المقاييس المستمدة من تلك الخصائص العامة تلقي ضوءاً على الموضوع، وقد تؤدي الى ترجيح لاحد الاحتمالين على الآخر في السور التي لم يرد نص بأنها مكية أو مدنية، فاذا كانت احدى هذه السور تتفق مثلاً مع السور المكية في اسلوبها وابعازها وتجانسها الصوتي وتنديدها بالمشرّكين وتسفيه احلامهم، فالارجح أن تكون سورة مكية لاشتغالها على هذه الخصائص العامة للسورة المكية.

ولكن الاعتماد على تلك المقاييس انما يجوز اذا دلت الى العلم، ولا يجوز الأخذ بها مجرد الظن؛ ففي المثال المتقدم حين نجد سورة تتفق مع السور المكية في اسلوبها وابعازها لا نستطيع أن نقول بانها مكية لأجل ذلك، إذ من الممكن أن تنزل سورة مدنية وهي تحمل بعض خصائص الاسلوب الشائع في القسم المكي، كما في سورة

(١) سورة الحج مدنية وليست مكية، وتستعمل فيها الكلمة الأولى والثانية، ولكن الأولى

اكثر كما ان سورة الحجرات مدنية بلا اشكال وتستعمل فيها كلمة ﴿يا ايها الناس انا خلقناكم

من ذكر واعني ...﴾ الحجرات : ١٣ - المؤلف.

النصر وغيرها، صحيح أنه يغلب على الظن حينذاك أن السورة مكية لقصرها وإيجازها، ولكن الأخذ بالظن لا يجوز لأنه قول من دون علم: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم...﴾^(١).

وإذا ما أدت تلك المقاييس إلى الاطمئنان والتأكد من تأريخ السورة وأنها مكية أو مدنية فلا بأس بالاعتماد عليها عند ذاك.

ومثاله النصوص القرآنية التي تشتمل على 'تشريعات للحرب والدولة مثلاً، فإن هذه الخصيصة الموضوعية تدل على أن النص مدني، لأن طبيعة الدعوة في المرحلة الأولى التي عاشتها قبل الهجرة لا تتسجم إطلاقاً مع التشريعات الدولية، فنعرف من أجل هذا أن النص مدني نزل في المرحلة الثانية من الدعوة، أي في عصر الدولة.

شبهات حول المكي والمدني

المقدمة :

لقد كان موضوع المكي والمدني من جملة الموضوعات القرآنية التي أثيرت حولها الشبهة والجدل، وتتعلق الشبهة هنا من أساس هو: أن الفروق والميزات التي تلاحظ بين القسم المكي من القرآن الكريم والقسم المدني منه تدعو في نظر بعض المستشرقين إلى الاعتقاد بأن القرآن قد خضع لظروف بشرية مختلفة -اجتماعية وشخصية - تركت آثارها على أسلوب القرآن وطريقة عرضه، وعلى مادته والموضوعات التي عني بها.

ويجدر بنا قبل أن ندخل في الحديث عن الشبهات ومناقشتها أن نلاحظ الأمرين التاليين، لما لهما من تأثير في فهم البحث ومعرفة نتائجه :

الاول: أنه لا بد لنا ان نفرق منذ البدء بين فكرة تأثير القرآن الكريم، وانفعاله بالظروف الموضوعية من البيئة وغيرها بمعنى انطباعه بها، وبين فكرة مراعاة القرآن لهذه الظروف بقصد تأثيره فيها وتطويرها لصالح الدعوة.

فإنّ الفكرة الأولى تعني في الحقيقة: بشرية القرآن، حيث تفرض القرآن في مستوى الواقع المعاش وجزءاً من البيئة الاجتماعية يتأثر بها كما يؤثر فيها، بخلاف الفكرة الثانية فإنّها لا تعني شيئاً من ذلك، لأن طبيعة الموقف القرآني الذي يستهدف التغيير، وطبيعة الاهداف والغايات التي يرمي القرآن الى تحقيقها قد تفرض هذه المراعاة، حيث تحدد الغاية والهدف طبيعة الاسلوب الذي يجب سلوكه للوصول اليها.

فهناك فرق بين أن تفرض الظروف والواقع أنفسها على الرسالة، وبين ان تفرض الاهداف والغايات التي ترمي الرسالة الى تحقيقها من خلال الواقع اسلوباً ومنهجاً للرسالة؛ لان الهدف والغاية ليسا شيئين منفصلين عن الرسالة ليكون تأثيرهما عليها تأثيراً مفروضاً من الخارج.

فنحن في الوقت الذي نرفض فيه الفكرة الاولى بالنسبة الى القرآن، نجد انفسنا لا تأبى التمسك بالفكرة الثانية في تفسير الظواهر القرآنية المختلفة، سواء ما يرتبط منها بالاسلوب القرآني أو الموضوع والمادة المعروضة فيه.

الثاني: ان تفسير أصل وجود الظاهرة القرآنية لا بد ان يعتبر هو المصدر الاساس في جميع الاحكام التي تصدر على محتوى القرآن واسلوب العرض فيه؛ فقد تكون النقطة الواحدة في القرآن الكريم سبباً في إصدار حكمين مختلفين نتيجة للاختلاف في تفسير اصل وجود القرآن، وسوف نورد بعض الامثلة لهذا الاختلاف في الحكم عندما نذكر ان من شروط المفسر للقرآن ان يكون ذا ذهنية إسلامية^(١).

(١) راجع بحث شروط المفسر.

ومن أجل ذلك فنحن لا نسوغ لانفسنا ان نقبل حكماً ما في تفسير نقطة حول القرآن الكريم، لمجرد انسجام هذا الحكم مع تلك النقطة، بل لا بد لنا من نظر أيضاً - بشكل مسبق - الى مدى انسجام الحكم مع التفسير الصحيح لوجود الظاهرة القرآنية نفسها.

إنّ الظاهرة القرآنية - كما سنشرحها في البحوث القادمة - ليست نتاجاً شخصياً لمحمد ﷺ ومن ثمّ ليست نتاجاً بشرياً مطلقاً، وانما هي نتاج الهي مرتبط بالسماء، وعلى هذا الاساس يمكننا ان نجزم بشكل مسبق ببطان جميع الشبهات التي تثار حول المكي والمدني، لأنها في الحقيقة تفسيرات لظاهرة الفرق بين المكي والمدني على اساس أنّ القرآن الكريم نتاج بشري.

وبالاحرى يجب ان يقال: إنّ شبهات المكي والمدني ترتبط في الحقيقة بالشبهات التي أثّرت حول الوحي ارتباطاً موضوعياً، لأنها ترتبط بفكرة انكار الوحي، ولكن مع ذلك - من اجل توضيح الحقيقة - قد نحتاج الى مناقشة تفصيلية للشبهات التي أثّرت حول الوحي بشكل عام، وحول المكي والمدني بشكل خاص، لابرار نقاط الاثارة والتلاعب التي ذكرها المستشرقون، وبيان انسجام الظواهر القرآنية المختلفة مع ظاهرة الوحي الالهي، ولذا فسوف تناقش هذه الشبهات بعد التحدث عنها لايضاح بطلانها من ناحية، وتقديم التفسير الصحيح للفرق بين المكي والمدني - بعد ذلك - من ناحية ثانية.

وللشبهة حول المكي والمدني جانبان: جانب يرتبط بالاسلوب القرآني فيها، وجانب آخر يرتبط بالمادة والموضوعات التي عرض القرآن لها في هذين القسمين، وفي كل من القسمين تصاغ الشبهة على عدة اشكال، نذكر منها صياغتين لكل واحد من القسمين:

أ- اسلوب القسم المكي يمتاز بالشدة والعنف والسباب :

فقد قالوا : إنّ اسلوب القسم المكي من القرآن يمتاز عن القسم المدني بطابع الشدة والعنف ، بل وبالسباب أيضاً ؛ وهذا يدل على ' تأثر محمد بالبيئة في مكة التي كان يعيش فيها ، لأنها مطبوعة بالغلظة والجهل ، ولذا يزول هذا الطابع عن القرآن الكريم عندما ينتقل محمد الى مجتمع المدينة الذي ، تأثر فيه - بشكل أو بآخر - بحضارة أهل الكتاب وأساليبهم .

وتستشهد الشبهة بعد ذلك لهذه الملاحظة بالسور والآيات المكية المطبوعة بطابع الوعيد والتهديد والتعنيف ، أمثال : سورة (المسد) وسورة (العصر) وسورة (التكاثر) وسورة (الفجر) وغير ذلك .

ويمكن ان نناقش هذه الشبهة بما يلي :

أولاً : بعدم اختصاص القسم المكي من القرآن الكريم بطابع الوعيد والانذار دون القسم المدني ، بل يشترك المكي والمدني بذلك ، كما ان القسم المدني لا يختص أيضاً - كما قد يفهم من الشبهة - بالاسلوب اللين الهادئ الذي يفيض سباحة وعفواً ، بل نجد ذلك في المكي ، والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة .

فن القسم المدني الذي اتسم بالشدة والعنف قوله تعالى : ﴿ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ... ﴾ ^(٢) و ﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين ﴾ فان لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله وان تبتم فلکم رؤس اموالکم لا تَظلمون ولا تُظلمون ﴾ ^(٣) .

(١) البقرة : ٢٤ .

(٢) (٣) البقرة : ٢٧٥ و ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وقوله تعالى: ﴿ان الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار﴾ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد﴾ (١).

الى غير ذلك من الآيات التي سوف نشير الى بعضها قريباً. كما نجد في القسم المكي ليناً وسهاحة نحو قوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين﴾ لا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴿وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿فما آوتيتن من شيء فتتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ والذين يحبون كباثر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون ﴿والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾ والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين﴾ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴿انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك هم عذاب اليم﴾ ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ لا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخض جناحك للمؤمنين﴾ (٤).

(١) آل عمران : ١٠ - ١٢.

(٢) فصلت : ٣٣ - ٣٥.

(٣) الشورى : ٣٦ - ٤٣.

(٤) الحجر : ٨٧ - ٨٨.

وقوله تعالى: ﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم ﴾ (١).

وثانياً: إنه ليس في القرآن الكريم سبَابٌ وشتَمٌ كيف وقد نهى القرآن نفسه في القسم المكي عن السب والشتَم، حيث قال تعالى: ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم... ﴾ (٢).

وليس في سورة (المسد) أو (التكاثر) سب أو بذاءة - كما يحاول المستشرقون ان يقولوا ذلك - وانما فيها تحذير ووعيد بالمصير الذي ينتهي إليه ابو لهب والكافرون بالله.

نعم، يوجد في القرآن الكريم تقريع وتأنيب عنيف، وهو موجود في المدني كما هو في المكي - وان كان يكثر وجوده في المكي - بالنظر لمراعاة ظروف الاضطهاد والقسوة التي كانت تمر بها الدعوة، الامر الذي اقتضى ان يواجه القرآن ذلك بالعنف والتقريع - احياناً - لتقوية معنويات المسلمين من جانب، وتحطيم معنويات الكافرين من جانب آخر، كما سوف نشير إليه قريباً.

ومن هذا التقريع في السور المدنية قوله تعالى: ﴿ ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذره لا يؤمنون ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم * ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ... صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ ... وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) الانعام: ١٠٨.

(٣) البقرة: ٦ - ١٨.

يعتدون ﴿^(١)﴾ وقوله : ﴿بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكاافرين عذاب مهين﴾ ^(٢).

وقوله تعالى : ﴿إن الذين يكتُمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ ^(٣).

وقوله تعالى : ﴿اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ فاما الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴿^(٤)﴾.

وقوله تعالى : ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكاناً واضل عن سواء السبيل﴾ ^(٥).

وقوله تعالى : ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ...﴾ ^(٦).

ب - اسلوب القسم المكي يمتاز بقصر السور والآيات :

وقالوا أيضاً : إنّ من الملاحظ قصر السور والآيات في القسم المكي على عكس القسم المدني الذي جاء بشيء من التفصيل والاسهاب؛ فنحن نجد أنّ السور المكية جاءت قصيرة ومعرضة بشكل موجز، في الوقت الذي نجد في القسم المدني سورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها من السور الطوال.

(١) و (٢) و (٣) البقرة : ٦١ و ٩٠ و ١٥٩.

(٤) آل عمران : ٥٥ و ٥٦.

(٥) و (٦) المائدة : ٦٠ و ٦٤.

وهذا يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكي والقسم المدني، وتأثرهما بالبيئة التي كان يعيشها محمد ﷺ، فان مجتمع مكة لما كان مجتمعاً أُمياً لم يكن النبي بقدرته التبسط في شرح المفاهيم وتفصيلها، وانما واثته القدرة على ذلك عندما أخذ يعيش مجتمع المثقفين المتحضر في يثرب.

وتناقش هذه الشبهة بالامرین التاليين :

الاول: أنَّ القصر والايجاز ليسا مختصين بالقسم المكي، بل توجد في القسم المدني سور قصيرة أيضاً كالنصر والزلزلة والبينة وغيرها، كما أنَّ الطول والتفصيل ليسا مختصين بالقسم المدني، بل توجد في المكي أيضاً سور طويلة، كالانعام والاعراف.

وقد يقصد من اختصاص المكي بالقصر والايجاز: أنَّ هذا الشيء هو الغالب الشائع فيه.

وقد يكون هذا صحيحاً، ولكنه لا يدل بوجه من الوجوه على انقطاع الصلة بين القسمين المذكورين من القرآن الكريم، لأنه يكفي في تحقيق هذه الصلة ان يأتي القرآن الكريم ببعض السور الطويلة المفصلة في القسم المكي، كدليل على القدرة والتكن من الارتفاع الى مستوى التفصيل في المفاهيم والموضوعات.

إضافة الى أنَّ من الملاحظ وجود آيات مكية قد أثبتت في السور المدنية والعكس يصح أيضاً، وفي كلا الحالتين نجد التلاحم والانسجام في السورة، وكأَنَّها نزلت مرة واحدة، الامر الذي يدل بوضوح على وجود الصلة التامة بين القسمين.

الثاني: أنَّ الدراسات اللغوية التي قام بها العلماء المسلمون وغيرهم دلت على أنَّ الایجاز يعتبر مظهراً من مظاهر القدرة الخارقة على التعبير، وهو من ثمَّ من مظاهر الاعجاز القرآني، وليس نقصاً أو عيباً في القسم المكي؛ خصوصاً اذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ القرآن قد تحدى العرب بأن يأتوا بسورة من مثله، حيث يكون

التحدي بالسورة القصيرة أروع وأبلغ منه حين يكون بسورة مفصلة.

ج - لم يتناول القسم المكي في مادته التشريع والاحكام :

وقالوا: إنَّ القسم المكي لم يتناول - فيما تناول من موضوعات - جانب التشريع من أحكام وأنظمة، بينما تناول القسم المدني هذا الجانب من التفصيل. وهذا يعبر عن جانب آخر من التأثير بالبيئة والظروف الاجتماعية، حيث لم يكن مجتمع مكة مجتمعاً متحضراً، ولم يكن قد انفتح على معارف أهل الكتاب وتشريعاتهم، على خلاف مجتمع المدينة الذي تأثر الى حد بعيد بالثقافة والمعرفة للأديان السماوية كاليهودية والنصرانية.

وتناقش هذه الشبهة بالأمرين التاليين أيضاً :

اولاً: إنَّ القسم المكي لم يهمل جانب التشريع، وانما تناول أصوله العامة وجملة مقاصد الدين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا اولادكم من اطلاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حَرَّمَ الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده ... ﴿^(١).

كما طرحت من خلاله مجمل النظريات والتصورات القرآنية حول الكون والحياة والمجتمع والانسان ...

إضافة الى أننا نجد في القسم المكي، وفي سورة الانعام^(٢) بالخصوص مناقشة لكثير من تشريعات أهل الكتاب والتزاماتهم، وهذا يدل على معرفة القرآن الكريم بهذه التشريعات وغيرها مسبقاً.

(١) الانعام : ١٥٩، ١٥٢.

(٢) الآيات : ١١٩ - ١٢١ و ١٣٨ - ١٤٦.

وثانياً: إنّ هذه الظاهرة يمكن ان نطرح في تفسيرها نظرية أخرى تنسجم مع الأساس الموضوعي لوجود الظاهرة القرآنية نفسها، وهذه النظرية هي ان يقال: إنّ الحديث عن تفاصيل التشريع في مكة كان شيئاً سابقاً لأوانه، حيث لم يستلم الاسلام حينذاك زمام الحكم بعد، بينما الامر في المدينة على العكس؛ فلم يتناول القسم المكي تفاصيل التشريع، لأن ذلك لا يتفق مع المرحلة التي تمر بها الدعوة، وانما تناول الجوانب الأخرى التي تنسجم مع الموقف العام، كما سوف نشرح ذلك قريباً.

د- لم يتناول القسم المكي في مادته الأدلة والبراهين :

وقالوا: إنّ القسم المكي لم يتناول الأدلة والبراهين على العقيدة وأصولها، على خلاف القسم المدني؛ وهذا تعبير آخر أيضاً عن تأثير القرآن بالظروف الاجتماعية والبيئية، اذ عجزت الظاهرة القرآنية - بنظر هؤلاء - عن تناول هذا الجانب الذي يدل على عمق النظر في الحقائق الكونية، عندما كان يعيش محمد ﷺ في مكة مجتمع الأميين، بينما ارتفع مستوى القرآن في هذا الجانب عندما أخذ محمد ﷺ يعيش الى جانب أهل الكتاب في المدينة، وذلك نتيجة لتأثره بهم لأنهم أصحاب فكر وفلسفة ومعرفة بالديانات السماوية، ولتطور الظاهرة القرآنية نفسها أيضاً.

وتناقش هذه الشبهة من وجهين :

الاول: أنّ القسم المكي لم يخلُ من الأدلة والبراهين بل تناوّلها في كثير من سورة، والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة وفي مجالات شتى فمن غاذج وموارد الاستدلال على التوحيد قوله تعالى :

﴿واذ قال ابراهيم لايه آزر أنتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين * وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين * فلما جن

عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهْدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا ان يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون * وكيف اخاف ما اشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ﴿١﴾.

وقوله تعالى: ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ لو كان فيهما آلهة آلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون * ام اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي، بل اكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴿٣﴾.

وبصدد الاستدلال على نبوة محمد ﷺ وارتباط ما جاء به بالسما: ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب للمبطلون ﴾ * بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون * وقالوا لولا انزل عليه

(١) الانعام : ٧٤ - ٨٣.

(٢) المؤمنون : ٩١.

(٣) الانبياء : ٢٢ - ٢٤.

آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما ان نذير مبين * أولم يكنهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴿١﴾.

وبصدد الاستدلال على البعث والجزاء قوله تعالى: ﴿ ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقاً للعباد واحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ... أفعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ افحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون ﴾ (٣).
وقوله تعالى: ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السماوات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ (٤).

وهكذا تتناول الأدلة جوانب أخرى من العقيدة الاسلامية والمفاهيم العامة :
بل إن القرآن الكريم تناول اكثر قصص الأنبياء والمناقشات والأدلة التي دارت بينهم وبين أقوامهم في القسم المكي من القرآن على ما سوف نعرف .

الثاني : أنه لو تنازلنا عن ذلك فمن الممكن تفسير هذا الفرق على اساس مراعاة طبيعة موقف المواجهة من الدعوة، حيث كانت تواجه الدعوة في مكة مشركي العرب وعبدة الأصنام، والأدلة التي كان يواجه القرآن بها هؤلاء أدلة وجدانية، من الممكن ان تستوعبها مداركهم ويقتضيها وضوح بطلان العقيدة الوثنية، والقرآن - كما عرفنا - انما هو كتاب هداية وتغيير وتزكية وليس كتاباً

(١) العنكبوت : ٤٨ - ٥١ .

(٢) ق : ٩ - ١١ و ١٥ .

(٣) المؤمنون : ١١٥ .

(٤) المجاثية : ٢١ ، ٢٢ .

علمياً فهو كان يواكب تطور الدعوة الاسلامية ومسيرتها في آياته ونزوله؛ وحين اختلفت طبيعة الموقف، وأصبحت الأفكار المواجهة تتنازع بكثير من التعقيد والتزييف والانحراف - كما هو الحال في عقائد أهل الكتاب - اقتضى الموقف مواجهتها، بأسلوب آخر من البرهان والدليل أكثر تعقيداً وتفصيلاً^(١).

الفروق الحقيقية بين المكي والمدني :

ولم نجد في الشبهات التي تناولناها - ولا نجد في غيرها - ما يمكنه ان يصمد أمام النقد العلمي أو الدرس الموضوعي، ولكن مع كل ذلك يجدر بنا أن نقدم تفسيراً منطقياً لظاهرة الفرق بين القسم المكي والقسم المدني، وان كنا قد أحنأ الى جانب من هذا التفسير عندما تناولنا الشبهات بالنقد والمناقشة.

ويحسن بنا - قبل ذلك - ان نذكر الفروق الحقيقية التي امتاز بها المكي عن المدني سواء ما يتعلق بالاسلوب أو بالموضوع الذي تناوله القرآن، ثم نفسر هذه الفروق على أساس الفكرة التي أشرنا إليها في صدر البحث، والتي تقول: إن هذه الفروق كانت نتيجة مراعاة ظروف الدعوة والأهداف التي تسعى الى تحقيقها، لأن الهدف والغاية يلقيان - في كثير من الأحيان - بظلهما على اسلوب العرض والمادة المعروضة.

وتلخص هذه الفروق والخصائص التي يمتاز بها المكي عن المدني غالباً بالأمر التالية^(٢):

١ - ان القسم المكي عاجل بشكل أساسي مبادئ الشرك والوثنية، وأسسها النفسية والفكرية، ومؤداها الأخلاقي والاجتماعي.

(١) للمزيد من التفصيل في عرض الشبهات ومناقشتها، راجع ما ذكره الزرقاني في « مناهل العرفان » ١ : ١٩٩.

(٢) سبق أن اشرنا الى هذه الميزات وغيرها عند البحث عن المكي والمدني.

٢ - وقد أكد ما في الكون من بدائع الخلقة وعجائب التكوين، الأمر الذي يشهد بوجود الخالق المدبر لها. كما أكد (عالم الغيب) و(البعث والمجزاء) و(الوحي) و(النبوت) وشرح ما يرتبط بذلك من أدلة وبراهين، كما خاطب الوجدان الانساني وما أودعه الله فيه من عقل وحكمة وشعور.

٣ - وإلى جانب ذلك تحدث عن الأخلاق بمفاهيمها العامة، مع ملاحظة مصاديقها الخارجية والجانب التطبيقي منها في المجتمع وحذر من الانحراف، وذلك مثل الكفر والعصيان والجهل والعدوان والكبر وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل أموال اليتامى ونقص الموازين وقطيعة الأرحام، إلى غير ذلك من موارد الطغيان والهوى، وعرض إلى جانب ذلك الوجه الصحيح للأخلاق، كالإيمان بالله والطاعة له والعلم والعقل والمحبة والرحمة والعفو والصبر والاخلاص والعزم والارادة والشكر واحترام الآخرين وبر الوالدين واکرام الجار وطهارة القلب واللسان والصدق في المعاملة والتوكل على الله، وغير ذلك من موارد الخير والصلاح.

٤ - وقد تحدث عن قصص الأنبياء والرسل والمواقف المختلفة التي كانوا يواجهونها من قبل أقوامهم وأُممهم في معركة الايمان والكفر، وما يستتبط من ذلك من العبر والمواعظ.

٥ - انه سلك طريق الايقاع الصوتي والايجاز في الخطاب، سواء في الآيات أو السور.

ويكاد يكون المدني بخلاف ذلك في هذه الأمور على الغالب، وان كان قد امتاز بالأمور التالية :

١ - دعوة أهل الكتاب إلى الاسلام مع مناقشتهم، وبيان انحرافهم عن العقيدة والمناهج الحقّة التي أنزلت على أنبيائهم.

٢- بيان التفصيلات في التشريع، التي تتناول الفرد والجماعة ونظام الحكم، ومعالجة مشاكل العلاقات المختلفة في المجتمع الانساني، مثل علاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة المؤمنين ببعضهم وعلاقتهم مع اعدائهم الداخليين والخارجيين ومع المحايدين، والعلاقات الزوجية والدولية، والحرب والهدنة والمعاهدات وغيرها، وتحديد المواقف السياسية والقانونية والأخلاقية منها.

٣- تناول حركة النفاق في المجتمع الاسلامي وخلفياتها الأخلاقية والسياسية، وأهدافها وظواهرها والموقف السياسي منها.

التفسير الصحيح للفرق بين المكي والمدني :

وحين نريد أن ندرس ظاهرة الفرق بين المكي والمدني من خلال هذه الخصائص والميزات نجد :

أولاً: إنّ هذه الفروق لا تشكل حداً فاصلاً بين هذين القسمين في القرآن الكريم، وإنما هي طابع عام لكل من القسمين، وإلاّ فنحن نلاحظ ان كلا من القسمين تناول بعض أو كل الجوانب الأخرى للقسم الثاني بشكل أو بآخر انسجماً مع الاسلوب القرآني العام، الذي تميز بمزج الأفكار والمفاهيم ليوحد منها هذا التركيب الفريد المؤثر في عملية التغير كما أسلفنا.

ثانياً: إنّ الدعوة الاسلامية بدأت في مكة وعاشت فيها ثلاث عشرة سنة، وهذه المدة منسوبة الى زمن نزول القرآن، تعتبر في الحقيقة مدة إرساء أسس القواعد والمفاهيم العامة عن العقيدة الالهية، أو عالم الغيب أو الاخلاق أو السنن والقوانين التاريخية التي تحكم مسيرة التاريخ والمجتمع الانساني.

وسواء ما يتعلق بالجانب الايجابي من ذلك، كعرض مفاهيم الاسلام عن الكون والحياة والأخلاق والمجتمع، أو ما يتعلق بالجانب السلبي، كمناقشة الأفكار الكافرة أو المنحرفة والباطلة التي كانت تسود المجتمع آنذاك.

وهذه الحقيقة تفرض - بطبيعة الحال ان - يكون القسم المكي مرتبطاً - بمادته وموضوعاته - بالأسس والركائز للرسالة الجديدة، بحيث يكون أكثر شمولاً واتساعاً في تناوله لهذا الجانب من جانب آخر، وهذا هو الذي يفسّر لنا أيضاً غلبة المكي على المدني من الناحية الكمية، مع أن المدة المدنية تبدو - تاريخياً - وكأنها زاخرة بالأحداث الجسام، والمجتمع المدني أكثر تعقيداً ومشاكل، لأن القرآن في القسم المدني لم يكن بحاجة كبيرة الى تناول تلك الأسس والركائز بعد ان كان قد تناولها في القسم المكي باستيعاب.

ثالثاً: إنّ عملية التغير الاجتماعي كانت بحاجة - على أساس الفكرة التي أشرنا إليها في بداية هذا الفصل - الى ان تهتم بمراعاة الظروف وطبيعة المجتمع التي تتناوله عملية التغير، وتركز على القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية، والأمراض الأخلاقية التي يعيشها ذلك المجتمع، حتى يتحقق هذا التغير بشكل مناسب.

وبذلك يمكن تفسير الخصائص السابقة التي أشرنا إليها في الفرق بين المكي والمدني.

فأما بالنسبة الى الخصيصة الأولى: نلاحظ أن المجتمع المكي كان مجتمعاً يتّسم بطابع الوثنية في الجانب العقيدي، فكان من الطبيعي تأكيد فكرة رفض الشرك والوثنية والدخول في مناقشة طويلة معها بأساليب وطرق شتى. إضافة الى أن ايضاح الموقف تجاه العقيدة الوثنية يشكل نقطة أساسية في القاعدة للرسالة الجديدة، لأنها تتبنّى التوحيد الخالص اساساً لكل جوانبها وتفصيلاتها الأخرى. وبالنسبة الى الخصيصة الثانية: نلاحظ أن المجتمع المكي لم يكن يؤمن بفكرة الاله الواحد، كما لا يؤمن بعوالم الغيب والبعث والجزاء والوحي، وغير ذلك من شؤون عالم الغيب، والتأثير المتبادل بينه وبين عالم الطبيعة وحياة الانسان

الاجتماعية، وهذه الافكار من القواعد الأساسية للرسالة والعقيدة الاسلامية. إضافة الى أن مجتمع أهل الكتاب كان يؤمن بهذه الاصول جميعها مع بعض الاختلاف في تفصيلها، فكان من الضروري أن يؤكد القسم المكي تأسيس هذه الاصول وتوضيح المفاهيم العامة عنها، انسجاماً مع طبيعة المرحلة المكية التي تعتبر مرحلة متقدمة، كما ان بيانها في هذه المرحلة يجعل المرحلة الثانية المدنية في غنى عن بيانها مرة أخرى، وتكون الحاجة حينئذ الى تناول التفصيلات الأخرى التي هي محل الاختلاف مع أهل الكتاب.

وبالنسبة الى الخصيصة الثالثة: فلعل تأكيد دور الاخلاق في القسم المكي دون المدني كان بسبب العوامل الثلاثة التالية:

أ- إن الاخلاق تعتبر قاعدة النظام الاجتماعي في نظر الاسلام، إضافة الى أنها هدف رسالي في تغيير الانسان وتربيته وتكامله، فتأكيد دورها يعني - في الحقيقة - ارساء لقاعدة النظام الاجتماعي الذي يستهدفه القرآن، وتحقيقاً للهدف في تربية الانسان ورقته.

ب - إن الدعوة كانت بحاجة - من اجل نجاحها - الى استشارة العواطف الانسانية الخيرة والفترة السليمة، ليكون نفوذها في المجتمع وتأثيرها في الافراد عن طريق مخاطبة هذه العواطف، والأخلاق هي الأساس الحقيقي لكل هذه العواطف، وهي الرصيد الذي يمدّها بالحياة والنمو.

ج - إن المجتمع المدني كان يمارس الأخلاق من خلال التطبيق الذي كان يبشره الرسول محمد ﷺ بنفسه، من خلال موقعه في قبة المجتمع الاسلامي، وبذلك يكون القدوة الطبيعية لهذا المجتمع، أو من خلال تطبيقه لهذه الاخلاق عملياً في العلاقات الاجتماعية القائمة، بعد ان تكون المجتمع الاسلامي وقامت اركانه، فلم يكن بحاجة - بنفس الدرجة - الى تأكيد المفاهيم الأخلاقية، على

العكس من المجتمع المكي الذي كان يعيش فيه المسلمون حياة الاضطهاد، وكان المجتمع يمارس التطبيق فيه للأخلاق الجاهلية، حيث يكون المجتمع بحاجة الى التأكيد المفاهيمي للأخلاق.

وبالنسبة للخصيصة الرابعة : نجد القصص تتناول - من حيث الموضوع - أكثر القضايا والنواحي التي عالجها القرآن الكريم، من العقيدة بالاله الواحد وعالم الغيب والوحي والأخلاق والبعث والجزاء، إضافة الى أنها تصور المراحل المتعددة للدعوة والمواقف المختلفة منها، والقوانين الاجتماعية والتأريخية التي تتحكم فيها وفي نتائجها، والمصير الذي يواجهه أعداؤها.

والى جانب ذلك تعتبر القصة في القرآن أحد اسباب الاعجاز فيه، وأحد الأدلة على ارتباطه بالسماء، كما سوف نتعرف على ذلك.

وكل هذه الأمور لها صلة وثيقة بالظروف التي كانت تمر بها الدعوة والرسالة الاسلامية في مكة، ولها تأثير كبير في تطويرها لصالح الدعوة واهدافها الرئيسية. ومع كل هذا لم يهمل القسم المدني القصة مطلقة، بل تناولها بالشكل الذي ينسجم مع طبيعة المرحلة التي تمر بها، كما سوف نتعرف على ذلك عند دراستنا للقصة.

وبالنسبة الى الخصيصة الخامسة : فقد كان لها ارتباط وثيق بجوانب مرحلية واعجازية، لأن المرحلة كانت تفرض كسر طوق الأفكار الجاهلية، الذي كان مضروباً على المجتمع، فكان لهذا الاسلوب الصاعق الحاد تأثير فعال في تذليل الصعوبات، وتحطيم معنويات المقاومة المضادة العنيفة.

وحين يتحدى القرآن الكريم العرب في أن يأتوا بسورة منه، يكون الايجاز في السورة أبلغ في ايضاح الاعجاز القرآني، واعمق تأثيراً وابعد مدى.

وقد كانت المعركة - إضافة الى ذلك كله في أولها - معركة شعارات وتوطيد مفاهيم عامة عن الكون والحياة، والايجاز والقصر ينسجم مع واقع المعركة

وطاها، أكثر من الدخول في تفصيلات واسعة، ولهذا نشاهد السور القصيرة تمثل المرحلة الاولى تقريباً من مراحل القسم المكي.

وهذه الابعاد لم تكن تتوفر في مجتمع المدينة بعد ان اصبح الاسلام هو الحاكم المسيطر على المجتمع، وبعد ان اصبحت مسألة الوحي والاتصال بالسما مسألة واضحة، وبعد ان جاء دور آخر للمعركة يفرض أسلوباً آخر في العرض والبيان. ومن هذا الدرس لخصائص ومميزات القسم المكي تتضح مبررات خصائص القسم المدني، من الدخول في تفصيلات الأحكام الشرعية والانظمة الاجتماعية، او مناقشة أهل الكتاب في عقائدهم وانحرافاتهم، حيث فرضته ظروف الحكم في المدينة.

وكذلك معالجة موقف المشركين، وقضية الجهاد والقتال معهم، واتخاذ المواقف السياسية والاجتماعية تجاههم.

والحديث عن ظاهرة النفاق في المجتمع الاسلامي، وأسبابها والمواقف تجاهها، وتوضيح طبيعة العلاقات السياسية في المجتمع، وموقع ولي الأمر فيها والحاجة الى تنظيم العلاقات بين الناس، كل ذلك يفرض الحاجة الى بيان هذه التفصيلات في التشريعات والأنظمة.

كما أنّ المعركة في المدينة انتقلت من الاصول والاسس العامة للعقيدة الى جوانب تفصيلية منها، ترتبط بمحدودها واشكالها وبالعامل على تقويم الانحراف الذي وضعه أهل الكتاب فيها، والأمراض التي يبتلى بها المجتمع في ظل الحكم الجديد، والضغط التي يواجهاها من قبل الانظمة الأخرى.

وبهذا نفسر الفرق بين المكي والمدني، بالشكل الذي ينسجم مع فكرتنا عن الهدف الأصيل للقرآن، وفكرتنا عن مراعاته للظروف من اجل تحقيق أهدافه وغاياته.

ثبوت النص القرآني

من البحوث القرآنية المهمة هذا البحث الذي نحن بصده؛ لان نتيجة هذا البحث سوف تؤكد لنا سلامة المضمون في النص القرآني، وسلامة الاسس والمفاهيم والاحكام المذكورة فيه .

والنكته موضوع البحث هي مدى مطابقة هذا النص القرآني - المثبت في المصحف الشريف - للوحي الذي نزل على الرسول الاعظم ﷺ بوصفه كلاماً إلهياً متعبداً بتلاوته، ومدى سلامة الطريقة التي وصلنا بها هذا النص، الامر الذي يجعله في منجاة عن التحريف والتشويه .

وحين نريد أن نرجع الى تأريخ هذا البحث نجده من البحوث القرآنية التي تناوّلها الباحثون منذ العصور الأولى للبحث القرآني، خصوصاً اذا نظرنا إليه من خلال النصوص والاحاديث التي تناولته .

ولكن الآراء العلمية تكاد تتفق على نتيجة واحدة وهي قطعية التطابق بين النص القرآني المتداول والوحي الذي نزل على الرسول الأعظم ﷺ بعنوانه قرآنًا .

ومع كل هذا نجد أنّ خلافاً نسب الى علماء الامامية وغيرهم في هذا الموضوع، حيث قيل عنهم : إنهم يقولون بتحريف القرآن الكريم .

كما أنّ شبهة التحريف اصبحت فيما بعد مجال الاستغلال المتنوع للطعن في القرآن الكريم من قبل مختلف التيارات الكافرة التي واجهها المسلمون في

عصورهم القديمة والحديثة، وكانت آخرها محاولات التبشير التي قادها المستشرقون وغيرهم للتشكيك في سلامة النص القرآني.

وعلى أساس كل من الخلافين نجد البحث حول هذه النقطة يواجه مسؤوليتين : الأولى : مسؤولية مناقشة هذه الشبهة وتحقيق فسادها وبطلانها على أساس الفرضية الاسلامية ومستلزماتها التي تعترف بالنصوص الدينية، القرآنية أو الصادرة من النبي ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام .

الثانية : مسؤولية مناقشة هذه الشبهة على أساس البحث الموضوعي وما تفرضه طبيعة الأشياء من نتائج دون الالتزام بالنصوص الدينية ومستلزمات الايمان ببعضها.

والمواجهة الأولى قد تبدو أنها اسهل منالاً ولكنها لا تحقق الغرض إلا تجاه الفرد المسلم الذي يؤمن بالاسلام ونصوصه الدينية ورجاله الطيبين، الأمر الذي يفرض علينا أن نعطي المواجهة الثانية حقها من الأهمية، لأنها تحقق الغرض بشكل شامل وتقطع الطريق على الشبهة عند كل واحد من الناس، حتى لو كان غير مؤمن بشيء من الفرضية الاسلامية.

ونكتفي هنا بأن نُشير - بصد المواجهة الأولى - الى أن الرأي السائد لدى علماء الامامية هو الالتزام بسلامة القرآن الكريم من التحريف، كما أن السيد الخوئي رحمته الله قد تحدث بشكل تفصيلي وجيد عن الشبهة حين تناوّلها في الاطار الاسلامي، وانتهى الى الحق الذي لا شبهة فيه وهو سلامة النص القرآني من التحريف ^(١).

لذا فسوف نخص بالبحث المواجهة الثانية، وندرس الشبهة على أساس موضوعي وبمقتضى ما تفرضه (طبيعة الأشياء) من نتائج.

تدوين القرآن في زمن النبي ﷺ :

إنَّ (طبيعة الأشياء) تدل بشكل واضح على أنَّ القرآن قد تم تدوينه في زمن النبي ﷺ.

ونقصد بطبيعة الأشياء : مجموع الظروف والخصائص الموضوعية والذاتية المسلمة واليقينية التي عاشها النبي والمسلمون والقرآن أو اختصوا بها، مما يجعلنا نقتنع بضرورة قيام النبي ﷺ بجمع القرآن في عهده؛ وهذه الظروف والخصائص هي ما يلي :

أ- يعتبر القرآن الكريم الدستور الأساسي للامة الاسلامية وهو يشكل الزواية الرئيسة التي يقوم عليها كيان الأمة العقيدي والتشريعي والثقافي الى جانب المناهج الاسلامية الأخرى عن المجتمع والاخلاق، كما انه يعتبر أتقن المصادر التاريخية لديها وأروع النصوص الأدبية؛ ولم يكن المسلمون في صدر حياتهم الاجتماعية يملكون شيئاً من القدرات الفكرية والثقافية في مختلف الميادين التي يخوضها الفكر الانساني غير القرآن الكريم، فالقرآن بالنسبة لهم بصفتهم أمة حديثة يمثل المحتوى الروحي والفكري والاجتماعي لهم.

فثلاً لم تكن الأمة الاسلامية حينذاك تملك من الثقافة العقيدية ما تبني عليها إيمانها الراسخ بوحدانية الله سبحانه والكون والحياة، أو بانحراف أصحاب الديانات الأخرى في نظرهم الى المبدأ والمعاد غير الادلة والبراهين القرآنية. والكلام ذاته يمكن ان يقال بالنسبة الى المجالات الأخرى، فكرية كانت أم روحية أم ثقافية.

كل هذا يعطينا صورة بارزة عن الأهمية الذاتية التي يتمتع بها القرآن الكريم بالنسبة الى حياة المسلمين، ويحدد النظرة التي يحملها المسلمون - باعتبارهم أمة - الى القرآن الكريم.

ب - لقد عكف المسلمون - منذ البدء - على حفظ القرآن واستظهاره، انطلاقاً من نظرهم الى القرآن الكريم، وشعوراً بالأهمية التي يحتلها في حياتهم الاجتماعية ومركزه من الدور الذي ينتظرهم في الحياة الانسانية.

وقد تكونت نتيجة هذا الاقبال المتزايد منهم على حفظه واستظهاره جماعة كبيرة، عرفت بحفظها القرآن الكريم واستظهارها لنصه بشكل مضبوط.

ولكن السؤال عن كفاية هذه الوسيلة في جعل القرآن بآمن عن التحريف والتزوير نتيجة للخطأ والاشتباه، أو تعرضهم لظروف وعوامل أخرى تمنعهم عن القيام بدورهم في حفظ النص القرآني من هذه الاخطار.

إن الصحابة الذين عرفوا بحفظ القرآن مهما بلغوا من الورع والتقوى والامانة والاخلاص فهم لا يخرجون عن كونهم اشخاصاً عاديين يعتورهم الخطأ والنسيان، كما أن ظرفهم التاريخي وطبيعة المسؤولية الملقاة على عاتقهم كانت تعرضهم للاستشهاد والقتل، والانتشار في الاقطار الاسلامية بغية الدعوة لله سبحانه؛ وكل هذه الامور التي كانت متوقعة تصبح خطراً على النص القرآني، اذا ترك مرتبطاً في حفظه بهذه الوسيلة ومرتبناً بهذا الاسلوب.

ويكفينا في تحقق هذا الخطر على النص القرآني أن يقع بعض الصحابة البعيدين عن المدينة المنورة في اشتباه معين في النص القرآني، ليقع الاختلاف بعد ذلك حيناً يفقد المسلمون المرجع الاصيل لضبط النص.

ونحن هنا لا نريد ان نقول: إن هذا الشيء قد تحقق فعلاً، وأن المسلمين قد وقعوا في هذا الاختلاف والخطأ، ولكن لا نريد أن نؤكد أن هذا الامر كان خطراً مائلاً يمكن أن يقع فيه المسلمون في بعض الظروف.

ج - وقد كان الرسول ﷺ يعيش مع الأمة في آمالها وآلامها، مدركاً لحاجاتها وواعياً للمسؤولية العظيمة التي تفرضها طبيعة الظروف المحيطة بتكوينها

و(الاحطار) التي تهددها. وهذا الادراك والوعي يكشف عنه الدور العظيم الذي قام به النبي منذ البعثة حتى وفاته عليه الصلاة والسلام؛ فقد عاش حياة الاضطهاد والضغط للذين كانا وليدي قيامه بالدعوة الى الله سبحانه وعمله على تغيير الأمة، وقلب واقعها الفكري والسياسي والاجتماعي؛ ومثل هذا الدور يحتاج الى مهارة عظيمة وإدراك دقيق لواقع المجتمع، وتقدير للآثار والنتائج مع فهم للنفس البشرية وما تنطوي عليه من خير وشر.

ثم عاش حياة القيادة وسياسة الأمة وادارة شؤونها في أصعب الظروف التاريخية، حيث انشاء الدولة وتوطيد التشريع والنظام في مجتمع كان لا يعرف -الا لوناً باهتاً- عن كل ما يمت الى المجتمعات البشرية المنظمة بصلة، كما كان يؤمن بمفاهيم وافكار بعيدة عن المفاهيم والافكار الجديدة التي جاء بها الاسلام فارس الحرب والجهاد، وبلى المكر والخداع والنفاق والارتداد، الى غير ذلك من الاساليب والظروف المختلفة في ابعادها وآثارها.

وكان النبي ﷺ أيضاً على معرفة بتاريخ الرسالات الالهية ونهايتها على يد المزورين والمحرفين وتجار الدين، كما يصرح بذلك القرآن الكريم وينعى على أهل الكتاب هذا التحريف والتزوير.

فالانسان الذي يكون قد خبر الحياة الانسانية بهذا الشكل، وحمل اعباء الرسالة والدعوة وقاد الانسان في مجاهل الظلام، حتى اورده مناهل النور والحق لا يمكن ان نشك في ادراكه لمدى ما يمكن ان يتعرض له النص القرآني من (خطر) حينما يربط مصيره بالحفظ والاستظهار في صدور الرجال.

د- ان امكانات التدوين والتسجيل كانت متوفرة لدى الرسول ﷺ حيث لا تعني هذه الامكانات حينئذ الا وجود اشخاص قادرين على الكتابة يتوفر فيهم الاخلاص في العمل الى جانب توفر ادوات الكتابة، وليس هناك من يشك

تأريخياً في تمكن المسلمين من كل ذلك .

هـ- ولا بد ان نعترف بوجود عنصر الاخلاص للقرآن الكريم واهدافه، اذ لا يمكن ان نجد من يشك في توفر ذلك لدى النبي ﷺ مهما بلغ ذلك الشخص من التطرف في الشك والتفكير. لأن النبي ﷺ حتى على أسوأ التقادير والفروض التي يفرضها الكافرون برسائله والمنكرون لنبوته لا يمكن إلا ان يكون مخلصاً للقرآن الكريم لأنه يؤمن بأن القرآن معجزته وبرهان دعوته الذي به تحدى المشركين وهو على هذا الايمان بالقرآن لا بد وان يحرص على حفظه وصيانتة ويكون مخلصاً في ذلك أبعد الاخلاص .

وهذه العناصر الخمسة : (أهمية القرآن الكريم، والخطر في تعرضه للتحريف بدون التدوين وادراك النبي ﷺ لهذا الخطر، ووجود امكانات التدوين، وحرص النبي ﷺ على القرآن والاخلاص له) هي التي تكوّن اليقين بأن القرآن الكريم قد تم جمعه وتدوينه في زمن الرسول ﷺ، لأن أهمية القرآن الذاتية، مع وجود الخطر عليه، والشعور بهذا الخطر، وتوفر ادوات التدوين والكتابة، ثم الاخلاص للقرآن حين تجتمع لا يبقى مجال للشك بتدوين القرآن في عهد رسول الله وكتابته في زمانه .

الشبهة حول طبيعة الأشياء :

وليس عندنا في مقابل دلالة طبيعة الأشياء على هذه الحقيقة غير الروايات التي جاءت تذكر أن القرآن الكريم قد جمع في عهد أبي بكر، حيث جمع القرآن من العصب والرقاق واللخاف ومن صدور الناس بشرط ان يشهد شاهدان على انه من القرآن، كما جاء ذلك في قصة جمع القرآن المروية عن زيد بن ثابت^(١) أو غيرها من النصوص التي تتحدث عن هذا الامر بطريقة أخرى.

(١) البخاري، باب جمع القرآن ٦ : ٨٩.

والواقع ان النصوص والروايات التي جاءت تتحدث عن قصة الجمع ليست متفقة على صيغة واحدة ولا على مضمون واحد، فهي تنسب الجمع الى اشخاص مختلفين، كما انها تختلف في زمان الجمع وطريقته والعهد الذي تم فيه^(١). وهي من اجل ذلك كله لا يمكن الأخذ بمضمونها الفعلي للتعارض الذي يسقطها عن الاعتبار والحجية - كما ذكر علماء الاصول - وانما يمكن ان نفسر وجودها بأحد تفسيرين :

الاول: أن هذه الروايات جاءت بصدد الحديث عن جمع القرآن بشكل (مصحف) منتظم الأوراق والصفحات، الأمر الذي تم في عهد الصحابة، وليست بصدد الحديث عن عملية اصل تدوين وجمع القرآن بمعنى كتابته عن بعض الأوراق المتفرقة أو صدور الرجال كما تشير إليه بعض هذه الأحاديث.

وهذا التفسير يقوم على اساس فرض الالتزام بصحة المضمون الاجمالي الذي تؤكد الروايات بأكملها وهو حدوث عملية جمع للقرآن الكريم بعد النبي ﷺ.

الثاني: أن هذه الروايات انما هي قصص وضعت في عهود متأخرة عن عهد الصحابة لاشباع رغبة عامة لدى المسلمين في معرفة كيفية جمع القرآن. ونحن نعرف من دراستنا للتأريخ الاسلامي أن حركة أدبية واسعة ظهرت في التأريخ الاسلامي لتفسير الوقائع والاحداث التي عاشها المسلمون في الصدر الاول على شكل قصة تتسم بالحيوية والبراعة والاثارة، بل امتد ذلك الى الاحداث الجاهلية، والقصة حين بدأت فإنما بدأت تعيش الاطار الديني وكان ذلك في اواخر عهد الصحابة وتطورت في عهد التابعين ونمت في عصور متأخرة واعتمدت بشكل رئيس على الاسرائيليات وعلى الوضع والخيال الذي يحاول ان يحقق اغراضاً اجتماعية أو سياسية أو نفسية أو ثقافية معينة.

(١) السيد الخوئي، البيان في تفسير القرآن : ٢٤٧ - ٢٤٩.

وهذه الحركة القصصية ليست بدعاً في التأريخ الاسلامي فحسب بل هي رغبة عامة عاشت في مختلف العصور التاريخية القديمة منها والحديثة، وما زلنا نشاهد القصة التي تعتمد على احداث ووقائع حقيقية وتختلط بصور وتفاصيل خيالية وتستمد مقوماتها واتجاهاتها واغراضها من الواقع الاجتماعي المعاش.

ونحن وإن كنا نرغب أن نتجه في تفسير هذه الاحاديث الى الطريقة الأولى، ولكن لا نجد مانعاً من طرح هذا التفسير الآخر كأساس للدراسة الموضوعية المفصلة لهذه الأحاديث وغيرها.

وإضافة الى ذلك كله نجد نصوصاً أخرى تصرح بأن القرآن الكريم قد تم جمعه في زمن الرسول ﷺ بحيث تصلح ان تقف في مواجهة هذه النصوص^(١).

ومن هذه النصوص ما رواه جماعة من المحدثين والحفاظ منهم ابن أبي شيبة، واحمد بن حنبل، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي، والضياء المقدسي، عن ابن عباس، قال: «قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على ان عمدتم الى الانفال وهي من المثاني، والى براءة وهي من المثني فقرنتم بينها ولم تكتبوا بينهما سطر: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾؟ ووضعتوهما في السبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه السورة ذات العدد، وكان اذا نزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الانفال من اول ما أنزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فن أجل ذلك قرنتم بينها، ولم اكتب بينهما سطر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ووضعتها

في السبع الطوال»^(١).

وروى الطبري، وابن عساكر عن الشعبي، قال :

« جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ستة نفر من الانصار: أبي بن كعب، وزيد ابن ثابت، ومعاذ بن جبل، وابو الدرداء، وسعيد بن عبيد، وأبو زيد، وكان جمع ابن جارية قد اخذه إلا سورتين أو ثلاثاً »^(٢).

وروى قتادة قال :

« سألت أنس بن مالك : من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ ؟ قال : اربعة كلهم من الانصار : أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد »^(٣).
وروى مسروق : ذكر عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود، فقال : « لا ازال أحبه، سمعت النبي ﷺ يقول خذوا القرآن من اربعة : من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب »^(٤).

وأخرج النسائي بسند صحيح، عن عبد الله بن عمر، قال :

« جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي ﷺ فقال : اقرأه من شهر... »^(٥).
ولا بد ان يكون المراد من (الجمع) في هذه الروايات (التدوين) إلا فلا يعقل أن يكون عدد الحفاظ هذا العدد المحدود.

إذن فمن الضروري ان نلتزم بأن القرآن الكريم قد تم جمعه وتدوينه زمن رسول الله ﷺ بشكل كامل متقن يمنع من تسرب التشويه والتزوير إليه.

(١) منتخب كنز العمال ٢ : ٤٨.

(٢) كنز العمال ٢ : ٥٨٩.

(٣) صحيح البخاري - باب القراء من أصحاب النبي ﷺ ٦ : ٢٠٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الاتقان، النوع ٢٠ / ١ : ١٢٤.

تحريف القرآن :

لا شك أنّ القرآن الكريم أصبح معروفاً ومتداولاً بشكل واسع ومدوناً بشكل مضبوط بعد عهد الخليفة عثمان، حيث تمت كتابة مجموعة من نسخ المصحف الشريف، وأرسل الى الآفاق الاسلامية بشكل رسمي من أجل العمل بها وتداولها، حيث اصدرت الاوامر الواضحة والمشددة بالمنع من تداول اي نسخة أخرى غير هذه النسخ.

ولا بد لنا من اجل إيضاح سلامة النص القرآني من التحريف ان نذكر الحالات التي يمكن ان نفترض وقوع التحريف فيها، مع مناقشة كل واحدة منها :

١ - ان يقع التحريف في عهد الشيخين بصورة عفوية دون قصد حذف شيء من القرآن، وذلك بسبب الغفلة عن بعض الآيات أو عدم وصولها الى ايديهم، كما تفرضه قصة جمع القرآن الكريم التي رواها البخاري.

٢ - ان يقع التحريف في عهد الشيخين مع فرض الاصرار منها عليه بشكل مسبق ومدرّوس.

٣ - ان يقع التحريف في عهد الخليفة عثمان.

٤ - ان يقع التحريف في عهد الأمويين، كما نسب ذلك الى الحجاج بن يوسف الثقفي.

وهناك حالة خامسة لا مجال أن نتصور وقوع التحريف فيها، وهي أن نفرض وقوعه من قبل بعض أفراد الرعية من الناس، لأن هؤلاء لا قدرة لهم على مثل هذا العمل مع وجود السلطة الدينية التي تعرف القرآن الكريم وتحميه من التلاعب، والتي هي المرجع الرسمي لتعيين آياته وكلماته لدى الناس.

أما الحالة الأولى : فيمكن ان تناقش من ناحيتين :

أ - النتيجة السابقة التي توصلنا إليها في دراستنا لتأريخ جمع القرآن وهي : أن

أصل عملية الجمع والتدوين تمت في زمن النبي ﷺ وحينئذ فإن القرآن الذي تم جمعه في عهد الرسول الأعظم ﷺ لا يمكن أن يكون إلا دقيقاً ومتقناً لرعاية الرسول لجمعه، ومع وجود هذا القرآن لا مجال لأن نتصور وقوع الغفلة أو الاشتباه من الشيخين أو من غيرهما، كما لا يمكن ان نحتمل عدم وصول بعض الآيات إليهم.

ب - توفر عوامل عديدة لوجود القرآن الكريم بأكمله لدى جماعة كبيرة من المسلمين، وهذا يشكل ضمانة حقيقية لوصول القرآن الكريم بكامله الى الدولة في عهد الشيخين دون نقیصة؛ وهذه العوامل يمكن أن نلخصها بالأسباب التالية :

١ - إن القرآن الكريم يعتبر من أروع النصوص الادبية وأبلغها تعبيراً ومضموناً، وقد كان العرب ذوي اهتمام بالغ بهذه النصوص، لأنها تكون ثقافتهم الخاصة سواء في الناحية التعبيرية أو في الناحية الفكرية والاجتماعية؛ ونجد آثار هذا الاهتمام ينعكس على حياتهم الخاصة والعامة، فيحفظون الشعر العربي والنصوص الادبية الأخرى ويستظفرونها، ويعقدون الندوات والأسواق للمباراة والتنافس في هذه المجالات، وقد يصل بهم الاهتمام الى درجة الاحتفاظ ببعض النصوص في أماكن مقدسة تعبيراً عن التقدير والاعجاب بهذا النص، كما يذكر ذلك بالنسبة الى المعلقات السبع أو العشر في الكعبة الشريفة.

وقد دفعت هذه العادة الشائعة بين العرب المسلمين - حينذاك - كثيراً منهم الى لفظ القرآن الكريم واستظهاره.

٢ - إن القرآن الكريم كان يشكل بالنسبة الى المسلمين حجر الزاوية الرئيسة في ثقافتهم وافكارهم وعقيدتهم، وقد تعرفنا على ذلك في النقطة الاولى من طبيعة الاشياء التي سقناها لابرار مدى اهتمام المسلمين بالقرآن.

وكما أن هذا الامر دفع النبي ﷺ لتدوين القرآن الكريم لحفظه من الضياع،

كذلك دفع المسلمين الى استظهار القرآن الكريم وحفظه بدافع الاحتفاظ بأفكاره وثقافته ومفاهيمه والتعرف على السنن والتشريعات الاسلامية التي تضمنها.

٣- إن القرآن الكريم - على اساس ما يحتويه من ثقافة - كان يعطي الجامع له امتيازاً اجتماعياً بين الناس، يشبه الامتياز الذي يحصل عليه العلماء من الناس في عصرنا الحاضر.

وتعتبر هذه الميزة الاجتماعية احدى العوامل المهمة لتدارس العلوم وتحصيلها في جميع العصور الانسانية؛ فمن الطبيعي أن تكون احدى العناصر المؤثرة في استظهار القرآن الكريم وحفظه.

وقد حدثنا التاريخ عن الدور الذي كان يتمتع به القراء في المجتمع الاسلامي بشكل عام، وعن القداسة التي كان ينظر إليهم بها المسلمون.

٤ - لقد كان النبي ﷺ رائداً للأمة الاسلامية وموجهاً لها يحرض المسلمين ويحثهم على حفظ القرآن واستظهاره.

ونحن نعرف ما كان يتمتع به النبي ﷺ من حب عظيم في نفوس كثير من المسلمين، وما كان يملكه من قدرة على التأثير في حياتهم وسلوكهم، الامر الذي كان يدفع المسلمين الى الاستجابة له في كثير من التوجيهات، دون الالتفات الى مدى لزومها الشرعي.

٥ - الثواب الجزيل الذي وضعه الله سبحانه لقراء القرآن وحفظته ورغبة كثير من المسلمين حينذاك في الاستزادة من هذا الثواب، خصوصاً أنهم كانوا جديدي عهد بالاسلام، فهم يحاولون أن ينعكس الاسلام على جميع تصرفاتهم.

وقد كان لبعض هذه العوامل أو جميعها تأثير بالغ الأهمية في حياة المسلمين، حيث حدثنا التاريخ الاسلامي عن وجود جماعات كثيرة من المسلمين عرفوا بالقراء من ذوي العقيدة الصلدة، كان لهم دورهم في الحياة الاجتماعية وميزتهم في

ترجيح جانب على آخر عند الخلافات السياسية التي عاشها المسلمون.

٦ - وإضافة الى ذلك تفرض طبيعة الاشياء أن يكون قد دون القرآن الكريم وكتبه كل مسلم عنده القدرة على التدوين والكتابة، لأن اي جماعة أو أمة تهتم بشيء وترى فيه معبراً عن جانب كبير من جوانب حياتها فهي تعمل على حفظه بوسائل شتى، ولا شك ان الكتابة - عند من يتقنها - من ايسر هذه الوسائل وأسهلها.

ولذلك نجد بعض النصوص تُشير الى وجود عدد من المصاحف أو قطعات مختلفة منه عند كثير من الصحابة.

ولا بد لنا ان ننتهي الى أن القرآن الكريم بسبب هذه العوامل كان موجوداً في متناول الصحابة، ولم يكن من المعقول فرض التحريف نتيجة الغفلة أو الاشتباه او عدم وصول بعض الآيات القرآنية.

واما الحالة الثانية :

فهي فرضية غير صادقة اطلاقاً، لأن دراسة عهد الشيخين والظروف المحيطة بهما تجعلنا ننتهي الى هذا الحكم وتكذيب هذه الفرضية.

ذلك لأن التحريف المتعمد يمكن ان يكون لأحد السببين التاليين :

أولاً: أن يكون بسبب رغبة شخصية في التحريف.

ثانياً: أن يكون بدافع تحقيق اهداف سياسية؛ كأن يفرض وجود آيات قرآنية تنص على موضوعات ومفاهيم خاصة تتنافى مع وجودهما أو متبنياتها السياسية مثل النص على علي عليه السلام أو الطعن بهما.

اما بالنسبة الى السبب الاول، فنلاحظ عدة أمور :

١ - إن قيام الشيخين بذلك يعني في الحقيقة نفس القاعدة التي يقوم عليها الحكم حينذاك، حيث إنه يقوم على اساس الخلافة لرسول الله والقيومة على

الأمة الاسلامية وليس من المعقول ان يقدموا على تحريف القرآن ويعملوا على معاداة الاسلام دون تحقيق اي مكسب ديني أو دنيوي، وهل يعني ذلك الافتح الطريق امام المعارضة التي كانت موجودة لتشن هجوماً مركزاً يملك أقوى الأسلحة التي يمكن استخدامها حينذاك؟!

٢- إن الأمة الاسلامية كانت تشكل حينذاك ضمانة اجتماعية وسياسية قوية تمنع قيام احد من الناس مهما كان يملك من قدرة وقوة بمثل هذه العمل المضاد للاسلام دون ان يكون لهذا العمل رد فعل قوي في صفوفها، لأن المسلمين كانوا ينظرون الى القرآن الكريم على أنه شيء مقدس غاية التقديس، وأنه كلام الله سبحانه الذي لا يقبل اي تغيير أو تبديل حتى من قبل الرسول نفسه كما اكد ذلك القرآن الكريم^(١). كما أنهم ناضلوا وجاهدوا في سبيل مفاهيم القرآن وآياته واحكامه التي كانت تعيش حركتهم لمدة ثلاثة وعشرين عاماً، وضخوا بأنفسهم من أجل هذا الدين الجديد الذي كان يشكل التصرف في القرآن - في نظرهم - خروجاً عنه وارتداداً عن الالتزام به.

٣- إن الحكم في عهد الشيخين لم يسلم من وجود المعارضة التي كانت ترفع اصواتها احياناً من أجل خطأ يقع فيه الخليفة في تطبيق بعض الاحكام، ومع هذا لا نجد في التأريخ أية اشارة الى الاحتجاج أو ما يشبه الاحتجاج مما يشير الى وقوع هذه الفرضية، فكيف يمكن أن تسكت المعارضة في كلامها وأقوالها زمن الشيخين أو بعدهم عن كل ذلك؟!

ومن هنا يتضح موقفنا من السبب الثاني :

فأولاً: إن وعي الأمة ونظرتها المقدسة للكتاب وصلته بالله بشكل لا يقبل التغيير والتبديل لا يسمح بوقوع مثل هذا العمل مطلقاً.

(١) ﴿... قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع إلا ما يوحى إلي...﴾ يونس : ١٥ .

ثانياً: إنّ المعارضة لا يمكن أن تترك هذه الفرصة تمر دون أن تستغلها في صراعها مع العهد والخليفة، مع أنّنا لا نجد اشارة الى ذلك في كلامهم.

ثالثاً: إنّ هناك نصوصاً سياسية واسعة تضمنت ملاحظات حول تصرفات الخليفة ابي بكر وعمر، مثل المناقشة السياسية التي شنتها الزهراء عليها السلام ومن بعدها أمير المؤمنين عليه السلام وجماعته المؤمنون بامامته لم تتناول أي نص قرآني غير مدون في القرآن الكريم الموجود بين أيدينا، ولو كان مثل هذا النص موجوداً في القرآن لكان من الطبيعي ان يستعملوه أداة لكسب المعركة الى جانبهم وإظهار الحق الذي ناضلوا من اجله.

واما الحالة الثالثة: فهي تبدو أكثر استحالة وبعداً عن الحقيقة التاريخية من سابقتها، وذلك للأسباب التالية :

أولاً: إنّ الاسلام - والى جنبه القرآن الكريم - قد اصبح منتشرأ بشكل كبير بين الناس وفي آفاق مختلفة، وقد مرّ على المسلمين زمن كبير يتداولونه أو يتدارسونه، فلم يكن في ميسور عثمان - لو اراد ان يفعل ذلك - ان ينقص منه شيئاً، بل ولم يكن ذلك في ميسور من هو اعظم شأنأ من عثمان، وقد اعترض المسلمون بالفعل على عثمان وقتلوه لأسباب مختلفة.

ثانياً: إنّ النقص إمّا أن يكون في آيات لا مساس فيها بخلافة عثمان، وحينئذ فلا يوجد اي داع لعثمان ان يفتح ثغرة كبيرة في كيانه السياسي، وإمّا أن يكون في آيات تمس خلافة عثمان وامامته السياسية، فقد كان من المفروض ان تؤثر مثل هذه الآيات في خلافة عثمان نفسه، فتقطع الطريق عليه في الوصول الى الخلافة.

ثالثاً: إنّ الخليفة عثمان لو كان قد حرف القرآن الكريم لاتخذ المسلمون ذلك أفضل وسيلة لتسويق الثورة عليه واقصائه عن الحكم أو قتله، مع أنّنا لا نجد في مبررات الثورة على عثمان شيئاً من هذا القليل، ولما كانوا في حاجة للتذرع في

شبهتان حول الجمع في عهد الشيخين ومناقشتهما :

وهناك بعض الشبهات الأخرى^(١) تثار حول فرضية الجمع في عهد الشيخين أيضاً نذكر منها الشبهتين التاليتين. ولعل من الجدير بالذكر أنَّ هاتين الشبهتين قد أُثيرتا في الابحاث الاسلامية كما اثرت في ابحاث المستشرقين ومقلديهم من الباحثين.

الشبهة الاولى :

إنَّ بعض النصوص التاريخية المروية عن أهل البيت عليهم السلام وغيرهم تذكر وجود مصحف خاص لعلي بن ابي طالب عليه السلام يختلف عن المصحف الموجود المتداول بين المسلمين في الوقت الحاضر. ويشتمل هذا المصحف على زيادات وموضوعات ليست موجودة في المصحف المعروف.

وتتحدث هذه النصوص عن مجيء علي بن ابي طالب عليه السلام بهذا المصحف الى الخليفة الاول ابي بكر، بقصد أن يأخذ المصحف المذكور مكانه من التنفيذ بين المسلمين، ولكن ابا بكر لم يقبل ذلك ورفض هذا المصحف.

ولما كان علي بن ابي طالب أفضل الصحابة علماً وديناً والتزاماً بالاسلام وحفاظاً عليه فن الواضح حينئذ أن يكون المصحف الموجود فعلاً قد دخل عليه التحريف والنقصان، نتيجة للطريقة الخاطئة التي اتبعت في جمعه والتي عرفنا بعض تفاصيلها.

ومن اجل إيضاح هذه الشبهة يورد أنصارها بعض هذه النصوص التاريخية

وهي :

١ - النص الذي جاء في احتجاج علي عليه السلام على جماعة من المهاجرين والانصار : فقال له علي عليه السلام يا طلحة ان كل آية أنزلها الله - جل وعلا - على محمد

(١) اعتمدنا بصورة رئيسة في هذا البحث على ما كتبه استاذنا الكبير آية الله السيد الخوئي رحمته الله

عندي باملاء رسول الله وخط يدي؛ وتأويل كل آية أنزلها الله على محمد وكل حرام وحلال أو حد أو حكم أو شيء تحتاج إليه الامة الى يوم القيامة مكتوب باملاء رسول الله ﷺ وخط يدي حتى ارش الخدش^(١).

٢ - النص الذي يتحدث عن احتجاج علي عليه السلام على الزنديق، والذي جاء فيه : أنه اتى بالكتاب على الملأ مشتملاً على التأويل والتنزيل والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ، لم يسقط منه حرف الف ولا لام فلم يقبلوا منه^(٢).

٣ - النص الذي رواه محمد بن يعقوب الكليني في الكافي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال : ما يستطيع احد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله، ظاهره وباطنه غير الاوصياء^(٣).

٤ - النص الذي رواه محمد بن يعقوب الكليني أيضاً في الكافي عن الباقر عليه السلام أنه : ما ادعى احد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا علي بن ابي طالب عليه السلام والائمة من بعده عليهم السلام.

وتناقش هذه الشبهة : أنه قد يفترض وجود مصحف لعلي عليه السلام يختلف مع المصحف الموجود فعلاً من حيث الترتيب، بل قد يختلف عنه أيضاً لوجود اضافات أخرى فيه.

ولكن الكلام في حقيقة هذه الزيادة؛ اذ لا دليل على أنها زيادات قرآنية، وانما تفسير هذه الزيادات على أنها تأويلات للنص القرآني، بمعنى ما يؤول إليه الشيء أو أنها تنزيلات من الوحي الالهي نزلت على صدر رسول الله ﷺ في تفسير وشرح القرآن وعلمها اخاه علي بن ابي طالب عليه السلام.

(١) احتجاج الطبرسي ١ : ٢٢٣.

(٢) تفسير الصافي المقدمة السادسة : ١١.

(٣) اصول الكافي ١ : ٢٢٨.

فهدموا وأما العترة فقتلوا، وكل ودائع الله قد نبذوا ومنها قد تبرؤا.

٣ - عن علي بن سويد قال كتبت الى أبي الحسن موسى عليه السلام وهو في الحبس كتاباً ... الى أن ذكر جوابه عليه السلام بتمامه وفيه قوله عليه السلام : «أؤتمنوا على كتاب الله فحرفوه وبدلوه».

٤ - عن عبد الأعلى قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إن أصحاب العريية يحرفون كلام الله عز وجل عن مواضعه .

ولا دلالة في هذه الروايات جميعها على وقوع التحريف في القرآن الكريم بمعنى الزيادة والنقيصة، وإنما تدل على وقوع التحريف فيه بمعنى حمل بعض الفاظه على غير معانيها المقصودة لله سبحانه ومن ثم تحريفها عن أهدافها ومقاصدها .

ونحن في الوقت الذي لا نشك بوقوع مثل هذا التحريف في القرآن الكريم من قبل بعض المسلمين عن قصد أو بدون قصد نظراً لاختلاف تفاسير القرآن وتباينها لا نرى فيه ما يضر عظمة القرآن أو يفيد في تأييد هذه الشبهة، بل إن القرآن في الآية السابعة من آل عمران التي تحدثت فيها عن المحكم والمتشابه أشار الى هذا النوع من التحريف، كما دلّت الرواية التي رواها الكليني في الكافي عن الامام الباقر عليه السلام في رسالته الى سعد الخير : «وكان من نبذهم الكتاب أن اقاموا حروفه وحرفوا حدوده فهم يرونه ولا يرعونه والجهال يعجبهم حفظهم للرواية والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية ...»^(١).

وقد يدل بعضها على تحريف بعض الكلمات القرآنية بمعنى قراءتها بشكل يختلف عن القراءة التي انزلت على صدر رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا ينسجم مع الرأي الذي ينكر تواتر القراءات السبع ويرى أنها نتيجة لاختلاف الرواية أو الاجتهاد، أو لأسباب أخرى ذاتية أو مذهبية أو سياسية.

(١) الروضة من الكافي - رسالة سعد الخير ١١ : ٣٥٢ شرح المازندراني . ط : طهران .

القسم الثاني :

الروايات التي تدل على أن القرآن الكريم قد صرح بذكر بعض أسماء أئمة أهل البيت عليهم السلام، أو تحدث عن خلافتهم بشكل واضح ومنها النصوص التالية :

١ - عن محمد بن الفضيل عن الحسن عليه السلام قال : ولاية علي بن أبي طالب مكتوبة في جميع صحف الانبياء، ولن يبعث الله رسولاً الا بنبوة محمد وولاية وصيه صلى الله عليهما وآلهما.

٢ - رواية العياشي عن الصادق عليه السلام لو قرئ القرآن كما نزل لألفيتنا فيه مسمين^(١).

٣ - رواية الكافي والعياشي عن الاصبع بن نباتة قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : القرآن نزل على أربعة أرباع : ربع فينا وربع في عدونا، وربع سنن وامثال، وربع فرائض واحكام ولنا كرائم القرآن^(٢).

والموقف تجاه هذا القسم من النصوص يتخذ أشكالا ثلاثة :

الاول : أننا قد ذكرنا سابقاً أن بعض التنزيل ليس من القرآن الكريم، وانما هو مما أوحى الى النبي صلى الله عليه وآله ولعل هذا هو المقصود من هذه الروايات، حيث جاء ذكرهم في التنزيل تفسيراً لبعض الآيات القرآنية لا جزءاً من القرآن الكريم نفسه .

الثاني : أننا نكون مضطرين لرفض هذه الروايات إن لم نوفق لتفسيرها بطريقة تنسجم مع القول بصيانة القرآن الكريم من التحريف للسببين التاليين :

أ - مخالفة هذه الروايات للكتاب الكريم، وقد وردت نصوص عديدة من طريق أهل البيت تدل على ضرورة عرض اخبار أهل البيت على القرآن الكريم

(١) تفسير العياشي ١ : ١٣ .

(٢) المصدر السابق : ٩ .

ويناقش هذا القسم من الروايات بما يلي :

أولاً: إنّ الامة الاسلامية بمذاهبها المختلفة أجمعت على عدم وقوع التحريف في القرآن الكريم بالزيادة، إضافة الى وجود النصوص الكثيرة الدالة على عدم وجود مثل هذا التحريف.

ثانياً: إنّ هذا القسم يتنافى مع الكتاب نفسه. وقد أمر الائمة من أهل البيت عليهم السلام بلزوم عرض احاديثهم على الكتاب الكريم، وان ما خالف الكتاب فيضرب عرض الجدار.

القسم الرابع :

الروايات التي دلت على أنّ القرآن الكريم قد تعرض للنقصان فقط؛ مثل ما رواه الكليني في الكافي عن احمد بن محمد بن ابي نصر: «قال دفع اليّ أبو الحسن عليه السلام مصحفاً وقال لا تنظر فيه ففتحته وقرأت فيه: ﴿لم يكن الذين كفروا...﴾ فوجدت فيها اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم واسماء آبائهم. قال: فبعثت إليّ: ابعث إليّ بالمصحف»^(١).

ويناقش هذا القسم بان الزيادة الموجودة في مصحف ابي الحسن عليه السلام أو غيره تحمل على ما سبقت الاشارة إليه من أنّها في مقام تفسير بعض الآيات؛ وفي المورد الذي لا يمكن ان يتم فيه مثل هذا الحمل والتفسير لابد من طرح الرواية تمسكاً بالكتاب الكريم الذي امرنا أهل البيت عليهم السلام بعرض احاديثهم عليه قبل الأخذ بمضمونها.

القسم الثاني

أبحاث في القرآن

- ١- اعجاز القرآن .
- ٢- المحكم والمتشابه في القرآن .
- ٣- النسخ في القرآن .

حرارته يطبق قانوناً طبيعياً عرفه الناس عن طريق الحس والتجربة، وهو انتقال الحرارة من الجسم الحار الى الجسم الذي يحاوره؛ وأما من ادعى أنه يجعل الماء حاراً بدون الاستعانة بأي طاقة حرارية، وحقق ذلك فعلاً فهو يتحدى قوانين الطبيعة التي يكشف عنها الحس والتجربة، ومن أبرأ مريضاً باعطائه مادة مضادة للميكروب الذي أمرضه، يطبق قانوناً طبيعياً يعرفه بالتجربة، وهو ان هذه المادة بطبيعتها تقتل الميكروب الخاص، واما من أبرأ المريض بدون اعطاء اي مادة مضادة فهو يتحدى قوانين الطبيعة التي يعرفها الناس بالتجربة، ويحقق المعجزة. فاذا أتى النبي بمعجزة من هذا القبيل كانت برهاناً على ارتباطه بالله تعالى، وصدقه في دعوى النبوة، لان الانسان بقدرته الاعتيادية لا يمكنه ان يغير في الكون شيئاً، الا بالاستفادة من القوانين الكونية التي يعرفها عن طريق الحس والتجربة، فاذا استطاع الفرد أن يحقق تغييراً يتحدى به هذه القوانين، فهو انسان يستمد قدرة استثنائية من الله تعالى، ويرتبط به ارتباطاً يميزه عن الآخرين، الامر الذي يفرض علينا تصديقه اذا ادعى النبوة.

الفرق بين المعجزة والابتكار العلمي :

وفي ضوء ما قلناه نعرف أن سبق النوابع من العلماء في الحقول العلمية، لا يعتبر معجزة، فاذا افترضنا أن شخصاً من العلماء اليوم سبق انداده، ونجح في اكتشاف الورم السرطاني مثلاً، والمادة التي تقضي عليه فهو يستطيع بحكم اكتشافه ان يبرئ مريضاً من السرطان، بينما يعجز عن ذلك جميع العلماء الآخرين، ولكن عمله هذا ليس معجزة لأنه انما يتحدى جهل العلماء الآخرين بالسر والعلّة والدواء، ولا يتحدى القوانين الكونية التي تثبت بالحس والتجربة، بل هو انما استطاع ان يبرئ المريض من السرطان على اساس تجربة فذة قام بها في مختبره

العلمي، فاكشف قانوناً لم يعرفه غيره حتى الآن؛ ومن الواضح أنّ معرفته بالقانون الطبيعي عن طريق التجربة، ليست تحدياً للقانون، وانما هي تطبيق للقانون الطبيعي، وقد تحدى بذلك زملاءه الذين عجزوا عن اكتشاف القانون قبله.

القرآن هو المعجزة الكبرى :

وما دمنّا قد عرفنا أنّ المعجزة هي أن يحدث النبي تغييراً في الكون يتحدى به القوانين الطبيعية فمن الميسور أن نطبق فكرتنا هذه عن المعجزة على (القرآن الكريم)، الذي احدث تغييراً كبيراً جداً، وثورة كبرى في حياة الانسان لا تتفق مع المألوف والمجرب من القوانين الكونية والسنن التاريخية للمجتمع.

فنحن اذا درسنا الوضع العالمي، والوضع العربي والحجازي بصورة خاصة، وحياة النبي قبل البعثة، ومختلف العوامل والمؤثرات التي كانت متوفرة في بيئته ومحيطه، ثم قارنا ذلك بما جاء به الكتاب الكريم، من رسالة عظمى تتحدى كل تلك العوامل والمؤثرات، وما احدثه هذا الكتاب من تغيير شامل كامل، وبناء لأمة تملك اعظم المقومات والمؤهلات، اذا لاحظنا كل ذلك وجدنا أنّ القرآن معجزة كبرى، ليس لها نظير لأنه لم يكن نتيجة طبيعية لتلك البيئة المتخلفة بكل ما تضم من عوامل ومؤثرات، فوجوده إذن يتحدى القوانين الطبيعية ويعلو عليها، وهدايته وعمق تأثيره لا تفسره تلك العوامل والمؤثرات.

ولكي يتجلى ذلك بوضوح يمكننا ان نستعرض البيئة التي ادى فيها القرآن رسالته الكبرى ونقارن بينها وبين البيئة التي صنعها، والأمة التي أوجدها.

بعض أدلة اعجاز القرآن :

وهذا الصدد يجب أن نأخذ النقاط التالية بعين الاعتبار، والتي يمكن ان تكون

كل واحدة منها دليلاً على إعجاز القرآن :

١ - ان القرآن شع على العالم من جزيرة العرب، ومن مكة بصورة خاصة، وهي منطقة لم تمارس أي لون من ألوان الحضارة والمدنية، التي مارستها مختلف المجتمعات الراقية نسبياً يومئذ؛ وكانت هذه أولى المفارقات التي برهنت على أن الكتاب لم يجر وفق القوانين الطبيعية الاعتيادية، لأن هذه القوانين التجريبية تحكم بأن الكتاب مرآة لثقافة عصره ومجتمعه، الذي عاشه صاحب الكتاب، وتتقف فيه، فهو يعبر عن مستوى من مستويات الثقافة في ذلك المجتمع، أو يعبر على أفضل تقدير عن خطوة الى الامام في تلك الثقافة، وأما ان يطفر الكتاب طفرة كبيرة جداً، ويأتي - بدون سابق مقدمات وبلا ارهاصات - بثقافة من نوع آخر لامت الى الافكار السائدة بصلة ولا تستلهمها، وانما تقلبها رأساً على عقب، فهذا ما لا يتفق مع طبيعة الاشياء في حدود التجربة التي عاشها الناس في كل عصر. وهذا ما وقع للقرآن تماماً فانه اختار اكثر المناطق والمجتمعات تأخراً وبدائية، وضيق افق، وبعداً عن التيارات الفلسفية والعلمية، ليفاجئ العالم بثقافة جديدة، كان العالم كله بحاجة اليها، وليثبت أنه ليس تعبيراً عن الفكر السائد في مجتمعه، ولا خطوة محدودة الى الامام، وانما هو شيء جديد بدون سابق مقدمات. وهكذا نعرف أن اختيار البيئة والمجتمع، كان هو التحدي الاول للقوانين الطبيعية التي تقتضي ان تولد الثقافة الجديدة في ارقى البيئات من الناحية الفكرية والاجتماعية.

٢ - إن القرآن بشر به النبي، وأعلنه على العالم فرداً من أفراد المجتمع المكي، ممن لم ينل ما يناله حتى المكيون من الوان التعلم والتثقيف، فهو أمي، لا يقرأ ولا يكتب، وقد عاش بين قومه اربعين سنة فلم تؤثر عنه طيلة هذه المدة محاولة تعلم أو اثارة من علم أو ادب، كما اشار القرآن الى ذلك :

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون ﴾ ^(١).
 ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ ^(٢).

وهذا يعتبر تحدياً آخر من القرآن للقوانين الطبيعية، إذ لو كان القرآن جارياً وفق هذه القوانين، لما كان من الممكن أن يجيء به فرد أمي، لم يشارك حتى في ثقافة مجتمعه، بالرغم من بساطتها، ولم يؤثر عنه أي بروز في عالم اللغة بمختلف مجالاتها، فيبذ به الانتاج الادبي كله ويهبر بروعته وحكمته وبلاغته، أعظم البلغاء والعلماء.

فهل رأيت في مجرى القوانين الطبيعية شخصاً جاهلاً بالطب لم يدرس عنه شيئاً يتقدم بكتاب في الطب يهبر عقول الاطباء بما يضم من اسرار العلم وآياته؟ وهل رأيت في مجراها شخصاً لا يحسن أن يكتب في لغة ما، ولا يجيد شيئاً من علومها يأتي بالرائعة التاريخية في حياة تلك اللغة، ويكشف عن امكانيات ادبية كبيرة جداً في تلك اللغة لم تكن تخطر على بال حتى يتصور الناس أنه ساحر؟

والواقع أن المشركين في عصر (البعثة النبوية) أحسوا بهذا التحدي العظيم وكانوا حائرين في كيفية تفسيره، ولا يجدون تفسيراً معقولاً له وفق القوانين الطبيعية، ولدينا عدة نصوص تاريخية تصور حيرتهم في تفسير القرآن وموقفهم، القلق من تحديه للقوانين والعادات الطبيعية.

فمن ذلك أن الوليد بن المغيرة استمع يوماً إلى النبي في المسجد الحرام وهو يقرأ القرآن فانطلق إلى مجلس قومه بني مخزوم فقال: «والله لقد سمعت من محمد أنفاً

(١) العنكبوت : ٤٨.

(٢) يونس : ١٦.

كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمعذوق وانه ليعلو وما يعلو»^(١) ثم انصرف الى منزله فقالت قريش : صبا والله الوليد والله ليصبأن قريش كلهم، فقال ابو جهل : انا أكفيكموه، فانطلق فقعد الى جانب الوليد حزينا، فقال له الوليد مالي اراك حزينا يا بن أخي ؟ فقال له : هذه قريش يصيبونك على كبر سنك، ويزعمون انك زينت كلام محمد، فقام الوليد مع ابي جهل حتى اتى مجلس قومه، فقال لهم : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟! فقالوا : اللهم لا، فقال : تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك ؟! قالوا : اللهم لا، فقال : تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟! قالوا : اللهم لا، قال : تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟! فقالوا : اللهم لا، فاهو اذن ؟ فغرق الوليد في الفكر ثم قال : ما هو الا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فنزل قوله تعالى : ﴿ انه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم ادبر واستكبر * فقال ان هذا الا سحر يؤثر ﴾^(٢).

وقد افترض بعض العرب - لتعليل هذه الحيرة امام تحدي القرآن لهم بنزوله على شخص أُمي - ان يكون احد من البشر قد علم النبي القرآن، ولم يجروا وهم الاميون على دعوى تعلمه من احد منهم، فقد ادركوا بالفطرة أن الجاهل لا يعلم الناس شيئاً، وانما زعموا أن غلاماً رومياً اعجمياً نصرانياً، يشتغل في مكة قيناً (حداداً) يصنع السيوف، هو الذي علم النبي القرآن، وكان ذلك الغلام على عاميته يعرف القراءة والكتابة؛ وقد تحدث القرآن الكريم عن افتراض العرب هذا، ورد عليه رداً بديهاً قال تعالى : ﴿ ... لسان الذي يلحدون إليه اعجمي وهذا

(١) البداية والنهاية ٣ : ٧٨.

(٢) المدثر : ١٨ - ٢٤.

لسان عربي مبين ﴿١﴾.

٣ - إنّ القرآن الكريم يمتد بنظره الى الغيب المجهول في الماضي البعيد وفي المستقبل على السواء، فهو يقص أحسن القصص عن أمم خلت، وما وقع في حياتها من عظات وعبر، وما اكتنفها من مضاعفات، يتحدث عن كل ذلك حديث من شاهد الاحداث كلها، وراقب جريانها، وعاش في عصرها بين اصحابها، قال الله تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين﴾ (٢). وقال: ﴿وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين﴾ ولكننا انشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين ﴿٣﴾. وقال: ﴿ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون﴾ (٤).

وكل هذه الآيات الكريمة تؤكد تحدي القرآن للقوانين الطبيعية في استيعابه لتلك الاحداث، واحاطته بالماضي المجهول، اذ كيف يمكن بحكم القوانين الطبيعية أن يتحدث شخص في كتاب عن أحداث أمم في الماضي السحيق لم يعيشها ولم يعاصرها؟

وقد احسّ المشركون بهذا التحدي أيضاً: ﴿وقالوا أساطير الاولين اكتبها فهي تُملئ عليه بكرةً واصيلاً﴾ (٥). وكانت حياة محمد ﷺ رداً مفحماً لهم، فقد عاش

(١) النحل : ١٠٣.

(٢) هود : ٤٩.

(٣) القصص : ٤٤، ٤٥.

(٤) آل عمران : ٤٤.

(٥) الفرقان : ٥.

في مكة ولم تنهياً له أية دراسة لاساطير الاولين، أو كتب العهدين : التوراة والانجيل، ولم يخرج من المنطقة الا مرتين، سافر فيها الى الشام، احداهما : في طفولته مع عمه لقي فيها بحيرا، وهو ابن تسع سنين، فقال هذا الراهب لعمه : « سيكون لابن اخيك هذا شأن عظيم »^(١). والأخرى : في تجارة خديجة وهو شاب وكان بصحبته ميسرة غلام خديجة، ولم يتجاوز ﷺ سوى مدينة بصرى، في كلتا الرحلتين القصيرتين؛ فأين تأتى للنبي ان يدرس التوراة أو يكتب اساطير الاولين؟!

والحقيقة ان مقارنة القصص التي جاءت في القرآن الكريم بالعهد القديم تؤكد التحدي، اذ تبرز اعجاز القرآن بصورة اوضح، لأن التوراة التي شهد القرآن بتحريفها كانت قصصها وأحاديثها - عن ماضي الأمم واحداثها - مشحونة بالمخرفات والاساطير وما يُسيء الى كرامة الانبياء، ويتعد بالقصة عن اهداف التبليغ والدعوة، بينما نجد قصص تلك الأمم في القرآن، قد نقيت من تلك العناصر الغريبة، وأبرزت فيها الجوانب التي تتصل بأهداف التبليغ، واستعرضت بوصفها عظة وعبرة لا مجرد تجميع اعمى للمعلومات.

وكما كان القرآن محيطاً بالماضي، كذلك كان محيطاً بالمستقبل، فكم من خبر مستقبل كشف القرآن حجابَه فتحقق وفقاً لما أخبر به، ورآه المشركون؛ ومن هذا القليل أخبار القرآن بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، اذ قال تعالى: ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي ادْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بضع سنين ... ﴾^(٢).

وقد أخبر القرآن بذلك على أعقاب هزيمة فضيعة مُني بها الروم، وانتصار

(١) بحار الانوار ٣٥ : ١٣٩.

(٢) الروم : ٢ - ٤.

ساحق سجله الفرس عليهم، ففرح المشركون بذلك لأنهم رأوا فيه انتصاراً للشرك والوثنية على رسالات السماء، نظراً إلى أن الفرس المنتصرين كانوا وثنيين والروم كانوا نصارى، فزل القرآن يؤكد انتصار الروم في المستقبل القريب، فهل يمكن لكتاب غير نازل من الله تعالى أن يؤكد خبراً غيبياً في المستقبل القريب من هذا القبيل، ويربط كرامته ومصيره بالغيب المجهول، وهو يهدد مستقبله بالفضيحة إذا ظهر كذبه في نبوءته؟

وهكذا نجد أن القرآن يتحدث الغيب في الماضي والمستقبل على السواء، ويتحدث بلغة المطمئن الواثق، الذي لا يخالجه شك فيما يقوله، وهذا ما لا يقدر عليه انسان، أو كتاب انسان وفقاً للقوانين الطبيعية.

كما أننا يمكن أن نجد أدلة أخرى على اعجاز القرآن، في مقدمتها ما اشرنا إليه في بحث الهدف من نزول القرآن، من التغيير العظيم الذي أحدثه في أمة العرب وبمدة زمنية قياسية.

شبهات حول اعجاز القرآن ومناقشاتها :

لقد أثيرت حول اعجاز القرآن الكريم - من قبل المستشرقين والمبشرين - شبهات كثيرة نظراً لأهمية هذا البحث وعظمة الاهداف التي يحققها، وقد عرفنا في بحث اعجاز القرآن الادلة التي يمكن ان نستنتج منها أنّ القرآن الكريم ليس صنعة بشرية وانما هو وحي الهي، ولم تكن الادلة السابقة تعتمد في الوصول الى هذه النتيجة على ملاحظة الاسلوب البلاغي للقرآن الكريم، ولكن الاسلوب البلاغي للقرآن الكريم كان وما زال احد الاسس المهمة التي اعتمدها الباحثون لاثبات اعجاز القرآن وسوف نرى في اكثر الشبهات الآتية أنّ نقد القرآن الكريم فيها يعتمد على ملاحظة الاسلوب البلاغي له فحسب، لغرض اسقاط هذا الدليل الذي يعتمد عليه احياناً في اثبات اعجاز القرآن، كما سوف نرى بطلان هذه الشبهات ايضاً.

ويمكن تقسيم الشبهات الآتية الى قسمين رئيسين : الاول الشبهات التي تحاول ان تبرز جانب النقص والخطأ في الاسلوب والمحتوى القرآني، والثاني الشبهات التي تحاول ان تثبت أنّ القرآن الكريم ليس معجزة لقدرة البشر على الاتيان بمثله .
القسم الاول من الشبهات حول اعجاز القرآن :

الشبهة الاولى :

إنّ الاعجاز القرآني يتركز بصورة رئيسة على الفصاحة والبلاغة القرآنية، ونحن نعرف أنّ العرب قد وضعوا قواعد وأسساً للفصاحة والبلاغة والنطق تعتبر هي المقياس الرئيس في تمييز الكلام البليغ من غيره، وبالرغم من ذلك نجد في القرآن الكريم بعض الآيات التي لا تنسجم مع هذه القواعد بل تخالفها، الأمر الذي يدعونا الى القول بان القرآن الكريم ليس معجزاً لأنه لم يسر على نهج القواعد العربية وأصولها. وتسرد الشبهة بعض الأمثلة لذلك.

ويمكن ان تناقش هذه الشبهة - إضافة الى ما اشرنا إليه من أنّ الدليل على اعجاز القرآن لا يختص بالجانب البلاغي - بأسلوبين رئيسين :

الاول : ملاحظة الأمثلة والتفصيلات التي تسردها الشبهة وبيان انطباقها مع القواعد العربية المختلفة وانسجامها معها، وملاحظة مختلف القراءات القرآنية التي يتفق الكثير منها مع هذه القواعد، بالشكل الذي لا يبقّى مجالاً لورود الشبهة عليها، وقد قام العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي بجانب من ذلك^(١)، كما يمكن ان نعرف ذلك من خلال مراجعة الكتب التفسيرية التي تناولت هذا الجانب مثل كتاب مجمع البيان للشيخ الطبرسي والكشاف للزمخشري .

الثاني : مناقشة اصل الفكرة التي تقوم عليها الشبهة ومدى امكان الاعتماد عليها في الطعن باعجاز القرآن، وهذا ما سوف نقوم به في هذا البحث وذلك بملاحظة الأمرين التاليين :

أ - إنّ تأسيس قواعد اللغة العربية كان في وقت متأخر عن نزول القرآن الكريم وفي العصور الاولى للدول الاسلامية، بعد ان ظهرت الحاجة اليها بسبب التوسع الاسلامي الذي ادّى الى اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب، وقد كان الهدف الرئيس لوضع هذه القواعد هو الحفاظ على النص القرآني ولغته، وقد اتبعت في استكشاف هذه القواعد طريقة ملاحظة النصوص العربية الواردة قبل هذا الاختلاط أو التي لم تتأثر به .

فلم تكن عملية وضع القواعد عملية تأسيس واختراع من قبل واضعي اللغة العربية، وانما هي عملية استكشاف لما كان العرب يتبعه من اساليب في البيان والنطق خلال كلامهم، ولذا كان الكلام العربي الأصيل هو الذي يتحكم في صياغة القاعدة وتفصيلاتها .

(١) الهدى الى دين المصطفى ١ : ٣٣٠ .

ولا شك أنّ القرآن الكريم كان اهم تلك المصادر على الإطلاق التي اعتمد عليها واضعو هذه القواعد في صياغتها وتأسيسها، لأنه أوثق المصادر العربية والكلام البليغ الذي بلغ القمة، ولذلك نجد علماء العربية عندما يريدون الاستدلال على صحة اي قاعدة يستدلون على ذلك بالآيات القرآنية أو بالنصوص التي تثبت نسبتها الى العرب الأوائل.

وعلى هذا الاساس التاريخي لوجود قواعد اللغة العربية يجب ان يكون الموقف تجاهها ان نجعل القرآن هو القياس الذي يتحكم في صحتها وخطئها، لان نجعل القواعد مقياساً نحكم به على القرآن، لأن القاعدة العربية وضعت على ضوء الاسلوب القرآني فاذا ظهر أنّها خلاف هذا الاسلوب يكشف ذلك عن وقوع الخطأ في عملية استكشاف القاعدة نفسها.

ب - ثم اذا لاحظنا موقف العرب المعاصرين للقرآن الكريم - وهم ذوو الخبرة والمعرفة الفائقة باللغة العربية - وجدناهم قد اذعنوا واستسلموا للبلاغة القرآنية وتأثروا بها ايماناً منهم بأنّه يسير على أدق القواعد والاساليب العربية في البيان والتعبير، ولو كان في القرآن الكريم ما يتنافى مع قواعد اللغة العربية وأصولها لكان من الجدير بهؤلاء الاعداء ان يتخذوا ذلك وسيلة لنقد القرآن ومنفذاً للطعن به.

الشبهة الثانية :

إنّ القرآن قد تحدث عن قصص الأنبياء، كما تحدثت الكتب الدينية الأخرى كالتوراة والانجيل عنها، وعند المقارنة بين ما ذكره القرآن وما ورد في التوراة والانجيل نجد القرآن يخالف تلك الكتب في حوادث كثيرة ينسبها الى الأنبياء وأممهم، الامر الذي يجعلنا نشك في ان يكون مصدر القرآن الوحي الالهي لسببين : الاول : ان هذه الكتب من الوحي الالهي الذي اعترف به القرآن، واذا كان القرآن حياً اُلهياً أيضاً فلا يمكن ان يناقض الوحي نفسه في الاخبار عن حوادث

تأريخية واقعية.

الثاني: ان هذه الكتب ما زالت تتداولها أمم هؤلاء الأنبياء وهم بطبيعة ارتباطهم الديني والاجتماعي بأنبيائهم لا بد وان يكونوا ادق اطلاعاً على أحوالهم من القرآن الذي جاء في أمة ومجتمع منفصل عن تأريخ هؤلاء الأنبياء.

وهذه الشبهة - كسابقها - لا يمكن ان تصمد للمناقشة اذا عرفنا أن هذه الكتب الدينية قد تعرضت للتحريف والتزوير - كما سوف نتعرض الى ذلك في بحث مستقل - وكان أحد أسباب التحريف هو الانفصال التاريخي الذي وقع بين الانبياء وأممهم، حيث تعرض اليهود - مثلاً - الى الأسر الجماعي ونقلوا الى بابل وأحرقت جميع الكتب ودمرت جميع المعابد وبقوا على هذا الحال مدة عقود من الزمن حتى أنقذهم كورش الفارسي من ذلك، ويقال بأنهم دونوا التوراة الموجودة على ما تبقى في ذاكرة بعض الاشخاص مما سمعوه من آباءهم؛ وكذلك الحال بالنسبة الى المسيحيين، حيث تعرض المسيح لمحاولة الصلب وتفرق الحواريون ودوّن الانجيل على ما تبقى في الذاكرة بعد مدة طويلة من هذه الحادثة.

هذا الامر وغيره هو الذي جعلهم غير قادرين على الاحتفاظ الديني بها، وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الحقيقة عند حديثه عن أمم هؤلاء الأنبياء والجماعات التي نزلت فيهم هذه الكتب.

إضافة الى أن ملاحظة محتوى الخلاف بين القرآن الكريم والكتب الدينية الأخرى يدعونا بنفسه للايمان بصدق القرآن الكريم، بعد ان نجد التوراة والانجيل يذكران في قصص هؤلاء الأنبياء مجموعة من الخرافات والأوهام يتجاوزها القرآن الكريم، وينسبان الى الأنبياء اعمالاً ومواقف لا يصح نسبتها اليهم ولا تليق برسل الله والقوام على شريعته ودينه، بل لا تليق بمصلحين عاديين من عامة

البشر، كما في نسبة شرب الخمر والزنا إلى لوط عليه السلام، وكذلك نسبة وقوع داود تحت تأثير الشهوة والعشق لامرأة أجنبية بحيث يفرط بأحد قادته الكبار في الحرب وهو زوج هذه المرأة من أجل التخلص منه والزواج بها، إلى غير ذلك كما يتبين ذلك بوضوح عند المقارنة بين القرآن والكتب الدينية الأخرى^(١).

وقد عرفنا في بحث اعجاز القرآن أن إحدى النقاط المهمة التي يظهر فيها اعجاز القرآن الكريم عرضه لقصص الانبياء وحوادثهم، بشكل يبعث اليقين في نفوسنا ان مصادر هذا العرض ليست هي الكتب الدينية، ثم يأتي هذا العرض منسجماً ومؤلفاً مع النظرة الواقعية الصحيحة للانبياء والرسل، الأمر الذي يدل على أن مصدره هو الوحي الالهي.

الشبهة الثالثة :

إن أسلوب القرآن في تناول الأفكار والمفاهيم وعرضها لا ينسجم مع أساليب البلاغة العربية ولا يسير على الطريقة العلمية في المنهج والعرض، وذلك لأنه يجعل الموضوعات المتعددة متشابكة بعضها مع بعض، فبينما يتحدث القرآن في التأريخ ينتقل إلى موضوع آخر من الوعد والوعيد والحكم والأمثال والأحكام وغير ذلك من الجهات، فلا يجعل القارئ قادراً على الإلمام بالأفكار القرآنية، مع أن الموضوعات القرآنية لو كانت معروضة على شكل فصول وموضوعات مستقلة لكانت الفائدة المترتبة عليها اعظم والاستفادة منها سهل، وكان العرض منسجماً مع الأسلوب العلمي المنهجي الصحيح.

وتناقش هذه الشبهة على أساس النقطتين التاليتين :

الاولى: أن القرآن الكريم ليس كتاباً علمياً ولا كتاباً مدرسياً - كما عرفنا ذلك في بحث الهدف من نزول القرآن - فهو ليس كتاب فقه أو تأريخ أو أخلاق، وانما هو

(١) يمكن مراجعة كتاب الهدى إلى دين المصطفى للبلاغي : ج ٢ في هذه المقارنة .

كتاب هداية وتربية وهدفه الاساس هو احداث التغيير الاجتماعي؛ والاسلوب القرآني خضع لهذا الهدف في طريقة العرض وفي التدرج في النزول وفي غير ذلك من الظواهر القرآنية، كوجود الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه. وهذه الطريقة في العرض من الخصائص البارزة في القرآن الكريم التي خضعت لهذا الهدف للتمكن من إحداث التأثير المطلوب في نفسية الانسان المعاصر لنزول القرآن، بل ولكل انسان يستمع للقرآن الكريم أو يقرأه^(١).

والنتائج العظيمة التي حققها القرآن الكريم في المجتمع الجاهلي افضل شاهد على انسجام هذا الاسلوب مع الهدف الأساس للقرآن الكريم.

الثانية: أن هذه الطريقة في العرض يمكن ان تعتبر إحدى الميزات التي يتجلى فيها الاعجاز القرآني بصورة اوضح، فانه بالرغم من هذا التشابك في الموضوعات تمكن القرآن الكريم من الاحتفاظ بجمال الاسلوب وقوة التأثير وحسن الوقع على الاسماع والنفوس، الامر الذي يدل على براعة متناهية وقدرة عظيمة على عرض الموضوعات وطرح الافكار.

الشبهة الرابعة :

لا شك أن ذوي القدرة والمعرفة باللغة العربية يتمكنون من الاتيان بمثل بعض الكلمات القرآنية، وحين تتوفر هذه القدرة في بعض الكلمات فمن المعقول ان تتوفر أيضاً في كلمات أخرى، وهذا ينتهي بنا الى ان نجزم بوجود القدرة على الاتيان بسورة أو اكثر من القرآن الكريم لدى امثال هؤلاء لأن من يقدر على بعض القرآن يمكن أن تتصور فيه القدرة على الباقي بشكل معقول، وبذلك لا يكون التحدي من قبل القرآن بالاتيان بسورة أو عشر سور وارداً وصحيحاً.

(١) تناولنا هذا التأثير والتأثر في كتابنا «الهدف من نزول القرآن»، حيث تعرضنا الى تسع من ظواهر القرآن الكريم بالدرس والتحليل : ومن هذه الظواهر : اسلوب القرآن الكريم.

والمناقشة في هذه الشبهة واضحة :

لأن الاعجاز القرآني يتمثل في جانبين رئيسين - كما اشرنا سابقاً - جانب الاسلوب والتركيب البياني وجانب المضمون والمحتوى والافكار. وفي كلا الجانبين لا مجال لهذا الوهم والخيال.

أما في جانب المضمون فمن الواضح أنّ القدرة على إعطاء فكرة أو فكرتين لا يعني القدرة على إعطاء هذا المقدار الكبير المنسجم من الافكار والمفاهيم وفي نفس الظروف الموضوعية والذاتية التي جاء فيها القرآن الكريم؛ والتحدي الذي شرحناه في بعض أبحاثنا السابقة عن اعجاز القرآن كان ضمن الظروف الخاصة التي عاشها النبي ﷺ وجاء فيها القرآن الكريم.

وأما في جانب الاسلوب فإنّ القدرة على جملة أو مقدار من الكلمات لا يعني القدرة على تمام التركيب بعناصره المتعددة التي لا يمكن ان توجد أو تتوفر إلا ضمن التركيب بكامله، وهذا شيء واضح لا يحتاج الى برهان، فاننا ندرك أنّ كثيراً من الناس يملكون قدرة النطق ببعض الكلمات العربية ولكن ذلك لا يعني أنّهم قادرون على ان يكونوا خطباء أو ادباء أو شعراء، ويتمتعون بالبلاغة والفصاحة أو حتى الاتيان بقطعة كلامية بليغة، كما ان كثيراً من الناس يتمكنون من القيام ببعض الاعمال البسيطة، ولكنهم غير قادرين على القيام بالمشاريع الضخمة التي تتركب من تلك الأعمال البسيطة كمشاريع البناء والصناعة والفن.

الصرقة في الاعجاز القرآني :

ولعل هذه الشبهة أو الوهم هو الذي أدى بجماعة من متكلمي المسلمين - كالنظام ومدرسته على ما نسب إليهم - الى ان يفسروا ظاهرة الاعجاز القرآني

بأنها نحو من الصرفة^(١)، حيث يمكن ان يكون قد وجدوا - نتيجة الانطلاق من هذا الوهم - أنَّ القدرة على الاتيان بمثل القرآن الكريم متوفرة، ولكن عدم توفر أشخاص يأتون بمثل القرآن كان نتيجة لتدخل إلهي مباشر (صرفهم) عن المعارضة والمباراة.

ولكن هذا التفسير لظاهرة الاعجاز واضح البطلان اذا كانوا يريدون من توفر القدرة عند بعض الناس وجودها فعلاً لديهم ولكن الله صرف اذهانهم عن ممارستها؛ وذلك :

١ - لأن محاولة المعارضة قد وقعت من بعض الناس وانتهت الى الفشل والخيبة، كما تحدثنا بذلك كثير من النصوص التاريخية وتدل عليها بعض الوقائع في العصر القريب من قبل بعض المبشرين .

٢ - إنَّ صرف الأذهان انما يفترض بعد نزول القرآن الكريم، وأمّا قبله فلا معنى للصرفة لعدم وجود القرآن، ولذلك ومن أجل التأكد من الاعجاز القرآني ليس علينا الا مقارنة القرآن بالنصوص العربية السابقة على وجوده وملاحظة مدى الامتيازات المتوفرة فيه دونها، بحيث لا يمكن مقايسته بهذه النصوص بل هو يفوقها كما عرفنا في بحث الاعجاز .

نعم اذا كان يريد القائلون بالصرفة أنَّ الله سبحانه له القدرة على أن يهب إنساناً ما قدرة على الاتيان بمثل القرآن ولكنه لم يفعل فهذا لا يعني أنَّ القرآن الكريم ليس بمعجزة، لأن الهدف الرئيس من المعجزة دلالتها فلا بد ان تكون لها هذه الدلالة؛ وعنصر التحدي في مثل هذه المعجزة يكون موجوداً ما دامت ليست

(١) مذهب الصرفة هو فرض أنَّ الناس أو على الأقل البلغاء منهم قادرون على الاتيان بمثل القرآن أو على الأقل بسورة منه، وانما لم يأتوا بذلك مع تحدي القرآن لهم لأن الله تعالى صرفهم بقدرته عن القيام بهذا العمل .

تحت قدرة الانسان الاعتيادية بالفعل، وهذا الشيء من الممكن أن يدعى في كل معجزات الأنبياء أو المعجزات التي يمكن ان نتصورها.

الشبهة الخامسة :

إنّ النقطة الاساسية التي يستند اليها الاعجاز القرآني هي عدم قدرة العرب على معارضته رغم تحدي القرآن الكريم لهم مرة تلو الأخرى ولكن هل العرب حقيقة لم يكونوا قادرين على معارضته ؟ أو أنّ اسباباً أخرى خارجية هي التي منعتهم عن تحقيق هذه المعارضة ؟!

وتفرض الشبهة - بصدد الجواب عن هذا التساؤل - عوامل معينة منعتهم عن تحقيق هذه المعارضة وهذه العوامل هي :

أنّ العرب الذين عاصروا الدعوة أو تأخروا عنها بزمان قليل لم يعارضوا القرآن الكريم خوفاً على أنفسهم وأموالهم من المعارضة، بسبب سيطرة المسلمين الدينية على الحكم، ومحاربتهم كل من يعادي الاسلام أو يظهر الخلاف معه؛ ولا شك أنّ معارضة القرآن تعتبر في نظر الحكم ممن أبرز أئحاء العداء والمخالفة.

وحين انتهت السلطة الى الامويين الذين لم يكونوا مهتمين بالحفاظ على الاسلام والالتزام به الامر الذي كان يفسح المجال لمن يريد أن يعارض القرآن الكريم أن يظهر معارضته كان القرآن في ذلك الحين قد أصبح أمراً معروفاً في حياة الأمة، مألوفاً لديها بأسلوبه وطريقة عرضه بسبب رشاقة الفاظه ومتانة معانية، فانصرف الناس عن التفكير بمعارضته لأنه أصبح من المرتكزات الموروثة لهم.

ويمكن مناقشة هذه الشبهة بملاحظة النقاط التالية :

أولاً: إنّ تحدي القرآن الكريم للمشرّكين كان منذ بداية الدعوة وفي ظروف كان الاسلام فيها ضعيفاً تجاه قوة المشرّكين، حيث مضت ثلاث عشرة سنة من

الزمن على الأقل على نزول القرآن والمسلمون مطاردون وضعفاء سياسياً، وبالرغم من ذلك لم يستطع أحد من بلغاء العرب أن يقوم بهذه المعارضة. ثانياً: إن سيطرة الاسلام في أواخر عصر النبي ﷺ وعصر الخلفاء الأربعة الذين جاؤا الى الحكم من بعده لم تكن تعني منع الكفار من اظهار كفرهم، فقد أقر الاسلام جماعات من الكفار على ديانتهم، كما حدث ذلك لأهل الكتاب حيث كانوا يعيشون في ظل الدولة الاسلامية في طمأنينة ورفاهية، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فلو كان واحد من هؤلاء قادراً على الاتيان بمثل القرآن الكريم لتصدى لمعارضته والانتصار لديانته على الاسلام، خصوصاً وأن الاسلام والقرآن دخلا في مناقشات واسعة مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكانوا يملكون استقلالهم سواء في المدينة أو في خارجها من أراضي الشام وغيرها.

ثالثاً: إن افتراض الخوف من المعارضة نتيجة للسيطرة الاسلامية انما يمنع من اظهار المعارضة للقرآن الكريم وإعلانها، وأما المعارضة السرية فقد كانت من الممكن ان تتم ضمن الحدود الخاصة للمعارضين من أصحاب هذه الديانات دون أن تكون لها نتائج مضادة، ولو كان من الممكن الاتيان بمثل القرآن الكريم لأمكن هؤلاء ان يعارضوه ثم ينتظروا الفرصة السانحة لاطهار هذه المعارضة، خصوصاً اذا لاحظنا أن أهل الكتاب ما زالوا يحتفظون بمجموعة من النصوص الدينية لهم ويتداولونها، مع انها تتعارض مع القرآن الكريم في محتوياتها ومضامينها.

رابعاً: من الملاحظ عادة أن الكلام مهما بلغ من رتبة عالية في البلاغة ومتانة الاسلوب وقوته فإنه يصبح كلاماً عادياً اذا تكرر سماعه، ولذلك نرى القصيدة البليغة تُصبح عادية عندما يتكرر القاؤها عدة مرات، بحيث قد تبدو قصيدة

أخرى أقل منها بلاغة ابلغ منها بسبب عدم تكرارها، وهذا يعني أن الالفة والانس بالقرآن الكريم - لو كان كلاماً عادياً - تدعو الى ان يصبح ايسر على المعارضة والاثيان بمثله، لا أن ينصرف الناس عن التفكير بمعارضته نتيجة لأنسهم به بالرغم من تحديه المستمر لهم وتعاليه عليهم.

الشبهة السادسة :

إن القرآن ليس معجزة وان كان يعجز جميع البشر عن الاثيان بمثله، لأن المعجزة يجب ان تكون صالحة لأن يتعرف جميع الناس على جوانب التحدي فيها، لأنها دليل النبوة التي يراد بواسطتها اثبات النبوة لهم، والكلام البليغ لا يكفي في إعجازه عجز الناس عن الاثيان بمثله، لان معرفة جوانب التحدي والاعجاز فيه من بلاغته وسمو التعبير فيه لا تتوفر الا للخاصة منهم الذين يتكلمون العربية ويعرفون دقائق تركيبها وميزاتها.

ويمكن ان تناقش هذه الشبهة بمايلي :

أولاً : إن هذه الشبهة تتضمن في الحقيقة اعترافاً بالاعجاز القرآني، إلا أنها تحاول التهرب من ذلك باعطاء المعجزة طابعاً خاصاً يرتبط بمدى دلالتها على دعوى النبوة، فالشبهة لا تناقش الاعجاز من ناحية النقص في التركيب والمضمون القرآني وعدم ارتفاعه الى مستوى التحدي، وانما تناقشه من زاوية افتراض عدم قدرة جميع الناس على فهم هذا الاعجاز واستيعابه، وانما يفهم الخاصة منهم هذا الاعجاز.

ثانياً : إن طريق الإيمان بالمعجزة لا يتوقف على معرفتها عن طريق التجربة الشخصية المباشرة لها لكل الناس، وانما يمكن ان يتحقق عن طريق معرفة ذوي الاختصاص والخبرة من الناس لها، الشيء الذي يجعلنا نصدق بالمعجزة لعجز هؤلاء الناس المختصين، وهذا هو السبيل الوحيد لايماننا بكثير من حقائق الكون

وخصائص عالم الطبيعة، حيث يحصل لنا اليقين بها عن طريق معرفة ذوي الاختصاص واخبارهم لنا بذلك بشكل لا يداخله الريب أو الشك، كما حصل هذا الشيء بالنسبة الى معجزة العصا التي جاء بها موسى عليه السلام، فان عجز السحرة امام موسى وهزيمتهم في المباراة كانا دليلاً قاطعاً على ان تحول عصا موسى الى (حية) إنما هو معجزة، وإن لم يدرك هذه الحقيقة بشكل مباشر سائر الناس لعدم معرفتهم بشؤون السحر.

فحين يقف العرب اجمع وذوو الاختصاص من الدارسين والعلماء باتجاهاتهم المختلفة امام القرآن الكريم، ويعترفون بخصائصه الاعجازية وعجزهم امام تحديه لهم لا يبقى امامنا شك في اعجاز القرآن الكريم وارتباطه بالسما.

ثالثاً: إن فكرة الاعجاز في القرآن الكريم من الممكن ان تشرح وتوضح على نطاق واسع وليس ذلك مما يتعسر فهمها فيفهما الناس على حد سواء، العربي منهم وغير العربي وذوو الاختصاص وغيرهم، لأن إعجاز القرآن لا يختص بالجانب البلاغي من اسلوبه، بل هو المعجزة الخالدة التي لا تنفئ والتي لا تختص بأمة دون أخرى.

وقد اشرنا الى بعض الجوانب في الاعجاز القرآني التي لا ترتبط باسلوبه وبلاغته في ابحاثنا السابقة من علوم القرآن^(١).

(١) منهج السنة الاولى من محاضرات علوم القرآن الكريم (لكلية أصول الدين) والقسم الثاني من هذا الكتاب.

اعتمدنا بصورة رئيسة في عرض الشبهات ومناقشتها على دراسة السيد الخوئي رحمته الله في كتابه «البيان في تفسير القرآن».

شبهة المستشرقين حول الوحي ومناقشتها :

مقدمة :

لقد أثار اعداء الاسلام من جاهليين قدامى ومستشرقين جدد الشبهات الكثيرة حول الوحي القرآني، وكانت تستهدف هذه الشبهات في الغالب تأكيد أن الوحي القرآني ليس مرتبطاً بالسما والما هو نابع من ذات محمد الانسان ﷺ . وقد أشار القرآن الكريم الى بعض هذه الشبهات في مواضع مختلفة^(١)، وردد بعض المستشرقين هذه الشبهات وغيرها وحاول اضعاف طابع البحث والدراسة وسمات الموضوعية عليها، كما هي الطريقة المضللة المتبعة لديهم في مثل هذه الحالات .

ويحسن بنا أن نكوّن فكرة واضحة عن الوحي الذي نحن بصدد بحث الشبهة حوله ومناقشتها تمهيداً للدخول في صلب الموضوع .

ما هو الوحي ؟

الوحي لغة : هو الاعلام في خفاء^(٢)، ولكن ما هو الوحي الالهي الذي اختص به الله سبحانه النبيين من عباده، وتجلّى بشكل واضح في القرآن الكريم ؟ وبصدد الاجابة عن هذا السؤال يمكن أن نقول : إن كل فكرة يدركها الانسان فهي ترتبط في وجودها - بسبب أو بآخر - بالله سبحانه وتعالى خالق الانسان ومدبر أموره، لأن الله تعالى هو مسبب الأسباب، ولذا تنسب إليه الاشياء في القرآن الكريم؛ ولكن شعور الانسان تجاه مصدر هذه الفكرة - بالرغم من إدراكه العقلي لهذه الحقيقة - قد يكون مختلفاً، ونذكر انحاء ثلاثة لهذا الشعور :

أ - أن يشعر بأن الفكرة نابعة من ذاته ووليدة جهده الخاص وإدراكه الشخصي .

(١) منها الانبياء : ٢١، والدخان : ١٤، والفرقان : ٥، والنحل : ١٠٣، وغيرها .

(٢) لسان العرب ١٥ : ٣٨١ مادة (وحي) .

وهذا الشعور هو ما نحس به في حالات الادراك الاعتيادية تجاه أفكارنا العادية أو المبتكرة نتيجة الجهد العلمي فاننا - مع اعتقادنا بأن أفكارنا منسوبة الى الله تعالى على أساس أنه الخالق المدبر لعالم الوجود بجميع مقوماته، ومنه قدرتنا على التفكير - نشعر وكأن هذه الفكرة وليدة هذا المزيج المركب الذي أودعه الله في انفسنا، وناجمة عن مجموعة المواهب والقدرات الشخصية لنا.

ب - ان يشعر الانسان بأن الفكرة قد أُلقيت إليه من طرف آخر وجاءته من خارج ذاته، وشعوره هذا بدرجة من الوضوح بحيث يحس بهذا الالتقاء والانفصالية بين الذات الملقية والذات المتلقية، ولكنه مع ذلك كله لا يكاد يحس بالاسلوب والطريقة التي تمت فيها عملية إلقاء الفكرة.

وهذا النحو من الشعور تجاه الفكرة هو ما يحصل في حالات (الالهام) الالهي^(١).

ج - أن يصاحب الشعور الحسي الذي شرحناه في فقرة (ب)، شعور حسي آخر بالطريقة والاسلوب الذي تتم به عملية الالتقاء والاتصال، وهذا الحس والشعور - سواء الحس بأن الفكرة جاءت من اعلى أو الحس بأن مجيئها كان بالاسلوب الخاص - لا بد فيه ان يكون واضحاً وجلياً وضوح ادراكنا للأشياء بحواسنا العادية، غاية الأمر في موارد الادراك بالحواس العادية (السمع والبصر واللمس) يكون التلقي بالوسائل المادية التي هي طرق الاثبات العلمية المادية، واما التلقي اذا لم يكن بالادوات الحسية أو كان ولكن الطرف الآخر في الالتقاء كان غير حسي فهذا هو ما يحدث في حالات (الوحي) الى الانبياء، أو على الاقل ما حدث في وحي القرآن الكريم الى نبينا محمد ﷺ. كما تؤكد ذلك مجموعة من الاحاديث التي تصف حالات الوحي الالهي لرسول الله ﷺ، نذكر منها ما يلي :

(١) قارن ذلك بما ذكره الدكتور صبحي الصالح في كتابه «مباحث في علوم القرآن».

«عن عائشة، ان الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ كيف يأتيك الوحي، فقال رسول الله ﷺ: احياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً»^(١).

وعن عبادة بن الصامت قال: كان النبي ﷺ اذا أنزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه^(٢).

وعنه قال: «كان نبي الله ﷺ اذا أنزل الوحي نكس رأسه ونكس اصحابه رؤوسهم فلما أتلي عنه رفع رأسه»^(٣).

«عن زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام كيف لم يخف رسول الله ﷺ فيما يأتيه من قبل الله ان يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان؟ قال: فقال: إن الله اذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبل الله عز وجل مثل الذي يراه بعينه»^(٤).

«عن الاحول في حديث معتبر قال: سألت ابا جعفر عليه السلام عن (الرسول) و(النبي) و(المحدث)، قال: الرسول: الذي يأتيه جبرئيل عليه السلام قبلاً فيراه ويكلمه، فهذا الرسول، وأما النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا ابراهيم عليه السلام ونحو ما كان رأى رسول الله ﷺ من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرئيل عليه السلام من عند الرسالة، وكان محمداً ﷺ حين جمع له النبوة وجاءته الرسالة من عند الله يبيئه بها جبرئيل عليه السلام ويكلمه بها قبلاً، ومن الأنبياء من جمع

(١) فتح الباري ١ : ١٨ . دار المعرفة ، بيروت .

(٢) و (٣) صحيح مسلم ١٥ : ٨٩ . دار احياء التراث العربي . بيروت .

(٤) بحار الأنوار ١٨ : ٢٦٢ رقم ١٦ عن تفسير العياشي .

له النبوة ويرى في منامه ويأتيه الروح ويكلمه ويحدثه من غير ان يكون يرى في اليقظة، واما المحدث فهو الذي يحدث فيسمع ولا يعاين ولا يرى في منامه»^(١).

«عن هشام بن سالم، عن ابي عبد الله عليه السلام قال: قال بعض أصحابنا: اصلحك الله أكان رسول الله ﷺ يقول: جبرئيل، وهذا جبرئيل يأمرني، ثم يكون في حال أخرى يغمى عليه؟ قال: فقال ابو عبد الله عليه السلام إنه اذا كان الوحي من الله إليه ليس بينهما جبرئيل أصابه ذلك لثقل الوحي من الله، واذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك، فقال: قال لي جبرئيل، وهذا جبرئيل»^(٢).

إذن فهناك فرق بين الادراك العادي الذي يكون نتيجة (الموهبة)، وبين (الإلهام)، و(الوحي).

لأن إدراك (الموهبة) في الحقيقة، يعبر عن فكرة يدركها الانسان، مع شعوره بأنها نتيجة للجهد الشخصي، وان كان يدرك بشكل عقلي ومنطقي أنها مرتبطة بسبب أو بآخر بالله سبحانه.

والإلهام: عبارة عن فكرة يدركها الانسان، مصحوبة بالشعور الواضح، بأنها ملقاة من طرف أعلى منفصل عن الذات الانسانية، وان كان لا يدرك الانسان شكل الطريقة التي تم فيها هذا الإلقاء.

والوحي: عبارة عن فكرة يدركها الانسان، مصحوبة بالشعور الواضح، بأنها ملقاة من طرف أعلى منفصل عن الذات الانسانية، وشعور آخر واضح بالطريقة التي تم فيها الإلقاء، مع وجود عنصر الغيب والخفاء في هذه العملية، ولذا تسمى بالوحي.

(١) بحار الأنوار ١٨ : ٢٦٨ رقم ٣٠ عن امالي الشيخ الطوسي، ورواه البرقي في المحاسن بسند معتبر بهذا المعنى.

(٢) المصدر السابق.

الشبهة حول الوحي :

هناك ارتباط وثيق بين هذا الموضوع وبحث إعجاز القرآن، لانتنا نتعرف من خلال ذلك البحث، على أن القرآن ليس ظاهرة بشرية، ومن ثمّ ليس من صنع محمد ﷺ، وانما يكشف بجوانب التحدي فيه عن ارتباطه بعالم الغيب، كما اشرنا الى ذلك في بحث اعجاز القرآن.

وعلى هذا الاساس: نجد أنّ مناقشة الشبهات، التي تثار حول الوحي القرآني، لا بد وان تعتمد بصورة رئيسة على نتائج بحث اعجاز القرآن. ولذا فنحن عندما نذكر هنا بعض ما يثار حول الوحي، نقصد بذلك ان نعالج بعض التفاصيل ذات العلاقة بهذه الإثارة دون الجانب الأساسي للمسألة.

ولعل من أخبت الأساليب في إثارة الشبهة حول الوحي، هو الاسلوب الذي يحاول ان يضفي على النبي محمد ﷺ صفات الصدق والأمانة والاخلاص والذكاء، ولكن يفترض أن يتخيل له أنّه مما يوحى اليه، وهو ما يسمى بالوحي النفسي؛ فإن هذا الاسلوب يحاول ان يستر دوافعه المغرضة، بمظاهر الانصاف والمحبة والاعجاب.

وهذا الاسلوب طرحه بعض المستشرقين وتبعه بعض المذاهب والاحزاب المادية في البلاد العربية.

القرآن وحي نفسي لمحمد ﷺ :

وخلاصة ما قيل في صياغة هذه الشبهة: أنّ محمداً ﷺ قد أدرك بقوة عقله الذاتية، ومما يتمتع به من تقاء وصفاء روحي ونفسي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الاصنام، كما أدرك ذلك أيضاً أفراد آخرون من قومه.

وأنّ فطرته الزكية - إضافة الى بعض الظروف الموضوعية كالفقر - حالت دون أن يمارس أساليب الظلم الاجتماعي من الاضطهاد، واكل المال بالباطل، أو

الانفاس بالشهوات، وارتكاب الفواحش كالاستمتاع بالسكر والتسري وعزف القيان وغير ذلك من القبائح.

وأنة طال تفكيره من أجل إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات.

وقد استفاد من النصارى الذين لقيهم في أسفاره أو في مكة نفسها كثيراً من المعلومات عن الأنبياء والمرسلين، ممن بعثهم الله في بني اسرائيل وغيرهم، فأخرجهم من الظلمات الى النور.

كما أنه لم يقبل جميع المعلومات التي وصلت إليه من هؤلاء النصارى، لما عرض للنصرانية من الأفكار الوثنية والانحرافات، كالوهية المسيح وأمه، وغير ذلك من البدع.

وأنة كان قد سمع أن الله سيبعث نبياً مثل اولئك الانبياء من عرب الحجاز بشر به عيسى المسيح وغيره من الانبياء، وتولد في نفسه أمل ورجاء في أن يكون هو ذلك النبي الذي آن اوانه، وأخذ يتوسل الى تحقيق هذا الامل بالانقطاع الى عبادة الله تعالى في خلوته بغار حراء.

وهناك قوي ايمانه وسما وجدانه، فاتسع محيط تفكيره وتضاعف نور بصيرته، فاهتدى عقله الكبير الى الآيات والدلائل البينة - في السماء والارض - على وحدانية الله سبحانه خالق الكون ومدبر اموره. وبذلك أصبح أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور.

ثم ما زال يفكر ويتأمل ويتقلب بين الآلام والآمال، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر الذي يبعثه الله لهداية البشرية، وتجلي له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقيه الوحي في اليقظة.

واما المعلومات التي جاءته من هذا الوحي، فهي مستمدة في الأصل من تلك

المعلومات، التي حصل عليها من اليهود والنصارى، ومما هداه إليه عقله وتفكيره في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح، ولكنها كانت تتجلى وكأنها وحي السماء، وخطاب الخالق عز وجل، يأتيه بها الناموس الاكبر، الذي كان ينزل على موسى ابن عمران وعيسى بن مريم، وغيرهما من النبيين ﷺ.

مناقشة الشبهة :

واذا أردنا أن ندرس هذه النظرية (نظرية الوحي النفسي)، لا نجد لها تصمد أمام النقد والمناقشة العلميتين، إذ يمكن ان يلاحظ عليها من خلال أبعاد ثلاثة :

الاول : أن الدلائل التاريخية القطعية وطبيعة الظروف التي مر بها النبي ﷺ تأبى التصديق بهذه النظرية وقبولها.

الثاني : أن المحتوى الداخلي للقرآن الكريم - بما يضم من تشريع واخلاق وعقائد وتأريخ - لا يتفق مع هذه النظرية في تفسير الوحي القرآني.

الثالث : أن موقف النبي ﷺ من الظاهرة القرآنية، يشهد بوضوح على رفض تفسير الظاهرة القرآنية بنظرية الوحي النفسي.

أ - الدلائل التاريخية تناقض نظرية الوحي النفسي :

لقد ذكر السيد رشيد رضا - بصدده مناقشته للمقدمات التاريخية وغيرها التي رتبها (درمنغام) لعرض نظرية الوحي النفسي - عشر ملاحظات، وسوف تقتصر على تلخيص بعضها :

الاولى : أن أكثر المقدمات التي بنى عليها أصحاب النظرية بنيانهم ونظريتهم، لا تقوم على أساس تأريخي صحيح، وانما تنطلق من نقطة مفروضة على البحث بشكل مسبق، وهي أن الوحي القرآني ليس وحياً الهياً منفصلاً عن الذات المحمدية، الأمر الذي كان يدعو أصحاب النظرية الى اختلاق الحوادث

والاخبار، أو تخيلها من أجل إكمال الصورة الكاذبة ووصل بعض الحلقات ببعضها الآخر.

ومن الأمثلة على ذلك ما يذكرونه من تفاصيل - ليس لها مصدر تاريخي - في مسألة لقاء الراهب بحيرا مع محمد ﷺ وهو بصحبة عمه ابي طالب، الأمر الذي يدعوهم الى الاستنتاج وافترض محادثات دينية وفلسفية معقدة جرت بينها.

وما يذكرونه أيضاً بصدد تحليل اطلاعه على أخبار عاد وثمود، من أنه كان نتيجة مروره بأرض الاحقاف، بالرغم من أن هذه الارض لا تقع على الطريق الاعتيادي لمرور القوافل التجارية، كما أن التاريخ لم يذكر لنا مرور النبي بها الى غير ذلك من الأحداث والقضايا.

الثانية: أن افترض تعلم النبي ﷺ من نصارى الشام وغيرهم لا يتفق مع واقع الحيرة والتردد في موقف المشركين من دعوة رسول الله ونسبته الرسالة الى الوحي الالهي؛ لأن مثل هذه العلاقة - لو كانت موجودة - لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعاشوه في مجتمع ضيق وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات.

وبالرغم من أن هؤلاء لم يسكوا عن اطلاق تهم وأراجيف شتى ضد رسول الله ﷺ وافترضوا في الوحي الفروض المتعددة، ومنها فرض التعلم والتلقي من أشخاص معينين كالرومي الحداد في مكة^(١)، ولكن مع ذلك كله لم يكن ليفرضوا ان يكون قد تعلم من نصارى الشام أو غيرهم من أهل الكتاب.

الثالثة: أنه لم يعرف عن الرسول محمد ﷺ أنه كان ينتظر أن يُفاجأ بالوحي، أو يأمل ان يكون هو الرسول المنتظر، لينمو ويتطور هذا الأمل في نفسه، فيصبح

(١) كما عرفنا في بحث اعجاز القرآن وأشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ النحل : ١٠٣ .

واقعا نفسياً، بالرغم من تدوين كتب السيرة النبوية لأدق الأحداث والتفصيلات عن حياة الرسول الشخصية.

ولعل من القرائن التاريخية التي تشهد بكذب هذا الافتراض: هو ما ذكرته كتب السيرة من اضطراب النبي - في البداية - وخوفه حين فاجأه الوحي في غار حراء. الرابعة: أن هذه النظرية تفرض ان يكون إعلان النبوة نتيجة مرحلة معينة من التكامل العقلي والنفسي، ونتيجة مراحل طويلة من المعاناة والتفكير والتأمل والحساب وهذا يستلزم بطبيعة الحال ان ينطلق الرسول في اللحظة الأولى من دعوته الى طرح مفاهيمه وأفكاره ومناهجه عن الكون والحياة والمجتمع بجوانبه المتعددة، لأنّ المفروض أن الصورة كانت متكاملة عنده نتيجة التفكير الطويل ودراسة الكتب واعمال الأنبياء السابقين، مع أن التاريخ يؤكد أن أسلوب الدعوة وطريقتها كانا يختلفان عن ذلك تماماً، وان البداية كانت هي الخوف والاضطراب ثم الدعوة الى التوحيد، ومن ثم الانطلاق الى المجالات الأخرى سواء على مستوى المفاهيم أو الموقف بشكل تدريجي مع ما كان يتخلل ذلك من حالات ركود وانقطاع في الوحي.

ب - المحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية يناقض نظرية الوحي النفسي :
إنّ للمحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية وما تتصف به من مواصفات، ولسعة النظرية القرآنية وآفاقها المتعددة ومجالاتها المتشعبة، أهمية كبرى في رفض نظرية الوحي النفسي، إذ إنّ هذه المواصفات وهذا الاتساع والشمول لا يتفق مع طبيعة المصادر التي تفرضها النظرية، ويتضح ذلك عندما نلاحظ الأمور التالية :

١ - ان الموقف العام للقرآن الكريم تجاه الديانتين اليهودية والمسيحية هو موقف المصدق لهما والمهيمن عليهما، فقد صدق القرآن الكريم الأصل الالهي لهاتين الديانتين وارتباطهما بالمبدأ الأعلى، ولكنه في نفس الوقت جاء مهيماً

ورقياً وحاكماً على ما فيها من ضلالات.

وجاءت هذه الرقابة دقيقة شاملة، فلم تترك مفهوماً أو حكماً أو حادثة إلا ووضعت المقياس الصحيح له. ولا يمكن ان نتصور محمداً ﷺ وهو يأخذ عن أهل الكتاب ويраهم قد أخذوا عن الوحي الالهي، ومع ذلك يتمكن من ان يصفهم بالجهل والتحريف والتبديل بمثل هذا اليقين والثبات، ثم يوضح الموقف الصحيح في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها أو خالفوا الواقع الصحيح للديانة، ثم تأتي نظريته بعد ذلك كاملة شاملة ودقيقة ليس فيها تناقض ولا اختلاف! ولكن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن قد أخذ منهم شيئاً، وانما تلقى كل ذلك عن الوحي الالهي الذي جاء مصداقاً لما سبقه من الوحي ومهيئاً على الانحراف والتحريف معاً.

٢- ونجد القرآن أيضاً يخالف التوراة والانجيل في بعض الأحداث التاريخية، فيذكرها بدقة متناهية ويتمسك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها على الأقل، تفادياً للاصطدام بالتوراة والانجيل.

ففي قصة موسى: يشير القرآن الى ان التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أن سفر الخروج من التوراة يؤكد انها كانت ابنته. كما ان القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق، ولا يتجاهل حتى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه:

﴿فاليوم نجيك ببندك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾^(١).

في الوقت الذي نجد التوراة تشير الى غرق فرعون بشكل مبهم، ويتكرر نفس الموقف في قضية العجل؛ حيث يذكر التوراة ان الذي صنعه هو هارون، وفي قصة

ولادة مريم للمسيح ﷺ وغيرهما من القضايا.

ولا يصح لمحمد ﷺ وهو الانسان الصادق الأمين الذكي ان يذكر هذه التفاصيل التي لا وجود لها في التوراة والانجيل، فيصطدم بالتوراة والانجيل دون سبب معقول، لولا ان يكون قد تلقى ذلك عن طريق الوحي الالهي الذي لا يستطيع مخالفته.

٣- ان سعة التشريع الاسلامي وعمقه وشموله للمجالات المختلفة من الحياة، مع دقة التفاصيل التي تناووها، والانسجام الكبير بين هذه التفصيلات، برهان واضح على تلقيه ذلك عن طريق الوحي؛ اذ لم يكن محمد - وهو الانسان الأمي، الذي كان يعيش في ذلك العصر المظلم، كما انه قضى اكثر حياة دعوته في خضم الصراع الاجتماعي - ليتكمن بصفته أنساناً ان يفعل ذلك لولا ان يكون قد تلقى ذلك عن طريق الوحي والسماء.

ج - موقف النبي من الظاهرة القرآنية شاهد على رفض نظرية الوحي النفسي^(١)؛

إنّ موقف النبي محمد ﷺ من الظاهرة القرآنية هو من افضل الشواهد على بطلان نظرية الوحي النفسي، فقد كان النبي محمد ﷺ يدرك بشكل واضح الانفصال التام بين ذاته المتلقية والذات الالهية الملقية من أعلى. وهذا الادراك هو حقيقة الوحي الذي اشرنا إليه سابقاً، وقد صور الرسول ﷺ هذا الوعي والادراك في مناسبات متعددة، وأوضحه للمسلمين فيما روى عنه، حيث قال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما

(١) لخصنا هذا الموضوع - بتصرف - عن الدكتور صبحي الصالح في كتابه «مباحث علوم القرآن»: ٢٨ - ٣٨ وهو بدوره أخذه - كما يظهر - من الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه «النبا العظيم» ومالك بن نبي في كتابه «الظاهرة القرآنية».

قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»^(١).

وقد انعكس هذا الشعور الواعي بالانفصال في الوحي، بين الذات الالهية الآمرة المعطية والذات المحمدية المخاطبة المتلقية على الظاهرة القرآنية ونصوص القرآن الكريم. وكان له مظاهر عديدة نذكر منها الأشكال الثلاثة التالية :

الشكل الاول :

الصورة التي يبدو فيها النبي من خلال الظاهرة القرآنية عبداً ضعيفاً لله سبحانه، يقف بين يدي مولاه يستمد منه العون ويطلب منه المغفرة ويمثل أوامره، ونواهيه، ويتلقى منه العقاب بمختلف مراتبه واشكاله؛ والامثلة القرآنية على ذلك كثيرة :

١ - فالقرآن يصور محمداً ﷺ في صورة الانسان المطيع الذي لا يملك لنفسه شيئاً، ويخاف ربه إن عصاه، فملتزم الحدود التي وضعها له ويرجو رحمته وليس من شيء يأتيه إلا من قبل ربه، فهو يعترف بالعجز المطلق تجاه إرادة الله أو تبديل حرف من القرآن :

﴿ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع إلا ما يوحى الي، إني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله افلا تعقلون ﴾^(٢).

﴿ قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد... ﴾^(٣).

﴿ قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت

(١) بحار الانوار ١٨ : ٢٦٠.

(٢) يونس : ١٥ - ١٦.

(٣) الكهف : ١١٠.

من الخير وما مسني السوء... ﴿١﴾.

﴿ قل لا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك ان اتبع إلا ما يوحى الي... ﴾ (٢).

ومن يقرأ هذه الآيات القرآنية ونظائرها ويترك لوجدانه الحكم، لا يسعه إلا ان يقتنع من اعماق قلبه ونفسه بالفرق بين الذات الالهية الآمرة الملقية والذات المحمدية المطيعة المتلقية.

٢- ثم يزداد هذا الفرق وضوحاً بين ذات الله المتكلم منزل الوحي وصفاته، وبين ذات رسوله المخاطب متلقي الوحي وصفاته في الآيات التي يعتب الله فيها على نبيه عتاباً خفيفاً أو شديداً، أو يعلمه فيها بعفوه عنه وغفرانه ما تقدم من ذنبه وما تأخر:

فن العتاب الخفيف المقترن بالعفو خطابه لرسوله في شأن من أذن لهم بالعودة عن القتال في غزوة تبوك: ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ (٣).

أو في موضع آخر حين يقول: ﴿ ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ (٤).

وأشد من هذا ما يوجه الى الرسول ﷺ من الانذار والتهديد في مثل قوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ حيث ورد ذلك في قضية الاعلان بولاية علي عليه السلام للأمر بعد

(١) الاعراف : ١٨٨.

(٢) الانعام : ٥٠.

(٣) التوبة : ٤٣.

(٤) الفتح : ٢.

النبي الذي تم في يوم الغدير. حيث تردد النبي في ذلك خوفاً من تكذيب المنافقين له، أو ردهم لهذا الأمر وادعائهم ان هذا الأمر بدوافع القرابة والمحبة الشخصية، أو قوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً﴾ * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلاً * اذن لأذناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴿^(١).

وهذا الانذار يبلغ القمة، فيستصغر بعده كل تهديد وكل وعيد حين يقول الله تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الاقاويل﴾ * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من احد عنه حاجزين ﴿^(٢).

ومن خلال هذه الآيات المتوعدة المنذرة وتلك المعاتبة المؤدبة يبدو لنا رسول الله ﷺ مخلوقاً ضعيفاً بين يدي ربه ذي القدرة القاهرة، والقوى الكبرى والارادة التي لا معقب لها.

٣- ويبدو لنا أيضاً: كامل الوعي للفرق بين ذاته المأمورة وذات الله الآمرة، وبوعيه الكامل هذا كان عليه السلام يفرق بوضوح بين الوحي الذي ينزل عليه وبين أحاديثه الخاصة التي كان يعبر عنها بإلهام من الله، لذلك كان يتعامل مع القرآن بطريقة خاصة، حيث نهى عليه السلام أول العهد لنزول الوحي عن تدوين شيء عنه سوى القرآن لكي يحفظ للقرآن صفته الربانية. ويحول دون اختلاطه بشيء ليست له هذه الصفة القدسية^(٣)، بينما كان عند نزول الوحي - ولو آية أو بعض آية -

(١) الاسراء: ٧٣-٧٥.

(٢) الحاقة: ٤٤-٤٧.

(٣) هذا النهي رواه بعض المؤرخين، وإذا صح فهو بالنسبة الى عامة الناس لا الخاصة منهم كعلي بن ابي طالب عليه السلام وغيره ممن كان يميز بوضوح بين القرآن وغيره، وإن كنا نشك أصلاً في وجود مثل هذا النهي، وعلى أي حال فيكفي في هذا الأمر اهتمام النبي بتدوين القرآن بشكل مضبوط على ما عرفنا في بحث تبوت النص القرآني.

يدعو أحد الكتبة فوراً ليدون ما نزل من القرآن، وأما أحاديثه الأخرى وحتى الأحاديث القدسية فكان يترك أمرها للمسلمين ليحفظوها بطريقتهم الخاصة.

الشكل الثاني :

يبدو النبي في القرآن الكريم بمظهر الخائف من ضياع بعض الآيات القرآنية ونسيانها، الأمر الذي كان يدعوه إلى أن يعجل بقراءة القرآن، قبل أن يقضى إليه وحيه ويأخذ بترديده ويجهده نفسه وفكره من أجل أن لا يفوته شيء من ذلك، ويتضح هذا في قوله تعالى: ﴿... ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾^(١)، ومن أجل ذلك يطمئنه سبحانه ويتعهد له بحفظه وجمعه: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ إن علينا جمعه وقرآنه ﴿فاذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ ثم إن علينا بيانه^(٢).

ولا يسعنا إزاء هذه الحقيقة إلا أن نعترف باستقلال ظاهرة الوحي عن ذات النبي استقلالاً مطلقاً، وتفرداها عن العوامل النفسية تفرداً كاملاً، فالنبي لا يملك حتى استخدام ذاكرته في حفظ القرآن، بل الله يتكفل بتحفيظه إياه، وقانون التذكر نفسه بطل الآن سحره وعفا اثره تجاه إرادة الله. فكيف لا يعي النبي - بعد هذا كله - الفرق العظيم بين ذاته المأمورة وذات الله الآمرة وهو يرى بنفسه أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً؟!

الشكل الثالث :

يبدو النبي من خلال تأريخ نزول القرآن أنه كان مقتنعاً بأن التنزيل القرآني مصحوب باغماء إرادته الشخصية، وأنه منسلخ عن الطبيعة البشرية حتى ما بقي له عليه الصلاة والسلام اختيار فيما ينزل إليه أو ينقطع عنه؛ فقد يتتابع الوحي

(١) طه : ١١٤.

(٢) القيامة : ١٦ - ١٩.

ويحمي حتى يشعر انه يكثر عليه، وقد يفتر عنه بل وينقطع وهو يشعر أنه احوج ما يكون اليه.

فقد كان الوحي ينزل على قلبه صلوات الله عليه في أحوال مختلفة :
أنه ليأوي الى فراشه فما يكاد يغفو اغفاءة حتى ينهض ويرفع رأسه مبتسماً،
فقد أوحيت إليه سورة الكوثر (الخير الكثير) وأنه ليكون وادعاً في بيته وقد بقي من الليل ثلثه، فتنزل عليه آية التوبة في الثلاثة الذين خلفوا : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم ﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴿^(١).

إنّ الوحي لينزل على قلب النبي في الليل الدامس والنهار الاضحيان وفي البرد القارس أو لظى الهجير، وفي استجمام الحضر أو اثناء السفر، وفي هدأة السوق أو وطيس الحرب.

ثم ها هو ذا الوحي ينقطع عن النبي، وهو أشد ما يكون إليه شوقاً وله طلباً، فبعد أن نزل عليه جبريل بأوائل سورة العلق : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾^(٢) فتر الوحي ثلاث سنوات فحزن النبي. ثم حمى الوحي وتتابع فاستبشر النبي وتبدل انتظاره الحزين فرحة غامرة، وأيقن أنّ هذا الوحي الذي استعصى عليه ولم يوافه طوع ارادته، مستقل عن ذاته خارج عن فكره، فاستقر في ضميره الواعي أنّ مصدر هذا الوحي هو الله علام الغيوب.

ومن ذا الذي ينسئ كيف ابطأ الوحي بعد (حديث الافك) الذي رمى به

(١) التوبة : ١١٧ - ١١٨.

(٢) العلق : ١.

المنافقون زوج النبي ﷺ، واثاروا به حولها الفضيحة حتى عصفت بقلب الرسول الريبة، من ذا الذي لا يدرك أنّ هذه المدة التي تصرمت على الحادثة من غير ان يتلقّى النبي خلالها وحياً، كانت أثقل عليه من سنين طويلة؛ بعد ان خاض المنافقون في زوجه خوساً باطلاً؟ فما بال النبي الذي كان فريسة للشك والقلق يظل صامتاً ينتظر واجماً يتربص حتى نزلت آيات سورة النور تبرئ أم المؤمنين؟ وما له لا يسرع الى التدخل في أمر السماء - اذا كان الوحي نفسياً - فيرتدي مسوح الرهبان، ويهني الاسجاع ويطلق البخور، ويبرئ زوجه من قذف القاذفين؟ ولقد كان النبي يتحرّق شوقاً الى تحويل القبلة الى الكعبة، وظل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، لعل الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة الى البيت الحرام، ولكن رب القرآن لم ينزل في هذا التحويل قرآناً رغم تلهف رسوله الكريم اليه، إلا بعد قرابة عام ونصف العام: ﴿قد نرى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام...﴾ (١).

فلماذا لم يسعف النبي بوحي عاجل يحقق ما يصبو إليه ويتمناه؟ إنّ الوحي ينزل ويكثر على محمد ﷺ حين يشاء رب محمد ﷺ ويفتر اذا شاء له رب محمد ﷺ الانقطاع، فما تنفع التعاويذ والاسجاع، ولا تقدم عواطف محمد ﷺ ولا تؤخر في امر السماء.

وحين نلنفت الى هذه الاشكال الثلاثة بصورها المختلفة، ونضيف اليها البعدين الآخرين السالفين، لا يبقى لدينا مجال لأي تردد في شأن حقيقة الظاهرة القرآنية، وانفصالها عن الذات المحمدية، وبطلان الوحي النفسي وما إليه من شبهات قد تثار.

المحكم والمتشابه في القرآن

المحكم والمتشابه بمعناهما اللغوي :

أ- المحكم :

قال صاحب القاموس : « احكمه اتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد كحكمه حكماً وعن الامر رجعه فحكم منعه مما يريد كحكمه »^(١).

وقال صاحب لسان العرب : « احكمت الشيء فاستحكم : صار محكماً، واحتكم الامر واستحكم : وثق. ونقل عن الزهري ان حكمت تأتي بمعنى احكمت »^(٢).

وبملاحظة هذين النصين اللغويين نحصل على النتائج الثلاث التالية في شأن هذه المادة لغة :

١- إنَّ (محكم) مشتق من احكم وحكم.

٢- إنَّ (حكم) تأتي بمعنى وثق واتقن؛ فهي ذات معنى وجودي ايجابي.

٣- إنَّ (حكم) تأتي بمعنى المنع من تسرب الفساد، وهي ذات معنى عدمي سلبي.

وقد حاول بعض الباحثين في علوم القرآن ان يرجع مادة الاحكام بمشتقاتها

(١) القاموس - مادة (حكم).

(٢) لسان العرب - مادة (حكم).

المتعددة، كالحكم والحكمة وحكم واحكم وغيرها الى معنى واحد يجمعها وهو المنع^(١).

ولكن المتبادر من مادة (الاحكام) معنى وجودي ايجابي هو: الاتقان والوثوق، كما يشير الى ذلك تصرّح أهل اللغة في تفسير اصل المادة؛ والمنع من تسرب الفساد يمكن ان يكون من مستلزمات هذا المعنى الايجابي (الاتقان) الأمر الذي صحح استعمال المادة فيه أيضاً مجازاً، من باب استعمال اللفظ الموضوع للملزوم في اللازم.

ب - المتشابه :

قال صاحب القاموس : الشبه (بالكسر والتحريك) ... المثل جمعه : اشباه وشابه وأشبهه : ماثله. وتشابها واشتبها : أشبه كل منهما الآخر حتى التباسا. وأمور مشتبهة ومشبّهة كمعظمه : مشكلة. والشبهة (بالضم) الالتباس والمثل. وشبه عليه الامر تشبيهاً : لبس عليه. وفي القرآن المحكم والمتشابه^(٢).

وقال صاحب لسان العرب : الشُّبَّةُ والشَّبَّةُ والشَّيْبَةُ : المِثْلُ، والجمعُ اشباه. واشبه الشيء الشيء : ماثله. وَأَشْبَهْتُ فلاناً وشابهتهُ وَأَشْتَبَهُ عَلَيَّ وَتَشَابَهَ الشَّيْثَانُ وَأَشْتَبَهَا : أَشْبَهَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَاحِبَهُ. والمُشْتَبَهَاتُ من الامور : المشكلات. والمتشابهات : المتماثلات والتشبيه : التمثيل. والشُّبْهَةُ : الالتباس. وأمورٌ مُشْتَبِهَةٌ ومُشْبَهَةٌ : مشكلة يُشْبِه بعضها بعضاً. وَشَبَّهَ عَلَيْهِ : خَلَطَ عَلَيْهِ الأمرُ حَتَّى اشْتَبَهَ بِغَيْرِهِ^(٣).

(١) راجع بهذا الصدد الفخر الرازي، التفسير الكبير ٧ : ١٧٩ والزرقاني، مناهل العرفان ٢ :

١٦٦ ورشيد رضا، تفسير المنار ٣ : ١٦٣.

(٢) القاموس : مادة (شبه).

(٣) لسان العرب - مادة شبه.

وبملاحظة هذين النصين نجد :

١ - انّ شابهه وأشبهه بمعنى 'ماثله'. وكذا تشابهه واشتبّه، ولكنها يدلان على وجود الوصف في الطرفين، فهو من قبيل المفاعلة.

٢ - انّ الشبه يأتي بمعنى 'المثل'، فهو معنى 'وجودي ذو طابع موضوعي واقعي'، ولكنه قد يطلق - في نفس الوقت - على 'ما يستلزمه أحياناً من (الالتباس) الذي هو من المعاني ذات الطابع الذاتي القائم في عالم النفس؛ بل قد تطلق المادة ويراد منها خصوص نوع من المماثلة المؤدية الى 'الالتباس'، كما قد يرمي الى ذلك صاحب القاموس في قوله الآنف: «وتشابهاً واشتبهاً أشبه كل منهما الآخر حتى التباساً». وهذا النوع من الاستعمال نجده في كل مادة تطلق على معنى 'يقبل الشدة والضعف'، حيث قد يكون احد مصاديق المعنى مستلزماً وجود شيء آخر.

القرآن محكم ومتشابه :

لقد جاء في التنزيل وصف جميع القرآن الكريم بأنه كتاب محكم : ﴿الكتاب أحكمت آياته ثم فصلت...﴾^(١). وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿الرتلك آيات الكتاب الحكيم﴾^(٢) إنّ (حكيم) هنا بمعنى 'محكم'^(٣).

كما جاء في التنزيل أيضاً وصف جميع القرآن بأنه كتاب متشابه : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني...﴾^(٤).

وفي مقابل هذا الاستعمال الشامل لهذين الوصفين يوجد استعمال آخر لهما في

(١) هود : ١.

(٢) يونس : ١.

(٣) لسان العرب : مادة (حكم) ١٣ : ٥٣ ط . دار صادر - بيروت .

(٤) الزمر : ٢٣.

التنزيل يطلقها بشكل يجعل الاحكام مختصاً ببعض الآيات القرآنية، ويجعل التشابه مختصاً ببعض آخر منها، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ (١).

ويكاد الباحثون في علوم القرآن يتفقون على تعيين معنى كل من الوصفين في استعمالهما الاول الشامل، حيث يجدون أن العلاقة التي صحت اطلاق وصف الاحكام على الآيات القرآنية كلها هي: ما في القرآن من احكام النظم وإتقانه، وما فيه من التماسك والانسجام في الافكار والمفاهيم والانظمة والقوانين.

كما يجدون أن العلاقة التي صحت إطلاق وصف (المتشابه) عليه هي: محض (التماثل والتشابه) بين بعضه وبعضه الآخر في الاسلوب والهدف، وسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (٢).

ولكنهم اختلفوا منذ البداية حين حاولوا ان يحددوا المعنى المراد من هذين الوصفين (المحكم والمتشابه) في الاستعمال الثاني الآية (السابعة من آل عمران)، الأمر الذي أدى الى ولادة علم من علوم القرآن سمي: بالمحكم والمتشابه.

ومن الواضح أن البحث حين يدور حول فهم المعنى القرآني المراد من كلمتي: المحكم والمتشابه في هذه الآية الكريمة لا يكون بحثاً اصطلاحياً ولا شبيهاً بالمعنى الاصطلاحي - كما هو الحال في البحث عن المراد بالمكي والمدني - لأنه يحاول

(١) آل عمران : ٧.

(٢) النساء : ٨٢.

ان يحقق غاية موضوعية وهي معرفة ما أراده الله سبحانه من هاتين الكلمتين^(١). وقد تعددت الاتجاهات والآراء في معنى المحكم والمتشابه المراد من هذه الآية، نظراً لاستمرار البحث فيها منذ العصور الاولى للتفسير، ولأهميتها من ناحية مذهبية، حتى إن بعض الباحثين ذكر ستة عشر رأياً في حقيقة المحكم والمتشابه. سوف نكتفي في بحثنا هذا بدراسة الاتجاهات الرئيسة المهمة منها.

مختارنا في المحكم والمتشابه :

وتفرض علينا طبيعة البحث أن نذكر الرأي الصواب في تحديد معنى هاتين الكلمتين، ليتضح - في ضوئه - مدى صحة بقية الاتجاهات وانسجامها مع المدلول اللغوي والمحتوى الفكري للآية الكريمة.

وهذا الصدد يجدر بنا ان نستذكر تقسيماً تعرضنا له في بحثنا السابقة، وهو أن التفسير تارة : يكون للفظ، وذلك بتحديد مفهومه اللغوي العام الذي وضع له اللفظ؛ وأخرى: يكون للمعنى، وذلك بتجسيد ذلك المعنى في صورة معينة ومصادق خاص.

وعلى أساس هذا التقسيم نتصور التشابه المقصود في الآية الكريمة ضمن نطاق التشابه في تجسيد صورة المعنى وتحديد مصداقه الواقعي الموضوعي، لا في نطاق التشابه في العلاقة بين اللفظ ومفهومه اللغوي (المعنى)، وسواء في هذا النفي التشابه الذي يكون بسبب الشك في اصل وجود العلاقة بين اللفظ والمفهوم اللغوي (المعنى)، كما اذا تردد اللفظ في استعماله بين معنيين أو أكثر قد وضع اللفظ لها، أو التشابه الذي يكون بسبب الشك في طبيعة هذه العلاقة، كما اذا عرفنا بوجود العلاقة بين اللفظ وأكثر من معنى، ولكن تردد اللفظ بينها للتردد في

(١) قارن بهذا ما ذكره الزرقاني في مناهل العرفان ٢ : ١٦٦.

استعماله بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي.

وهذا التفسير للتشابه لا تنبأه على أساس عدم صلاحية كلمة التشابه بحدودها اللغوية لاستيعاب هذا اللون من التشابه اللغوي، وانما نقرر ذلك على أساس وجود قرينة خاصة في الآية الكريمة، تجعلها تأبى الانفتاح على هذا اللون من التشابه.

وهذه القرينة هي ما نستفيدة من قوله تعالى: ﴿... فيتبعون ما تشابه منه ...﴾^(١) فان مفهوم (الاتباع) المستفاد من هذه الفقرة لا ينطبق إلا في حالة ما اذا كان للفظ مفهوم لغوي يكون أخذه والعمل به اتباعاً له؛ اذ ليس من اتباع الكلام -اي كلام - ان نأخذ بأحد معانيه المشتركة أو المرددة اذا لم يكن له ظهور فيها، وانما يكون هذا العمل من اتباع الهوى والرأي الشخصي في تعيين المعنى، لأن الكلام لا يعينه. وحين نلاحظ استعمال كلمة الاتباع في مجال آخر نجد هذا الاستنساخ أمراً واضحاً، فنحن نعرف وجود نصوص كثيرة تأمرنا بضرورة اتباع القرآن الكريم والسنة النبوية والتمسك بهما؛ فهل نتوهم فيمن يأخذ بأحد المعاني المشتركة للفظ خاص ورد في الكتاب الكريم أو في السنة النبوية أنه متبع للكتاب والسنة؟ أو لا بد لانتطاق هذا المفهوم في حقه من الأخذ بالمعنى الذي يكون للنص ظهور فيه؟

ولاشك بتعيين الشق الثاني.

اذن فالتشابه المقصود في الآية الكريمة نوع خاص، لا بد فيه ان يكون قابلاً للاتباع، وهذه القابلية تنشأ من عامل وجود مفهوم لغوي معين للفظ يكون العمل به اتباعاً له.

فالتشابه لم ينشأ من ناحية الاختلاط والتردد في معاني اللفظ ومفهومه

اللغوي، لأننا فرضنا ان يكون للفظ مفهوم لغوي معين، وانما ينشأ من ناحية أخرى وهي الاختلاط والتردد في تجسيد الصورة الواقعية لهذا المفهوم اللغوي المعين، وتحديد مصداقه في الذهن من ناحية خارجية.

فحين نأتي الى قوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾^(١) نجد للفظ الاستواء مفهوماً لغوياً معيناً اختص به، وهو الاستقامة والاعتدال مثلاً، وليس هناك اي تشابه بينه وبين معنى آخر في علاقته باللفظ، فهو كلام قرآني قابل للاتباع ولكنه متشابه، لما يوجد فيه من التردد في تحديد صورة هذا الاستواء من ناحية واقعية، وتجسيد مصداقه الخارجي بالشكل الذي يتناسب مع الرحمن الخالق الذي ليس كمثله شيء.

وحين نفهم المتشابه بهذا اللون الخاص لا بد لنا ان نفهم المحكم على اساس هذا اللون الخاص ايضاً، وهذا شيء تفرضه طبيعة جعل المحكم في الآية مقابلاً للمتشابه، فليس المحكم ما يكون في دلالة اللغوية متعين المعنى والمفهوم فحسب، بل لا بد فيه من التعيين في تجسيد صورته الواقعية وتحديد مصداقه الخارجي؛ ففي قوله تعالى: ﴿... ليس كمثله شيء...﴾^(٢) نجد الصورة الواقعية لهذا المفهوم متعينة، فهو ليس كالانسان ولا السماء ولا الارض ولا كالجبال... الى آخره من الاشياء.

(فالمحكم) من الآيات ما يدل على مفهوم معين، لا نجد صعوبة أو تردداً في تجسيد صورته أو تشخيصه في مصداق معين.
(والمتشابه) ما يدل على مفهوم معين تختلط علينا صورته الواقعية ومصداقه الخارجي.

(١) طه : ٥.

(٢) الشورى : ١١.

الاتجاهات الرئيسة في المحكم والمتشابه :

أ- اتجاه الفخر الرازي :

الاتجاه الاول : إن المحكم هو ما يسمى في عرف الاصوليين بالمبين، والمتشابه ما يسمى في عرفهم بالمجمل؛ وقد جاءت صياغة هذا الاتجاه بأساليب مختلفة، ولعل ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره الكبير هو أوضح صياغة وأوفاهها بالمقصود؛ قال :

«اللفظ الذي جعل موضوعاً لمعنى، فاما ان يكون محتملاً لغير ذلك المعنى، واما ان لا يكون، فاذا كان اللفظ موضوعاً لمعنى ولا يكون محتملاً لغيره فهذا هو النص، وأما ان كان محتملاً لغيره فلا يخلو: إما ان يكون احتماله لاحدهما راجحاً على الآخر، وإما ان لا يكون كذلك، بل يكون احتماله لهما على السواء؛ فان كان احتماله لاحدهما راجحاً على الآخر سمي ذلك اللفظ بالنسبة الى الراجح (ظاهراً) وبالنسبة الى المرجوح (مؤولاً)، وأما ان كان احتماله لهما على السوية كان اللفظ بالنسبة اليهما معاً (مشتركاً) وبالنسبة الى كل واحد منهما على التعيين (مجملاً) فقد خرج من التقسيم الذي ذكرناه ان اللفظ إما ان يكون (نصاً) أو (ظاهراً) أو (مؤولاً) أو (مشتركاً) أو (مجملاً).

أما (النص) و(الظاهر) فيشتركان في حصول الترجيح، إلا أن النص راجح مانع من الغير، والظاهر راجح غير مانع من الغير، فهذا القدر المشترك هو المسمى (بالمحكم)؛ وأما المجمل والمؤول فهما مشتركان في أن دلالة اللفظ عليه غير راجحة وان لم يكن راجحاً لكنه غير مرجوح، والمؤول مع أنه غير راجح فهو مرجوح لا بحسب الدليل المنفرد^(١)، فهذا القدر المشترك هو المسمى (بالتشابه) لأن عدم الفهم حاصل في القسمين جميعاً.

(١) يقصد بالدليل المنفرد : الدليل والقرينة الخارجية المنفردة عن الكلام واللفظ .

وقد بينا أن ذلك يسمى متشابهاً، إما لأن الذي لا يعلم يكون النفي فيه مشابهاً للاثبات في الذهن، وإما لأجل أن الذي يحصل فيه التشابه يصير غير معلوم، فاطلق لفظ المتشابه على ما لا يعلم إطلاقاً لاسم السبب على المسبب^(١). ويمكن ان نلخص رأي الرازي بالشكل التالي :

اللفظ بحسب دلالاته على المعنى ينقسم الى أربعة أقسام :

أ - النص : وهو ما كانت دلالاته على المعنى بالشكل الذي لا تفسح مجالاً لاحتمال معنى آخر.

ب - الظاهر : وهو ما كانت دلالاته على المعنى بشكل راجح مع احتمال معنى آخر.

ج - (المشترك) و(المجمل) : وهو ما كان دالاً على معنيين بشكل متساو.

د - المؤول : وهو ما كان دالاً على المعنى بشكل مرجوح، فهو عكس الظاهر. و(المحكم) : ما كانت دلالاته على المعنى من القسم الاول والثاني لوجود الترجيح فيها.

و(المتشابه) : ما كانت دلالاته على المعنى من القسم الثالث والرابع لاشتراكهما في أن دلالة اللفظ فيها غير راجحة، وانما سميا متشابهاً لعدم حصول فهم المعنى فيها.

ويمكن أن نلاحظ على هذا الاتجاه بالملاحظتين التاليتين :

١ - إننا انتهينا من دراستنا الآية الكريمة الى ضرورة الالتزام بأن التشابه المقصود فيها هو : التشابه في تجسيد صورة المعنى، وتحديد مصداقه، لا التشابه في علاقة اللفظ بالمعنى بقرينة اخذ مفهوم الاتباع في المتشابه، وهو لا يتحقق في موارد الاجمال اللغوي.

٢- وحين نساير الفخر الرازي، ونتصور التشابه بسبب علاقة اللفظ بالمعنى، لا نجد هناك ما يبرر حصر نطاق التشابه في هذه العلاقة فحسب، بل يمكننا أن نتصور سبباً آخر للتشابه وهو: التشابه بسبب تجسيد صورة المعنى وتحديد مصداقه. والفخر الرازي بتقسيمه السابق يحاول أن يغلط علينا هذا الطريق، حيث لا يتصور التشابه إلا من زاوية علاقة اللفظ بالمعنى، مع أنه يمكن ان يتصور ايضاً في علاقة المعنى بتشخيص مصاديقه الواقعية.

ب - اتجاه الراغب الاصفهاني :

الاتجاه الثاني الذي ذهب إليه الراغب الاصفهاني وهو: أن التشابه ما اشكل تفسيره لمشابته بغيره، سواء كان الاشكال من جهة اللفظ أو من جهة المعنى.

وقد ذكر الراغب تفاصيل طويلة في شرح هذا الاتجاه قال: « فالتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتهما. والمتشابه من جهة اللفظ ضربان: أحدهما يرجع الى الألفاظ المفردة، وذلك إما من جهة غرابته، نحو الأب ويزقون، وإما من جهة مشاركة في اللفظ، كاليد والعين، والثاني يرجع الى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب: ضرب لاختصار الكلام نحو: ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء... ﴾^(١)، وضرب لبسط الكلام نحو: ﴿ ... ليس كمثل شيء... ﴾^(٢) لأنه لو قيل ليس مثله شيء كان اظهر للسامع، وضرب لنظم الكلام نحو: ﴿ ... أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً... ﴾^(٣) تقديره

(١) النساء: ٣.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) الكهف: ١ و ٢.

الكتاب قياً ولم يجعل له عوجاً، وقوله: ﴿... ولولا رجال مؤمنون...﴾^(١) الى قوله: ﴿... لو تزيلوا...﴾. والمتشابه من جهة المعنى 'أوصاف الله تعالى' وأوصاف يوم القيامة، فان تلك الصفات لا تتصور لنا اذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه أو لم يكن من جنس ما نحسه. والمتشابه من جهة المعنى 'واللفظ جميعاً خمسة أضرب، الاول: من جهة الكمية، كالعموم والخصوص نحو: ﴿... فاقتلوا المشركين...﴾^(٢) والثاني من جهة الكيفية، كالوجوب والندب نحو: ﴿... فانكحوا ما طاب لكم...﴾ والثالث من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو: ﴿... اتقوا الله حق تقاته...﴾^(٣)، والرابع من جهة المكان والامور التي نزلت فيها نحو: ﴿... وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها...﴾^(٤) وقوله ﴿انما النسيء زيادة في الكفر...﴾^(٥) فان من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه معرفة تفسير هذه الآية، والخامس من جهة الشروط التي بها يصح الفعل أو يفسد، كشرط الصلاة والنكاح. وهذه الجملة اذا تصورت علم ان كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم^(٦).

ويلاحظ على هذا الاتجاه بالملاحظة الاولى التي ذكرناها في مناقشة الاتجاه الاول، ولكنه يتفادى الملاحظة الثانية حيث يفتح على 'تصور التشابه بسبب المعنى'، بغض النظر عن اللفظ وعلاقته بالمعنى.

(١) الفتح : ٢٥.

(٢) التوبة : ٥.

(٣) آل عمران : ١٠٢.

(٤) البقرة : ١٨٩.

(٥) التوبة : ٣٧.

(٦) مفردات الراغب الاصفهاني : مادة شبه.

ج - اتجاه الأصم :

الاتجاه الثالث : المحكم من الآيات ما كان دليلاً واضحاً لا تحاشاً، كدلائل الوحداية والقدرة والحكمة. والمتشابهات ما يحتاج في معرفتها الى تأمل وتدبر وقد نسب الفخر الرازي هذا الاتجاه الى الأصم^(١).

ويلاحظ على هذا الاتجاه : أنه يرجع الاحكام والتشابه الى عامل خارجي لا ينبع من نفس الكتاب الكريم، وهذا العامل الخارجي هو مدى وضوح الدليل وخفائه على متبنيات القرآن الكريم ومفاهيمه، في الوقت الذي تدل الآية الكريمة على أن الاحكام والتشابه ينشآن من عامل داخلي يرتبط بالكتاب نفسه، ولذلك يفتح مجال استغلال اتباع التشابه في الفتنة؛ وحين يكون الدليل على احدى دعاوى القرآن الكريم غير واضح على سبيل الفرض لا يكون استغلاله اتباعاً للقرآن ابتغاء الفتنة، وانما يكون نقداً للقرآن الكريم نفسه.

أضف الى ذلك أنه على اساس هذا التفسير للمحكم لا يمكننا ان نفهم المحكم على أنه أم الكتاب، بعد ان كان الدليل الخارجي هو العامل في الاتقان والوثوق لانفس الآية الكريمة.

د - اتجاه ابن عباس :

الاتجاه الرابع : ان المحكم ما يؤمن به ويعمل به، والمتشابه ما يؤمن به ولا يعمل به؛ وقد صيغ هذا الاتجاه بأساليب مختلفة نسب بعضها الى ابن عباس، وبعضها الى ابن تيمية^(٢) وقد ورد هذا التفسير للمحكم والمتشابه في بعض النصوص المروية عن أهل البيت عليه السلام^(٣).

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير ٧ : ١٧٢.

(٢) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣ : ٣٣.

(٣) تفسير العياشي ١ : ١١، الحديث ٦.

ولعل هذا الاتجاه يقوم على أساس فهم حرمة العمل بالمتشابه من الآية الكريمة، ولزوم الايمان به فحسب، بخلاف المحكم فانه مما يؤمن به ويعمل به أيضاً. وقد لاحظ العلامة الطباطبائي على هذا الاتجاه بأنه لا يقوم بتحديد معنى المحكم والمتشابه - كما هو المقصود - وانما يبين حكماً من أحكامها، وهو لزوم الايمان والعمل معاً بالمحكم والايمان فقط بالمتشابه. ونحن بحاجة الى تعيين معنى كل واحد من المحكم والمتشابه في المرحلة الاولى ليتمكن ترتيب الأثر عليها، لنعمل بالاول ونكتفي بالايمان بالثاني^(١).

ويمكن ان نضيف الى ذلك أن الآية الكريمة لا تمنع من العمل بالمتشابه، وانما تحرم اتباع المتشابه بقصد الفتنة والتأويل، دون العمل به بعد ارجاعه الى المحكم. ولعل هذا هو المقصود من حرمة العمل بالمتشابه، اي حرمة العمل به وحده دون ارجاعه الى المحكم.

هـ- اتجاه ابن تيمية :

الاتجاه الخامس : ان المتشابه هو آيات الصفات خاصة أعم من صفات الله سبحانه، كالعليم والقدير والحكيم والخير. وصفات انبيائه كقوله تعالى في عيسى ابن مريم عليه السلام : ﴿... وكلمته القاها الى مريم وروح منه...﴾^(٢) وما يشبه ذلك^(٣). ويكاد ينهج الاتجاه الخامس المنهج الذي سار عليه الاتجاه الرابع، حيث لا يعطينا تحديداً معيناً للمحكم والمتشابه، وانما يعرفنا على المتشابه من خلال ذكر بعض مصاديقه وأمثله كالصفات.

أضف الى ذلك أنه لا مبرر لحصر المتشابه في الصفات دون غيرها في الوقت

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣ : ٣٦.

(٢) النساء : ١٧١.

(٣) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣ : ٣٦.

الذي نجد أنّ أكثر المفاهيم التي تتحدث عن عوالم يوم القيامة تشترك مع الصفات في التشابه، وكذلك بعض المفاهيم التي تتحدث عن عالم الغيب بشكل عام، مع أنّها ليست من الصفات في شيء، على أنّ التشابه في صفات الانبياء إنما كان بسبب إضافة هذه الصفة إلى الله سبحانه كما في الآية الكريمة، وأما صفة النبي باعتباره انساناً فليس فيها تشابه.

و- اتجاه العلامة الطباطبائي رحمته :

الاتجاه السادس : ما تبناه السيد الطباطبائي رحمته في تفسيره (الميزان) بعد ان ناقش الاتجاهات المختلفة في تحديد معنى المحكم والمتشابه قال :

«ان الذي تعطيه الآية في معنى المتشابه ان تكون الآية - مع حفظ كونها آية - دالة على معنى مريب مردد، لا من جهة اللفظ بحيث تعالجه الطرق المألوفة عند أهل اللسان كارجاع العام والمطلق الى المخصص والمقيد ونحو ذلك، بل من جهة كون معناها غير ملائم لمعنى آية أخرى لا ريب فيها تبين حال المتشابه»^(١).

وقال في موضع آخر : «إنّ المراد بالتشابه كون الآية لا يتعين مرادها لفهم السامع بمجرد استماعها، بل يتردد بين معنى ومعنى، حتى يرجع الى محكمات الكتاب فتعين هي معناها وتبينها بياناً، فتصير الآية المتشابهة عند ذلك محكمة بواسطة الآية المحكمة، والآية المحكمة محكمة في نفسها»^(٢).

ويمكننا ان نوضح رأي العلامة الطباطبائي في هذا البحث بالنقاط التالية :

١- إنّ التشابه لا ينشأ من دلالة اللفظ على المعنى، حيث يجب أن تكون الآية المتشابهة دالة على معنى معين عرفي.

ويستند هذا الالتزام الى أنّ التشابه في الآية الكريمة أخذ بالشكل الذي يمكن

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣ : ٤٠.

(٢) المصدر السابق ٣ : ١٩.

استغلاله في مجال الفتنة، وإذا لم يكن اللفظ له ظهور في معنى معين لا يمكن استغلاله في مجال الفتنة، حيث « جرى دأب أهل اللسان في ظرف التفاهم ان (لا يتبعوا) ما هذا شأنه من الالفاظ، فلم يقدم على مثله أهل اللسان، سواء في ذلك أهل الزينج منهم والراسخون في العلم»^(١).

٢- أن تكون الآية المتشابهة دالة على معنى يتعارض مع مدلول آية أخرى غير مريب وهي الآية المحكمة، ويستند هذا الالتزام الى أن الآيات المحكمة هي أم الكتاب وتعني الامومة هذه حل التشابه عند الرجوع الى المحكمات بالشكل الذي يتعين به مدلول الآية المتشابهة على ضوء مدلول الآية الأخرى المحكمة، وهذا لا يتحقق اذا لم يكن تعارض بين الآيتين^(٢).

٣- أن يكون المعنى المدلول للآية المتشابهة مردداً ومريباً. ويستند هذا الشرط الى ضرورة وجود المقياس الذي نرجع إليه في معرفة الآية المحكمة الأم من الآية المتشابهة التي نرجع اليها - بعد وجود التعارض بينهما - وهذا المقياس هو ريب المعنى في التشابه واستقراره في المحكم.

٤- إن ظهر الآية (السابعة من آل عمران) هو انقسام الآيات القرآنية بشكل استيعابي الى المحكم والمتشابه بحيث تنعدم الواسطة^(٣).

ويمكننا أن نلاحظ على هذا الاتجاه بعدة ملاحظات :
فأولاً: نجد هذا الاتجاه غير قادر على تحديد الموقف تجاه الآيات التي تكون دالة على معنى مردد بين معنى مريب ومعنى غير مريب، لان هذه الآيات لا تكون واجدة لميزان التشابه لفقدانها الظهور اللفظي، كما انها غير محكمة لما فيها من

(١) المصدر السابق ٣: ٣٣.

(٢) المصدر السابق ٤٣.

(٣) المصدر السابق ٢: ٣٢.

التردد في الدلالة على 'المعنى'.

وحين يعجز الاتجاه عن تحديد موقفه من هذه الآيات نجد النقطة الرابعة غير واردة في المحكم والمتشابه؛ وقد يتشبث هذا الاتجاه بالمذهب الذي يقول بضرورة ان تكون جميع الآيات القرآنية ظاهرة في معان معينة، على أساس أن القرآن الكريم كتاب هدى ونور مبين، وحينئذ فلا يبق مجال لمثل هذه الفرضية في آيات القرآن الكريم.

ولكن هنه الضرورة القرآنية انما يلتزم بها في الحدود التي تقول بعدم وجود آية قرآنية غامضة بشكل مطلق، بحيث لا يوجد في القرآن ما يوضحها ويفسرها، والا فن الممكن الالتزام بوجود آيات قرآنية مجملة الدلالة - من ناحية مفهومها اللغوي - مع الالتزام بوجود ما يوضحها في القرآن الكريم نفسه، وهذا الالتزام لا يزيد عن الالتزام - من حيث الروح - عن الالتزام الذي آمن به هذا الاتجاه بان يكون اللفظ ظاهراً في معنى 'مريب' يفسره المحكم.

وبعد هذا لا مجال لإدعاء أن الآية المتشابهة لا بد وان تكون ظاهرة في معنى' اذ يكشف هذا عن التزام غريب من القرآن الكريم، يتلخص في أنه كلما اراد معنى' غير مريب من لفظ غير ظاهر فيه يستعمل لفظاً ظاهراً في معنى' مريب، ويكشف عن ارادته للمعنى' غير المريب بواسطة المحكم، دون ان يستعمل اللفظ في معنى' مردد بين المريب وغير المريب، ويكشف عن هذا التردد بواسطة المحكم.

وثانياً: إن هذا الاتجاه يلتزم بضرورة قيام الآية المحكمة بدور احكام الآية المتشابهة بعد ارجاعها اليها، مع أن الآية المحكمة لا تقوم الا بدور تضيق نطاق تصور المعنى' في الآية المتشابهة، في ضوء ما تعطيه الآية المحكمة من معنى'، لا ان تجعل من الآية المتشابهة آية محكمة، بشكل تتحدد صورة معناها ويتجسد مصداقه.

اذ يكفي في صدق مفهوم الاحكام على الآية ان تقوم بدور الوقاية من تسرب صور ومصاديق المعاني الباطلة الى المعنى المتشابه، وهذا يكون في بعض الاحيان نتيجة طبيعية لتصورنا للمحكم والمتشابه، حيث اخذناه على اساس التشابه في تحديد صورة المعنى ومصادقه، لا في تحديد مدلول اللفظ ومعناه.

وبهذا نجد الفرق بين احكام القرينة اللفظية لذي القرينة بشكل يجعله مختصاً بمعنى خاص، وبين احكام الآية المحكمة للآية المتشابهة، مع أننا نتصور هذا الشيء في القرينة اللفظية ايضاً.

وثالثاً: إنَّ هذا الاتجاه يلتزم بضرورة التعارض المفهومي بين المحكم والمتشابه - كما جاء في النقطة الثانية - في الوقت الذي عرفنا أنَّ الآية المتشابهة لا تدل على مفهوم لغوي باطل، ليلتزم بتعارضه مع المفهوم اللغوي للآية المحكمة، وانما ينشأ الزيف من محاولة تأويل الآية المتشابهة الذي يعني تجسيدها في مصداق معين وصورة محددة، الامر الذي يفرض علينا الرجوع الى المحكم في محاولة تحديده وتجسيده. وهذا الشيء هو الذي يستفاد من معنى الآية الكريمة حيث إنَّ الآية المتشابهة لو كانت دالة - بحسب ظهورها - على معنى باطل لكان مجرد اتباعه زيفاً دون محاولة تأويله، مع أنَّ الآية تقول: إنَّهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

ونخلص من مجموعة هذه الآراء والمناقشات الى تلخيص الرأي المختار بالنقاط التالية:

١- إنَّ الآية المتشابهة لا بد وان تكون ذات ظهور خاص في معنى لغوي معين، بقرينة قوله تعالى: ﴿فيتبعون﴾.

٢- إنَّ المعنى الذي تدل عليه الآية المتشابهة لا يكون بمفهومه اللغوي باطلاً وانما يكون صحيحاً، والفتنة والزيف انما يكونان بمحاولة تجسيده في صورة

ومصادق باطلين.

٣- إنّ التشابه انما يكون في المعنى نفسه، وذلك بتحديد صورة المعنى وتجسيد مصداقه، لا في علاقة المعنى باللفظ؛ والاحكام ما يكون قبالة هذا التشابه، بان تكون صورة المعنى المحكم محددة ومصادقه الواقعي مجسداً، بشكل يستقر اليه القلب ولا يتردد فيه.

فأى معنى قرآني اذا لاحظناه :

فان كنا نتردد في تحديد صورته وتجسيد مصداقه فهو معنى متشابه، والآية التي تتضمنه آية متشابهة.

وان كنا لا نتردد في تحديد صورته وتجسيد مصداقه، وانما يركن القلب والعقل الى صورة واضحة ومصادق معين فهو معنى محكم، والآية التي تتضمنه آية محكمة.

الحكمة في وجود المتشابه في القرآن الكريم :

لقد تعرض الباحثون في علوم القرآن لهذا البحث، وذكروا لاثارته سبيين :
الاول : ان القرآن الكريم كتاب هداية ونور مبين، ووجود المتشابه فيه لا يتفق مع هذه الحقيقة، لان المتشابه لا يعلمه الا الله والراسخون في العلم.

الثاني : ما اشار إليه الفخر الرازي ونسبه الى الملاحدة : ان وجود المتشابه في القرآن كان سبباً لاختلاف المذاهب والآراء، وتمسك كل واحد منها بشيء من القرآن بالشكل الذي ينسجم مع متبنياته؛ وهذا يناقض الاهداف التي جاء من اجلها القرآن الكريم.

ولذا عمل الباحثون في علوم القرآن على استكشاف وجوه الحكمة في وجود المتشابهات في القرآن، وعلى هذا الاساس ذكرت وجوه متعددة ومختلفة تتأرجح

بين الضعف وغاية القوة والمثانة^(١).

وسوف نشير في بحثنا الى بعضها، مع مناقشة ما يستحق النقد منها.

الاول : ما ذكره الشيخ محمد عبده : ان الله سبحانه انزل التشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به، فانه لو كان كل ما ورد في الكتاب واضحاً لا شبهة فيه عند احد من الاذكياء ولا من البلداء، لما كان في الايمان به شيء من معنى 'الخضوع لما انزل الله تعالى'، والتسليم لما جاءت به رسله^(٢).

وقد ناقشه العلامة الطباطبائي بان الخضوع هو انفعال معين، وتأثر خاص من قبل الضعيف في مقابل القوي، ولا يكون ذلك من الانسان الا لما يدرك عظمته، أو لشيء لا يتمكن من ادراكه لعظمته وكبره، كقدرة الله وعظمته وسائر صفاته التي اذا واجهها العقل رجع القهقري لعجزه عن الاحاطة به، وهذان الامران غير واردين في المتشابه، لانه وان كان من الامور التي لا يدركها العقل ولا ينالها، ولكنه يغتر باعتقاده لادراكها وحينئذ قد يزيغ الانسان فيغتر بادراكه لكنه، ومن هنا جاء تحييص القلوب بالمتشابه، فاذا صدق الانسان به واستسلم له فهو قد ثبت على الايمان، واذا اغتر به وحاول معرفة تأويله فقد زاع قلبه. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم حيث قال : ﴿... والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا...﴾^(٣) فهو شيء تمحص به القلوب، فمن كان في قلبه مرض وزيف اتبعه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

ولكن هذا التفسير انما ينفع في بعض آيات المتشابه، التي هي من قبيل مفاهيم

(١) راجع بهذا الصدد الفخر الرازي، التفسير الكبير ٧ : ١٨٤ - ١٨٥، والسيوطي، الاتقان

٢ : ١٢ - ١٣، والزرقاتي، مناهل العرفان ٢ : ١٧٨ - ١٨١.

(٢) رشيد رضا، تفسير المنار ٣ : ١٧٠.

(٣) آل عمران : ٧.

عالم الغيب، كاللوح والعرش والقلم، حيث يكون موقف الانسان منها هو الايمان المطلق بها، واما الآيات المتشابهة التي يمكن فهمها بعد عرضها على المحكم فلا بد ان يكون لوجودها غرض آخر وهو الهدى المترتب عليها.

الثاني: ما ذكره الشيخ محمد عبده أيضاً: ان وجود المتشابه في القرآن كان حافزاً لعقل المؤمن الى النظر، كي لا يضعف فيموت، فان السهل الجلي جداً لا عمل للعقل فيه، والعقل اعز القوى الانسانية التي يجب تربيتها، والدين اعز شيء على الانسان، فاذا لم يجد العقل مجالاً للبحث في الدين يموت عامل العقل فيه، واذا مات فيه لا يكون حياً بغيره^(١).

وقد ناقشه العلامة الطباطبائي: ان القرآن الكريم اهتم بالعقل وتربيته اهتماماً بالغاً، فامر باستعمال العقل في الآيات (الآفاقية) (والانفسية) اجمالاً في بعض الموارد، كما فصل ذلك في موارد أخرى، كالامر بالتدبر في خلق السماوات، والارض، والجبال، والشجر، والدواب، والانسان، واختلاف الالسنه والالوان، كما حث على التفكير والسير في الارض والنظر في احوال الماضين، وحرّض العقل والفكر ومدح العلم بابلغ المدح، وفي كل ذلك ما يغني عن سلوك طريق آخر هو انزال المتشابهات الذي يكون مزلة للاقدام ومصرعاً للعقل^(٢).

الثالث: ما ذكره الشيخ محمد عبده ايضاً: ان الانبياء بعثوا الى جميع الاصناف من عامة الناس وخاصتهم، وفيهم العالم والجاهل والذكي والبليد؛ وهناك من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته وتشرح كنهه، بحيث يفهمه الجميع على السواء، وانما يفهمه الخاصة منهم عن طريق الكناية والتعريض، ويؤمر العامة بتفويض الامر فيه الى الله تعالى عند حد المحكم، فيكون لكل نصيبه

(١) رشيد رضا، تفسير المنار ٣: ١٧٠.

(٢) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣: ٥٨.

على قدر استعداده^(١).

وقد ناقشه العلامة الطباطبائي: بأن الكتاب الكريم كما يشتمل على المتشابهات كذلك يشتمل على المحكمات التي تبين هذه المتشابهات عند الرجوع إليها، ولازم ذلك أن لا تتضمن المتشابهات من المعاني ما هو أزيد مما تكشف عن المحكمات، وعند ذلك يبقى سؤالنا: (ما فائدة وجود المتشابهات في الكتاب واي حاجة إليها مع وجود المحكمات؟) على حاله.

والسبب في هذا الاشتباه الذي وقع فيه الشيخ محمد عبده: أنه اخذ المعاني نوعين متباينين:

الاول: معاني يفهمها جميع المخاطبين من العامة والخاصة وهي مداليل المحكمات. الثاني: معاني لا يدرك حقيقتها الا الخاصة ولا يتلقاها غيرهم وهي المعارف الالهية والحكم الدقيقة، فكان من نتيجته أن من المتشابهات ما لا ترجع معانيها الى المحكمات، وقد مر أن ذلك مخالف لمنطوق الآيات الدالة على أن القرآن يفسر بعضه بعضاً وغير ذلك^(٢).

ويمكن ان نلاحظ على المناقشة: أنه ما هو الشيء الذي يمنع من وجود هذين 'لقسمين من المعاني؟

اذا كان المانع من ذلك هو ما يشير إليه العلامة الطباطبائي من أمومة المحكمات للمتشابهات... فقد عرفنا أن هذه الامومة لا تعني اكثر من وضع حدود خاصة معينة للمتشابهات تمنع عن الزيف فيها، وتسقط من الحساب جميع الصور والتجسيدات غير المنسجمة مع روح القرآن.

وهذا لا يعني تحديد الصورة الحقيقية للمعنى المتشابه، وتعيينها في مصداق

(١) رشيد رضا، تفسير المنار ٣: ١٧٠ - ١٧١.

(٢) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣: ٥٨.

خاص حتى 'تختفي الفائدة منه؛ فقوله تعالى: ﴿... ليس كمثله شيء...﴾^(١) محكم يُسقط من الحساب جميع التجسيدات التي (تشبه الاشياء) في مفهوم (الاستواء) على' العرش في قوله تعالى: ﴿الرحمن على' العرش استوى﴾^(٢) ولكنه لا يُعطينا الصورة الواقعية والمصداق المجسد لهذا (الاستواء)، فهو معنى' لا يمكن ان نفهمه من ذلك المحكم: ﴿ليس كمثله شيء﴾.

واذا عرفنا دور المحكم تجاه المتشابه أمكننا ان نتصور بسهولة: أن بعض المعاني لا يدركها - على' مستوى المصداق - الا الراسخون في العلم دون العامة، خصوصاً المعاني التي ترتبط ببعض المعلومات الكونية الطبيعية، كجريان الشمس: ﴿والشمس تجري لمستقر لها...﴾^(٣) أو تلقيح الرياح: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح...﴾^(٤) أو جعل الماء مصدراً للحياة: ﴿... وجعلنا من الماء كل شيء حي...﴾^(٥) فان كل هذه المعلومات حين تنكشف لدى العلماء تكون من المعلومات التي اشار اليها القرآن الكريم، ويعرفها الخاصة من الناس دون غيرهم.

والعلامة الطباطبائي نفسه تصور هذا التمايز بين الناس في الادراك للمعاني، وإن حاول ان يصوغه بشكل آخره «فظهر ان للناس - بحسب مراتب قربهم وبعدهم منه تعالى - مراتب مختلفة من العمل والعلم، ولازمه ان يكون ما يتلقاه أهل واحدة من المراتب والدرجات غير ما يتلقاه أهل المرتبة والدرجة الأخرى

(١) الشورى: ١١.

(٢) طه: ٥.

(٣) يس: ٣٨.

(٤) الحجر: ٢٢.

(٥) الانبياء: ٣٠.

التي فوق هذه أو تحتها؛ فقد تبين للقرآن معان مختلفة مترتبة»^(١).

فهو يتعقل في المعنى القرآني التعدد، ولكنه يتصوره على أساس التعدد في الدرجة والمترتبة للمعنى الواحد، كما يتعقل في الفهم الانساني هذا التعدد ايضاً. وحين نتعقل ذلك لا يبقى ما يمنع ارادة القرآن الكريم بآية معينة مرتبة ودرجة خاصة من معنى معين دون غيرها، وحينئذ لا يقدر على فهم هذه المترتبة والدرجة الا ذلك القريب من الله.

الرابع: ما ذكره العلامة الطباطبائي: ان التربية الاسلامية سارت على منهج معين، يقوم على اساس فرض الواقع للانسان، وعلاقته بالله سبحانه خالق الكون ومدبر أموره، وبالمعاد والجزاء.

وهذا المنهج يتلخص في: أنَّ عامة الناس لا تكاد تتجاوز افهامهم وعقولهم المحسوسات المادية الى عالم ما وراء الطبيعة، ولا يمكن ان يعطى انسان ما معنى من المعاني، الا عن طريق تصورات ومعلوماته الذهنية التي حصلت له خلال حياته المادية والعقلية، والناس في هذه التصورات والمعلومات على مراتب ودرجات، تختلف باختلاف الممارسة المادية والعقلية.

والهداية القرآنية ليست مختصة بجماعة دون أخرى، وانما هي هبة الله سبحانه للناس كافة.

وهذا الاختلاف في الفهم وعموم الهداية القرآنية: يفرض ان يسوق القرآن الكريم بياناته مساق الامثال، بان يستثمر ما يعرفه الانسان ويعهده في ذهنه من المعاني والصور، ليبين ما لا يعرفه من هذه المعاني والصور.

وقد يكون ذلك في القرآن الكريم، مع عدم وجود التوافق الكلي بين المعنى الذي يعرفه الانسان مسبقاً والمعنى الجديد الذي يحاول القرآن الكريم تعريف

(١) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣: ٦٧.

الانسان عليه؛ وانما يلحظ القرآن جانباً معيناً من الانسجام والتوافق، كما نفعل ذلك في حياتنا العملية، حين نستثمر الاوزان والمكاييل للتعريف بالمواد الغذائية وغيرها، مع عدم وجود التوافق بينها وبين المواد الغذائية، في شكل أو صورة أو حجم.

وحين نستعمل الصورة المادية المحسوسة - التي عرفها الانسان في حياته - كأمثال للمعارف الالهية المجردة يقع الفهم الانساني في ادراكه لهذه المعارف المثلة بين أمرين، قد يستلزم كل منهما محذوراً:

الاول: الجمود بهذه المعارف في مرتبة الحس المادي، وحينئذ تنقلب عن واقعها المجرد الذي استهدفته الهداية القرآنية.

الثاني: الانعتاق من الاطار المادي للمثال، والقيام بعملية تجريد للخصوصيات غير الداخلة في التمثيل، وهذا يستلزم - احياناً - الزيادة والنقيصة في هذه العملية أو الشدة والضعف.

ولذا نجد القرآن يلجأ الى عملية واسعة في التمثيل تفادياً لهذه المشاكل العقلية والنفسية، وذلك بتوزيع المعاني التي يريد من الانسان ادراكها، وتربيته على تصورها الى امثال مختلفة، وجعلها في قوالب متنوعة، حتى 'يفسر بعضها بعضاً، ويوضح بعضها امر بعض، لينتهي الامر الى 'تصفية عامة تؤدي الى 'النتيجتين التاليتين:

الاولى: ان البيانات القرآنية ليست الا امثلاً، لها في ما ورائها حقائق ممثلة، وليس الهدف والمقصود منها مرتبطاً باللفظ المأخوذ من الحس والمحسوسات، فتتخلص بذلك من محذور الجمود.

الثانية: بعد الالتفات الى أن البيانات القرآنية امثال نعلم حدود المعنى الالهي المقصود من وراء هذه البيانات، حين نجمع بين هذه الامثال المتعددة ونفني بكل

واحد منها خصوصية من الخصوصيات المأخوذة من عالم الحس، الموجودة في المثال الآخر، فطرح ما يجب طرحه من الخصوصيات المحيطة بالكلام، ونحتفظ بما يجب الاحتفاظ به منها^(١).

ولاشك ان هذا الوجه من أروع ما قيل في تفسير ظاهرة وجود المتشابه، ويمكن ان يعتبر تعليلاً وجيهاً لورود الكثير من الآيات المتشابهة، ولكننا لا نقبله تعليلاً شاملاً لكل ما ورد في القرآن من المتشابهات، حيث نرى أن بعضها لا يمكن تحديد مصداقه بشكل قاطع، بناءً على مذهبنا في حقيقة المتشابه الذي عرفنا فيه أن المفهوم اللغوي له مفهوم صحيح، وليس باطلاً لينتفي الريب بواسطة الأمثلة الأخرى القرآنية.

وفي نهاية المطاف يجدر بنا أن نذكر خلاصة الوجه الصحيح في حكمة ورود المتشابه في القرآن، وبهذا الصدد يحسن بنا ان نقسم المتشابه الى قسمين رئيسين :
الاول : المتشابه الذي لا يعلم تأويله ومصداقه إلا الله .
الثاني : المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، ولو كان ذلك بتعليم الله تعالى لهم .

اما ورود القسم الاول في القرآن، فلأن من الاهداف الرئيسة التي جاء من أجلها القرآن الكريم هو : ربط الانسان الذي يعيش الحياة الدنيا بالمبدأ الأعلى وهو الله سبحانه، وبالمعاد وهو الدار الآخرة وعوالمها؛ وهذا الربط لا يمكن ان يتحقق إلا عن طريق اثارة الموضوعات التي تتعلق بعالم الغيب وما يتصل به من افكار ومفاهيم، لينمي غريزة الايمان التي فطر الانسان عليها، ويشده الى عالمه الذي سوف ينتهي اليه؛ فلم يكن هناك سبيل أمام القرآن الكريم يتفادى به

(١) العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ٣ : ٥٨ - ٦٥ . وقد لخصنا كلامه، وتركنا بيان الامثلة والايضاحات الفكرية التي أوردتها لتأييد مدعياته .

المتشابه في القرآن بعد ان كان هو السبيل الوحيد الذي يوصل الى هذا الهدف الرئيس.

واما ورود القسم الثاني في القرآن الكريم بهذا الاسلوب فانه أراد أن يطرح أمام العقل البشري قضايا جديدة، كبعض المسائل الكونية أو الانسانية وغيرها من المفاهيم الغيبية، لينطلق في تدبر حقيقتها واكتشاف ظلماتها المجهولة، أو يقترب منها بالقدر الذي تسمح له معرفته ودرجته في تلك المعرفة، كما ذكر العلامة الطباطبائي.

ونحن في هذا العصر حين نعيش التطور المدني العظيم في المجالات العلمية المختلفة ندرك قيمة بعض الآيات القرآنية التي المحت الى بعض الحقائق العلمية، ووضعها تحت تصرف الانسان لينطلق منها في بحثه وتحقيقه، وكذلك بعض المصاديق الانسانية^(١).

وبهذا يمكن ان نقدم تفسيراً لحكمة ورود المتشابه في القرآن الكريم.

(١) سيأتي بعض التوضيح لهذه الافكار عند تناولنا «التفسير عند أهل البيت» وكذلك في كتابنا «الهدف من نزول القرآن الكريم» في معالجتنا لظاهرة الحكم والمتشابه.

النسخ في القرآن*

توطئة عن فكرة النسخ :

حين نريد ان نتعرف فكرة النسخ (موضوع البحث) يحسن بنا أن نفهمها من خلال مشابهاتها في حياتنا الاجتماعية المعاصرة.

فاننا نشاهد أن بعض الدول أو المجتمعات قد تضع قانوناً لتنظيم علاقة الناس بعضهم ببعض حكماً أو محكومين، ثم نراها بعد تطبيقه مدة من الزمان تستبدل به قانوناً آخر يتكفل تنظيمياً جديداً للعلاقات بين الناس، وحينئذ يمكن ان يقال : إنَّ هذا القانون الآخر نسخ القانون الاول واصبح بدلاً منه.

كما نشاهد أيضاً أن بعض الدول تضع مادة معينة في القانون الذي يجري تطبيقه ثم ترى ان تستبدلها بمادة أخرى مع الاحتفاظ بالقانون نفسه كمنهج عام للتنظيم الاجتماعي.

وهذان النوعان من النسخ: نسخ القانون للقانون، ونسخ مادة لمادة من القانون نفسه يمكن ان نتصورهما في التشريع الالهي بأن تنسخ شريعة سهاوية شريعة أخرى أو مادة في شريعة سهاوية مادة من تلك الشريعة.

ولكن يوجد فارق اساسي بين النسخ والتشريع الالهي والنسخ في التشريعات

(*) اعتمدنا في كتابة هذا البحث بشكل رئيس على 'دراسة النسخ في القرآن لآية الله السيد الخوئي في كتابه «البيان في تفسير القرآن» المدخل : ١٨٩ - ٢٧٦، وكتاب «النسخ في القرآن» للدكتور مصطفى زيد.

الوضعية، ذلك أن النسخ في التشريع الالهي لا يكون إلا بعد علم مسبق بوقوعه في ظروفه المعينة وفي وقته المحدد بخلاف النسخ في التشريع الوضعي، حيث يكشف في أكثر الأحيان عن جهل بالواقع الموضوعي الذي وضع التشريع لمعالجته، وعندما ينكشف تخلف التشريع عن تحقيق غاياته، ينسخ بتشريع آخر في سبيل محاولة لتحقيق تلك الغايات والأهداف.

نعم في القوانين الوضعية قد يوضع القانون منذ البداية بشكل مؤقت، ثم ينسخ عند انتهاء وقته كما في الدساتير المؤقتة عند حصول تغييرات أساسية في المجتمع، وهذا النوع يشبه إلى حد كبير النسخ في الشريعة الالهية، حيث يكون الحكم المنسوخ فيها منذ البداية مؤقتاً في الواقع.

النسخ لغةً واصطلاحاً :

أ - اللغة : للنسخ معان متعددة ذكرت في كتب اللغة وهي تدور بين (النقل) و(الإزالة) و(الابطال). فتقول : (نسخ زيد الكتاب اذا نقله عن معارضه). ونسخ النحل اذا نقله من خلية إلى أخرى، وتقول : نسخ الشيب شبابه، اذا أزاله وحل محله. وتقول : نسخت الريح آثار القوم، اذا أبطلتها وعفت عليها^(١). واللغويون حين يذكرون هذه المعاني المتعددة يختلفون في أي واحد منها هو المعنى الحقيقي للكلمة، أو أنّها بأجمعها معان حقيقية ؟

وتميز المعنى الحقيقي للكلمة عن المعنى المجازي ليس في الواقع من الأهمية بقدر تحديد المعنى اللغوي الذي ينسجم مع فكرة النسخ ذاتها، وبهذا الصدد نجد أن الإزالة هي أوفق المعاني اللغوية انسجاماً مع الفكرة التي عرضناها عن النسخ، خصوصاً اذا لاحظنا أن فكرة النسخ في القرآن الكريم ورد التعبير عنها بمواد

(١) راجع بهذا الصدد لسان العرب ٤ : ٢٨ ط. بولاق.

مختلفة تنسجم كلها مع الإزالة، لأن كل واقعة لا يمكن ان تخلو من الحكم الشرعي، فاذا أزيل حكم فلا بد ان يحل محله حكم آخر. واما في القرآن كقوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها...﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿واذا بدلنا آية مكان آية - والله اعلم بما ينزل - قالوا انما انت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون﴾^(٣) فنجد الإزالة هي المعنى الذي ينسجم مع المحو والتبديل أيضاً.

ب - الاصطلاح: وحين نلاحظ كلمة النسخ في إطلاقات علماء القرآن والمفسرين نجد الكلمة قد مرت بمراحل متعددة من التطور حتى انتهت الامر بها الى خصوص الفكرة التي عرضناها سابقاً.

وهذه المراحل تبدأ منذ العصور الأولى لهذا العلم، حيث كان يطلق بعض الصحابة كلمة النسخ على مجرد مخالفة آية لأخرى في الظهور اللفظي، حتى لو كانت هذه المخالفة على نحو العموم والخصوص من وجه أو نحو التخصيص، أو كانت احدي الآيتين مطلقة والأخرى مقيدة.

وهذه السعة في الاطلاق قد تكون نتيجة للتوسع في فهم أصل الفكرة، كما يمكن ان تكون نتيجة فهم ساذج لبعض الآيات القرآنية. ومن هنا وقع الاختلاف بين علماء القرآن في تعيين الآيات المنسوخة والآيات الناسخة، فنجد بعضهم يتوسع في تعدادها، وبعضهم الآخر يقتصر على كمية محدودة منها.

ولكن بعد مضي مدة من الزمن على الدراسات القرآنية نرى بعض العلماء يحاول أن يميز بين النسخ وبين (التقييد) و(التخصيص) و(البيان)، ويقتصر النسخ

(١) البقرة: ١٠٦.

(٢) الرعد: ٣٩.

(٣) النحل: ١٠١.

على الفكرة التي عرضناها سابقاً؛ وقيل: إنَّ أوَّل محاولة في ذلك كانت من قبل (الشافعي).

وقد ذكر الاصوليون للنسخ تعاريف كثيرة أصبحت بعد ذلك مجالاً واسعاً للمناقشة والنقد، ولكننا تقتصر هنا على ما ذكره السيد الخوئي رحمته الله من تعريف للنسخ لانه يفي بالمقصود.

النسخ: «رفع امر ثابت في الشريعة المقدسة بارتفاع أمده وزمانه سواء أكان ذلك الامر المرتفع من الاحكام التكليفية - كالوجوب والحرمة - أم من الاحكام الوضعية كالصحة والبطالان، وسواء أكان من المناصب الالهية ام من غيرها من الامور التي ترجع الى الله تعالى بما انه شارع»^(١).

ويلاحظ في هذا التعريف أنَّ الرفع في النسخ انما يكون لامر ثابت في اصل الشريعة، ولذا فلا يكون شاملاً لمثل ارتفاع الحكم الشرعي الذي يكون بسبب انتهاء موضوعه، كارتفاع وجوب الصوم بانتهاء شهر رمضان، أو ارتفاع ملكية شخص لماله بسبب موته؛ فان هذا النوع من ارتفاع الحكم لا يسمى نسخاً، ولا نجد من يخالف في امكانه ووقوعه؛ وقد أوضح السيد الخوئي رحمته الله لنا الفرق بين الارتفاع الذي يكون نسخاً، والارتفاع الذي لا يكون من النسخ في شيء وذلك بالبيان التالي:

ان الحكم المجعول في الشريعة المقدسة له مرحلتان من الثبوت:

الاولى: ثبوت الحكم في عالم التشريع والانشاء، والحكم في هذه المرحلة يكون مشرعاً على نحو (القضية الحقيقية) حيث لا يفرق في صدقها وثبوتها وجود الموضوع في الخارج وعدم وجوده، وانما يكون قوام ثبوت الحكم ووجوده فيها بفرض وجود الموضوع.

(١) البيان للسيد الخوئي: ٢٧٧. طبعة دار الزهراء - بيروت.

فاذا قال الشارع: شرب الخمر حرام (مثلاً) فليس معناه أن هنا خمرأ في الخارج وأن هذا الخمر محكوم بحرمة شربه، وانما معناه أن الخمر متى ما فرض وجوده في الخارج فشربه محكوم بالحرمة في الشريعة، سواء كان في الخارج خمر بالفعل ام لم يكن، ورفع مثل هذا الحكم في هذه المرحلة من ثبوته لا يكون الا بالنسخ.

الثانية: ثبوت الحكم في الخارج بأن يتحول الى حكم فعلي بسبب فعلية موضوعه وتحققه خارجاً، كما اذا تحقق وجود الخمر خارجاً في مثالنا السابق، فان الحرمة المجعولة في الشريعة للخمر تكون ثابتة له بالفعل خارجاً، وهذه الحرمة تكون مرتبهة في وجودها بوجود الموضوع خارجاً وتستمر باستمراره، فاذا انعدم الموضوع أو ارتفع كما اذا انقلب خلاً مثلاً فلا ريب في ارتفاع تلك الحرمة الفعلية التي كانت ثابتة للخمر حال خمريته وتحل محلها الحلية للخل^(١).

وهذا الارتفاع للحكم ليس من النسخ في شيء، وليس لا حد شك في جوازه ولا في وقوعه.

جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً :

أ- جواز النسخ عقلاً :

المعروف بين العقلاء من المسلمين وغيرهم جواز النسخ عقلاً، وقد خالف في هذا الرأي بعض اليهود والنصارى، وذلك في محاولة للطعن في الاسلام والتمسك ببقاء الديانتين اليهودية والمسيحية واستمرارهما، وقد استندوا في هذا الموقف الى بعض الشبهات التي حاولوا صياغتها بأساليب مختلفة، كما قام بعضهم بمحاولة تعضيد ذلك ببعض النصوص الواردة المتداولة اليوم؛ وسوف نعرض الصياغة

(١) البيان للسيد الخوئي : ٢٧٨ . طبعة دار الزهراء - بيروت .

الرئيسة للشبهة في هذا الموضوع مع الاجابة عليها بالشكل الذي يتضح به الموقف تجاه الصياغات الأخرى لها .

وخلاصة هذه الشبهة أنَّ النسخ يستلزم أحد أمرين باطلين : (البدء ، أو العبث) لان النسخ إمّا ان يكون بسبب حكمة ظهرت للناسخ بعد ان كانت خفية لديه ، أو يكون لغير مصلحة وحكمة ، وكلا هذين الامرين باطل بالنسبة الى الله سبحانه ، ذلك أنَّ تشريع الحكم من الحكيم المطلق وهو الله سبحانه لا بد ان يكون بسبب مصلحة يستهدفها ذلك الحكم فتقتضي تشريعه ، حيث إنّ تشريع الحكم بشكل جزافي يتنافى وحكمة الشارع ، وحينئذ فرفع هذا الحكم الثابت لموضوعه بسبب المصلحة ، اما ان يكون مع بقاء حاله على ما هو عليه من وجه المصلحة وعلم ناسخة بها ، وهذا ينافي حكمة الجاعل وهو العبث نفسه ، واما ان يكون من جهة البدء وجهله بواقع المصلحة والحكمة وانكشاف الخلاف لديه على ما هو الغالب في الاحكام والقوانين الوضعية ، وعلى كلا الفرضين يكون وقوع النسخ في الشريعة محالاً لأنه يستلزم المحال . اما البدء أو العبث ، فهما محال على الله لأنها نقص لا يتصف بها^(١) .

ومن اجل ان يتضح الجواب عن هذه الشبهة نقسم الحكم المجعول من قبل الشارع الى قسمين رئيسين :

الاول : الحكم المجعول الذي لا يكون وراءه طلب وزجر حقيقيان كالاوامر والنواهي التي تجعل ويقصد بها الامتحان ودرجة الاستجابة للحكم دون ان يستهدف المشرّع تحريك المكلف ، كما في أمر الله سبحانه نبيه ابراهيم بذبح ولده اسماعيل ؛ وهذا ما نسميه بالحكم الامتحاني .

الثاني : الحكم المجعول الذي يكون بداع حقيقي من البعث والزجر حيث يقصد

منه تحقيق متعلقه بحسب الخارج ، وهذا ما نسميه بالحكم الحقيقي .

ونجد من السهل الالتزام بالنسخ في القسم الاول من الحكم ، إذ لا مانع من رفع هذا الحكم بعد اثباته بعد أن كانت الحكمة في نفس إثباته ورفعه ، لأن دوره ينتهي بالامتحان نفسه فيرفع حين ينتهي الامتحان والحصول فائدته وغرضه ، والنسخ في هذا النوع من الحكم لا يلزم منه العبث ولا ينشأ منه البداء الذي يستحيل في حقه تعالى .

واما القسم الثاني من الحكم فاننا يمكن ان نلتزم بالنسخ فيه دون ان يستلزم ذلك شيئاً من البداء أو العبث ، حيث يمكن ان نضيف فرضاً ثالثاً الى الفرضين اللذين ذكرتهما الشبهة .

وهذا الفرض هو ان يكون النسخ لحكمة كانت معلومة لله سبحانه من أول الامر ولم تكن خافية عليه وان كانت مجهولة عند الناس غير معلومة لديهم ، فلا يكون هناك بداء لانه ليس في النسخ من جديد على الله لعلمه سبحانه بالحكمة مسبقاً ، كما أنه لا يكون عبثاً لوجود الحكمة في متعلق الحكم الناسخ وزوالها في متعلق الحكم المنسوخ ، وليس هناك ما يشكل عقبة في طريق تعقل النسخ هذا الا الوهم الذي يأبى تصور ارتباط مصلحة الحكم بزمان معين بحيث تنتهي عنده ، والا الوهم الذي يرى في كتمان هذا الزمان المعين عن الناس جهلاً من الله بذلك الزمان .

وهذا الوهم يزول حين نلاحظ بعض النظائر الاجتماعية التي ترى فيها شيئاً اعتيادياً ليس فيه من المحال أثر ولا من العبث والبداء .

فالطبيب حين يعالج مريضاً ويرى أن مرحلة من مراحل المرض التي يجتازها المريض يصلح لها دواء معين فيصف له هذا الدواء لمدة معينة ثم يستبدله بدواء آخر يصلح لمرحلة أخرى لا يوصف عمله بالعبث والجهل ، مع أنه قام بوضع

احكام معينة لهذا المريض في زمان محدود ثم رفعها عنه بعد مدة من الزمن، وحين وضع الحكم كانت هناك مصلحة تقتضيه كما أنه حين رفع الحكم كانت هناك مصلحة تقتضي هذا الرفع، وهو في كل من الحالين كان يعلم المدة التي يستمر بها الحكم والحكمة التي تقتضي رفعه.

ونظير هذا يمكن ان نتصوره في النسخ، فان الله سبحانه حين وضع الحكم المنسوخ وضعه من اجل مصلحة تقتضيه، وهو سبحانه يعلم الزمان الذي سوف ينتهي فيه الحكم وتتحقق المصلحة التي من اجلها شرع، كما انه حين يستبدل الحكم المنسوخ بالحكم الناسخ استبدله من اجل مصلحة معينة تقتضيه، فكل من وضع الحكم ورفعته كان من اجل حكمة هي معلومة عند جعل الحكم المنسوخ. فليس هناك جهل وبداء، كما انه ليس هناك عبث لتوفر عنصر العلم والحكمة في الجعل والرفع.

نعم هناك جهل الناس بواقع جعل الحكم المنسوخ حيث كان يبدو استمرار الحكم نتيجة للاطلاق في البيان الذي وضع الحكم فيه ولكن النسخ انما يكون كشفاً عن هذا الواقع الذي كان معلوماً لله سبحانه من أول الامر.

ب - وقوعه خارجاً :

والى جانب ما ذكرناه من تصوير النسخ بالشكل الذي لا يستلزم البداء أو العبث منه سبحانه وتعالى، يمكن ان نضيف شيئاً آخر في احباط شبهة القائلين باستحالة النسخ من اليهود والنصارى وغيرهم، وذلك بملاحظة الموارد التي تحقق فيها النسخ سواء في الشريعة الموسوية، أو الشريعة المسيحية، أو الشريعة الاسلامية؛ حيث جاءت نصوص في التوراة والانجيل وفي الشريعة الاسلامية تتضمن النسخ، ورفع ما هو ثابت في نفس الشريعة أو في غيرها من الشرائع السابقة، نذكر منها الموارد الآتية :

١- تحريم اليهود العمل الديني في يوم السبت، مع الاعتراف بان هذا الحكم لم يكن ثابتاً في الشرائع السابقة، وانما كان يجوز العمل في يوم السبت كغيره من أيام الاسبوع^(١).

٢- أمر الله سبحانه بني اسرائيل قتل أنفسهم بعد عبادتهم للعجل ثم رفعه لهذا الحكم عنهم بعد ذلك^(٢).

٣- الامر ببدء الخدمة في خيمة الاجتماع في سن الثلاثين، ثم رفع هذا الحكم وابداله بسن خمس وعشرين سنة، ثم رفعه بعد ذلك وابداله بسن العشرين^(٣).

٤- النهي عن الحلف بالله في الشريعة المسيحية - مع ثبوته في الشريعة الموسوية - والالزام بما التزم به في النذر أو اليمين^(٤).

٥- الامر بالقصاص في الشريعة الموسوية^(٥)، ثم نُسخ هذا الحكم في الشريعة المسيحية ونُهي عن القصاص^(٦).

٦ - تحليل الطلاق في الشريعة الموسوية^(٧)، ونسخ هذا الحكم في الشريعة المسيحية^(٨).

(١) انظر سفر الخروج ١٦: ٢٥-٢٦، و٢٠: ٨-١٢، و٢٣: ١٢، و٣١: ١٦-١٧، و٣٥: ١-٣.

٣، وسفر اللاويين ٢٣: ١-٣ وسفر التثنية ٥: ١٢-١٥.

(٢) سفر الخروج ٣٢: ٢١-٢٩.

(٣) سفر العدد ٤: ٢-٣ و٨: ٢٣-٢٤، وسفر أخبار الأيام الأول ٢٣: ٢٤ و٣٢.

(٤) سفر العدد ٣٠: ٢، انجيل متى ٥: ٣٣-٣٤.

(٥) سفر الخروج ٢١: ٢٣-٢٥.

(٦) انجيل متى ٥: ١٣٨.

(٧) سفر التثنية ١٤: ١-٣.

(٨) انجيل متى ٥: ٣١-٣٢ وانجيل مرقس ١٠: ١١-١٢.

الفرق بين النسخ والبداء :

لقد أُثيرت الى جانب مسألة النسخ مسألة أخرى هي مسألة (البداء) وقد عرفنا من مطاوي حديثنا السابق عن النسخ - خصوصاً فيما يتعلق بدراستنا لشبهة اليهود والنصارى في استحالة النسخ - أن البداء محال على الله سبحانه . ومع كل هذا فالمعروف من مذهب الامامية الاثني عشرية أنهم يقولون بفكرة البداء .

وعلى هذا الاساس نجد بعض الباحثين من اخواننا السنة يحملون على اخوانهم الامامية بشكل عنيف، متهمين اياهم بالانحراف والضلال، حتى إن بعضهم يكاد أن يقول: أن الامامية أشد انحرافاً من اليهود والنصارى حين حاولوا انكار النسخ، لان اولئك انكروا النسخ في محاولة لتزيه الله سبحانه من النقص، وهؤلاء قالوا بالبداء فأثبتوا الجهل والنقص لله سبحانه^(١).

لذا يجدر بنا ونحن ندرس النسخ أن نلقي ضوءاً على هذه الفكرة أيضاً، لنحدد موقفنا منها بشكل دقيق وواضح، ونعرف مدى صحة هذه التهم التي رمى بها بعض المسلمين مذهب الامامية في قولهم بالبداء .

فالبداء تارة نفهمه على اساس ان يعتقد الله شيئاً، ثم يظهر له أن الامر بخلاف ما اعتقده، كأن يرى في الحكم مصلحة ثم يظهر له خلاف ذلك، أو يرى خلق شيء من مخلوقاته حسناً ثم يظهر له خلاف ذلك فهذا شيء باطل لا يقول به احد من المسلمين - من دون فرق بين الاماميين وغيرهم - بل أنكره اليهود والنصارى، ونزّهوا الله عنه .

وقد وردت النصوص التي تؤكد هذا المعنى عن طريق أهل البيت عليهم السلام، فقد

(١) في هذا الصدد راجع الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ - الرعد : ٣٩ - والدكتور مصطفى زيد، النسخ في القرآن ١ : ٢٧ .

روى الصدوق في اكمال الدين عن الامام الصادق عليه السلام قال : « من زعم أن الله عز وجل يبدوله في شيء لم يعلمه أمس فابروا منه »^(١).

والبدء - تارة أخرى - نفهمه على اساس آخر بان تنصوره نسخاً في التكوين، فليس هناك فرق اساسي بينه وبين النسخ من حيث الفكرة، وانما الفرق بينها في الموضوع الذي يقع النسخ فيه أو البدء؛ فالإزالة والتبديل اذا وقعا في التشريع سميانهما نسخاً، واذا وقعا في الامور الكونية من الخلق والرزق والصحة والمرض وغيرها سميانهما بدء.

والجدير بالذكر أن هذه الفكرة للبدء من شبهة أثارها اليهود حول قدرة الله تعالى - وسلطانه، وأشار القرآن الكريم اليها كما ناقشها أيضاً بقوله تعالى: ﴿وقالت اليهود: يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء...﴾^(٢).

وخلاصة الشبهة: أن الله سبحانه اذا خلق شيئاً وقضى فيه أمره استحاله عليه ان تتعلق مشيئته بخلافه، فهو حين يخلق قانون المجاذبية للارض - مثلاً - اصبح مسلوب القدرة والسلطان امام هذا القانون، فلا يقدر ان يشاء خلافه أو ينسخه، شأنه في هذا شأن صاحب البندقية؛ فانه حين يضغط على الزناد يفقد قدرة التحكم في الرصاصة.

وهذا المعنى هو الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ كما جاء ذلك في رواية الصدوق عن الصادق عليه السلام حيث قال: «لم يعنوا أنه هكذا ولكنهم قالوا فرغ عن الامر فلا يزيد ولا ينقص».

(١) راجع في النصوص التي نذكرها في موضوع البدء آية الله السيد الخوئي، البيان في تفسير

القرآن : ٢٧٠ - ٢٧٧.

(٢) المائدة : ٦٤.

وقد نقض القرآن الكريم هذه الشبهة في مجالات متعددة، منها الآية الكريمة التي سبق ذكرها، ومنها قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١) وغير ذلك.

فالقول بالبداء عند الامامية يعني فكرة النسخ مطبقة في المجال التكويني ومنطلقة من مفهوم قوله تعالى: ﴿... بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾ وقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فهي تؤمن بعلم الله سبحانه بما يقدمه وما يؤخره، وما ينقصه وما يزيده، وما يستبدل به، كما انها تؤمن بقدرته على هذا التقديم والتأخير والاستبدال؛ وهناك نصوص كثيرة تؤكد أن فكرة الامامية عن البدء لا تتعدى حدود هذا المعنى ولا تتجاوز عنه.

ففي رواية العياشي عن ابي عبد الله عليه السلام يقول: «إن الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، ويمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، وعنده أم الكتاب. وقال: فكل أمر يريد الله فهو علمه قبل ان يصنعه، وليس شيء يبدو له الا وقد كان علمه، ان الله لا يبدو له عن جهل»^(٢).

وروى الكليني عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام: «ما بدا لله في شيء الا كان في علمه قبل ان يبدو له»^(٣).

وروى الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة عن الرضا عليه السلام: «قال علي بن الحسين وعلي بن ابي طالب قبله ومحمد بن علي وجعفر بن محمد عليهم السلام: كيف لنا بالحديث مع هذه الآية: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فأما من قال بأن الله تعالى لا يعلم الشيء الا بعد كونه فقد كفر وخرج

(١) الرعد: ٣٩.

(٢) تفسير العياشي ٢: ٢١٨. الحديث ٧١.

(٣) الكافي ١: ١٤٨. الحديث ٩.

عن التوحيد»^(١).

وبعد هذا كله لا نجد مجالاً للتشكيك في فكرة البدء اذا أخذناها في حدود فكرة النسخ مطبقة على التكوين، ولا يكون اتهام الامامية بالانحراف لأنهم قالوا بهذه الفكرة، إلا شبيهاً بالاتهام الذي وجهه اليهود والنصارى الى عامة المسلمين لاخذهم بفكرة النسخ.

النسخ في الشريعة الاسلامية :

وأما النسخ في الشريعة الاسلامية فهو أمر ثابت لا يكاد يشك فيه أحد من علماء المسلمين، سواء في ذلك ما كان نسخاً لاحكام الشرائع السابقة أو ما كان نسخاً لبعض أحكام الشريعة الاسلامية نفسها، ومن هذه النسخ ما صرح به القرآن الكريم، حيث نسخ حكم التوجه في الصلاة الى القبلة الأولى وأمر بالتوجه شطر المسجد الحرام، ولكن مع ذلك نجد النسخ مثاراً للخلاف في علوم القرآن حيث وقع الجدل في أن شيئاً من الاحكام الثابتة في القرآن الكريم منسوخ بالقرآن الكريم نفسه أو بالسنة النبوية المتواترة.

وهذا الخلاف جاء على صياغتين الأولى: الخلاف الذي أثاره أبو مسلم الاصفهاني المتوفى سنة (٣٢٢ هـ) حيث ذهب -على أحسن الاحتمالات في كلامه - الى عدم جواز وقوع النسخ في القرآن الكريم، مستدلاً على ذلك بقوله تعالى في وصف القرآن: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾^(٢).

فهذه الآية تقول: أن القرآن لا يعتريه البطلان، ولما كان النسخ إطلاً لما في

(١) كتاب الغيبة : ٤٣٠. مؤسسة المعارف الاسلامية.

(٢) فصلت : ٤٢.

الآية من حكم فهو لا يرد على القرآن الكريم، ولكن هذه الآية الكريمة لا يمكن ان تكون دليلاً لمذهب ابي مسلم، لان النسخ ليس باطلاً حتى يكون وروده على القرآن الكريم خلافاً لمنطوق الآية، وانما هو محض حق وموافق لواقع الحكمة والمصلحة على اساس ما ذكرناه عن حقيقته؛ واذا كان النسخ باطلاً فلا يحتاج في رفضه الى الاستعانة بالآية الكريمة بل يكفي بطلانه سبباً لذلك.

فكرة أبي مسلم هذه تقوم في الحقيقة على أساس من المغالطة والايهام، حيث يقصد من الباطل هنا ما يكون قبالة الحق سواء في العقيدة أو في النظام أو الاسلوب البياني، والقرآن الكريم لا يأتيه شيء من الباطل في كل هذه الجوانب، ولا يقصد منه الابطال والإزالة للذات هما بمعنى النسخ.

والثانية: الخلاف الذي اثاره بعض علماء القرآن، حيث ذهبوا الى عدم وقوع النسخ في القرآن الكريم خارجاً، وان كان لا يوجد مانع عقلي أو شرعي عنه. ويكاد يقول آية الله السيد الخوئي رحمته الله في كتابه «البيان في تفسير القرآن» بهذا الرأي، حيث ذكر لذلك مناقشة واسعة، أشار فيها الى الآيات التي يحتمل فيها النسخ، ونقد مبدأ النسخ فيها على هدي دراسة علمية دقيقة - عدا آية النجوى - وخلص الى الرأي الآنف الذكر.

هل للنسخ أقسام؟

ويجدر بنا ان نتعرف أقسام النسخ التي ذكرها الباحثون في علوم القرآن قبل ان ندخل في البحث التفصيلي حول الآيات المنسوخة، وذلك من أجل ان نعرف اي قسم منها هو الهدف الرئيس من هذا البحث.

فقد قسموا النسخ الى ثلاثة اقسام نوجزها بما يلي :

الاول : نسخ التلاوة دون الحكم : ويقصد بهذا النسخ ان تكون هناك آية

قرآنية نزلت على الرسول ﷺ، ثم نسخت تلاوتها ونصها اللفظي مع الاحتفاظ بما تضمنه من احكام.

وقد مثلوا لهذا القسم بآية الرجم التي روي عن عمر بن الخطاب نصها: «اذا زنى الشيخ والشيخة فارجموها البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم» حيث قيل إنها كانت آية في القرآن الكريم نسخت تلاوتها مع الاحتفاظ بحكمها.

وهذا القسم وان كاد يعترف به اكثر الباحثين من علماء الجمهور في علوم القرآن، الا أنه لا يكاد يعترينا الشك ببطلانه وعدم ثبوته في القرآن الكريم عندما ندرسه بشكل موضوعي، وذلك لأنه :

أولاً: نجد أن الاعتراف بهذا اللون من النصوص والروايات التي أوردتها بعض الكتب الصحيحة (السنية) يؤدي بنا الى الالتزام بالتحريف، لان منطق هذه الروايات يصر على ثبوت هذه الآية وغيرها في القرآن الكريم حتى وفاة رسول الله ﷺ، وأنها سقطت منه في المدة المتأخرة من حياته.

وثانياً: نجد أن هذه الروايات لم تصل إلينا الا بطريق الاحاد، ولا يجوز لنا ان نلتزم بالنسخ على اساس رواية الاحاد لاجماع المسلمين على ذلك، مضافاً الى طبيعة الاشياء التي تحكم بضرورة شيوع الامور المهمة بين الناس ومن هذه الامور المهمة نسخ آية من القرآن الكريم؛ فكيف يقتصر النقل فيه على خبر الاحاد؟

الثاني: نسخ التلاوة والحكم معاً: ويقصد بهذا القسم ان تكون آية قرآنية ثابتة لفظاً ومعنى في وقت من ايام الشريعة، ثم تنسخ تلاوتها ومضمونها.

وقد مثلوا لهذا القسم بآية الرضاعة المروية عن عائشة بهذا النص: «وكان فيما انزل من القرآن «وعشر رضعات يحرمن» ثم نسخن بخمس معلومات فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن»^(١).

ويناقدش هذا القسم بنفس المناقشتين اللتين ذكرناهما في القسم الاول من النسخ.

الثالث : نسخ الحكم دون التلاوة، ويقصد به النسخ الذي ينصب على جانب المضمون في الآية القرآنية، مع الاحتفاظ بصياغتها وطريقة التعبير فيها. وهذا القسم هو ما اشتهر بين العلماء والمؤلفين، حتى الفوا كتباً مستقلة فيه. والنسخ في هذا القسم يمكن ان نصوره على انحاء ثلاثة :

أ - ان ينسخ الحكم الثابت في القرآن الكريم بالسنة المتواترة أو بالاجماع القطعي الذي يكشف عن صدور النسخ من المعصوم.

ب - ان ينسخ الحكم الثابت في القرآن الكريم بآية أخرى من القرآن، ناظرة في طريقة عرضها وبيانها الى الحكم المنسوخ؛ وهذان النحوان لا اشكال فيهما من ناحية واقعية، وان كان الشك في وقوعها بحسب الخارج.

ج - ان ينسخ الحكم الثابت بالقرآن الكريم بآية أخرى، غير ناظرة الى الحكم المنسوخ ولا مبينة لرفعه وانما يلتزم بالنسخ على اساس التعارض بين الاثنين، فيلتزم بنسخ الآية المتقدمة زماناً بالآية المتأخرة.

وقد ناقش السيد الخوئي رحمته الله في جواز هذا النحو من النسخ على اساس أنه يتنافى ومنطوق الآية القرآنية التي تقول : ﴿ افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ^(١)، وحين يقع التنافي بين الآيتين يتحقق هذا الاختلاف الذي نفاه الله سبحانه عن القرآن، ولا تنفع لتفادي الاختلاف دعوى النسخ، لان مثل هذه الدعوى يمكن ان تقال في كل اختلاف يقع في كلام غير الله سبحانه.

واضافة الى هذه المناقشة نجد السيد الخوئي رحمته الله يكاد يذهب الى أنه ليس هناك

حكم ثابت في القرآن الكريم منسوخ بشيء من القرآن ولا بغيره .
ونحن وان كنا نختلف مع استاذنا السيد الخوئي رحمته الله في بعض الجوانب التي
جاءت في مناقشته هذه، وقد نختلف معه من ثم في شمول مبدئه للآيات القرآنية
كلها، ولكننا سوف نقتصر في دراستنا هذه على مناقشة بعض الآيات بالطريقة
التي سار عليها تقريباً.

نماذج من الآيات التي ادعى نسخها مع مناقشتها :
الآية الأولى :

قوله تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً
من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره . ان الله
على كل شيء قدير ﴾ ^(١).

وقد روى جماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم ^(٢) القول بانها آية منسوخة
بآية السيف وهي قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا
يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا
الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ^(٣).

فان الآية الأولى تأمر بالعفو والصفح عن أهل الكتاب، مع أنهم يودون من
صميم قلوبهم ان يردوا المؤمنين كفاراً، والآية الثانية تأمر بقتال أهل الكتاب
حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ولما كانت الآية الثانية متأخرة عن
الآية الأولى كان الالتزام بنسخ آية السيف لآية سورة البقرة أمراً لا مناص منه .

(١) البقرة : ١٠٩ .

(٢) تفسير مجمع البيان ١ : ١٨٥ .

(٣) التوبة : ٢٩ .

وقد ناقش السيد الخوئي رحمته الله القول بالنسخ هذا بمناقشتين :

الاولى: أنه لا يمكن القول بنسخ الآية بالآية الثانية بعد ان كان الحكم في الآية المدعى نسخها له غاية ووقت، وهما وان كانا مذكورين فيها على سبيل الاجمال لا التعيين الا ان هذا المقدار يكفي في عدم الالتزام بالنسخ فيها، حيث إن النسخ لا يكون في حكم المؤقت الذي يرتفع بانتهاء وقته، وانما يكون في الحكم الذي يكون ظاهره الاستمرار والتأييد بحسب اطلاق اللفظ دون ان يكون صريحاً في ذلك، وعلى هذا الاساس يكون دور الآية الثاني هو: بيان الوقت والغاية للحكم المذكور في الآية الاولى دون ان تكون ناسخة له.

الثانية: أن آية السيف لا تأمر بقتل أهل الكتاب بشكل مطلق حتى تصبح معارضة للآية الاولى، وانما هي تأمر بقتلهم عند عدم دفعهم للجزية^(١).
وحينئذ فجرد ان يكونوا من أهل الكتاب لا يكفي في جواز قتالهم، وانما يشترط في قتالهم توفر احدي حالات ثلاث، كما يستفاد ذلك من مجموع الآيات القرآنية وهي:

أ - مبادأة أهل الكتاب المسلمين بالقتال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين﴾^(٢).

ب - محاولتهم فتنه المسلمين عن دينهم: ﴿... والفتنة اشد من القتل...﴾^(٣).

ج - امتناعهم عن اعطاء الجزية للآية المتقدمة.

وفي غير هذه الحالات لا يجوز قتال أهل الكتاب، وانما يكفي بالصفح والعفو عنهم، كما جاء في الآية الاولى المدعى نسخها، فتكون الآية الثانية مقيدة لاطلاق الآية الاولى لا ناسخة لها.

(١) البيان : ٢٨٨.

(٢) و (٣) البقرة : ١٩٠ و ١٩١.

الآية الثانية :

قوله تعالى: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ واللذان يأتينها منكم فأذوهما فان تابا واصلحا فأعرضوا عنهما ان الله كان تواباً رحيماً^(١).

وقد روي عن جماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم أن الآية الاولى من هاتين الآيتين مختصة بزنا النساء، والعقاب فيها هو الايذاء بالشتم والاهانة وضرب النعال - كما جاء عن ابن عباس^(٢) - وذلك - وهما في كلا الموردين تشملان البكر والثيرب منها.

وقد نسخت كلتا الآيتين بحكم الجلد مائة مرة للبكر من النساء والرجال، كما في قوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾^(٣) وبحكم الرجم للمحصن من النساء والرجال، كما ثبت ذلك في السنة النبوية.

وقد ناقش السيد الخوئي رحمته الله مبدأ النسخ في هذه الآية، على أساس أن كل واحدة من هذه الآيات تبين حكماً يختلف عن الحكم المبين في الآية الأخرى، ولا مانع من الأخذ بهذه الاحكام كلها لاختلاف موضوعاتها.

ومن أجل ان تتضح هذه المناقشة لا بد من ان نستعرض بعض الامور التي لها ارتباط وثيق في تفسير الآيتين المدعى نسخهما، لنعرف بعد ذلك مدى صحة دعوى النسخ فيها :

(١) النساء : ١٥ - ١٦ .

(٢) تفسير جمع البيان ٢ : ٢١ .

(٣) النور : ٢ .

١- إنَّ لفظ الفاحشة في اللغة والقرآن الكريم معنىً واسعاً شاملاً، ينطوي تحته كل ما تزايد قبحه وتفاخش، دون ان يكون مختصاً بعملية الزنا وحدها؛ فقد تكون لواطاً أو سحاقاً أو زنا، ولا ظهور ولا انصراف للفظ الفاحشة في خصوص الزنا.

٢- إنَّ المقصود بالسبيل في الآية الكريمة هو المخرج والمخلص الذي يكون في حقيقته وواقعه أقل كلفة وضرراً على المرأة من الحبس في الدار، لأن الآية تجعل السبيل للمرأة لا عليها، وحينئذ فلا يمكن تفسير السبيل بالعقوبة التي وضعها الاسلام الحنيف بالنسبة الى الزانية والزاني - البكر منهما والثيب - لان هذه العقوبة ليست سبيلاً للمرأة تخلص به من شدة الحبس وعقابه، وانما هو اشد واقسى من الحبس نفسه.

٣- إنَّ لفظ الايذاء في الآية الكريمة ليس له ظهور في الشتم والسب والاهانة وضرب النعال، وانما هو معنى شامل لهذه الأمور ولغيرها من ألوان الايذاء الأخرى كالجلد والرجم وغيرهما.

وبعد ملاحظة هذه النقاط الثلاث يمكن ان نذهب في خصوص الآية الأولى الى أنَّ المقصود بالفاحشة : (المساحقة) وحكمها الثابت بالآية هو الحبس حتى الموت، أو السبيل الذي يهيئه الله سبحانه لها بان تتوفر الظروف التي تجعل المرأة في مأمن من ارتكاب المنكر، كأن تزوج أو تبلغ العمر الذي تموت فيه طاقاتها الجنسية أو تخمد أو تتوب وتصلح.

وبهذا اللون من التفسير يمكننا ان نلتزم بعدم النسخ في هذه الآية لبقاء حكمها، في الوقت الذي يلتزم به بالجلد والرجم بالنسبة الى الزاني. وإضافة الى ذلك يمكننا ان نذهب الى أنَّ الحكم بالحبس ليس عقاباً وحداً لارتكاب الفاحشة، وانما هو عمل وقائي رادع عن العودة لارتكاب المنكر مرة أخرى، ويجب في كل الحالات التي يستشعر فيها الخطر من الوقوع في المنكر حتى قبل وقوعه، وحينئذ فلا

ضرورة للالتزام بالنسخ حتى مع الالتزام بأنَّ المقصود من الفاحشة في الآية الكريمة خصوص زنا النساء، لان الالتزام بالجلد والرجم يمكن ان ينسجم مع الالتزام - في الوقت ذاته - بثبوت الحكم الوقائي الرادع.

وفي خصوص الآية الثانية يكون المقصود بالفاحشة اللواط، وحكمه الايذاء، سواء فسرنا الايذاء بالشكل الذي روي عن ابن عباس، ام بالشكل الآخر الواسع؛ فإنه في كل من الفرضين يمكن أن نلتزم بالحد الشرعي الثابت في الشريعة المقدسة، على أن تفسير مفهوم الايذاء بشكل يشمل الجلد والرجم يجعل آية الجلد وغيرها في موقف المفسر المحدد لنوعية الايذاء المتخذ ضد الزاني من الرجال والنساء، دون ان يكون ناسخاً للآية الاولى.

وهناك قرينة لفظية في الآية تدل على أن المراد من الاسم الموصول (اللذان) هو خصوص الرجلين دون الرجل والمرأة، كما هو التفسير القائل بالنسخ، وهذه القرينة هي ملاحظة سياق الآيتين الذي يقرر أن المراد من ضمير الجمع المخاطب المذكور فيها ثلاث مرات من جنس واحد، بحيث لا يختلف الثالث عن الاولين. ولما كان المراد بالاوليين منهما خصوص الرجال، لاضافة النساء في احدهما للضمير وربط الشهادة بالرجال في الثاني؛ ويجب ان يكون المراد من الثالث خصوص الرجال أيضاً، وهذا ينتهي بنا الى ان المراد بالاسم الموصول خصوص الرجال؛ ومع هذه القرينة لا بد من الالتزام بان المراد من الفاحشة هي اللواط بالخصوص.

الآية الثالثة :

قوله تعالى: ﴿... فما استمتعتم به منهن فاتوهن اجورهن فريضة...﴾^(١).
ولا بد من معرفة مفاد الآية الكريمة قبل البحث عن كونها آية منسوخة الحكم.

وبهذا الشأن فقد جاءت الروايات الكثيرة من طريق أهل السنة والامامية تذكر أن المقصود من الآية الكريمة نكاح المتعة (الزواج المؤقت). ولذلك اشتهر بين علماء العامة أن الآية منسوخة؛ حيث ذهب هؤلاء إلى أن حلية نكاح المتعة قد نسخت بعد تشريعه لمدة من الزمان في الشريعة المقدسة، وقد وقع الاختلاف بين الباحثين في أمر الناسخ لهذه الآية الكريمة، وبهذا الصدد ذكرت اقوال اربعة :

الاول : أن الناسخ لها قوله تعالى : ﴿ يا ايها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن... ﴾ ^(١) على اساس أن نكاح المتعة لا طلاق فيه، وانما تنفسخ عقدة النكاح فيه بانتهاء المدة المضروبة في النكاح أو هبة الباقي منها، كما ان عدته تختلف عن عدة الطلاق في النكاح الدائم، ولما كانت هذه الآية تذكر الطلاق طريقاً لانفصال الزوجية كانت ناسخة للنكاح الذي يكون انفصال الزوجية فيه عن طريق آخر، في الوقت الذي تختلف عدته عن عدة النكاح الذي يقع فيه الطلاق.

وهذا القول يكاد يكون أوهن الاقوال وابعدها عن الفهم القرآني الصحيح، لان الآية الثانية لا تشير - لا من قريب ولا من بعيد - إلى موارد الطلاق وأنه لا بد في كل زواج ان يقع الانفصال فيه بالطلاق، وانما هي بصدد بيان ضرورة العدة في حالة وقوع الطلاق.

على أن نكاح المتعة تجب العدة فيه ايضاً، ولا تعرض في الآية إلى مقدار العدة ومدتها؛ فهي بعيدة عن النسخ كل البعد وليست لها علاقة بآية المتعة.

الثاني : ان الناسخ هو قوله تعالى : ﴿ ولكم نصف ما ترك ازواجكم... ﴾ ^(٢) على

(١) الطلاق : ١.

(٢) النساء : ١٢.

اساس أن نكاح المتعة لا توارث فيه وهذه الآية تقرر باطلاقها وراثته الزوج لكل زوجة، فيدور الامر بين القول بوراثته الزوج للزوجة في نكاح المتعة - وقد ثبت عدمه - وبين القول بنسخ المتعة، ليبقى اطلاق الآية على حاله، وهو المطلوب من دعوى النسخ.

وهذا القول كسابقه من حيث مجافاته للواقع والفهم العرفي، لانه يمكن الالتزام بان الدليل الذي دلّ على عدم التوارث بين الزوجين في نكاح المتعة يكون مخصصاً لمفاد الآية الكريمة دون اللجوء الى القول بنسخ آية المتعة، كما يلتزم بذلك المسلمون في بعض الموارد الأخرى من الارث، فان الزوجة اذا كانت كافرة لا ترث زوجها، أو اذا كان احد الزوجين قاتلاً للآخر فانه لا ارث بينهما ايضاً.

الثالث: أن الناسخ هو النصوص التي تدل على أن نكاح المتعة قد نسخ بعد تشريعه في الاسلام؛ وقد رويت هذه النصوص بطرق مختلفة كان ينتهي بعضها الى الامام علي عليه السلام، وبعضها الى الربيع بن سبرة، وبعضها الى سلمة وغير ذلك^(١).

ولكن تناقض هذه النصوص بالوجوه الثلاثة التالية :

أولاً: إن النسخ لا يثبت بخبر الواحد، لما اشرنا إليه سابقاً من الاجماع على ذلك، وان طبيعة النسخ تقتضي شيوع النسخ واشتباره بين المسلمين.

ثانياً: إن هناك نصوصاً متواترة مروية عن طريق أهل البيت، تعارض بمضمونها هذه النصوص وتكذبها، الامر الذي يفرض علينا الاخذ بنصوص أهل البيت خاصة، لانهم الثقل الثاني للكتاب الذي ثبت عن النبي ﷺ أنهم لا يفترقون عنه.

ثالثاً: النصوص الكثيرة التي وردت في الصحاح التي تؤكد بقاء حلية هذا النكاح حتى وفاة النبي ﷺ، والنسخ لا يجوز من غير النبي؛ وقد ذكر السيد

الخوئي رحمته الله بعض هذه النصوص والتي وردت في صحيح مسلم وسنن البيهقي ومسنند احمد وغيرهم، ومن هذه الروايات ما رواه مسلم عن ابي الزبير قال : «سمعت جابر بن عبد الله يقول : كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الايام على عهد رسول الله صلوات الله عليه وآله وابي بكر، حتى نهى عنه (نكاح المتعة) عمر في شأن عمرو ابن حريث»^(١) مع مناقشته للنصوص الأخرى الدالة على النسخ في كتابه (البيان).

الرابع : أنَّ الناسخ هو اجماع الامة على حرمه نكاح المتعة.

وهذا الدليل يمكن مناقشته بالامرین التاليين :

الاول : أنَّ دعوى الاجماع غير صحيحة فان جماعة من المسلمين، ومنهم جمع من اصحاب رسول الله كانوا يقولون بجواز المتعة، وقولهم هذا موافق لقول أهل البيت عليهم السلام الذين هم ثقل الكتاب وقد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، ومن هؤلاء الصحابة علي بن ابي طالب، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعبد الله ابن مسعود، وعبد الله بن عباس.

الثاني : أنَّ هذا الاجماع لو تم فهو ليس بحجة، لأن حجية الاجماع - كما تم تحقيقه في علم الاصول - تتوقف على كشفه عن رأي المعصوم، ولم يكن تحريم نكاح المتعة على عهد رسول الله ولا بعده الى ان مضت مدة من عهد عمر؛ ولا يصح بأي حال الاعراض عن كتاب الله وسنة نبيه لمجرد اجماع جماعة من المسلمين لم يُعصموا عن الخطأ والاشتباه، وإلاّ لأمكن نسخ كل الاحكام الشرعية بهذه الطريقة.

(١) صحيح مسلم : باب نكاح المتعة ٤ : ١٤١، راجع البيان : ٣١٨ - ٣٢٤.

القسم الثالث

التفسير والمفسرون

التفسير والتأويل .

التفسير في عصر الرسول .

التفسير في عصر الصحابة والتابعين .

التفسير في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

التفسير والتأويل

التفسير * :

١ - التفسير بمعناه اللغوي :

التفسير في اللغة : البيان والكشف^(١). وفي القرآن الكريم بهذا المعنى؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٢) فتفسير الكلام - أي كلام - معناه : الكشف عن مدلوله ، وبيان المعنى الذي يشير إليه اللفظ . وعلى هذا الأساس يمكن ان نطرح السؤال التالي : هل يعتبر بيان المعنى الظاهر من اللفظ الذي يتبادر منه تفسيراً ، بحيث يصدق عليه لفظ التفسير بمعناه اللغوي أو لا ؟

فهناك اتجاه يقول : إنَّ الكشف والبيان الذي أخذناه في معنى التفسير يستبطن افتراض وجود درجة من الخفاء والغموض في المعنى ، ليكشف ويزال الغموض عنه بعملية التفسير ، فلا يصدق التفسير حينئذ إلا في حالة الغموض والخفاء ، فمن يسمع كلاماً له معنى ظاهر يتبادر من ذلك الكلام ، فيعلن عن ذلك المعنى لا يكون مفسراً للكلام ، لأنه لم يكشف عن شيء خفي ، وإنما يصدق التفسير على الجهد الذي يبذله الشخص في سبيل اكتشاف معنى الكلام المكتشف بشيء من الغموض

(*) كتبه الشهيد الصدر رحمته الله .

(١) لسان العرب : مادة (فسر) .

(٢) الفرقان : ٣٣ .

والخفاء، وبتعبير آخر أن من أظهر معنى اللفظ يكون قد فسره، واما حيث يكون المعنى ظاهراً ومتبادراً بطبيعته فلا اظهار ولا تفسير.

وسيراً مع هذا الاتجاه لا يكون من التفسير الا اظهار احد محتملات اللفظ، واثبات انه هو المعنى المراد، أو اظهار المعنى الخفي غير المتبادر، واثبات انه هو المعنى المراد بدلاً من المعنى الظاهر المتبادر، واما ذكر المعنى الظاهر المتبادر من اللفظ فلا يكون تفسيراً.

وهذا الاتجاه يمثل الرأي السائد لدى الاصوليين.

ولكن الصحيح هو أن ذكر المعنى الظاهر قد يكون في بعض الحالات تفسيراً أيضاً، واطهاراً لامر خفي، كما أنه - في بعض الحالات الأخرى - قد لا يكون تفسيراً لأنه يفقد عنصر الخفاء والغموض، فلا يكون اظهاراً لامر خفي أو إزالة لغموض.

ومن أجل تعرّف موارد الظهور التي ينطبق عليها (التفسير) والموارد التي لا ينطبق عليها معنى (التفسير) نقسم الظهور الى قسمين :

أحدهما : الظهور البسيط : وهو الظهور الواحد المستقل المنفصل عن سائر الظواهر الأخرى.

والآخر : الظهور المعقد : وهو الظهور المتكون نتيجة لمجموعة من الظهورات المتفاعلة.

ولأجل توضيح هذا التقسيم نضرب مثلاً لذلك من العرف، بأن يقول شخص لولده : اذهب الى البحر في كل يوم، أو يقول له : اذهب الى البحر في كل يوم، واستمع الى كلامه.

فبالنسبة الى القول الأول نعتبر الظهور ظهوراً بسيطاً، اذ لا توجد في الكلام إلا صورة واحدة تتبادر الى الذهن وهي : صورة بحر من الماء، يطلب الأب من

ولده أن يذهب إليه في كل يوم.

وأما بالنسبة إلى القول الثاني فالظهور معقد لأنه مزدوج، فهناك نفس الظهور السابق، إذ يتبادر إلى الذهن من كلمة البحر: البحر من الماء، يذهب إليه الولد في كل يوم. ويقابله ظهور آخر وهو ظهور الاستماع إلى كلام البحر، إذ يتبادر إلى الذهن من ذلك: أن البحر ليس بحراً من ماء بل هو بحر من العلم، لأن بحر الماء لا يُستمع إلى كلامه، لأنه ليس له كلام، وإنما يستمع إلى صوت أمواجه.

وهكذا نواجه في القول الثاني ظهورين بسيطين متعارضين، وحين نلاحظ الكلام بصورة كاملة متفاعلة يجب أن ندرس نتيجة التفاعل بين ذينك الظهورين، وما ينجم عنهما من ظهور بعد تصفية التناقضات الداخلية بينهما؛ وهذا الظهور الناجم عن ذلك نسميه: بالظهور المعقد أو المركب.

وإذا ميزنا بين الظهور البسيط والظهور المعقد أمكننا أن نعرف أن إبراز الظهور المعقد، وتحديد معنى الكلام على أساسه يعتبر (تفسيراً)، لأن تعقيده وتركيبه يجعل فيه درجة من الخفاء والغموض جديرة بالكشف والإبانة، فيصدق عليه اسم: (التفسير)، وأما الظهور البسيط ففي الغالب لا يعتبر إبراز معنى الكلام على أساسه تفسيراً، لأن المعنى ظهر بطبيعته فلا يحتاج إلى إظهار.

والنتيجة أن في صدق التفسير على بيان المعنى في موارد الظهور اتجاهين:

أحدهما: القائل بعدم صدقه مطلقاً، سواء كان الظهور بسيطاً أو معقداً.

والآخر: - وهو الاتجاه الصحيح - القائل بأن التفسير ليصدق على بيان المعنى

في موارد الظهور المعقد، دون بعض موارد الظهور البسيط.

أهمية التمييز بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى:

والتمييز بين تفسير اللفظ على صعيد المفاهيم، وتفسير المعنى بتجسيده في

صورة محددة على صعيد المصاديق يعتبر نقطة جوهرية جداً في تفسير القرآن

الكريم، وأداة لحل التناقض الظاهري الذي قد يبدو بين حقيقتين قرآنتين وهما :

الحقيقة الاولى: 'أن القرآن كتاب هداية للبشرية، أنزله الله سبحانه لإخراجها من الظلمات الى النور، وإرشادها الى الطريقة الفضلى في جوانب حياتها؛ وقد وصف نفسه بأنه ﴿... هدى للناس...﴾^(١) و﴿... نور وكتاب ومبين﴾^(٢) ﴿... تبياناً لكل شيء...﴾^(٣). وهذه الحقيقة تفرض ان يجيء القرآن ميسر الفهم، وان يتاح للانسان استخراج معانيه منه، اذ لا يحتاج للقرآن ان يحقق اهدافه ويؤدي رسالته لو لم يكن مفهوماً من قبل الناس.

والحقيقة الثانية: ان كثيراً من الموضوعات التي يستعرضها القرآن أو يشير اليها لا يمكن فهمها بسهولة، بل قد تستعصي على' الذهن البشري، ويتيه في مجال التفكير فيها لدقتها وابتعادها عن مجالات الحس والحياة الاعتيادية التي يعيشها الانسان؛ وذلك نظير ما يتعلق من القرآن باللوح، والقلم، والعرش، والموازن، والمملك، والشیطان، وإنزال الحديد، ورجوع البشرية الى الله، والخزائن، وملكوت السماء، وتسييح ما في السماوات والارض وما الى ذلك من موضوعات. اذن فحقيقة أهداف القرآن الكريم ورسالته تفرض أن يكون ميسر الفهم، وواقع بعض موضوعاته يستعصي على' الفهم ويتيه فيها الذهن البشري.

وحل التناقض الظاهري بين هاتين الحقيقتين انما يكون بالتمييز بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى، لان الحقيقة الأولى اهداف القرآن ورسالته انما تفرض ان يكون القرآن ميسر الفهم، بوصفه كلاماً دالاً على' معنى: اي بحسب تفسير اللفظ،

(١) البقرة : ١٨٥ .

(٢) المائدة : ١٥ .

(٣) النحل : ٨٩ .

وهو بهذا الوصف ميسر الفهم، سهل على الناس استخراج معانيه، وانما الصعوبة في تحديد الصور الواقعية لمعانيه ومفاهيمه.

فكل الآيات التي استعرضت تلك الموضوعات التي اشرنا اليها في الحقيقة الثانية تعتبر مفهومة من ناحية لغوية، ولا صعوبة في التفسير اللفظي لها، وانما الصعوبة تكمن في تفسير معنى اللفظ لا في تفسير اللفظ نفسه، لان تلك الموضوعات ترتبط بعوالم ارقى من عالم الحس الذي يعيشه الانسان، فيكون من الطبيعي ان يواجه الانسان صعوبات كبيرة اذا حاول تحديد المعنى في مصداق معين، وتجسيد المفهوم في الذهن ضمن واقع خاص.

وقد يتساءل هنا عن الضرورة التي دعت القرآن الكريم الى ان يتعرض لمثل هذه المعاني التي يستعصي تفسيرها على الذهن البشري، فيخلق بذلك صعوبات ومشاكل هو في غنى عنها.

ولكن الواقع أنَّ القرآن الكريم لم يكن بإمكانه ان يتفادى هذه الصعوبات والمشاكل، لأن القرآن بوصفه كتاب دين يستهدف بصورة رئيسة ربط البشرية بعالم الغيب، وتنمية غريزة الايمان بالغيب فيها، أو تقريب صورته الى الذهن الانساني المادي^(١)، ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق تلك الموضوعات التي تنبه الانسان الى صلته بعالم أكبر من العالم المنظور، وإن كان غير قادر على الإحاطة بجميع أسرارهِ وخصوصياته.

٢- التفسير معنى اضافي أم موضوعي :

وعلى ضوء الاتجاه الصحيح نعرف : أنَّ التفسير معنى (اضافي)، لأن التفسير بيان المعنى وإيضاحه حتى في مورد ظهور اللفظ. والمعنى الواحد قد يكون بحاجة الى البيان والكشف بالنسبة الى شخص، ولا يحتاج الى بيان وكشف عندما نضيفه

(١) هناك المزيد من التوضيح لهذه الفكرة في بحث المحكم والمتشابه.

الى شخص آخر، فيكون بيانه -إضافة الى من يحتاج البيان - تفسيراً دون الشخص الآخر.

وأما اذا أخذنا بالاتجاه الآخر الذي يرى: أنّ التفسير لا يشمل موارد حمل اللفظ على معناه الظاهر مهما كان الظهور معقداً، وأنّ التقسيم مختص بحمل اللفظ على ما يكون ظاهراً من اللفظ فبالإمكان أن نتصور للتفسير معنى (موضوعياً) مطلقاً لا يختلف باختلاف الافراد، لأننا نلاحظ عندئذ اللغة نفسها، فإن كان المعنى الذي يذكر للفظ هو المعنى الذي يقتضيه الاستعمال اللغوي بطبيعته فلا يكون ذلك تفسيراً، حتى اذا كان محاطاً بشيء من الحفاء والغموض بالنسبة الى بعض الأشخاص، وان كان المعنى معنى آخر لا يقتضيه الاستعمال اللغوي بطبيعته، وانما عيناه بدليل خارجي فهو (التفسير).

٣- تفسير اللفظ وتفسير المعنى :

والتفسير على قسمين باعتبار الشيء المفسر :

١- تفسير اللفظ .

٢- تفسير المعنى.

وتفسير اللفظ عبارة عن (بيان معناه لغة)، وأما تفسير المعنى فهو : تحديد مصداقه الخارجي الذي ينطبق عليه ذلك المعنى.

فحين نسمع شخصاً يقول : إنّ دول الاستكبار الكافر تملك أسلحة ضخمة، تارة نتساءل : ما هو معنى الاسلحة ؟ ونجيب عن هذا السؤال : إنّ الاسلحة هي الأشياء التي يستعين بها صاحبها في قهر عدوه؛ وأخرى نتساءل : ما هي نوعية السلاح الذي تملكه تلك الدول ؟ ونجيب : إنّ سلاحها القنابل الذرية أو الصواريخ بعيدة المدى أو أقمار التجسس الفضائية أو الغواصات الذرية أو ...

ففي المرة الاولى فسرنا اللفظ اذ ذكرنا معناه لغة، وفي المرة الثانية فسرنا المعنى

اذ حددنا المصداق الذي ينطبق عليه معنى الجملة ويشير اليه؛ فتسمى المرحلة الاولى بمرحلة (تفسير اللفظ) أو التفسير اللغوي، وهي مرحلة تحديد المفاهيم؛ وتسمى المرحلة الثانية: مرحلة (تفسير المعنى) وهي مرحلة تجسيد تلك المفاهيم في صور معينة محددة.

وأمثلة ذلك من القرآن الكريم كثيرة، فنحن نلاحظ في القرآن أن الله سبحانه يوصف بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام، ونواجه بالنسبة الى هذه الكلمات بحثين :

أحدهما: 'البحث عن مفاهيم هذه الكلمات من الناحية اللغوية .
والآخر: البحث عن تعيين مصداق تلك المفاهيم بالنسبة الى الله تعالى'.
فكيف يسمع سبحانه ؟ وهل يسمع بجراحة أو لا ؟ وكيف يعلم ؟ وهل يعلم بصورة زائدة على ذاته ؟

والاول : يمثل التفسير اللفظي للآية أو تفسير اللفظ؛ والثاني : يمثل التفسير المعنوي أو تفسير المعنى.

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ﴾ ^(١) وقوله: ﴿ ... وانزلنا الحديد فيه بأس شديد... ﴾ ^(٢) وقوله: ﴿ وانزلنا من السماء ماءً بقدر فاسكنناه في الارض... ﴾ ^(٣) فنحن نجد هذه الآيات تتحدث عن اشياء قد انزلت من قبيل : (الكتاب) (الحديد) (الماء) وتفسير اللفظ يعني -بصدد هذه الآيات - أن نشرح معنى 'النزول' لغة ونحدد مفهوم كلمة « انزلنا » الواردة في الآيات الثلاث، ونعرف أنها تستبطن معنى 'الهبوط من جهة عالية

(١) الانعام : ٩٢.

(٢) الحديد : ٢٥.

(٣) المؤمنون : ١٨.

مرتفعة) وتفسير المعنى هو: أن ندرس حقيقة هذا الانزال، ونوع تلك (الجهة العالية) التي هبط منها الكتاب والحديد والماء، وهل هي جهة مادية أو معنوية؟ التفسير بوصفه علماً:

وأما التفسير بوصفه علماً فهو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم بوصفه كلاماً لله تعالى^(١).

وتوضيح ذلك: أن القرآن الكريم له عدة اعتبارات: فهو تارة يُلاحظ بوصفه حروفاً كتابية ترسم على الورق وأخرى: يُلاحظ بوصفه أصواتاً نقرأها ونردها بلساننا، وثالثة: يُلاحظ باعتباره كلاماً لله تعالى.

والقرآن الملحوظ بأي واحد من هذه الاعتبارات يقع موضوعاً لعلم يتكون من بحوث خاصة به.

فالقرآن من حيث إنه حروف تكتب: موضوعٌ لعلم الرسم القرآني الذي يشرح قواعد كتابة النص القرآني.

والقرآن من حيث إنه يقرأ: موضوع لعلم القراءة وعلم التجويد.

والقرآن من حيث إنه كلام الله: يقع موضوعاً لعلم التفسير.

فعلم التفسير يشتمل على جميع البحوث المتعلقة بالقرآن بوصفه كلام الله، ولا يدخل في نطاقه البحث في طريقة كتابة الحرف، أو طريقة النطق بصوته، لأن الكتابة والنطق ليسا من صفات نص القرآن بوصفه كلاماً لله، اذ ليس لكونه كلاماً لله دخل في كيفية كتابته أو قراءته.

وانما يدخل في علم التفسير في ضوء ما ذكرناه له من تعريف البحوث الآتية: أولاً: البحث عن مدلول كل لفظ أو جملة في القرآن الكريم، لأنّ كون هذا

(١) قارن هذا التعريف بما ذكره الزركشي في البرهان ١: ١٣، وما نقله الذهبي عن بعضهم في «التفسير والمفسرون» ١: ١٥، وما ذكره الزرقاني في «مناهل العرفان» ١: ٤٨١.

المعنى' أو ذاك مدلولاً للفظ القرآني من صفات القرآن بوصفه كلاماً لله، وليس من صفات الحروف أو أصواتها بما هي حروف أو أصوات.

ثانياً: البحث عن اعجاز القرآن والكشف عن مناحي الاعجاز المختلفة فيه، فإن الاعجاز من أوصاف القرآن باعتباره كلاماً دالاً على المراد.

ثالثاً: البحث عن أسباب النزول، لأن الآية حين ندرس سبب نزولها نلاحظها بما هي كلام، أي بما هي لفظ مفيد دال على معنى، لأن ما لا يكون كلاماً ولا يدل على معنى، لا يرتبط بمحادثة معينة لتكون سبباً لنزول الآية.

رابعاً: البحث عن الناسخ والمنسوخ والخاص والعام والمقيد والمطلق، فإن كل ذلك يتناول النص القرآني بوصفه كلاماً دالاً على معنى.

خامساً: البحث عن أثر القرآن في التاريخ، ودوره العظيم في بناء الانسانية وهدايتها، فإن أثر القرآن ودوره مردهما إلى فعالية القرآن بوصفه كلاماً لله لا بوصفه مجرد حروف تُكتب أو صوت أو أصوات تُقرأ.

إلى غير ذلك من البحوث التي ترتبط بالقرآن باعتباره كلاماً لله تعالى. ومن خلال تعريف علم التفسير نحدد موضوعه أيضاً وهو (القرآن) من حيث كونه كلاماً لله تعالى.

وفي هذا الضوء نعرف أن إطلاق اسم علم (الناسخ والمنسوخ) أو علم (أسباب النزول) أو علم (اعجاز القرآن): على البحوث المتعلقة بهذه الموضوعات، لا يعني عدم إمكان اندراجها جميعاً في نطاق علم واحد باسم علم: (التفسير) فهي في الحقيقة جوانب من هذا العلم، لوحظ في كل جانب منها تحقيق هدف خاص يتعلق بالبحث في ناحية خاصة من كلام الله؛ ففي علم (اعجاز القرآن) يدرس كلام الله في القرآن مقارناً بالنتاج البشري أو بالامكانات البشرية، ليدل على أنه فوق تلك الامكانات وهو معنى الاعجاز، وفي علم (أسباب النزول) يدرس

كلام الله في القرآن من حيث ارتباطه بالاحداث والوقائع التي لا يست نزوله، وهكذا الامر في سائر الجوانب الأخرى.

وإنما أفردت هذه الاسماء وأعطيت عناوين مستقلة، باعتبار أن العلماء بعد التوسع في علم التفسير أفردوها أحياناً بالبحث للتركيز على الأهداف التفصيلية لها، كما صنعوا ذلك في آيات الأحكام وفي القصص والأمثال واسلوب القرآن وغيرها، مع أن هذه الأبحاث وجدت وترعرعت في أحضان علم التفسير.

التأويل* :

والتأويل كلمة أخرى ظهرت الى جانب كلمة : (التفسير) في بحوث القرآن عند المفسرين، واعتبروها متفقة بصورة جوهرية مع كلمة التفسير في المعنى، فالكلمتان معاً تدلان على بيان معنى اللفظ والكشف عنه؛ قال صاحب القاموس : «أول الكلام تأويلاً : دبره وقدره وفسره»^(١).

والمفسرون الذين كادوا تفقوا على التوافق بين الكلمتين بشكل عام اختلفوا في تحديد مدى التطابق بين الكلمتين.

ونحن هنا نذكر بعض الاتجاهات والمذاهب في ذلك :

١ - الاتجاه العام لدى قدماء المفسرين الذي يميل الى القول بالترادف بينها، فكل تفسير تأويل، والعكس صحيح أيضاً، وعلى هذا فالنسبة بينها هي التساوي؛ ولعل منه قول مجاهد : إن العلماء يعلمون تأويله، وقول ابن جرير الطبري عند تفسيره للآية «القول في تأويل قوله كذا ... واختلف أهل التأويل في الآية ...».

(*) كتبه الشهيد الصدر رحمته الله.

(١) القاموس : مادة (اول).

٢- الاتجاه العام لدى من تأخر عنهم من المفسرين الذي يميل الى القول بأنّ التفسير يخالف التأويل في بعض الحدود : اما في طبيعة المجال المفسّر والمؤوّل ، أو في نوع الحكم الذي يصدره المفسّر والمؤوّل ، أو في طبيعة الدليل الذي يعتمد عليه التفسير والتأويل ؛ فهنا مذاهب نذكر منها ثلاثة :

أ- التمييز بين التفسير والتأويل في طبيعة المجال المفسّر ، ويقوم هذا المذهب على أساس القول بأنّ التفسير يخالف التأويل بالعموم والخصوص ؛ فالتأويل يصدق بالنسبة الى كل كلام له معنى ظاهر ، فيحمل على غير ذلك المعنى فيكون هذا الحمل تأويلاً ؛ والتفسير أعم منه لأنّه بيان مدلول اللفظ مطلقاً اعم من أن يكون هذا المدلول على خلاف المعنى الظاهر أو لا .

ب - التمييز بين التفسير والتأويل في نوع الحكم ، ويقوم هذا المذهب على أساس القول بأنّ التفسير والتأويل متباينان ، لان التفسير هو : القطع بأنّ مراد الله كذا ؛ والتأويل : ترجيح أحد الاحتمالات بدون قطع ، وهذا يعني أنّ المفسر احكامه قطعية ، والمؤول احكامه ترجيحية .

ج - التمييز بينهما في طبيعة الدليل : ويقوم هذا المذهب على أساس القول بأنّ التفسير هو : بيان مدلول اللفظ اعتماداً على دليل شرعي ، والتأويل هو بيان اللفظ اعتماداً على دليل عقلي .

موقفنا من هذه الاتجاهات :

والبحث في تعيين مدلول كلمة التأويل ، والمقارنة بينها وبين كلمة التفسير يتسع - في الحقيقة - بقبول كل هذه الوجوه حين يكون بحثاً اصطلاحياً يستهدف تحديد معنى مصطلح معين لكلمة التأويل في علم التفسير ، لأنّ كل تلك المعاني داخلة في نطاق حاجة المفسر ، فيمكنه أن يصطلح على التعبير عن اي واحد منها بكلمة التأويل ، لكي يشير الى مجال خاص أو درجة معينة من الدليل ، ولا حرج عليه في

ذلك، ولكن الأمر يختلف عندما يكون البحث عن معنى كلمة (التأويل) عندما ترد في الكتاب والسنة، فإن الخطر يكمن في اتخاذ المعنى المصطلح معنىً وحيداً للفظ، وفهم كلمة (التأويل) على أساسه اذا جاءت في النص الشرعي (القرآن أو السنة).

ونحن اذا لاحظنا كلمة التأويل وموارد استعمالها في القرآن نجد لها معنى آخر، لا يتفق مع ذلك المعنى الاصطلاحي الذي يجعلها بمعنى التفسير ولا يميزها عنه إلا في الحدود والتفصيلات، فلكي نفهم كلمة التأويل يجب أن نتناول إضافة الى معناها الاصطلاحي معناها الذي جاءت به في القرآن الكريم.

وقد جاءت كلمة التأويل في سبع سور من القرآن الكريم:

الأولى: سورة آل عمران، ففيها قوله تعالى: ﴿هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله...﴾ (١).

والثانية: سورة النساء، ففيها قوله تعالى: ﴿يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ (٢).

والثالثة: سورة الاعراف، ففيها قوله تعالى: ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون * هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسلنا بالحق...﴾ (٣).

والرابعة: سورة يونس، ففيها قوله: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما

(١) آل عمران : ٧.

(٢) النساء : ٥٩.

(٣) الاعراف : ٥٢.

يأتهم تأويله... ﴿^(١)﴾.

والخامسة : سورة يوسف ، جاء فيها قوله : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الاحاديث... ﴾ ﴿^(٢)﴾.

والسادسة والسابعة : سورتا الاسراء والكهف^(٣) ، اذ جاءت فيها كلمة التأويل على هذا المنوال أيضاً.

وبدراسة هذه الآيات نعرف أنّ كلمة التأويل لم ترد فيها بمعنى التفسير وبيان مدلول اللفظ ، بل يبدو عدم إمكانية ورودها بهذا المعنى إلا في الآية الأولى فقط ، لأنّ التأويل في الآية الأولى أُضيف الى الآيات المتشابهة ، ولهذا ذهب كثير من مفسري الآية الى القول : بأنّ تأويل الآية المتشابهة هو تفسيرها وبيان مدلولها ، وتدل الآية عندئذ على عدم جواز تفسير الآية المتشابهة ، ومن ثمّ على أنّ قسماً من القرآن يستعصي على الفهم ولا يعلمه إلا الله أو الله والراسخون في العلم ، على الاحتمالين في الوقف والوصل ، وأما ما يتاح للانسان الاعتيادي فهمه وتفسيره ومعرفة معناه من القرآن فهو الآيات المحكمة منه فقط .

وهذا الموقف الذي وقفه أولئك المفسرون من هذه الآية الكريمة ، وحملهم لكلمة التأويل على ضرب من التفسير يأتي نتيجة لانسياقهم مع المعنى الاصطلاحي لكلمة التأويل ، ونحن بازاء موقف من هذا القبيل يجب أن نعرف قبل كل شيء أنّ المعنى الاصطلاحي هل كان موجوداً في عصر القرآن ؟ وهل جاءت كلمة التأويل بهذا المعنى وقتئذ ؟ ولا يكفي مجرد انسياق المعنى الاصطلاحي مع سياق الآية لنحمل كلمة التأويل فيها عليه .

(١) يونس : ٣٩ .

(٢) يوسف : ٦ .

(٣) الاسراء : ٣٥ ، والكهف : ٧٨ .

وملاحظة ما عدا الآية الأولى من الآيات التي جاءت فيها كلمة التأويل تدل على أنها كانت تستعمل في القرآن الكريم بمعنى آخر غير التفسير، ولا نملك دليلاً على أنها استعملت بمعنى التفسير في مورد ما من القرآن.

والمعنى الذي يناسب تلك الآيات هو ان يكون المراد بتأويل الشيء هو ما يؤول وينتهي إليه في الخارج والحقيقة، كما تدل عليه مادة الكلمة نفسها، ولهذا أضيف التأويل الى الرد الى الله والرسول تارة، والى الكتاب أخرى، والى الرؤيا، والى الوزن بالقسطاس المستقيم.

وهذا نفسه هو المراد - كما عرفنا سابقاً - من كلمة التأويل في الآية الأولى التي أضيف فيها التأويل الى الآيات المتشابهة في قوله تعالى: ﴿... فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله...﴾^(١)، فتأويل الآيات المتشابهة ليس بمعنى بيان مدلولها وتفسير معانيها اللغوية، بل هو ما تؤول إليه تلك المعاني، لأن كل معنى عام حين يريد العقل ان يحدده ويجسده ويصوره في صورة معينة، فهذه الصورة المعينة هي تأويل ذلك المعنى العام.

وعلى هذا الاساس يكون معنى التأويل في هذه الآية هو ما أطلقنا عليه اسم تفسير المعنى، لأن الذين في قلوبهم زيغ كانوا يحاولون أن يحددوا صورة معينة لمفاهيم الآيات المتشابهة اثارة للفتنة، لأن كثيراً من الآيات المتشابهة تتعلق معانيها بعوالم الغيب، فتكون محاولة تحديد تلك المعاني وتجسيدها في صورة ذهنية خاصة - مادية أو منسجمة مع هوى ورأي المؤول - عرضة للخطر والفتنة. ونستخلص من ذلك أمرين :

أحدهما : التأويل جاء في القرآن بمعنى ما يؤول إليه الشيء لا بمعنى التفسير، وقد استخدم بهذا المعنى للدلالة على تفسير المعنى لا تفسير اللفظ، اي على تجسيد

المعنى العام في صورة ذهنية معينة .

والآخر : ان اختصاص الله سبحانه والراسخين في العلم بالعلم بتأويل الآيات المتشابهة لا يعني أنَّ الآيات المتشابهة ليس لها معنى مفهوم ، وان الله وحده الذي يعلم بمدلول اللفظ وتفسيره ، بل يعني أنَّ الله وحده الذي يعلم بالواقع الذي تشير إليه تلك المعاني ، ويستوعب حدوده وكنهه . وأما معنى اللفظ في الآية المتشابهة فهو مفهوم بدليل أنَّ القرآن يتحدث عن اتباع مرضى القلوب للآية المتشابهة ، فلو لم يكن لها معنى مفهوم لما صدق لفظ (الاتباع) هنا ، فادامت الآية المتشابهة يمكن ان تتبع فمن الطبيعي ان يكون لها معنى مفهوم ، وكيف لا يكون لها معنى مفهوم وهي جزء من القرآن الذي أنزل لهداية الناس وتبيان كل شيء !

والواقع أنَّ عدم التمييز بين تفسير اللفظ وتفسير معنى اللفظ هو الذي أدى الى الاعتقاد بأن التأويل المخصوص علمه بالله هو تفسير اللفظ ومن ثمَّ الى القول بأن قسماً من الآيات ليس لها معنى مفهوم ، لأنَّ تأويلها مخصوص بالله ، ونحن اذا ميزنا بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى نستطيع أن نعرف أنَّ المخصوص بالله هو تأويل الآيات المتشابهة ، بمعنى تفسير معانيها لا تفسير ألفاظها .

وهكذا يمكننا في هذا الضوء ان نضيف الى المعاني الاصطلاحية التي مرت بكلمة التأويل معنى آخر يمكن استنباطه من القرآن الكريم هو : تفسير معنى اللفظ ، والبحث عن استيعاب ما يؤول إليه المفهوم العام ، ويتجسد به من صورة ومصدق .

التدبر والتفسير بالرأي :

ومن خلال هذا الفهم للتفسير والخلفية الذهنية التي يجب أن يتمتع بها المفسر، يمكن أن نميز بين التفسير الصحيح، الذي يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية، والذي يمكن أن نسميه عملية (التدبر)، وبين التفسير الباطل الذي يطلق عليه اسم التفسير بالرأي.

وهذا الموضوع من القضايا ذات البعد التاريخي، الذي يرجع الى عهد الرسول ﷺ؛ فقد ورد عنه ﷺ النهي عن التفسير بالرأي، فعنه ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

ولعل الآية الكريمة: ﴿... فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة...﴾^(٢) تشير الى أحد مصاديق هذا النوع من التفسير أيضاً. إضافة الى عدد كبير من الاحاديث الواردة عن المعصوم عليه السلام والمروية عن طرق الفريقين، والتي تدل على هذا المعنى^(٣).

(١) أخرجه الترمذي ١١ : ٦٧ بألفاظ مختلفة عن ابن عباس، ورواه الصدوق في الغنية في حديث طويل عن النبي ﷺ بلفظ آخر.

وقد أورد الحر العاملي في كتابه المعروف «وسائل الشيعة» مجموعة من الاحاديث في الجزء ١٨، الباب ١٣، من ابواب صفات القاضي، منها الحديث القدسي: «ما آمن بي من فسر كلامي برأيه» الحديث ٢٨، و«من فسر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب» الحديث ٢٧، و«من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ فقد خر ابعد من السماء» الحديث ٦٦. وأحاديث عديدة أخرى.

(٢) آل عمران : ٧.

(٣) تناول علماء الاصول هذا البحث بشكل مفصل مرتبطاً مع موضوع آخر في بحث (حجية الظاهر).

ولعل أفضل من تناول هذا البحث هو استاذنا الشهيد الصدر رحمه الله من المتأخرين، كما جاء في تقريراته التي كتبها الحجة السيد محمود الهاشمي حفظه الله.

ومن أجل توضيح المقصود من التفسير بالرأي الذي يعتبر أمراً مهماً يحسن بنا أن نبحث هذا الموضوع.

وهناك احتمالات ثلاثة في معنى 'التفسير بالرأي' الذي يكون موضوعاً لذاك النهي الوارد عن المعصوم عليه السلام في روايات متواترة في مضمونها (بالتواتر الاجمالي) ولا بد من تحصيلها؛ وهذه الاحتمالات الثلاثة هي :

الأول: أن المراد من التفسير بالرأي هو أن يفسر الانسان النص القرآني اعتماداً على رأيه وذوقه الشخصي، في مقابل الفهم العام للقرآن المتمثل بالظهور العرفي والذي يعتمد على القرائن السابقة.

وتوضيح ذلك: أن علماء الأصول يذكرون أن ظهور الكلام يمكن ان يكون على نحوين :

أحدهما: (الظهور النوعي)؛ وهو ان يكون ظهور الكلام ظهوراً قائماً لدى العرف العام ويفهمه (نوع الناس) وعامة الناس.

والآخر: (الظهور الشخصي)؛ وهو الفهم الذي يختص به شخص ما من الناس والذي يعتمد عادة على الظروف الذهنية والنفسية والذوقية لذاك الانسان، حيث تجعله تحت تأثيرات معينة بحيث يفهم من الكلام معنى خاصاً لا يفهمه غيره من الناس.

وهذا النحو من الفهم للقرآن الكريم وهو الفهم الشخصي له والمعتمد على الظهور الشخصي لدى المفسر هو تفسير للقرآن بالرأي وهو التفسير المنهي عنه، مثل تفسير المتصوفة أو بعض أصحاب العقائد الفاسدة الذين لهم ذهنيات ومصطلحات خاصة تكونت ضمن ثقافتهم، ويفسرون القرآن على أساس تلك التصورات والمصطلحات.

وهذا النحو من التفسير يختلف تماماً عن فهم القرآن وتفسيره اعتماداً على الخلفية الذهنية والعقائدية الصحيحة للمفسر، لأن هذا التفسير تفسير معتمد على رأي شخصي ووفق ظروف الشخص وأوضاعه، وأما ذلك فهو رأي وفهم للقرآن الكريم بقرينة العقيدة الصحيحة المأخوذة من القرآن ذاته، كما ذكرنا سابقاً.

الثاني: أن يكون النهي الوارد على لسان الرسول ﷺ عن التفسير بالرأي هو معالجة لظاهرة برزت في زمن الرسول ﷺ في تفسير القرآن وبشكل محدد، ثم تطورت وبشكل واسع حتى تكونت على أساسها مدارس في المجتمع الاسلامي. حيث ورد النهي آنذاك عن البحث في تفسير الآيات العقائدية أو التاريخية تأثراً بالديانات السابقة، وفلسفاتها وتاريخها كاليهودية والنصرانية والبوذية وغيرها، الأمر الذي أدى الى ابتعاد بعض المسلمين عن المفاهيم القرآنية.

ونتيجة لذلك، فقد حاول بعض المسلمين الاوائل أن يفرضوا مثل هذه الآراء على القرآن، ويفسروا بها على خلاف مضمونه ومعناه الصحيح، متأثرين في ذلك بالمتبنيات الذهنية والفكرية والعقائدية المسبقة على القرآن: ﴿... وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه...﴾^(١).

﴿... يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به...﴾^(٢).

ولا شك أن هذا النوع من التفسير يختلف عن تفسير القرآن على أساس العقائد المستنبطة من القرآن نفسه.

الثالث: وهو المعنى الذي ينسجم مع معنى (الرأي) في (مدرسة الرأي) في الفقه الاسلامي، ففي الفقه الاسلامي يوجد اتجاهان في (الاستنباط): احدهما: الاتجاه الذي يعتمد في الاستنباط وفهم الحكم الشرعي على القرآن

(١) البقرة: ٧٥.

(٢) المائدة: ١٣.

وسنة المعصوم عليه السلام باعتبارهما المصدرين الأساسيين، واليهما يرجع (العقل) و (الاجماع) أيضاً.

والآخر: اعتماد الفقيه في استنباط الحكم الشرعي - اذ لم يجد نصاً يدل عليه في الكتاب والسنة - على 'الاجتهاد' و(الرأي) بدلاً من النص، و(الاجتهاد) هنا يعني الرأي الشخصي للفقيه، مثل القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها. وحينئذ يكون (الاجتهاد) دليلاً من ادلة الفقه ومصدراً من مصادره، إضافة الى الكتاب والسنة.

وقد نادت بهذا المعنى للاجتهاد مدارس كبيرة في الفقه السني، وقامت منذ اواسط القرن الثاني مدرسة فقهية كبيرة كانت تحمل اسم مدرسة (الرأي والاجتهاد)، حيث إنه لم يصح لدى ابي حنيفة صاحب هذه الدروس إلا عدد محدود من الاحاديث قيل: إنَّها دون العشرين.

وقد انتقد الائمة عليهم السلام هذه المدرسة واتجاهها انتقاداً شديداً؛ وقد يشكل هذا الانتقاد الشديد للائمة عليهم السلام قرينة على أن المراد من (التفسير بالرأي) المنهي عنه هو (الرأي) في هذه المدرسة باعتبار أنَّها تشكل اتجاهاً خطيراً في الفكر الاسلامي، لا من ناحية النتائج التي انتهت اليها فقهياً فقط، وانما باعتبار الاتجاه والطريق الخاطئ الذي انتهجته في عملية الاستنباط والمعتمد بالأساس على' القياس والاستحسان والمصالح المرسلة، وما أشبه ذلك من قضايا مرجعها الى' الرأي، والتي تنتهي في نهاية المطاف الى' انحراف خطير في فهم القرآن والسنة^(١).

(١) وهذه النتائج الخطرة هي التي انتهت بعد ذلك الى' سد باب الاجتهاد في تلك المدارس نفسها، حيث لم يكن خط الانحراف واضحاً في البداية، ولكن عندما امتد الزمن بنشاط هذه المدرسة أصبح من الواضح مقدار ما تسببه هذه المدرسة من المشاكل والانحراف عن المنهج الاسلامي الأصيل في الفقه.

وعلى هذا الأساس كان النقد الذي وجهه أهل البيت الى هذا الاتجاه اكبر من نقد المذاهب الفقهية الأخرى، والتي لم تلتزم بهذا الطريق الخطير في عملية الاستنباط وان كانت نتائجها غير صحيحة أيضاً.

وحينئذ قد يراد من التفسير بالرأي هذ النوع من الرأي هو الاعتماد في فهم المضامين القرآنية على الذوق والاستحسان فيرى أنّ هذا النوع من المضمون هو الأقرب الى النفس أكثر من غيره.

وفرق هذا الرأي عن الرأي الاول، هو أنّ الحالة الذاتية كان لها دور في فهم (تفسير اللفظ) في الرأي الاول، بينما كان لها دور في فهم و(تفسير المعنى)، وتشخيص المصداق) بناءً على هذا الرأي.

وعلى هذا الأساس نجد أنّ الكثير من المفسرين وقع في خطأ حينما فسروا بعض مفاهيم القرآن، متأثرين بكثير من القضايا الغربية التي أنشأت في أنفسهم استحسانات معينة، ففسروا آية الشورى مثلاً تفسيراً يجعل مفهوم الشورى في الاسلام مفهوماً مطابقاً لمفهوم (الديمقراطية) أو الانتخابات البرلمانية الغربية، وهكذا. إنّ هذا النوع من الاستحسان والقياس والاعتماد على الجانب الشخصي في تفسير (المعنى) هو في الواقع من تفسير القرآن بالرأي، ومن ثمّ يكون واقعاً في طريق النهي الوارد بخصوص التفسير بالرأي.

وهذا الاحتمال الثالث لا يكون متضارباً مع ما ذكرناه من صحة تفسير القرآن اعتماداً على الخلفية العقائدية الصحيحة، لأن هذه العملية ليست عملية استحسان وقياس، وانما هي تصورات عقائدية مأخوذة من القرآن الكريم ومفاهيمه.

وقد حاول بعض المفسرين ان يعطي لقضية (التفسير بالرأي) ومفهوم (الرأي) دائرة أوسع، بحيث تشمل كل جهد يمارسه الانسان الباحث والمفسر العالم في فهمه للقرآن الكريم، ويفترض بأن هذه النتائج هي (رأي)، لأنه انتهى

إليه من خلال جهده ونظره ومن ثمَّ يكون مصداقاً لذلك الحديث : « من فسر القرآن برأيه فقد هوى » .

وبهذه الطريقة يحاول هذا (البعض) أن يعطل البحث في القرآن الكريم وتفسيره، ويقول بأن الشيء الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في تفسير القرآن الكريم إنما هو النصوص الواردة عن المعصومين عليهم السلام .

وقد أكد هذا الاتجاه بعض النصوص المروية عن أهل البيت والتي حاول أن يفهمها أصحاب هذا الاتجاه على أنها تمنع من ممارسة التفسير ما لم يعتمد على النصوص الواردة عن المعصومين ^(١) .

ولعل من الآثار التي تركها وجود هذا النوع من التفكير في مدرسة أهل البيت عليهم السلام هو : عدم تطور حركة التفسير في هذه المدرسة تطوراً يناسب التطورات المهمة في المجالات الأخرى لهذه المدرسة المعطاءة ذات المستوى العالي، والذي يمكن ملاحظته من خلال ما وصلت إليه بحوث علم الفقه والحديث والاصول

(١) البحث حول هذه النصوص يتم عادة في علم الاصول تحت عنوان « حجية ظواهر القرآن » وهناك يستدل بشكل واضح على عدم صحة استنباط هذا المعنى من هذه النصوص، وكنموذج لها قال ابو عبد الله في رسالة : « فأما ما سألت عن القرآن فذلك أيضاً من خطراتك المتفاوتة ... فليس يعلم ذلك ابداً ولا يوجد ... » وسائل الشيعة ١٨ : ١٤١ الحديث ٣٨، باب ١٣، من ابواب صفات القاضي .

مع أن أئمة أهل البيت أوضحوا ذلك في نصوص أخرى منها عن أبي جعفر عليه السلام أن رجلاً قال له أنت الذي تقول : ليس شيء من كتاب الله إلا معروف، قال : ليس هكذا قلت، إنما قلت : ليس شيء من كتاب الله إلا عليه دليل ناطق عن الله في كتابه مما لا يعلمه الناس، إلى أن قال : إن للقرآن ظاهراً، وباطناً، ومعيناً، وناسخاً، ومنسوخاً، ومحكماً، ومتشاهماً، وسنناً، وأمثالاً، وفصلاً، ووصلاً، وأحرفاً، وتصريفاً، فمن زعم أن الكتاب مبهم فقد هلك وأهلك ... » وسائل الشيعة ١٨ : ١٤١ الحديث ٣٩، الباب ١٣، من ابواب صفات القاضي .

والكلام فيها بل بقي التفسير فيها مواكباً للحركة العامة للتفسير لدى المسلمين .
 إلا أن هذا الفهم للتفسير بالرأي فهم خاطئ، وهناك مجموعة من الأدلة والبراهين
 تشير الى عدم صحته، كما ان هناك طريقين يمكن اتباعهما لاثبات ذلك، وهما :
 أولاً: البحث في الروايات والنصوص الواردة في موضوع التفسير بالرأي
 تفصيلاً، حيث نتوصل من خلال ذلك الى أن ما ذكر فيها لا ينطبق على هذا
 المفهوم الواسع المذكور للتفسير بالرأي، وهذا البحث نؤجله الى بحث المحكم
 والمتشابه في الأبحاث التفسيرية .

ثانياً: ان يتم من خلال الرجوع الى مجموعة القرائن والأدلة والشواهد
 الموجودة في الكتاب والسنة الشريفة، مما لا يمكن ان ينسجم مع افتراض أن
 يكون (الرأي) المقصود بهذه الروايات هو هذا المعنى (الواسع) الشامل لحالة
 الجهد الشخصي الذي يتخذ مسيراً صحيحاً، وينتهي الى رأي تفسيري معين،
 حتى وإن لم يكن هذا التفسير مرتبطاً بالرواية عن المعصومين عليهم السلام، ومن هذه
 القرائن والأدلة ما يلي :

الدليل الاول : ما ورد من الآيات القرآنية المؤكدة : أن القرآن الكريم قد نزل
 بلسان عربي مبين، وأنه نور وهدى للعالمين، وأنه فيه تبيان كل شيء كقوله تعالى :
 ﴿... لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ ^(١) .

﴿... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ ^(٢) .

﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن
 جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم﴾ ^(٣) .

(١) النحل : ١٠٣ .

(٢) المائدة : ١٥ .

(٣) الشورى : ٥٢ .

﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾^(١).

﴿ ... ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ... ﴾^(٢).

فان هذه الآيات وآيات كثيرة وإن جاءت بأساليب ومضامين متعددة، كلها تصب في مصب واحد، هو: أن القرآن الكريم وبحسب طبيعته يمكن ان يتفاعل معه الانسان العادي، ويشكل القرآن حينئذ مصدر الهداية ويكون تبياناً لكل شيء، مما يدل على امكانية فهم الكثير من المضامين والمعاني والهداية والنور الموجود فيه، وبشكل مباشر، ولا يكون هذا الفهم من التفسير بالرأي حتى اذا كان بدون الاستناد الى رواية أو حديث معين، وانما نتيجة لجهد الانسان الشخصي من خلال مراجعته لمجموعة المعلومات والقرائن المتوفرة عنده.

وتأكيد القرآن: أنه ﴿ ... لسان عربي مبين ﴾^(٣) يؤكد هذه الحقيقة، إذ إن هذه الإبانة لا يمكن ان تُفترض في كتاب لا يمكن فهمه إلا بالرجوع الى الروايات الموجودة في كتب الحديث، لأن الإبانة حينئذ لا تكون - في الواقع - ابانة للقرآن الكريم، بل للاحاديث وهي التي ستكون (المبين)، وهذا هو خلاف الافتراض في أن القرآن بنفسه فيه حالة الابانة والتوضيح والهداية.

خصوصاً وأن هذه الإبانة أحياناً تنسب الى النص القرآني من قبيل قوله تعالى: ﴿ لسان عربي ﴾ واللسان يعبر عن حالة النص والجانب المرتبط باللفظ لا الجانب المرتبط بالمضمون.

ولذا فلا مجال لإدعاء أن هذا المضمون القرآني لا نفهمه إلا من خلال الروايات

(١) البقرة : ٢.

(٢) النحل : ٨٩.

(٣) النحل : ١٠٣.

عن الأئمة عليهم السلام، وحينئذ يكون مبيناً بعد فهمه من خلال الروايات.
الدليل الثاني : وهو ما ورد في آيات الحث على التدبر والتأمل، وفهم القرآن
وأخذ معانيه والاهتداء بهديه، كقوله تعالى :

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ ^(١).

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب ﴾ ^(٢).

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ^(٣).

إن هذه الآيات تختلف عن تلك الآيات التي تشير الى وجود النور والهدى في
القرآن الكريم، لاحتوائها على أمر المسلمين بالتدبر والتفكر في معاني ومفاهيم
القرآن.

ومثل هذه الاوامر تكون اوامر لا فائدة منها لو فرضنا بأن القرآن الكريم لا
يمكن أن يفهم مباشرة، إلا بالاستعانة بالروايات والأحاديث الشريفة، خصوصاً
وأن هذه الروايات لم تأت إلا في عصور متأخرة.

الدليل الثالث : هي الروايات المتواترة عن الأئمة عليهم السلام والتي وردت في طلب
عرض أخبارهم، وكذلك الشروط التي تشترط في (العقود) و(المعاملات) على
القرآن، من أجل التعرف على أن مضمون هذا الشرط أو الخبر هل هو منسجم مع
الشريعة أم لا ؟ فعن الصادق عليه السلام : « ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو
زخرف » ^(٤).

وعنه عليه السلام : « الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، إن على كل

(١) محمد : ٢٤.

(٢) ص : ٢٩.

(٣) النساء : ٨٢.

(٤) وسائل الشيعة ١٨ : ١٧٨ الباب ٩، ابواب صفات القاضي الحديث : ١٢.

حق حقيقةً وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه»^(١).

«وكل شرط خالف كتاب الله فهو رد»^(٢).

«فاذا كان شرط يخالف كتاب الله فهو رد الى كتاب الله عز وجل»^(٣).

بحيث جعلوا عليه السلام القرآن الكريم ميزاناً وفرقاناً لمعرفة الشرط الصحيح من غيره والأخبار الصحيحة (مضموناً) من غيرها.

وهذا لا يمكن أن يتم إلا بافتراض إمكانية فهم النص القرآني والتفاعل معه بشكل مباشر، وافترض صحة هذا التعامل والنتائج التي يتوصل اليها حتى وإن احتيج في هذا الى أعمال نظر وبذل وجهد؛ كما ان في هذا الامر دلالة على أن الروايات نفسها تحتاج الى أن يؤيد النص القرآني مضامينها، فكيف يمكن حصر طريق فهم النص القرآني بها فقط؟!

وهذا الأمر من الأمور الواضحة جداً عند مدرسة أهل البيت عليهم السلام بل عند المسلمين جميعاً.

والدليل الرابع: هو السيرة الواضحة والمتواترة للأئمة عليهم السلام في تعليمهم المسلمين في أن يأخذوا من القرآن الكريم مباشرة.

فقد ورد في كثير من أحاديث الأئمة عليهم السلام استشهادهم على الاحكام التي يصدرونها بأية قرآنية، مما يدل على إمكانية فهم هذا الحكم وبشكل مباشر من الآية القرآنية، إذ لو كان النص القرآني مغلقاً لما كان لهذا الاستشهاد معنى، ولكان على الامام عليه السلام ان يقول: أنا أفهم من الآية هكذا...

(١) المصدر السابق : حديث ٣٥.

(٢) وسائل الشيعة ١٣ : ٤٣ الباب ١٥ من ابواب بيع الحيوان الحديث ١.

(٣) المصدر السابق : ١٦٥ الباب ٤ من ابواب الصلح الحديث ١.

فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام مثلاً: «يعرف هذا واشباهه من كتاب الله عز وجل ﴿... وما جعل عليكم في الدين من حرج...﴾»^(١).

فقد استشهد الامام عليه السلام بهذه الآية في مقام استنباط حكم شرعي من قاعدة كلية وهي قاعدة (لا حرج).

وقد علم الامام عليه السلام السائل كيف يستنبط هذا (الحكم) من تلك (القاعدة) الكلية. وهذا معناه أن الآية المباركة: ﴿... وما جعل عليكم في الدين من حرج...﴾ يمكن أن يفهمها هذا الانسان وبشكل مباشر، مما يدل على صحة فهم المعنى من النص القرآني مباشرة، وان اعتمد على جهد الباحث.

وخلاصة القول: أن (التفسير بالرأي) المنهي عنه قد يشتمل على احد الاحتمالات الثلاثة المذكورة سابقاً، وليس لهذا علاقة بقضية التدبر في القرآن وفهم معانيه، والتي تؤدي بالانسان الى الهداية والى الصراط المستقيم^(٢)، الأمر الذي أمر القرآن الكريم نفسه بهذا التدبر، كما قرأناه في الآيات السابقة.

المفسّر *

الشروط التي يجب توفرها في المفسر :
والتفسير بوصفه علماً تتوقف ممارسته على شروط كثيرة لا يمكن بدونها ان

(١) وسائل الشيعة ١ : ٢٢٧ الباب ٣٩ من ابواب الطهارة الحديث ٥ (الحج : ٧٨).

(٢) لا يعني هذا الكلام الاستغناء عن احاديث النبي وأهل البيت التي وردت في التفسير، حيث يمكن أن تشكل تلك الاحاديث قرينة منفصلة شأنها في ذلك شأن القرائن الأخرى، ولا بد من معرفتها ليتمكن فهم القرآن بشكل كامل، ولكن لا يعني ذلك أيضاً أننا لا يمكن ان نفهم القرآن إلا من خلال الرواية.

(*) كتبه الشهيد الصدر .

ينجح البحث في القرآن ويوفق المفسر في مهمته، ويمكن ان نلخص تلك الشروط في الأمور الاربعة التالية :

١ - يجب على المفسر أن يدرس القرآن ويفسره بذهنية (اسلامية) أي : ضمن الاطار الاسلامي للتفكير، فيقيم بحوثه دائماً على أساس أن القرآن كتاب الهي، أنزل للهداية وبناء الانسانية بأفضل طريقة ممكنة، ولا يخضع للعوامل والظروف والمؤثرات التي يخضع لها النتاج البشري في مختلف حقول المعرفة الانسانية، فان هذا الأساس هو الأساس الوحيد لإمكان فهم القرآن وتفسير ظواهره بطريقة صحيحة.

واما حين يستعمل المفسر في دراسة القرآن نفس المقاييس التي يدرس في ضوئها أي كتاب دعوى أخرى أو أي نتاج بشري، فهو يقع نتيجة لذلك في أخطاء كبيرة واستنتاجات خاطئة، كما يتفق ذلك لبحوث المستشرقين الذين يدرسون القرآن في ضوء نفس المقاييس التي يدرسون بها أي ظاهرة من ظواهر المجتمع التي تنشأ فيه، وترتبط بمؤثراته وعوامله وتتكيف بموجبها.

وهذا الشرط تفرضه طبيعة الموقف العلمي، لأن المفهوم الذي يكونه المفسر عن القرآن ككل يشكل القاعدة الاساسية لفهم تفصيلاته، ودرس مختلف جوانبه، فلا بد أن يُبنى التفسير على قاعدة سليمة ومفهوم صحيح عن القرآن، يتفق مع الاطار الاسلامي للتفكير، لكي يتجه اتجاهاً صحيحاً في الشرح والتحليل؛ واما اذا أُقيم التفسير على أساس تقييم خاطئ للقرآن ومفهوم غير صحيح عنه، فسوف ينعكس انحراف القاعدة على التفصيلات، ويفرض على اتجاه البحث انحرافاً في التحليل والاستنتاج.

وفما يلي نذكر بعض الامثلة التي يتجلى فيها مدى الفرق في الاتجاه بين دراسة القرآن بوصفه كتاباً الهياً للهداية، ودراسته بوصفه ظاهرة في مجتمع تتأثر به

وتفاعل مع عوامله ومؤثراته، وكيف تنعكس القاعدة التي يقام على أساسها التفسير في التفصيلات وطريقة التحليل والاستنتاج؟

أ - ففي اقرار القرآن لعدد من الاعراف وألوان من السلوك التي كانت سائدة بين العرب قبل بزوغ نور الرسالة الجديدة، قد يخيل لمن ينطلق من قاعدة خاطئة ويحاول أن يفسر القرآن بمقاييس غيره من منتجات الارض أن ذلك الاقرار يعبر عن تأثر القرآن بالمجتمع الذي وجد فيه، ولكن هذا التفسير لا معنى له حين ننطق من القاعدة الصحيحة، ونفهم القرآن الكريم بوصفه كتاباً الهياً للهداية وبناء الانسانية، بالصورة التي تعيد اليها فطرتها النقية، وتوجهها نحو أهدافها الحقيقية الكبرى.

بل نستطيع على أساس هذه القاعدة الصحيحة ان نفهم ذلك الاقرار من القرآن فهماً صحيحاً، اذ ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل ان يشجب كل الوضع الذي كانت الانسانية عليه قبله، لأنّ الانسانية مهما تفسد وتنحرف عن طريق الفطرة والاهداف الحقيقية الكبرى فهي لا تفسد كلها، بل تبقى في العادة جوانب صالحة في حياة الانسانية تمثل فطرة الانسان أو تجاربه الخيرة، فمن الطبيعي للقرآن ان يقر بعض الجوانب ويشجب اكثر الجوانب في عملية التغيير العظيم التي مارسها؛ وحتى هذا الذي أقره وضعه في إطاره الخاص وربطه بأصوله وقطع صلته بالجاهلية وجذورها.

ب - وفي تدرج القرآن الكريم في التشريع، قد يخيل لمن ينطلق من القاعدة الخاطئة التي تقول ببشرية القرآن يرتبط بطبيعة عملية البناء التي يمارسها القرآن، لان القرآن لم ينزل ليكون كتاباً علمياً يدرسه العلماء، وانما نزل لتغيير الانسانية وبنائها من جديد على أفضل الأسس، وعملية التغيير تتطلب التدرج.

ج - وفي القرآن الكريم نجد كثيراً من التشريعات والمفاهيم الحضارية التي

كانت متبناة من قبل الشرائع السماوية الأخرى كاليهودية والنصرانية. وقد يخيل لمن يدرس القرآن على أساس القاعدة الخاطئة بأن القرآن قد تأثر وانفعل في ذلك بهذه الأديان، فانعكس هذا الانفصال ومن ثم على القرآن نفسه.

ولكن الواقع - وعلى أساس المفهوم الصحيح - أن القرآن يمثل الإسلام الذي هو امتداد لرسالات السماء وخاتها، ومن الطبيعي أن تشمل الرسالة الخاتمة على الكثير مما احتوته الرسالات السماوية السابقة، وتنسخ الجوانب التي لا تتلاءم مع التطورات النفسية والفكرية والاجتماعية للمرحلة التي وصل إليها الإنسان بشكل عام، لأن مصدر الرسالات هذه كلها واحد وهو الله سبحانه.

خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار إيمان الإسلام بهذه الوحدة في مصدر الرسالات وتأكيده إياها.

٢ - وبعد سلامة القاعدة الأساسية في فهم القرآن وتقييمه يجب أن يتوفر في المفسر مستوى رفيع من الاطلاع على اللغة العربية ونظامها، لأن القرآن جاء وفق هذا النظام، فإذا لم تكن لدينا صورة عن النظام العام للغة العربية لا نستطيع أن نستوعب معاني القرآن؛ فيحتاج المفسر إلى الاطلاع على علم النحو، والصرف، والمعاني، والبيان، وغيرها من العلوم العربية؛ والقدر اللازم توفره من هذا الشرط يختلف باختلاف الجوانب التي يريد المفسر معالجتها من القرآن الكريم، فحين يريد أن يدرس فقه القرآن مثلاً، لا يحتاج التعمق في أسرار اللغة العربية بالدرجة التي يحتاجها المفسر إذا أراد أن يدرس الفن القصصي في القرآن، أو المجاز في القرآن مثلاً.

٣ - ولا بد للمفسر أن يحاول إلى أكبر درجة ممكنة الاندماج كلياً في القرآن عند تفسيره، وتقصد بالاندماج في القرآن أن يُدرس النص القرآني ويُستوحي معناه دون تقييد مسبق باتجاه معين غير مستوحي من القرآن نفسه، كما يصنع

كثير من أصحاب المذاهب الذين يحاولون في تفسيرهم اخضاع النص القرآني لعقائدهم، فلا يدرسون النص ليكتشفوا اتجاهه بل يفرضون عليه اتجاههم المذهبي، ويحاولون فهمه دائماً ضمن اطارهم العقائدي الخاص، وهذا ليس تفسيراً وانما هو محاولة توجيه للمذهب وتوفيق بينه وبين النص القرآني، ولهذا كان من اهم الشروط في المفسر ان يكون على درجة من التحرر الفكري تتيح له الاندماج بالقرآن، وجعله قاعدة لتكوين أي اطار مذهبي بدلاً من جعل الاتجاه المذهبي المحدد قاعدة لفهم القرآن.

٤- وأخيراً لا بد للمفسر من منهج عام للتفسير، يحدد فيه عن اجتهاد علمي طريقته في التفسير، ووسائل الاثبات التي يستعملها، ومدى اعتماده على ظهور اللفظ وعلى نصوص السنة، وعلى اخبار الآحاد، وعلى القرائن العقلية في تفسير النص القرآني، لأنّ في كل واحد من هذه الأمور خلافاً علمياً، ووجهات نظر عديدة، فلا يمكن ممارسة التفسير دون أن تُدرس تلك الخلافات درساً دقيقاً، والخروج من هذه الدراسة بوجهات نظر معينة تؤلف المنهج العام للمفسر، الذي يسير عليه تفسيره. ولما كانت تلك الخلافات تتصل بجوانب من الاصول والكلام والرجال وغيرها كان لزاماً على المفسر لدى وضعه للمنهج ودراسته لتلك الخلافات ان يكون ملماً الماماً كافياً بتلك العلوم.

التفسير في عصر الرسول ﷺ

بالرغم من أن القرآن الكريم تميز بأسلوب فريد في اللغة العربية، وصل به إلى مستوى الإعجاز ولكنه جاء أيضاً وفقاً للنظام العام للغة العربية، وتطبيقاً لقواعدها ومناهجها في التعبير، ومتفقاً مع الذوق العربي العام في فنون الحديث، وعلى هذا الأساس كان يحظى بفهم اجمالي من معاصري الوحي - على وجه العموم - ولاجل ذلك كان البيان القرآني يأخذ بألباب المشركين، ويفتح قلوبهم للنور، وكثيراً ما اتفق للشخص أن يستجيب للدعوة، ويشرح الله صدره للإسلام بمجرد أن يسمع عدة آيات من القرآن، فلولا وجود فهم اجمالي عام للقرآن لم يكن بالامكان أن يحقق القرآن هذا التأثير العظيم السريع في نفوس الافراد، الذين عاشوا البيئة الجاهلية وظلامها.

ولكن هذا لا يعني أن معاصري الوحي، وقتئذ كانوا يفهمون القرآن كله فهماً كاملاً شاملاً من ناحية المفردات والتراكيب، بنحو يتيح لهم أن يحددوا المدلول اللفظي لسائر الكلمات والجمل والمقاطع التي اشتمل عليها القرآن الكريم، كما زعم ابن خلدون حيث قال في مقدمته: «إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه، في مفرداته وتراكيبه».

فان نزول القرآن بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم لا يكفي وحده دليلاً على أنهم كانوا - على وجه العموم - يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه،

ويدركون كل ما يدلّ عليه اللفظ القرآني من احكام ومفاهيم، لأنّ كون الشخص من ابناء لغة معينة لا يعني اطلاعه عليها اطلاعاً شاملاً، واستيعابه لمفرداتها وأساليبها في التعبير، وفنونها في القول، وانما يعني فهمه للغة بالقدر الذي يدخل في حياته الاعتيادية.

ومن ناحية أخرى لا يتوقف فهم الكلام واستيعابه على المعلومات اللغوية فحسب، بل يتوقف اضافة الى ذلك على استعداد فكري خاص، ومران عقلي يتناسب مع مستوى الكلام، ونوع المعاني التي سبق لبيانها، واذا كان العرب - وقتئذ - يعيشون حياة جاهلية من القاعدة الى القمة، ويعبرون عن تراث جاهلي سيطر على مختلف شؤون حياتهم قروناً عديدة فن الطبيعي ان لا يتيسر لهم حين الدخول في الاسلام - بصورة تلقائية - الارتفاع ذهنياً وروحياً الى المستوى الذي يتيح لهم استيعاب مدلولات اللفظ القرآني، ومعاني الكتاب الكريم الذي جاء لهدم الحياة الجاهلية ويقوض أسسها، ويبني الانسان من جديد.

ومن ناحية ثالثة نحن نعرف أنّ عملية فهم القرآن الكريم لا يكفي فيها النظر الى جملة قرآنية أو مقطع قرآني، بل كثيراً ما يحتاج فهم هذا المقطع أو تلك الجملة الى مقارنة بغيره، مما جاء في الكتاب الكريم أو الى تحديد الظروف والملابسات، وهذه الدراسة المقارنة لها قريحتها، وشروطها الفكرية الخاصة، وراء الفهم اللغوي الساذج؛ وهكذا نعرف ان طبيعة الاشياء تدل على أنّ العرب المعاصرين لزلزل القرآن كانوا يفهمون القرآن فهماً اجمالياً، وأنّهم لم يكونوا على وجه العموم يفهمونه بصورة تلقائية، فهماً تفصيلياً يستوعب مفرداته وتراكيبه.

الشواهد على عدم توفر الفهم التفصيلي :

وهذا الذي تدل عليه طبيعة الاشياء أكدته أحاديث ووقائع كثيرة، دلت على

أَنَّ المعاصرين لرسول الله كانوا كثيراً ما لا يستوعبون النص القرآني ولا يفهمون معناه، إمّا لعدم اطلاعهم على مدلول الكلمة القرآنية المفردة من ناحية لغوية، أو لعدم وجود استعداد فكري يتيح لهم فهم المدلول الكامل، أو لفصل الجملة أو المقطع القرآني عن الملابسات والأمر التي يجب أن يُقرن المقطع القرآني بها لدى فهمه^(١).

واليكم عدداً من هذه الاحاديث والوقائع :

١ - عن الحاكم في المستدرک أن أنس قال بينا عمر جالس في أصحابه، اذ تلا هذه الآية ﴿فانبتنا فيها حباً﴾ وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلًا * وحدائق غلباً * وفاكهة وأباً^(٢)، ثم قال هذا: كله عرفناه فما (الأب)؟ قال وفي يده عصية يضرب بها الارض، فقال: هذا لعمر الله التكلف، فخذوا أيها الناس بما بين لكم فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه الى ربّه.

وروي أيضاً أن عمر كان على المنبر فقراً: ﴿أو يأخذهم على تخوف...﴾^(٣) فسأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص.

وجاء عن ابن عباس أنّه قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات حتى أتاني اعرابياني في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتهما يقول أنا ابتدأتها.

كما روي عنه في تفسير الطبري أنّه سأل ابا الجلد عن معنى البرق في الآية ١٢ من سورة الرعد، فذكر له أنّ معناه هنا المطر.

٢ - وجاء في تفسير الطبري أنّ عمر سأل الناس عن هذه الآية ﴿أيود احدكم

(١) ذكرنا وجود شواهد كثيرة على هذه الحقيقة وردت في كتب الحديث والتفسير، مثل الطبرسي وصحيح البخاري والمستدرک للحاكم وغيرها.

(٢) عيس: ٢٧ - ٣١.

(٣) النحل: ٤٧.

ان تكون له جنة من نخيل واعناب... ﴿^(١)﴾ فما وجد أحد يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا امير المؤمنين: إني أجِدُ في نفسي منها شيئاً، فتلفت اليه فقال: تحول ها هنا لم تحقر نفسك؟! قال: هذا مثل ضربته الله عز وجل، فقال أيودُّ أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة حتى إذا كان أحوج ما يكون الى أن يختمه بخير حين فني عمره، واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فافسده كله فحرقه، وهو أحوج ما يكون اليه.

وعن البخاري: ان عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: ﴿... وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر...﴾ ﴿^(٢)﴾ وبلغ من امره ان اخذ عقلاً أسود فلما كان بعض الليل نظر اليهما فلم يستبيننا، فلما اصبح أخبر الرسول بشأنه فافهمه المراد.

٣- وروي ان عمر استعمل قدامة بن مظعون على البحرين، فقدم الجارود على عمر فقال: إنَّ قدامة شرب فسكر. فقال عمر: من يشهد على ما تقول قال الجارود: ابو هريرة يشهد على ما اقول. فقال عمر: يا قدامة، اني جالدك. قال: والله لو شربت كما يقولون ما كان لك ان تجلديني قال عمر: ولم؟ قال لأن الله يقول: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا واحسنوا﴾ ﴿^(٣)﴾ فانا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا واحسنوا شهدت مع رسول الله بداراً وأحداً والخندق والمشاهد، فقال عمر: ألا تردون عليه قوله فقال ابن عباس: ان هذه الآيات انزلت عذراً للماضين وحجة على الباقيين، لأن الله يقول: ﴿يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان﴾ ﴿^(٤)﴾.

(١) و (٢) البقرة: ٢٦٦ و ١٨٧.

(٣) و (٤) المائدة: ٩٣ و ٩٠.

فقال عمر : صدقت.

فهذه الوقائع تدل على ان بعض الصحابة كثيراً ما كانوا لا يفهمون القرآن بصورة تلقائية، ويحتاجون في فهمه الى السؤال، والبحث، اما لعدم الاطلاع على المدلول اللغوي للكلمة كما في القسم الاول، أو لعدم الارتفاع فكرياً الى مستوى اغراض القرآن ومعانيه كما في القسم الثاني، أو للنظرة التجزئية التي ورطت قدامة بن مظعون في فهم خاطيء للآية الكريمة كما في القسم الثالث.

ويمكننا أن نضيف الى ما تقدم نقطة أخرى أيضاً وهي : أن الآية قد تكون من الناحية اللغوية في مستوى معلومات الشخص، ولكنه يبقى مع ذلك - عند محاولة استيعاب المعنى - بحاجة الى البحث؛ والسؤال لتعيين المصداق الذي يتجسد فيه مدلول اللفظة، ففي قوله تعالى : ﴿ والفجر ﴾ وليالي عشر^(١) من الطبيعي ان يعرف الصحابة جميعاً - بحكم نشأتهم العربية - معنى كلمة « ليال » ومعنى كلمة « عشر »، ولكن يبقى بعد ذلك ان يعرفوا المصداق، وما هي الليالي العشر التي عنها الله تعالى. وكذلك الامر في قوله تعالى : ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾^(٢) والذاريات ذرواً^(٣) فالعرفة باللغة وحدها لا تكفي في هذه المجالات.

وهكذا نستنتج أن المسلمين في عصر الرسول ﷺ لم يكن الفهم التفصيلي للقرآن ميسراً لهم على وجه العموم، بل كانوا في كثير من الاحيان بحاجة الى السؤال والبحث والاستيضاح لفهم النص القرآني.

دور الرسول الأعظم ﷺ في التفسير :

وكان من الطبيعي أن يقوم الرسول الاعظم بدور الرائد في التفسير، فكان هو

(١) الفجر : ١ و ٢.

(٢) العاديات : ١.

(٣) الذاريات : ١.

المفسر الاول يشرح النص القرآني، ويكشف عن أهدافه، ويقرب الناس الى مستواه كلاً حسب قابلياته واستعداده الخاص، ويحل للمسلمين ما تعترضهم من مشاكل في فهم النص الكريم، وتحديد معطياته وما يلتبس عليهم من احكام ومفاهيم، لأن النبي بوصفه صاحب الرسالة، ومهبط الوحي كان قد أعد اعداداً هلياً لهذه المهمة كغيرها من مهام الدعوة والرسالة، وتكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان ﴿ان علينا جمعه وقرآنه﴾ فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴿ثم ان علينا بيانه﴾^(١) ولا يختلف المسلمون في الدور الرائد الذي قام به النبي الاعظم، بوصفه المفسر الاول للقرآن الى جانب دوره الرائد في مجال التطبيق لمفاهيم القرآن ونظرته العامة الى الكون والحياة.

ولكن السؤال الذي يطرح بهذا الصدد عادة هو السؤال عن حدود التفسير الذي مارسه الرسول الاعظم ﷺ ومداه، فهل شمل القرآن كله بأن كان يفسر الآيات تفسيراً شاملاً؟ أو اقتصر على جزء منه؟ أو كان يتناول الآيات التي يستشكل الصحابة في فهمها، ويسألون عن معناها فحسب؟
فهناك من يعتقد أن النبي ﷺ لم يفسر إلا آيات من القرآن، ويستند أصحاب هذا القول في ذلك الى روايات تنفي ان يكون رسول الله ﷺ قد فسر القرآن كله تفسيراً شاملاً، وعلى رأس هؤلاء السيوطي^(٢).

فن تلك الروايات ما أخرجه البزار عن عائشة قال: «ما كان رسول الله ﷺ يفسر... إلا آياً بعدد...»^(٣).

وأهم ما يعزز هذا القول هو طبيعة الأشياء والواقع المشهود، لأن ندرة ما صح عن الصحابة من التفسير بالمأثور عن النبي ﷺ تدل على أن النبي ﷺ لم يكن قد

(١) القيامة : ١٧ - ١٩ .

(٢) الاتقان في علوم القرآن ٤ : ١٩٦ ، ٢٠٠ للسيوطي، ط ٢، منشورات الرضي - بيدر .

(٣) التفسير والمفسرون ١ : ٥١، للذهبي، دار الكتب الحديثة .

فَسَرَّ للصحابة على وجه العموم آيات القرآن جميعاً تفسيراً شاملاً، وإلا لكثرت روايات الصحابة عنه بهذا الشأن، ولما وجدنا الكثرة الكثيرة منهم أو كبار رجالهم يتحiron في معنى آية، أو كلمة من القرآن ويغيب عنهم حتى المدلول اللفظي للنص، والعبرة المباشرة التي يستهدفها كما سبق في الروايات والوقائع المتقدمة.

ولكن توجد في مقابل ذلك أدلة وشواهد من القرآن الكريم وغيره تشير الى أن النبي ﷺ كان يقوم بعملية تفسير شامل للقرآن كله، ولعل في طليعة ذلك قوله تعالى: ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا، ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ ... وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ (٢).

وطبيعة الاشياء حين ننظر اليها من زاوية أخرى، غير الزاوية السابقة التي نظرنا من خلالها في إطار القول الاول تدل على أن النبي قد فسر القرآن تفسيراً شاملاً كاملاً لأننا عرفنا:

من ناحية أن الفهم الاجمالي للقرآن لم يكن كافياً، لكي يفهم الصحابة القرآن فهماً شاملاً دقيقاً، ولم يكن انتساب الصحابة غالباً الى اللغة العربية ضماناً كافياً لاستيعاب النص القرآني، وادراك معانيه.

ومن ناحية أخرى نحن نعرف: أن القرآن لم يكن في حياة المسلمين مجرد نص ادبي أو اشياء ترتل ترتيلاً في عباداتهم وطقوسهم، وانما كان الكتاب الذي أنزل لخراج الناس من الظلمات الى النور، وتزكيتهم وتشقيفهم

(١) البقرة: ١٥١.

(٢) النحل: ٤٤.

والارتفاع بمختلف مستوياتهم، وبناء الشخصية الاسلامية الواعية للفرد والاسرة والمجتمع.

ومن الواضح أنَّ هذا الدور العظيم لا يمكن للقرآن الكريم أن يؤديه بصورة كاملة شاملة ما لم يفهم فهماً كاملاً شاملاً، ويصل المسلمون الى اهدافه ومعانيه، ويندمجون بفاهيمه، ومصطلحاته.

واما اذا ترك القرآن بدون تفسير موجه توجيهاً رسالياً فسوف يفهم من قبل المسلمين ضمن اطاراتهم الفكرية، وعلى المستوى الثقافي والذهني الذي كان الناس يعيشونه - وقتئذ - وتتحكم في تفسيره كل الرواسب، والمسبقات الذهنية التي كانت لا تزال تتحكم في كثير من الازهان.

وهكذا نجد انفسنا امام تناقض بين قولين لكل منهما شواهد ومعزاته، ويحتاج هذا التناقض الى حل.

وقد لانجد حلاً منطقياً أقرب الى القبول من القول: بأن النبي ﷺ فسر القرآن الكريم على مستويين:

فقد كان يفسره على (المستوى العام) في حدود الحاجة، ومتطلبات الموقف الفعلي، ولهذا لم يستوعب القرآن كله.

وكان يفسره على مستوى خاص تفسيراً شاملاً كاملاً بقصد إيجاد من يحمل تراث القرآن، ويندج به اندماجاً مطلقاً بالدرجة التي تتيح له أن يكون مرجعاً بعد ذلك في فهم الأمة للقرآن، وضماناً لعدم تأثر الأمة في فهمها باطارات فكرية خاصة ومسبقات ذهنية، أو راسب جاهلية.

ونحن اذا فسرنا الموقف في هذا الضوء، وجدنا أنه يتفق مع طبيعة الاشياء من كل ناحية.

فندرة ما صح عن الصحابة من الروايات عن النبي ﷺ في التفسير مردها الى

أنّ التفسير على (المستوى العام) لم يكن يتناول جميع الآيات، بل كان يقتصر على قدر الحاجة الفعلية.

ومسؤولية النبي ﷺ في ضمان فهم الأمة للقرآن، وصيانتها من الانحراف يعبر عنها (المستوى الخاص) الذي مارسه من التفسير، فقد كان لا بد للضمان من هذا المستوى الخاص، ولا يكفي المستوى العام لحصول هذا الضمان حتى لو جاء التفسير مستوعباً، لأنه يجيء عندئذ متفرقاً ولا يحصل الاندماج المطلق، الذي هو شرط ضروري لحمل أمانة القرآن.

ونفس المخطط كان لا بد من اتباعه في مختلف الجوانب الفكرية للرسالة من تفسير وفقه وغيرهما*.

المرجعية الفكرية لأهل البيت عليه السلام :

وهذا الحل المنطقي للموقف تدعّمه النصوص المتواترة الدالة على وضع النبي ﷺ لمبدأ مرجعية أهل البيت عليه السلام في مختلف الجوانب الفكرية للرسالة، ووجود تفصيلات خاصة لدى أهل البيت عليه السلام تلقوها عن النبي ﷺ في مجالات التفسير والفقه وغيرهما.

أما النصوص التي تمثل مبدأ مرجعية أهل البيت عليه السلام في الجوانب الفكرية للرسالة فهي كثيرة نذكر عدة نصوص منها :

الاول : حديث الثقلين، وقد جاء بصيغ عديدة نذكر منها ما رواه الترمذي في صحيحه بسنده عن أبي سعيد والأعمش، عن حبيب بن ثابت، عن زيد بن ارقم قالاً: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف

تخلفوني فيها»^(١).

الثاني : حديث الأمان؛ فقد روى الحاكم في مستدرك الصحيحين بسنده عن ابن عباس، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم : النجوم أمان لأهل الارض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلّفوا فصاروا حزب ابليس ». قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد، كما ذكر ابن حجر في صواعقه وصححه^(٢).

الثالث : حديث السفينة؛ فقد روى الحاكم في المستدرك وغيره كثير، أن النبي ﷺ كان يقول : « مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق »^(٣).

(١) صحيح الترمذي ٢ : ٣٠٨.

وقد روي حديث الثقلين بأسانيد وطرق عديدة عن مجموعة من الصحابة والتابعين، مثل زيد بن ارقم وزيد بن ثابت وابي سعيد الخدري وحذيفة بن اسيد الغفاري وعلي بن ابي طالب وابي هريرة، كما جاء هذا الحديث بصيغ متعددة حيث رواه الترمذي ومسلم في صحيحيهما والحاكم في مستدرك الصحيحين، وأحمد بن حنبل في مسنده، وابو نعيم في حلية الاولياء، والهيثمي في مجمع، وابن حجر في صواعقه، والمتقي في كنز العمال، والطبراني في الكبير، وابن الاثير الجزري في أسد الغابة، وابن جرير في تهذيب الآثار، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وغيرهم كثيرون، وقال السهري على ما روى عنه المناوي في فيض الغدير : وفي الباب ما يزيد على عشرين من الصحابة، وقال ابن حجر في صواعقه : ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضعة وعشرين صحابياً لا حاجة لنا ببسطها.

راجع فضائل الخمسة في الصحاح الستة وغيرها من كتب أهل السنة ٢ : ٥٢ - ٦٠.

(٢) مستدرك الصحيحين ٣ : ١٤٩، والصواعق : ١٤٠.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢ : ٣٤٣، وقال إنه حديث صحيح على شرط مسلم، ورواه أيضاً بطريق آخر عن حنش، عن أبي ذر الغفاري في ٣ : ١٦، وذكره المتقي في كنز العمال، وابن جرير والهيثمي والبزار والطبراني في الكبير والالوسط والصغير وابو نعيم في الحلية،

الرابع : حديث الحق ؛ فقد روى الترمذي في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : « رحم الله علياً ، اللهم أدر الحق معه حيث دار »^(١) ، كما روي هذا الحديث بصيغ أخرى منها : « علي مع الحق والحق مع علي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة »^(٢).

الخامس : حديث القرآن ؛ فقد روى الحاكم في المستدرك وغيره أن النبي قال : « علي مع القرآن والقرآن مع علي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض »^(٣).

السادس : حديث الحكمة ؛ فقد روى الترمذي في صحيحه وغيره أن رسول الله ﷺ قال : « أنا دار الحكمة وعلي بابها » وقد شرح المناوي في هامش فيض القدير كلمة « علي بابها » : اي علي بن ابي طالب عليه السلام هو الباب الذي يدخل منه الى الحكمة^(٤).

السابع : حديث المدينة ؛ فقد روى الحاكم في المستدرك وغيره عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب » . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد^(٥).

الثامن : حديث الاختلاف ؛ فقد روى الحاكم في المستدرك وغيره ، أن النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام : « أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه بعدي » قال : هذا

واحد بن حنبل والخطيب البغدادي والسيوطي والمناوي والمحب الطبري وغيرهم ، راجع فضائل الخمسة ٢ : ٦٤ - ٦٦ .

(١) الترمذي ٢ : ٢٩٨ .

(٢) الخطيب البغدادي ، تأريخ بغداد ١٤ : ٣٢١ ، راجع تفصيل الرواة في الفضائل الخمسة ٢ : ١٢٢ - ١٢٤ .

(٣) مستدرك الصحيحين ٣ : ١٢٤ ، وفضائل الخمسة ٢ : ١٢٦ .

(٤) الترمذي ٢ : ٢٩٩ ورواه غيره ، انظر فضائل الخمسة ٢ : ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٥) مستدرك الصحيحين ٣ : ١٢٦ ، انظر فضائل الخمسة ٢ : ٢٨١ - ٢٨٣ .

حديث صحيح على شرط الشيخين^(١).

التاسع : حديث السؤال ؛ فقد روى جماعة من المحدثين منهم المتقي في كنز العمال، وابن سعد في طبقاته، وابن جرير في تفسيره، وابن حجر في تهذيب التهذيب، وابن عبد البر في الاستيعاب وغيرهم بألفاظ مختلفة أن علي ابن ابي طالب (واللفظ للمتقي في كنز العمال)، قال : «سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء يكون الى يوم القيامة إلا أحدثكم، سلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا أنا اعلم أبليلاً نزلت أم بنهار، أم في سهل نزلت أم في جبل ...»^(٢).

إضافة الى هذه الاحاديث وأمثالها الكثيرة، نجد أن الصحابة في عصر الخلافة الاولى كانوا يرجعون الى علي عليه السلام في مختلف القضايا المهمة والمستعصية، وخصوصاً في مجال تفسير القرآن والقضاء ومعرفة الشريعة، حيث وردت النصوص الكثيرة والتي صححها أصحاب الحديث تؤكد هذا الموقف العملي من الصحابة وهذه الحقيقة الناصعة.

فقد روى البخاري في كتاب التفسير من صحيحه في باب قوله تعالى: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا ... ﴾^(٣) بسنده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، حديثاً قال فيه : قال عمر «واقضانا علي ...» ورواه بقية رجال الحديث مثل الحاكم في المستدرک، واحمد بن حنبل في مسنده و...^(٤).

كما روى ابن ماجه في صحيحه حديثاً بسندين عن انس بن مالك قال فيه : إنَّ

(١) المصدر السابق ٣ : ١٢٢، وانظر فضائل الخمسة ٢ : ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٢) كنز العمال : ١ : ٢٢٨، راجع أيضاً فضائل الخمسة ٢ : ٢٢٦ - ٢٦٧.

(٣) البقرة : ١٠٦.

(٤) راجع فضائل الخمسة ٢ : ٢٩٦ - ٢٩٨.

النبي قال: «وأقضاهم علي بن ابي طالب»، وفي رواية أخرى للحاكم صحيحة على شرط الشيخين، أن ابن مسعود كان يقول: «إنّ اقضى أهل المدينة علي بن ابي طالب».

وقد روى ابو نعيم في الحلية عن ابن مسعود قال: «إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلّا له ظهر وبطن، وان علي بن ابي طالب عليه السلام عنده علم الظاهر والباطن»^(١).

وقد كان يعترف بهذه الحقيقة حتى أعداء علي عليه السلام، أمثال الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث يقول: «إننا لم نقم على علي قضاءه، قد علمنا أنّ علياً كان أقضاهم»^(٢).

وقد رجح ابو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وحتى معاوية بن ابي سفيان بالرغم من العداء القائم بينهما، وكذلك الكثير من كبار الصحابة، مثل عائشة زوج النبي ﷺ وعبد الله بن عمر وغيرهما ممن كان يرجعون - أو يدلون الناس على الرجوع الى علي عليه السلام - في عدد كبير من القضايا ذكرها كبار رجال أهل الحديث والتأريخ، أمثال البخاري وأحمد بن حنبل ومالك بن أنس وابن داود والمحاكم والبيهقي وغيرهم، وخصوصاً في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب^(٣).

لقد كانت هذه المرجعية حقيقة قائمة على مستوى الواقع العملي لدى الخلفاء وبعض أهل المعرفة من الصحابة، ولكنها كانت عند الضرورة ومواطن الاحراج والاشكال، ولم يتم الاعتراف بها - مع الأسف الشديد - على المستوى الرسمي

(١) حلية الاولياء ١: ٦٥.

(٢) راجع فضائل الخمسة ٢: ٢٩٦-٢٩٨.

(٣) المصدر السابق ٢: ٣٠٦-٣٤٤.

للخلافة والحكم، لأسباب متعددة لا مجال لذكرها في هذا البحث^(١)، الامر الذي جعل الباب مفتوحاً امام الصحابة والتابعين أو غيرهم - حتى الأدعياء أن يمارسوا العملية التفسيرية للقرآن الكريم، من خلال المستوى العام لفهم القرآن الكريم.

وقد ظهرت معالم الخلل في هذا الانفتاح الواسع على مرجعية الصحابة، دون التمييز بين هذه الخصائص الفريدة التي كان يختص بها أهل البيت عليهم السلام، وفي مقدمتهم علي عليه السلام وبين بقية الصحابة الذين تناولوا القليل من العلم، فضلاً عن أولئك الاشخاص الذين لم يكونوا في الحقيقة من أصحاب النبي، وإنما كانوا من (الادعياء) الذين حاولوا أن يتسلقوا هذا الموقع الروحي المقدس بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله فألصقوا أنفسهم به.

ولعل خير ما يصور لنا بدايات هذا الخلل، ووجود هذين المستويين من التفسير ما رواه الكليني والصدوق وغيرهما، عن سليم بن قيس الهلالي، عن علي عليه السلام، قال سليم: «قلت لأمير المؤمنين عليه السلام: إني سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله غير ما في أيدي الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن، ومن الأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون بأن ذلك كله باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين

(١) لقد حاول الامويون أعداء أهل البيت عليهم السلام بعد ذلك ان يعمقوا حالة الانحراف في الأمة، من خلال إصرارهم على طرح الادعياء من الصحابة كمرجع للامة في الشؤون الدينية، في الوقت الذي أخذوا يطاردون كل من يذكر علياً، أو يذكر الأخذ من علي عليه السلام، كما تشير الى ذلك الوقائع والاحداث والنصوص التاريخية، واستجاب لهذا الخط الانحرافي العباسيون، بسبب الشعور بالخوف من غلبة وظهور ابناء علي عليه السلام على الساحة السياسية، اذا ارتبطت الأمة بهم فكرياً ومذهبياً.

ويفسرون القرآن بآرائهم؟ قال فأقبل علي فقال :

قد سألت فافهم الجواب : إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً وصدقاً وكذباً... وحفظاً ووهماً، وقد كذب علي رسول الله ﷺ علي عهده حتى قام خطيباً، فقال : «أيها الناس قد كثرت علي الكذابة، فن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، ثم كذب عليه من بعده، وإنما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس : رجل منافق يُظهر الإيمان، متصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج أن يكذب علي رسول الله ﷺ متعمداً، فلو علم الناس أنه منافق كذاب لم يقبلوا منه ولم يصدقوه، ولكنهم قالوا هذا صاحب رسول الله ورآه وسمع منه، وأخذوا عنه، وهم لا يعرفون حاله، وقد أخبره الله عن المنافقين بما أخبره، ووصفهم بما وصفهم، فقال عز وجل : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ... ﴾ (١).

ثم بقوا بعده ... فهذا أحد الأربعة.

ورجل سمع من رسول الله ﷺ شيئاً لم يحمله علي وجهه ووهم فيه، ولم يتعمد كذباً، فهو في يده يقول به ويعمل به ويرويه فيقول : أنا سمعته من رسول الله ﷺ فلو علم المسلمون أنه وهم لم يقبلوه، ولو علم هو أنه وهم لرفضه.

ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً أمر به، ثم نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء، ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ، ولو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه. وآخر رابع لم يكذب علي رسول الله ﷺ مبغض للكذب خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله ﷺ لم ينسه، بل حفظ ما سمع علي وجهه، فجاء به كما سمع، لم يزد فيه ولم ينقص منه، وعلم الناسخ من المنسوخ، فعمل بالناسخ ورفض المنسوخ، فإن أمر النبي ﷺ مثل القرآن ناسخ ومنسوخ وخاص وعام ومحكم ومتشابه، قد

كان يكون من رسول الله الكلام له وجهان، كلام عام وكلام خاص مثل القرآن . وقال الله عز وجل في كتابه : ﴿... ما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا...﴾^(١) فيشتبه على من لم يعرف ولم يدر ما عنى الله به ورسوله ﷺ ، وليس كل أصحاب رسول الله كان يسأله عن الشيء فيفهم، وكان منهم من يسأله ولا يستفهمه، حتى كانوا يحبون أن يجيء الاعرابي والطاري، فيسأل رسول الله ﷺ حتى يسمعوا، وقد كنت أدخل على رسول الله ﷺ كل يوم دخلة، وكل ليلة دخلة فيخيلني فيها أدور معه حيث دار، وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنه لم يصنع ذلك بأحد من الناس غيري، فربما كان في بيتي يأتيني رسول الله ﷺ أكثر ذلك في بيتي، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازل أخلاقي، وأقام عني نساءه فلا يبق عنده غيري، وإذا اتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عني فاطمة ولا أحد من بني، وكنت إذا سألته أجابني، وإذا سكت عنه وفنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت على رسول الله ﷺ آية من القرآن إلا أقرأنها وأملاها علي فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها، ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله تعالى، ولا علماً أملاه عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك شيئاً علمه الله من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهى، كان أو يكون، ولا كتاب منزل عليّ أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علمنيته وحفظته، فلم أنس حرفاً واحداً...»^(٢).

التفسير في عصر التكوين *

عرفنا دور الرسول الأعظم ﷺ في تفسير القرآن، وتفسيره على مستويين

(١) الحشر : ٧.

(٢) الكافي ١ : ٦٢. الحديث ١.

(*) كتبه الشهيد الصدر.

عام وخاص، وتعين النبي أهل البيت ﷺ للمرجعية الدينية بعد أن فسره لهم بشكل خاص.

ويحسن بنا - بعد ذلك - أن نرى مسيرة تكوّن علم التفسير عند المسلمين، في ظل الظروف والمعطيات السياسية والاجتماعية والمواصفات التي كان يتصف بها مجتمع المسلمين في عصر نزول القرآن الكريم وبعده، ومع غض النظر عن التخطيط الذي وضعه الرسول الأعظم.

إنّ من البديهيات الاسلامية أنّ القرآن الكريم لم يكن كتاباً علمياً جاء به الرسول الأعظم من أجل تفسير مجموعة من النظريات العلمية، وإنما هو كتاب استهدف منه الاسلام بصورة رئيسة تغيير المجتمع الجاهلي وبناء الأمة الاسلامية على أساس المفاهيم والافكار الجديدة التي جاء بها الدين الجديد، وهو من أجل تحقيق هذه الغاية، والوصول الى هذا الهدف الرئيس جاء منجماً متفرقاً من أجل أن يعالج القضايا في حينها، ويضع الحلول للمشاكل في أوقاتها المناسبة، مراعيّاً في ذلك كل ما تفرضه عملية التغيير والبناء من تدرج وأناة، وليحقق التغيير في كل الجوانب الاجتماعية والانسانية، منطلقاً مع المحتوى الداخلي للفرد المسلم ليشمل البنيات الفوقية للمجتمع.

وعلى هذا الاساس لم يكن شعور المسلمين بشكل عام تجاه المحتوى القرآني ذلك الشعور الذي يجعلهم ينظرون الى القرآن الكريم كما ينظرون الى الكتب العلمية التي تحتاج الى الدرس والتحصيل، وإنما هو شعور ساذج بسيط لأنّ القرآن كان يسير معهم في حياتهم الاعتيادية، بما زخرت به من ألوان مختلفة فيعالج ازمتهم الروحية والسياسية، ويتعرض بالنقد للأفكار والمفاهيم الجاهلية، ويناقش أهل الكتاب في انحرافاتهم العقيدية والاجتماعية، ويضع الحلول الآتية للمشاكل التي تعترضهم، ويربط بين كل من هذه الأمور بعرض مفاهيم الدين

الجديد عن الكون والمجتمع والأخلاق.

كل ذلك قام به القرآن الكريم ولكن بشكل تدريجي يسمح لعامة المسلمين أن ينظروا إليه كأحداث تشكل جزءاً من حياتهم الاجتماعية، وقد كان المسلمون يفهمون القرآن من خلال هذه النظرة وعلى أساس ما لديهم من خبرة عامة، وهي تعني جميع المعلومات التي تحصل لدى الإنسان في مجرى حياته الاعتيادية؛ وهذه الخبرة العامة التي كان المسلمون يفهمون النص القرآني بموجبها في ذلك العصر ذات عناصر مختلفة تعرف من خلالها أنهم كانوا يمتازون بها علينا وعلى العصور الأخرى المتأخرة بالرغم من بساطتها، ويمكن ان نلخصها بالأمور التالية :

أ - الثقافة اللغوية العامة؛ فالقرآن نزل باللغة العربية التي كانت تمثل لغة المسلمين في ذلك العصر، لأن الوجود الاسلامي حينذاك لم يكن قد انفتحت على الشعوب الأخرى، وهذه الثقافة اللغوية كانت تمنح المسلمين فهماً إجمالياً للقرآن من ناحية لغوية.

ب - تفاعل المسلمين مع الاحداث الإسلامية واسباب النزول، ذلك ان القرآن - كما نعرف - نزل في كثير من الاوقات بسبب حوادث معينة أثارت نزول الوحي، والمسلمون بحكم ارتباطهم بهذه الحوادث، واطلاعهم على ظروفها الخاصة المحيطة بها كانوا يتعرفون بشكل إجمالي أيضاً محتوى النص القرآني ومعطياته واهدافه.

ج - الفهم المشترك للعادات والتقاليد العربية؛ فنحن نعرف أن القرآن الكريم حارب بعض العادات والتقاليد العربية وندد بها، والعرب بحكم ظروفهم الاجتماعية كانوا على اطلاع بما تعنيه هذه العادات، ومن ثم على المفهوم الجديد عنها، فن الطبيعي ان يفهموا قوله تعالى: ﴿انما النسيء زيادة في الكفر...﴾^(١)

وقوله تعالى: ﴿... وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها...﴾^(١) وقوله: ﴿... إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام...﴾^(٢) لانهم يعرفون ﴿النسيء﴾ واتبان البيوت من ظهورها﴾ ﴿والانصاب والازلام﴾ اموراً كانت قائمة في المجتمع الجاهلي، وكانوا يعيشونها.

د - دور الرسول ﷺ في التفسير، فقد كان الرسول الاعظم يباشر التفسير احياناً في مجرى الحياة الاعتيادية للمسلمين - كما عرفنا - فكان يجب على الاسئلة التي تدور في اذهان المسلمين عن القرآن ومعانيه، ويشرح النص القرآني في المناسبات التي يفرضها الموقف القيادي الذي كان يضطلع به الرسول من موعظة أو توجيه أو حث على العمل في سبيل الله والاسلام.

وهذه العناصر في الحقيقة تمثل ما كان عليه المسلمون من فهم بسيط وساذج للقرآن، لانها عناصر كانت تعيش مع المسلمين في مجرى حياتهم الاعتيادية دون ان تكلفهم مجهوداً ذهنياً، أو عناءً علمياً.

ولدينا عدة نصوص، تؤكد هذا الفهم الساذج للقرآن الذي كان عليه المسلمون في هذه المرحلة من حياتهم الفكرية، فنحن نجد عمر بن الخطاب في مرحلة متأخرة عن هذا الوقت يجد في فهم كلمة «أباً» تكلفاً ونجد عدي بن حاتم يقع في حيرة حين يحاول ان يفهم: ﴿حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود﴾ ويشاركه في هذه الحيرة جماعة من المسلمين، ولا ترتفع حيرتهم الا بعد ان يراجعوا الرسول ﷺ ونجد ابن عباس لا يعرف معنى «فاطر» حتى يطلع

(١) البقرة : ١٨٩.

(٢) المائدة : ٩٠.

(٣) راجع البخاري، فتح الباري ٩ : ٢٤٩ وغيره من النصوص التي ذكرناها في فصل التفسير

عليه من قبل اعرابي^(١).

فهذه الاحداث على ضآلتها تعكس لنا المرحلة التي كان يعيشها المسلمون عصر نزول القرآن.

ولعل من الدلائل على هذا الفهم الساذج للقرآن من قبل المسلمين ما نلاحظه في القراءات المتعددة للقرآن، الشيء الذي قد يكون ناتجاً عن سذاجة بعض القراء من الصحابة في ضبط الكلمة القرآنية، وقراءتها بالشكل الذي يتفق مع بعض الاتجاهات اللغوية التي عاصرت نزول القرآن، ثم تداولها المسلمون على اساس أنها قراءة اسلامية تمت بالنسب الى شخص النبي ﷺ.

ومن الممكن ان يكون احد العوامل التي كان لها تأثير فاعل في هذا الفهم الساذج للقرآن هو حياة الرسول الاعظم ﷺ المثقلة بالاعمال والاحداث، ومن ثم تأثر حياة المسلمين بشكل عام من جراء ذلك، وقد أشار الامام علي عليه السلام في حديثه المتقدم الذي رواه ثقة الاسلام الكليني الى هذه الظاهرة العامة التي كانت تشمل الصحابة حيث قال: «ورجل سمع من رسول الله فلم يحفظه على وجه ووهم فيه، ولم يتعمد كذباً... ورجل ثالث سمع من رسول الله شيئاً امر به ثم نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثم امر به وهو لا يعلم فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ...»^(٢) ولسنا بحاجة لان نؤكد هنا أن هذا الفهم الساذج للقرآن الكريم من قبل عامة المسلمين لم يكن يتنافى مع الدور القيادي الذي يضطلع به الرسول الاعظم، بعد ان عرفنا أن حياته ﷺ كانت مثقلة بالاعمال والاحداث، الامر الذي لم يكن يتيح له الفرصة الكافية للقيام بدور المفسر لعامة المسلمين.

(١) راجع الفصل السابق (التفسير في عصر الرسول).

(٢) الكافي ١ : ٦٢. الحديث ١.

بذور تكون علم التفسير :

والى جانب هذا الفهم الساذج للقرآن الذي لا يسمح لنا باطلاق اسم «العلم» عليه نلاحظ ملامح خبرة خاصة بدأت بالنمو والتجمع عند عدد من الصحابة، نتيجة عوامل متعددة ذاتية وموضوعية، من قبيل حرص بعضهم بشكل اكثر من غيرهم على الاستفادة من مجالس الرسول وحفظ ما يرد في كلامه من شرح للنص القرآني او تعليق عليه، ومحاولة الواعين منهم التعرف على تفصيلات اكبر مقدار ممكن من المعاني القرآنية، أو بسبب ظروفهم الموضوعية التي كانت تفرض وجودهم مع الرسول في المدينة، وفي غزواته المتعددة؛ ولدينا عدة نصوص تشير الى هذا المعنى في عدد من الصحابة :

١ - عن عبد الرحمن السلمي قال : حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن . أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ... قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة (١).

٢ - عن شقيق بن سلمة ، خطبنا عبد الله بن مسعود فقال : والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة ، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم (٢).

٣ - عن أبي الطفيل : قال شهدت علياً عليه السلام يخطب وهو يقول : سلوني ، فوالله لا تسألوني عن شيء الا أخبركم ، وسلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية الا وانا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل .

٤ - عن نصير بن سليمان الاحمسي عن ابيه عن علي عليه السلام قال : والله ما نزلت

(١) الالتقان ٢ : ١٧٦ . ط ١٣٦٨ .

(٢) البخاري ، فتح الباري ١ : ٤٢٣ .

آية ألا وقد علمت فيم نزلت، واين نزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً سؤلاً^(١).

فنحن نلاحظ في هذه النصوص أن بذور المعرفة التفسيرية القائمة على العناية والتخصص، انما كانت على مستوى خاص من الصحابة، الامر الذي أدى الى ولادة التفاوت بين المسلمين في جميع المعارف الاسلامية، ومن ثم في خصوص المعرفة التفسيرية.

بعد هذا يمكننا ان نتصور بوضوح التطور الذي سارت به هذه المعرفة الخاصة، حتى انتهت الى الفارق الكبير الذي أخذ يفصل مستوى الخبرة الخاصة عن مستوى الخبرة العامة الامر الذي سمح للباحثين ان يطلقوا (علم التفسير) على هذه الخبرة الخاصة التي كان يتمتع بها هؤلاء الاشخاص، ومن اجل ان نتعرف على ملامح هذا الفاصل لا بد من ملاحظة العاملين التاليين :

أ - ان المسلمين بصورة عامة، اخذت معرفتهم التفسيرية تتضاءل بسبب تضاءل خبرتهم العامة، لان التوسع الاسلامي جعل كثيراً من الافراد والشعوب تنضم الى الجماعة الاسلامية وهم لا يملكون ذلك المستوى العام من الخبرة، ففقدوا بعض العناصر التي كانت تعتمد عليها الخبرة العامة، سواء كانت مرتبطة بالجانب اللغوي للقرآن ام بالجانب الاجتماعي والحياتي لهم، فلم يكن الافراد الجدد تتوفر فيهم المعرفة اللغوية التي كانت متوفرة لدى عامة المسلمين الذين عاصروا نزول الوحي، كما لم يكونوا مطلعين على الحوادث التاريخية التي ارتبطت بها بعض الآيات القرآنية والعادات والتقاليد العربية، كما هو الحال بالنسبة الى الاشخاص الذين عاشوا هذه الاحداث والعادات والتقاليد.

ب - وفي الجانب الآخر نجد أن الخبرة الخاصة أخذت بالتضخم والنمو نتيجة

الشعور المتزايد بالحاجة الى فهم القرآن، ومواجهة المشاكل الجديدة على ضوء مفاهيمه وافكاره، وكثرة طلب تفهم القرآن من قبل المسلمين الجدد الذين يريدون أن يتعرفوا الاسلام بجوانبه المتعددة، من خلال تعرفهم القرآن الكريم الذي يقوم بدور المعبر الصحيح عنه.

ولعلنا نجد في النص التاريخي التالي ما يعبر لنا عن هذا التفاوت في المعرفة بين الصحابة، هذا الشيء الذي نريد ان نتصوره كبداية لتكون علم التفسير.

عن مسروق: «جالست اصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالاخاذا (الغدير) فالاخاذا يروي الرجل والاخاذا يروي الرجلين، والاخاذا يروي العشرة والاخاذا يروي المائة، والاخاذا لو نزل به اهل الارض لاصدرهم»^(١) وهكذا تكون التفسير في بدء بدئه.

(١) نقل هذا الحديث في «التفسير والمفسرون» ١ : ٣٦.

التفسير في عصر الصحابة والتابعين

١ - طبيعة التفسير في هذا العصر :

من خلال البحث السابق عرفنا أن علم التفسير تكوّن ووجد في عصر الصحابة، وتطور بشكل واضح في عصر التابعين، ومع ذلك فنحتاج من أجل الإحاطة بأبعاد التفسير في هذا العصر ان نتعرف على الطبيعة العامة للتفسير والمصادر الرئيسة له ونقد هذه المرحلة وتقويمها.

ومن الممكن ان نحزم بأن الظاهرة التي كانت تعم التفسير في هذه المرحلة هي مواجهة القرآن الكريم كمشكلة لغوية وتاريخية، ومن اجل ان نكون اكثر ادراكاً لطبيعة هذه المرحلة لا بد لنا ان نعرف ما تعنيه (المشكلة اللغوية والتاريخية) من معنى:

فالكلام في اللغة - وعلى الاخص اللغة العربية - تشترك في تحديد معناه عوامل مختلفة يمكن أن نلخصها بالأمور التالية :

أ - الوضع اللغوي للفظ، فإن كل لفظ في اللغة نجد في جانبه معنى خاصاً محدد له.

ب - القرائن اللفظية ذات التأثير الخاص على الوضع اللغوي والتي تسبب صرف اللفظ عن معناه الحقيقي، وهذا هو الشيء الذي يحصل في الاستعمالات المجازية، بما للمجاز من مدلول عام يشمل الاستعارة والكناية وغيرهما.

ج - القرائن الحالية التي يكون لها أيضاً تأثير خاص على المدلول اللفظي،

ونعني بها الظروف الموضوعية التي يأتي الكلام بصدها أو يكون مرتبطاً بجانب من جوانبها.

فهذه العوامل الثلاثة تشترك في تكوين المدلول العام للفظ والكلام. وحين نواجه الكلام من أجل التعرف على مدلوله ونصطدم بشيء من هذه الامور الثلاثة في سبيل ذلك فنحن نواجه مشكلة لغوية.

وحين نحاول ان نتعرف خصوصيات الظروف الموضوعية لعصر نزول القرآن الكريم، أو التي تحدث عنها فيما قبل نزول القرآن، مثل قصص الانبياء والاقوام الماضين، أو التي تنبأ بوقوعها في المستقبل فإن ذلك يمثل مشكلة تاريخية.

وفي ضوء هذا المفهوم للمشكلة اللغوية والتاريخية يمكننا ان نتبين طبيعة المرحلة التفسيرية التي مر بها الصحابة والتابعون حين واجهوا الكلام الالهي (القرآن الكريم) وحاولوا معرفة معانيه ومدلولاته.

فنحن - حين ننصفح التفسير الذي وصلنا من هذا العصر - نجد اموراً ثلاثة رئيسة كانت موضع اهتمام الصحابة والتابعين ومن بعدهما، وهي كالتالي :

أ - التعرف على ما تعنيه المفردات القرآنية من معنى في اللغة العربية، مع مقارنة الكلام القرآني بالكلام العربي لتحديد الاستعارة القرآنية.

ب - تتبع أسباب النزول أو الاشخاص والحوادث التاريخية أو القضايا التي ارتبطت ببعض الآيات القرآنية.

ج - التفصيلات التي وردت في بيانات الرسول ﷺ أو التي أوردتها النصوص الاسرائيلية عن قصص الانبياء أو غيرها من الحوادث التي أشار إليها القرآن الكريم.

وهذه الامور الثلاثة لها علاقة وثيقة في تحديد المعنى من ناحية لغوية أو تاريخية، لانها تنتهي الى العوامل المؤثرة في تكوين مدلول اللفظ والكلام أو

تشخيص الظروف والأوضاع في حركة التاريخ.

ولعل من الشواهد على ما نذكره عن طبيعة هذه المرحلة هو ما نعرفه عن ابن عباس الذي يعتبر من أبرز الصحابة في التفسير، حيث كان يعتمد في تفسيره للقرآن - في أغلب الأحيان - على ما يعرفه من مفردات اللغة العربية وما يحفظه من شعر العرب أو أسباب النزول.

وقد اعتبر هذا الاطلاع الواسع على مفردات اللغة من قبل ابن عباس أساس امتيازه في التفسير وعلو شأنه.

وهذا الطابع العام نجده أيضاً في محاولات بقية الصحابة والتابعين أيضاً، فإذا لاحظنا صحيح البخاري - وهو أحد الكتب التي تتعرض للتفسير في هذه المرحلة - نجده يذكر التفسير في حدود هذه المشكلة ذاتها ولا يكاد يتعدها، وهذا الشيء نفسه نجده عندما نلاحظ الكتب التفسيرية الأخرى التي تنقل إلينا آراء الصحابة والتابعين بدقة.

والى جانب هذا الاستقراء توجد لدينا بعض الشواهد التاريخية ذات الدلالة البينة على طبيعة المرحلة، والتزام الصحابة لحدودها في محاولاتهم التفسيرية؛ فقد روي أن رجلاً يقال له: (ابن صبيغ) قدم المدينة - في زمن عمر بن الخطاب - فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه الخليفة وضربه بعراجين النخل حتى ترك ظهره دبره، ثم تركه حتى يرى، ثم عاد وبعد أن تكرر ذلك للمرة الثالثة دعا به ليعود، فقال ابن صبيغ ضارِعاً! إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً أو ردني الى ارضي بالبصرة، فاذن له الى ارضه، وكتب الى ابي موسى الاشعري الا يجالسه احد من المسلمين^(١).

وهذه الرواية تدلنا على مدى استنكار الصحابة للدخول في مشاكل عقلية

(١) جولد تسيهر، مذاهب التفسير الاسلامي : ٧٤. نقلاً عن لوائح الانوار البهية.

حول فهم القرآن الكريم وتفسيره، لأن البحث في المتشابهات يتصف بالطابع العقلي دون اللغوي^(١).

ويمكن ان نفهم الشيء ذاته من جميع النصوص التي وردت في النهي عن تفسير القرآن بالرأي أو تفسير القرآن بشكل مطلق^(٢)، إذ لا نشك في مزاولة الصحابة للتفسير في حدود المشكلة اللغوية والتأريخية، وهو في هذه الحدود ليس من تفسير القرآن بالرأي أو القول بغير علم، ولا يبقى في نطاق الشك والنهي غير مواجهة القرآن بشكل أعمق لا يتفق وطبيعة المرحلة ولا يعيش حدود المشكلة اللغوية.

وعلى هذا الاساس يمكن أن نشك في كل محاولة تفسيرية تنسب الى الصحابة ولا تعيش حدود هذه المشكلة وجوانبها، ولا تتسم بسماحتها وطابعها. فمن المعقول أن يداخلنا الشك في صحة ما ينسب الى ابن عباس في تفسيره لسورة (النصر) حين يحاول أن يحتمل السورة معنى فوق طاقتها اللغوية، ويجعل

(١) لم يكن اسم السائل (ابن صبيغ) بل اسمه (صبيغ بن عسل التيمي) ولم يكن السؤال عن متشابه القرآن وإنما كان السؤال عن ﴿والذاريات ذرواً﴾ (نقش ائمه در احياء دين ٦ : ١١٧) وهو بحث عن تفسير لغوي. واذا رجعنا الى قوله تعالى: ﴿... فأصبح هشيماً تذروه الرياح...﴾ (الكهف : ٤٥) عرفنا تفسير اللفظ.

كما ان الخليفة عمر قرأ على المنبر : ﴿فأنبتنا فيها حباً وعبأً وقضاً... وأبأ﴾ قال : كل هذا قد عرفناه، فما الاب ؟ ثم رفض عصا كانت في يده فقال : لعمر الله هو التكلف فما عليك ان لا تدري ما الاب، اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب، فاعملوا به وما لم تعرفوه فكلوه الى ربه (الدر المنثور ٦ : ٣١٧).

وكذلك عندما سئل أيضاً عن «فاكهة وأبأ» أقبل عليهم بالدرة (الدر المنثور ٦ : ٣١٧) مع أن تفسير اللفظين ورد بعدهما في قوله تعالى : ﴿متاعاً لكم ولا تعامكم﴾ (عبس : ٣٢).

(٢) راجع بصدد هذه النصوص الترمذي ١١ : ٦٨.

من الفتح فيها رمزاً وعلامة لحييء أجل الرسول ﷺ كما جاء في البخاري^(١).
ويمكننا ان نؤاخذ على هذا الحديث إضافة الى خروجه عن نطاق طبيعة المرحلة، هذا اللون الخاص من محاولة تجسيد ابن عباس، ولو كان ذلك على حساب القرآن الكريم، الامر الذي يدعونا ان نلحقه بموضوعات العصر العباسي^(٢).

(١) أخرج البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « كان عمر يدخلني مع اشياخ بدء فكأن بعضهم وجد في نفسه ، فقال لم يدخل هذا معنا وان لنا ابناء مثله ؟! فقال عمر انه ممن علمتهم ، فدعاهم ذات يوم فادخلني معهم ، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ الا ليربهم ، فقال : ما تقولون في قوله تعالى : ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ فقال بعضهم : امرنا ان نحمد الله ونستغفره اذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي اكدلك تقول يا بن عباس ؟ فقلت لا فقال ما تقول ؟ فقل هو اجل رسول الله ﷺ اعلمه له : فقال ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً ﴾ فقال عمر لا اعلم منها إلا ما تقول . « . الاتقان ٢ : ١٨٧ .

(٢) من الملاحظ في التفسير تأكيد دور ابن عباس فيه مع أن ابن عباس لم يعاصر الرسول الا مدة قصيرة من حياته ، ويحاول بعضهم ان يعلل ذلك بأن النبي قد دعا له بالعلم والفهم ، فكان هذا الانتاج الكبير .

ومع غض النظر عن هذا التفسير الغيبي يمكن ان نفسر هذه الظاهرة بأحد أمور ثلاثة ، ومن خلالها لا بد من دراسة ما ورد عن ابن عباس :

الاول : ان العباسيين حاولوا - لاهداف سياسية - ان يركزوا على دور ابن عباس في مجال التفسير والعلوم الدينية ، في مقابل أهل البيت ودورهم في هذا المجال ، وهذا هو ما أشرنا إليه في المتن .

الثاني : ان ابن عباس كان من تلامذة الامام علي عليه السلام - كما تشير الى ذلك مجموعة من النصوص والقرائن الأخرى - وان ما أثر عنه في التفسير انما تلقاه من الامام علي عليه السلام ، إلا انه لم يُنسب للامام علي عليه السلام بسبب ظروف الاضطهاد الاموي والعباسي ، وبعد ذلك نسب الى ابن عباس مباشرة .

ويمكن ان يعترينا مثل هذا الشك أيضاً حين ننظر الى المحاولة التفسيرية التي جاءت على لسان ابن عباس أيضاً حين يريد ان يعين (ليلة القدر) المذكورة في القرآن الكريم على أنها ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، ويفهم ذلك على اساس اهتمام الاسلام بالعدد (سبعة) حيث أخذ في متعلق بعض الاحكام الاسلامية^(١).

فان هذا الاستنتاج إضافة الى بعده عن المنطق الصحيح لا يتفق مع البساطة والذوق العربي اللذين كان يعيشهما ابن عباس.

ولقد كان من الطبيعي أن يُنظر الى القرآن في هذه المرحلة على اساس أنه (مشكلة لغوية) لأن هذه المرحلة تمثل بداية التطور في المعرفة التفسيرية عند

الثالث : ان ابن عباس كانت لديه تجربة واسعة في الممارسة العلمية والسياسية والاجتماعية، خصوصاً في عهد عمر الذي كان يقربه لاسباب سياسية وعلمية، وان ما ورد عنه في التفسير انما هو اجتهاده الخاص وليس رواية عن النبي ﷺ.

ونحن نميل الى الاحتمال الثالث لما أشرنا اليه من النصوص والقرائن، وان كان العامل الاول والثاني بشكل خاص لا يمكن انكار تأثيرهما في مجمل ما ورد عن ابن عباس.

(١) «أخرج ابو نعيم، عن محمد بن كعب القرظي، عن ابن عباس، ان عمر بن الخطاب جلس في رهط من المهاجرين من الصحابة، فذكروا ليلة القدر، فتكلم كل بما عنده؛ فقال عمر: مالك يا ابن عباس صامت لا تتكلم، تكلم لا تمنعك الحداثة. قال ابن عباس: قلت يا أمير المؤمنين إن الله وتر يحب الوتر، فجعل ايام الدنيا تدور على سبع، وخلق ارزاقنا من سبع، وخلق الانسان من سبع، وخلق فوقنا سموات سبعاً، وخلق تحتنا ارضين سبعاً، وأعطى من المثاني سبعاً، ونهى في كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع، وقسم المواريث في كتابه على سبع، ونقع في السجود من اجسادنا على سبع، فطاف رسول الله ﷺ بالكعبة سبعاً، وبين الصفا والمروة سبعاً، ورمى الجمار بسبع ... فأراها في السبع الأواخر من شهر رمضان، فتعجب عمر، فقال ما وافقني فيها احد إلا هذا الفلام الذي لم تستو شؤون رأسه، ثم قال يا هؤلاء من يؤدبني في هذا كاداء ابن عباس؟!» الاتقان ٢ : ١٨٨.

المسلمين، بعد ان كانوا يفهمون القرآن فهماً ساذجاً وفي مستوى الخبرة العامة المتوفرة لديهم حينذاك^(١).

٢- مصادر المعرفة التفسيرية في هذا العصر :

وفي ضوء معرفتنا لطبيعة هذه المرحلة يمكن ان نتعرف أيضاً على المصادر التي كانت تعتمد عليها المرحلة في معرفة مدلول النص القرآني، والادوات التي كانت تستعملها لمواجهة المشكلة اللغوية والتأريخية؛ ويمكن ان نلخص هذه المصادر بالامور التالية :

أ - (القرآن الكريم نفسه) لان القرآن الكريم يحكم طريقة نزوله، والاهداف التي كان يتوخاها من وراء هذه الطريقة التدريجية جاء - في بعض الاحيان - مبيناً لما قد أجمله سابقاً أو مقيداً أو مخصصاً لما كان مطلقاً أو عاماً، أو ناسخاً لحكم كان ثابتاً في وقت سابق؛ وهذه الطريقة من القرآن الكريم تسمح لنا ان نستفيد من بعض الآيات القرآنية لفهم بها بعض الآيات الأخرى.

وقد سلك المفسرون هذا المنهج في طريقهم للتعرف على المعاني القرآنية واكتشاف اسرارها، ويمكن ان نعتبر الرسول الاعظم ﷺ - بما لدينا من شواهد - الرائد الاول لهذه الطريقة التي سار عليها بعض الصحابة من بعده، واتخذها بعض المفسرين منهجاً عاماً لتفسير القرآن.

فقد روى عبد الله بن مسعود أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك هم الأمن وهم مهتدون﴾^(٢) شق ذلك على أصحاب رسول الله

(١) يُراجع الاتقان ١ : ١١٥ - ١٤٢. ففي هذه الصفحات نجد أن جميع ما يروى عن ابن

عباس أو غيره يعيش هذه المشكلة.

(٢) الانعام : ٨٢.

وقالوا: أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم. فقال: انه ليس بذاك، انما هو الشرك، الم تسمعون
قول لقمان: ﴿... ان الشرك لظلم عظيم﴾^(١).

كما ان التأريخ يحدثنا أيضاً أنّ علي ابن ابي طالب عليه السلام اتخذ مثل هذه الطريقة
للتعرف على بعض المعاني القرآنية؛ فقد اخرج المحافظان ابن ابي حاتم، والبيهقي
عن الدثلي: ان عمر بن الخطاب رفعت إليه امرأة ولدت لستة اشهر، فهمّ برجمها،
فبلغ ذلك علياً، فقال: ليس عليها رجم. فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فأرسل اليه فسأله.
فقال: قال تعالى: ﴿والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين...﴾^(٢) وقال:
﴿... وحمله وفصاله ثلاثون شهراً...﴾^(٣) فستة اشهر حملة، وحولين رضاعه، فذلك
ثلاثون شهراً، فخلّى عنها^(٤).

فقد فسر الامام علي عليه السلام مدة الحمل بستة أشهر على أساس الآية الأخرى
التي تحدد مدة الرضاع بـ (حولين كاملين).

ب - المأثور عن النبي صلى الله عليه وآله في تفسير القرآن؛ فقد كان الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله
يقوم بتفسير القرآن الكريم على المستوى العام - كما عرفنا ذلك في بحث التفسير في
عصر الرسول - وهو على هذا المستوى وان لم يكن قد فسر القرآن كله الاّ أنّه كان
يفسر بمقدار ما تفرضه ظروفه بصفته صاحب رسالة، وقائد دولة تواجهه مشاكل
المسلمين واسئلتهم، وبمقدار ما تقتضيه الدعوة الى الله وتبيان المفاهيم العامة عن
الاسلام وتشريعاته، فكان هذا الشيء - الذي يصدر منه بهذا الصدد - يتلقاه
المسلمون ويحفظه الكثير منهم، واعتمدوا عليه من بعده في ايضاح بعض جوانب

(١) لقمان: ١٣. رواه البخاري بصورة مختلفة راجع فتح الباري ١: ٩٥ و ١٠: ١٣١.

(٢) البقرة: ٢٣٣.

(٣) الاحقاف: ١٥.

(٤) الغدير ٦: ٩٣.

القرآن بالنسبة الى غيرهم .

وفي كتب الحديث شواهد كثيرة على ذلك فعن سعيد بن جبير : في تأويل قوله تعالى : ﴿ واذ قال موسى لفته لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حقاً ﴾ ^(١) . « قال : قلت لابن عباس : إنَّ نوحاً يزعم أنَّ موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني اسرائيل . فقال ابن عباس : حدثني أبي بن كعب أنَّه سمع من رسول الله ﷺ يقول : إنَّ موسى قام خطيباً في بني اسرائيل ، فسئل : اي الناس اعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه [الى الله] . فاوحى الله اليه : إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يارب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكث فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ... » ^(٢) .

فن اجل ان يظهر ابن عباس خطأ نوف في دعواه استند الى رواية أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ .

ج - حديث بعض الصحابة الذين عاصروا أحداث نزول القرآن ؛ لان من المعروف أنَّ بعض القرآن الكريم ارتبط في نزوله ببعض الاحداث التي عاشتها الدعوة الاسلامية في مراحلها المختلفة ، وبما أنَّ هذه الاحداث تشكل جزءاً من عوامل تحديد المعنى القرآني ، وتساهم في حل المشكلة اللغوية والتأريخية ذات الجوانب المتعددة التي واجهت المسلمين بعد الرسول فن الطبيعي ان يلتفت المسؤولون عن حل هذه المشكلة الى الاشخاص الذين عاصروا الاحداث ليتعرفوا منهم على ظروفها وخصوصياتها ، ومن ثمَّ على ما تمنحه للمعنى القرآني من ايضاح وتبيين .

وقد اهتم الباحثون بمعرفة (اسباب النزول) على اساس الارتباط الوثيق بينها

(١) الكهف : ٦٠ .

(٢) رواه البخاري . فتح الباري ١٠ : ٢٤ .

وبين تحديد المعاني القرآنية، واعتبروا فهم القرآن الكريم متوقفاً على معرفتها. فقد قال الواحدى : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها، وبيان النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن.

وقال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية^(١). والشواهد في حياة الصحابة على هذا الارتباط بين اسباب النزول وفهم الآية القرآنية كثيرة، عرفنا منها قضية قدامة بن مظعون^(٢) وقد ذكر السيوطي لذلك بعض الامثلة^(٣).

د - معرفة اللغة العربية المتداولة في الكلام العربي على اختلاف لهجاتها؛ فان القرآن الكريم - كما نعرف - نزل بلغة العرب، ولم يكن الصحابة على اطلاع كامل بمفردات اللغة العربية، ولذا كانوا يتوقفون في بعض الاحيان عند بعض الكلمات القرآنية لعدم معرفتهم معناها، حتى يقع في ايديهم شيء من كلام العرب يتضح به ما غمض لديهم من القرآن.

وقد أشرنا الى بعض الشواهد التي حصل فيها مثل هذا الشيء في بحث سابق^(٤).

كما أن طبيعة المرحلة وهي مواجهة القرآن كمشكلة لغوية تفرض ان يكون من ابرز المصادر للتفسير هو اللغة العربية نفسها، كشرط اساسي في محاولة تفسير القرآن الكريم^(٥).

(١) نقل هذه الاقوال السيوطي في مقدمة كتابه أسباب النزول : ٣.

(٢) راجع بحث التفسير في عصر الرسول.

(٣) الاتقان ١ : ٢٩.

(٤) التفسير في عصر الرسول.

(٥) البرهان للزركشي ٢ : ١٦٠ و ١٦٤.

ويبدو أنه قد أثير الجدل في مدة متأخرة عن هذا العصر حول صحة الاعتماد على نصوص اللغة العربية لمعرفة معاني القرآن وخصوصيات أسلوبه، وقد اشار السيوطي الى ذلك في كلام نقله عن ابي بكر بن الانباري، هذا نصه: «قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيراً الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر، وانكر جماعة لا علم لهم على التحويين ذلك، وقالوا اذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن، قالوا: وكيف يجوز ان يحتج بالشعر على القرآن وهو مذموم في القرآن والحديث؟!»

قال: وليس الامر كما زعموه من أننا جعلنا الشعر اصلاً للقرآن، بل اردنا تبين الحرف الغريب من القرآن بالشعر، لان الله تعالى قال: ﴿انا جعلناه قرآناً عربياً...﴾^(١) وقال ﴿بلسان عربي مبين﴾^(٢). وقال ابن عباس: «الشعر ديوان العرب، فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي انزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه»^(٣).

ففي هذا النص نجد ابن الانباري يناقش المسألة على اساس طبيعة الموقف التفسيري، وتصرف الصحابة والتابعين الذين كانوا يعتمدون على نصوص اللغة العربية عند محاولتهم التعرف على المعاني القرآنية، ويستشهد بما روى عن ابن عباس في ذلك.

والشواهد العملية في حياة الصحابة وتفسيرهم على ذلك كثيرة، ويكفي أن نذكر منها ما رواه السيوطي في الاتقان بسنده المتصل عن حميد الأعرج وعبدالله ابن ابي بكر بن محمد عن أبيه قالوا:

(١) الزخرف: ٣.

(٢) الشعراء: ١٩٥.

(٣) الاتقان ١: ١١٩ طبعة المكتبة التجارية الكبرى.

«بينما عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر : قم بنا الى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما اليه، فقالا : إنا نريد ان نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فان الله تعالى انما انزل القرآن بلسان عربي مبين؛ فقال ابن عباس : سلاني عما بدا لكما. فقال نافع : اخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾^(١) قال العزون الحلق الرقاق. قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم؛ أما سمعت عبید بن الابصر وهو يقول :

فجاؤوا يهرعون اليه حتى يكونوا حول منبره عزيزنا^(٢)
وعلى هذا الشكل يستمر نافع في السؤال، ويستمر ابن عباس في الجواب حتى يصل العدد الى نحو مائتي مسألة^(٣).

ويدخل في مفردات اللغة العربية بعض المصطلحات والاسماء التي كانت

(١) المعارج : ٣٧.

(٢) الالتقان ١ : ١٢٠.

(٣) من المعقول ان يأخذنا الشك في صحة هذه الرواية بتفاصيلها المروية في الالتقان على اساس استبعاد وقوع مثل هذه المناقشة الطويلة في مجلس واحد، واستحضار ابن عباس لكل هذه النصوص العربية - كما تحاول الرواية ادعاء ذلك - ولكن من المعقول أيضاً أن يكون لهذه الرواية أصل يقتصر على بعض هذه المناقشة، واضيف اليها بعد ذلك الأجزاء الأخرى مما روى عن ابن عباس تكملة للفائدة أو لأغراض سياسية أشرنا اليها سابقاً. خصوصاً إذا لاحظنا أن المحدثين الذين أخرجوها في وقت سابق على السيوطي لم يخرجوها بهذا التفصيل، كما يصرح السيوطي نفسه بذلك؛ والذي نريد اثباته هنا بهذه الرواية هو أن نصوص اللغة العربية كانت مصدراً لتفسير القرآن، وفي هذا يكفي ان تثبت أصل هذه الرواية.

متداولة ويعرفها المعاصرون من الصحابة أو العارفون باللغة العربية، مثل الأنصاب والأزلام واللات والعزى ومناة، أو غير ذلك من العادات والتقاليد.

هـ- أقوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ذلك لأن القرآن الكريم عالج موضوعين مهمين لهما صلة بأهل الكتاب. وهما ما يلي :

أحدهما: تحدث القرآن الكريم عن الحوادث والوقائع التي وقعت لبعض الانبياء والشعوب التي سبقت الاسلام، من أجل ان يستخلص العبرة والموعظة للمسلمين من خلال ذلك، ولذلك جاء الحديث القرآني عنها غير مستوعب للتفاصيل والجزئيات التي لا تمت الى هذه الغاية بصلة، في الوقت الذي تتحدث فيه التوراة والانجيل المتداولان عند أهل الكتاب فعلاً عن هذه الامور حديث المؤرخ للقضايا والوقائع، فتسرد فيها الحوادث بشكل تفصيلي ومحدد.

والأخرى: انتقد القرآن الكريم أهل الكتاب في الكثير من عاداتهم وتقاليدهم واساليبهم، كما كشف التحريفات التي تعرض لها كتاب التوراة والانجيل، وكان في بعض الاحيان يخاطب أهل الكتاب انفسهم مشيراً الى انحرافاتهم: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون﴾^(١).

وقد كان من الطبيعي أن يلجأ الصحابة الى أهل الكتاب لاستيضاح هذه الجوانب ومعرفة التفصيلات - بعد إقصاء أهل البيت عن المرجعية الفكرية^(٢) - عندما تواجههم الاسئلة عنها، ولا يجدون فيما لديهم من معرفة تفسيرية ما يسد

(١) المائدة : ١٠٣.

(٢) أشير الى نصوص دلت على أنَّ النبي أرجع المسلمين في معرفة القرآن والاسلام الى أهل البيت ﷺ ولكنهم بعده لم يرجعوا الى أهل البيت بشكل عام، بل رجعوا الى عموم الصحابة وبشكل جزئي الى أهل البيت، لأسباب لا مجال للحديث عنها في هذا البحث.

هذا الفراغ ويحجب عن هذه الاسئلة، خصوصاً اذا اخذنا بنظر الاعتبار أن بعض اهل الكتاب ممن رجع اليهم الصحابة في هذه التفصيلات قد اظهر الاسلام، وانسجم مع القادة المسلمين في احكامهم واطاراتهم، الامر الذي ادبى الى ان يصبحوا من المقربين والمستشارين لهؤلاء القادة، أمثال كعب الأخبار.

وخير ما يشهد لنا على رجوع بعض الصحابة الى اهل الكتاب في تفسير القرآن هو التفصيلات التي وردت على لسان الصحابة في التفسير عن الاحداث التاريخية السابقة المرتبطة بقصص الانبياء، لاننا نعرف أن الرسول ﷺ لم تسمح له ظروفه الخاصة بأن يفسر القرآن بهذا الشكل الواسع الدقيق وعلى المستوى العام للمسلمين، اصف الى ذلك اتفاق تفاسيرهم مع ما جاء في التوراة والانجيل في الخصوصيات^(١)، ونحن حين نقول ذلك لا نعي أن النصوص التي تصرح بهذا الاعتماد غير متوفرة^(٢) كما أن العلماء اعترفوا بهذه الحقيقة التاريخية عندما تحدثوا عن التفسير^(٣).

(١) تفسير الطبري ١ : ٢٢٥ - ٢٢٧ وغير ذلك من المواضع.

(٢) راجع تفسير الطبري ١ : ١٥١، ١٥٢، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٥.

(٣) راجع الاتقان ٢ : ٢٠٥. فقد نقل عن ابن كثير أن ابن عباس تلقى حديثاً طويلاً من

نقد التفسير في عصر الصحابة والتابعين* :

يجدر بنا - ونحن نريد أن نمحص نتاج هذه المرحلة التفسيرية - أن نستذكر حصيلة أبحاثنا السابقة، خصوصاً فيما يتعلق بالمحتوى الداخلي لرجال المرحلة من الصحابة والتابعين، ذلك لأن المعرفة التفسيرية تتأثر - بطبيعة الحال - بخصائص هذا المحتوى ومقوماته، لأنها عطاؤه ونتاجه.

وعندما نريد أن نتعرف على هذا المحتوى نقسمه الى جانبين رئيسين :

الأول : الجانب الفكري، ونعني به مقدار الثقافة الاسلامية التي كان يتمتع بها الصحابة، وما يستلزم ذلك من وعي وشعور بالمسؤولية تجاه الثقافة ومعرفة الأساليب لمحايتها.

الثاني : الجانب الروحي، ونعني به درجة التفاعل مع الثقافة الاسلامية، والامتزاج الروحي والوجداني بها، ومدى الايمان بصحتها والاخلاص لها.

(*) حينما ندرس التفسير في عصر الصحابة والتابعين لا يفوتنا أن نؤكد امرين، منعاً لما يمكن أن يقع فيه بعض القراء من الالتباس :

١ - اننا ندرس الصحابة على أساس المستوى العام الذي كان يتمتع به هؤلاء الرجال والذي كان يمثل روح ذلك العصر من ناحية فكرية واجتماعية، وهذا لا يعني وجود بعض الرجال من الصحابة والتابعين، ممن كانوا على درجات متفاوتة وعالية من الوعي والاخلاص والعلم.

٢ - لا يمكننا - بالرغم من كل نقاط الضعف التي أصيبت بها المعرفة التفسيرية في عصر الصحابة والتابعين - ان ننكر عظيم الخدمات التي قام بها هؤلاء الرجال والعطاء الذي وهبوه للمعرفة التفسيرية، الشيء الذي كان موضع استلهاام كثير من المدارس التفسيرية حتى عصرنا الحاضر.

وبهذا الصدد عرفنا سابقاً: أنَّ الصحابة بالنسبة الى الجانب الاول كانوا على جانب من البساطة الفكرية، وذلك بحكم أنَّ الرسول الاعظم ﷺ لم يخطط الى تهيئة عامة الصحابة لقيادة التجربة الاسلامية بشكل رئيس، لأن مجمل الظروف لم تكن تساعد على انجاز هذه المهمة، وانما أوكل القيادة السياسية والفكرية الى أشخاص معينين هياهم لهذه المهمة القيادية وهم أهل البيت عليه السلام^(١) ولكنهم أقصوا عنها بعد وفاة الرسول ﷺ^(٢) فكان من نتائج ذلك:

أ- عدم استيعاب عامة الصحابة للثقافة الاسلامية، نتيجة لعدم تفسير الرسول الاعظم للقرآن بشكل شامل على المستوى العام.

ب- سذاجة الوسائل التي اتبعها الصحابة في ضبط وحماية أقوال الرسول وسلوكه.

ج- بقاء الصحابة على سذاجتهم الفكرية وميلهم للبساطة وعدم التعمق، وتأثرهم في فهم الاسلام باطاراتهم الفكرية الخاصة.

وأما بالنسبة الى الجانب الثاني فقد عرفنا أنَّ عامة الصحابة كانوا مختلفين في درجة الانفعال بالثقافة الاسلامية والاخلاص لها، نتيجة لمختلف الظروف الموضوعية التي أحاطت بظروف انتمائهم الى الاسلام واتصالهم بالنبي ﷺ ومدى طموحهم وآمالهم، فقد كان بعضهم على مستوى عال من التأثير الروحي والنفسي بالثقافة الاسلامية، بل يمكن ان يكون هذا التفاعل هو الطابع العام للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين دخلوا الاسلام عن يقين ومعرفة، بخلاف عامة المسلمين الذين دخلوا الاسلام في مرحلة متأخرة من الفتح أو كانوا من

(١) راجع التفسير في عصر الرسول.

(٢) ذكرنا ذلك في تكوّن علم التفسير.

أعراب البادية.

وقد رجعت الأمة - بعد اتساع دائرة الاسلام بشكل كبير - الى جميع هؤلاء دون تمييز بين المخلصين منهم أو الاقل اخلاصاً أو المنافقين، لأنهم طُرحوا جميعاً للأمة على أساس أنهم يمثلون المرجع الفكري لها بسبب وجود الفراغ في هذا الجانب، فكان من نتائج ذلك تأثر الثقافة الاسلامية التي أعطيت للمسلمين - من قبل الصحابة - ما يلي :

أ - بالاتجاهات السياسية المختلفة أو الثقافات الرسوبية التي عاشتها تلك الحقبة.

ب - بالاتجاهات المصلحية ذات الطابع الشخصي أو القبلي.

مظاهر هذه النتائج في المعرفة التفسيرية :

وقد تأثرت المعرفة التفسيرية بهذه النتائج التي فرضها المحتوى الداخلي للصحابة على الثقافة الاسلامية، فاتسمت بدورها بنفس نقاط الضعف التي اتسمت بها الثقافة الاسلامية بشكل عام في ذلك العصر.

ومن أجل ان نحدد هذه النقاط ونوضح مدى تأثير المعرفة التفسيرية بها يجدر بنا ان نذكر بعض الشواهد من المعرفة التفسيرية على مظاهر نقاط الضعف، ولنأخذ كل واحد منها بشكل مستقل :

أولاً : عدم استيعاب عامة الصحابة للثقافة الاسلامية :

لسنا بحاجة هنا الى ان نرجع مرة أخرى لنعرف مدى صحة هذا الحكم بعد ان عرفنا ذلك في بحث (التفسير في عصر الرسول) ولا نريد هنا إلا أن نبحت عن المظاهر التي أشاعتها في المعرفة التفسيرية نقطة الضعف هذه، ويمكن ان نلخص ذلك في النقاط التالية :

أ- ان طبيعة المرحلة التي عرفناها سابقاً وهي مواجهة القرآن الكريم كمشكلة لغوية وتاريخية يمكن ان ترجع ببعض جوانبها الى هذه النقطة؛ لأن الصحابة حين فقدوا العنصر الخارجي^(١) الأصيل الذي كان من الممكن ان يساهم في معرفتهم التفسيرية مساهمة فعالة، كان من الطبيعي ان ينحصر نتائجهم التفسيرية بما يقتضيه المحتوى الداخلي لهم والمعلومات العامة التي حصلوا عليها من خلال معاشرتهم العامة مع النبي ﷺ، ولم يكن ذلك المحتوى بالمستوى الذي يمكنه ان يواجه القرآن الكريم بشكل اعمق من المشكلة اللغوية والتاريخية، فجاءت هذه المرحلة وهي لا تعنى 'بكثير من الجوانب العقلية والاجتماعية التي اهتمت بها مراحل متأخرة، خصوصاً اذا اخذنا بنظر الاعتبار التطورات المهمة التي حصلت في المجتمع الاسلامي في عصر الصحابة بسبب الفتح وانتشار الاسلام.

ب- افتتاح باب الرأي والاستحسان، الامر الذي ادى الى نتائج خطيرة في المعرفة التفسيرية، وانتهى الى ظهور الصراع التاريخي بين مذاهب التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

ج- اعتماد الصحابة على 'اهل الكتاب في تفسير القرآن، لأن السبب الرئيس لوقوع الصحابة في مثل هذه المفارقة هو الفراغ الذي كانوا يعانونه في المعرفة التفسيرية، نتيجة لعدم الاستيعاب - من جانب - والمتطلبات الفكرية التي كانت تواجههم كقادة فكريين - من جانب آخر - وسوف نعرف قريباً مدى الخطأ

(١) نقصد بالعنصر الخارجي الأصيل : الوحي الالهي الذي كان يأتي على يد النبي ﷺ من خلال تعليمه وتفسيره، والدور التعليمي المهم الذي كان يمكن ان يقوم به الامام علي عليه السلام ومدرسته، والعنصر الخارجي غير الاصيل وهم اهل الكتاب الذين كانوا يمثلون مصدراً من مصادر التفسير.

الذي وقع فيه بعض الصحابة نتيجة هذا الرجوع منهم الى هذا المصدر في التفسير.

د - بعض المضاعفات التي سوف نتعرف عليها في نقاط الضعف الآتية، حيث كان من الممكن تفادي هذه الاخطاء لو تهيأت للصحابة الظروف التي تجعلهم في مستوى الثقافة الاسلامية في التفسير؛ ومن هذه المضاعفات تأثرهم ببعض الاطارات الفكرية الخاصة في تفسيرهم للقرآن، أو فهمهم للاستعارة القرآنية بشكل آخر لا ينسجم مع الواقع القرآني، بسبب عدم اطلاعهم على الاطار الفكري والنظرية العامة لتلك الاستعارة القرآنية.

ثانياً: سذاجة الصحابة في ضبط وحماية المعرفة الاسلامية :

لم يكن اكثر الصحابة في عصر الرسول الاعظم يتمتعون بالمقدار الكافي من الوعي للظروف والمضاعفات السلبية التي سوف تواجهها المعرفة الاسلامية وما يستدعيه مرور الزمن وانتهاء عصر الوحي من مشكلات، ولذا لانجد التخطيط المركزي الذي يتخذ المبادرة لوضع الضمانات لحماية المعرفة التفسيرية وغيرها من المعرفة الاسلامية وضبطها، فنجم عن هذا الاهمال مجموعة من المضاعفات ونقاط الضعف أصابت جوانب من المعرفة التفسيرية.

فقد عرفنا : أنَّ المعرفة التفسيرية في عصر الصحابة والتابعين اعتمدت على مجموعة من المصادر كان منها النص القرآني، والمأثور عن الرسول ﷺ، وأقوال الصحابة الذين عاشوا الأحداث الاسلامية التي ارتبط بها النص القرآني، ومن اجل ان تكون هذه المصادر الاصيل ذات دور ايجابي في عملية التفسير كان يجب ان تكون موضع اهتمام في صيانتها وضبطها وحمايتها، ليكنها ان تؤدي مهمتها في تغذية المعرفة التفسيرية.

ونحن نلاحظ مجموعة من نقاط الضعف اكتنفت عملية الاستفادة من هذه المصادر نتيجة للسذاجة في الضبط والحماية، الامر الذي نجم عنه مجموعة من المشكلات :

١- مشكلة تعدد القراءات :

نلاحظ أن بعض الألفاظ القرآنية تقرأ بأساليب مختلفة، تؤدي في بعض الأحيان الى الاختلاف في معنى اللفظ ومؤداه، هذ الشيء الذي أدى في نهاية تطوره الى ولادة علم القراءات .

وقد حاول بعضهم أن يفسر ظاهرة تعدد القراءات في البحوث التفسيرية العامة على أساس أن القرآن الكريم جاء به الوحي الى الرسول الاعظم ﷺ بهذا الشكل المتعدد، وأنه نزل على عدة حروف، وأن القراءات المتعددة هي هذه الحروف المتعددة .

واذا كنا نقبل هذه المعالجة في بعض الحالات لا يمكن أن نقبلها بشكل مطلق وفي جميع الحالات، خصوصاً في الحالات التي يكون لاختلاف القراءة تأثير على المعنى، ويكون المعنى بدوره مرتبطاً بحكم شرعي كما في « يطهرن » بالتخفيف و« يطهرن » بالتشديد؛ إذ في مثل هذه الحالة لا يمكن ان تتعقل التردد في الحكم الشرعي المستفاد منها^(١) .

وحينئذ نجد أنفسنا أمام تفسيرين لهذه الظاهرة بشكل عام، أو على الأقل في بعض الحالات :

احدهما : هو اهمال ضبط الكلمات القرآنية بشكل معين في عهد الرسول من

(١) يحسن هذا الصدد مراجعة البيان في تفسير القرآن لآية الله السيد الخوئي رحمه الله (المدخل) :

قبل بعض الصحابة انفسهم، أو نسيان الطريقة الصحيحة لنطق اللفظ نتيجة عدم التدوين.

والآخر: تدخل عنصر الاجتهاد والاستحسان في القراءة بعد فقدان حلقة الوصل التي كانت تربط بين بعض الصحابة والرسول.

ومن الممكن ان يكون السببان مشتركين في نشوء هذه الظاهرة.

ويبدو لنا بشكل واضح تأثير اختلاف القراءات على فهم النص القرآني، اذا لاحظنا هذا النص التأريخي عن مجاهد احد كبار مفسري التابعين: «لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم احتج الى ان أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن»^(١).

٢- ظاهرة ادعاء نسخ التلاوة:

ولعل من أبرز مظاهر عدم الضبط وأبعدها أثراً في القرآن الكريم هو ما يقال عن نسخ التلاوة؛ حيث لا يمكن تفسير بعض النصوص التي تتحدث عن هذا النسخ - اذا أردنا ان نحسن الظن في الصحابي الذي رواها - إلا على اساس أنه كان يسمع من النبي ﷺ الحديث أو الدعاء فيتصوره قرآناً أو يختلط عليه الامر بعد ذلك، وإلا فكيف نفسر ادعاء عمر بن الخطاب آية الرجم، أو ادعاء عائشة آية الرضاع، مع أنها تصرح أنها مما مات عنه الرسول وهو يقرأ من القرآن؟!^(٢)

(١) الترمذي ١١ : ٦.

(٢) البخاري ٨ : ٢٦ طبعة بيروت. والاتقان ١ : ٥٨. وصحيح مسلم ٤ : ١٦٧.

وإليك الروایتين :

١ - روى ابن عباس أن عمر قال فيما قال وهو على المنبر :

«ان الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، فلذا رجم رسول الله ﷺ ورجعنا بعده،

وهل معنى ذلك إلا القول بتحريف القرآن أو الالتزام بعدم ضبط هؤلاء الصحابة للنص القرآني بشكل كامل^(١).

٣- ظاهرة اختلاف الحديث والتأريخ :

والى جانب القرآن الكريم تعرض المأثور عن رسول الله الى هذه الظاهرة، ونلاحظ ذلك في اختلاف ما يروى عن رسول الله ﷺ في التفسير^(٢).

كما نجد مثل هذا الشيء في نقل الحوادث التاريخية التي ارتبطت بها بعض الآيات القرآنية، حيث نلاحظ مفارقات كثيرة في ذلك مما أدى في بعض العصور المتأخرة الاسلامية الى نشوء بعض الفرق والمذاهب المختلفة، ويظهر ذلك بمراجعة اي كتاب من كتب أسباب النزول^(٣) ومن الواضح أن تفسير هذه الظاهرة انما

فأخشى ان طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى اذا أحصن من الرجال ...».

٢ - روت عمرة عن عائشة أنها قالت : كان فيما انزل من القرآن «عشر رضعات معلومات يحرمن» ثم نسخن بـ«خمس معلومات» فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن».

(١) ذكرنا في بحث النسخ عدم صحة ادعاء نسخ التلاوة، لانه يؤدي الى القول بتحريف القرآن، وأشرنا الى الشواهد على عدم صحة هذه الروايات.

(٢) كمثال على ذلك قارن بين الروايات التي يذكرها السيوطي في الاتقان ٢ : ١٩١ - ٢٠٥.

(٣) وبصدد أسباب النزول نجد علماء التفسير يأخذون قول الصحابي بمنزلة المرفوع في أسباب النزول من دون تردد، والكثير منهم يعمم هذا الحكم الى جوانب المعرفة التفسيرية، في الوقت الذي يجب علينا كباحثين ان نميز بين الصحابة الذين عاشوا هذه الاحداث عن كتب وشاهدوا تفاصيلها، وبين الآخرين الذين اعتمدوا في نقلهم لها على الشائعات والاقاويل، الامر الذي يؤدي في اكثر الاحيان الى الالتباس في نقل

يكون بموجب نفس الاسس السابقة التي عللنا بها ظاهرة تعدد القراءات، حيث يمكن ارجاع ذلك لعدم ضبط الصحابة لاقوال الرسول وسلوكه، أو الى عدم التدوين الذي أدى في عصر ما بعد الصحابة الى هذا الاختلاط.

٤- ظاهرة الاسرائيليات :

وقد تعرضت المعرفة التفسيرية الى نقطة ضعف مهمة نتيجة لهذه البساطة في الشعور بالمسؤولية وعدم التقدير الواعي لظروف الحماية وأساليبها، حيث نجد المرحلة تعتمد بشكل رئيس على أقوال أهل الكتاب ونظرياتهم.

وقد وقع بعض الصحابة نتيجة لهذا الاعتماد في مفارقات فكرية وعقيدية تختلف عن الاتجاهات الاسلامية الصحيحة، فهناك كثير من الافكار الاسرائيلية عن الانبياء وعالم الآخرة والملائكة اضيفت الى القرآن الكريم نتيجة هذا الربط التفسيري بين الوقائع التي تسردها الكتب الاسرائيلية أو التي يرويها الاسرائيليون، والوقائع التي يشير اليها القرآن الكريم لاستخلاص العبرة والموعظة منها.

والشواهد على هذه المفارقات في النصوص التفسيرية (الصحيحة!) المأثورة عن الصحابة كثيرة، واليك نماذج منها :

أ - عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ

الخصوصيات والتفصيلات، فنحن حين نشاهد بعض المسلمين يختلفون في زمن الرسول ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى هل هو مسجد «قبا» أو مسجد الرسول ﷺ ويرفعون هذا الاختلاف للرسول الاعظم ليحكم فيه ... نسمح لانفسنا ان نشكك في كل ما يروى عن الصحابة بهذا الشأن اذا لم يكن الشخص الراوي قد عاش الحادثة بنفسه. (الترمذي ١١ : ٢٤٥ - ٢٤٦) ويروي الترمذي بعد هذه الرواية نصاً آخر يدل بالدلالة الالتزامية على أن المسجد هو مسجد «قبا» في الوقت الذي نجد هذه الرواية تصرح بأن المسجد هو مسجد النبي .

ذريتهم... ﴿^(١) قال: قال رسول الله ﷺ «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل انسان منهم ويصاً^(٢) من نور ثم عرضهم على آدم. فقال آدم: أي رب من هؤلاء؟ قال هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه ويص ما بين عينيه فقال: أي رب من هذا؟ فقال: رجل من آخر الامم من ذريتك يقال له داود. فقال رب كم جعلت عمره؟ قال ستين سنة. قال: أي رب زده من عمري اربعين سنة. فلما مضى آدم جاءه ملك الموت. فقال: أو لم يبق من عمري اربعون سنة؟! قال أو لم تعطها ابنك داود؟ فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته^(٣)».

وهذا الحديث وان كان يرويه ابو هريرة عن رسول الله ﷺ ولكننا نقطع بعدم صدوره من رسول الله لوجود التشابه بينه وبين الاسرائيليات في نظرتها الى الانبياء واتهامها لهم بعظائم الامور، كما انه يحاول أن يصور بني اسرائيل على اساس أنهم آخر الامم، وعدم وجود ارتباط واضح بين الفقرات الثلاث الاخيرة وواقع القصة، ان لم نقل يتناقضها.

ب - عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال: ﴿آمنت أنه لا إله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل...﴾. فقال جبرئيل فلو رأيتني وأنا آخذ من حال^(٤) البحر فأدسه في فيه مخافة ان تدركه الرحمة^(٥)».

(١) الاعراف : ١٧٢.

(٢) الوبيص : البريق. ابن الاثير، البداية والنهاية ٤ : ١٩١.

(٣) الترمذي ١١ : ١٩٦ - ١٩٩.

(٤) الحال : الطين الاسود كالحمأة. ابن الاثير، البداية والنهاية ١٠ : ٢٧٣.

(٥) يونس : ٩٠، الترمذي ١١ : ٢٧١ راجع الحديث الذي بعده.

فان هذه الرواية تصور لنا جبرئيل شخصاً يحب الانتقام من الناس وهلاكهم؛ فاذا قارنا ذلك بما ينظر اليهود به الى جبرئيل وأنه ملك العذاب كما جاءت بذلك بعض النصوص التاريخية في اسباب نزول قوله تعالى: ﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال...﴾^(١)... نعتقد أن هذه الرواية لم تأت عن النبي وإنما جاءت على لسانه تأييداً لوجهة النظر الاسرائيلية، أو تأثراً بأفكار الاسرائيليات، والآن فنحن لا نفهم لماذا يخاف جبرئيل ان تدرك رحمة الله احداً من الناس حتى لو كان ذلك فرعون!

ج - عن أبي هريرة رفعه «لم يكذب ابراهيم الا في ثلاث: قوله: ﴿...اني سقيم...﴾ ولم يكن سقيماً. وقوله لسارة: اختي. وقوله: ﴿...بل فعله كبيرهم هذا...﴾»^(٢).

ولا يمكننا الا ان ننسب هذا الحديث الى الاسرائيليات لما فيه من اتهام ابراهيم بالكذب على هذه الصورة المشينة، خصوصاً اذا اخذنا بنظر الاعتبار عدم ورود قصة ادعاء ابراهيم ان سارة اخته في القرآن الكريم مع وجود تفسير واضح لكل من الحادتين الاخرين لا يتسم بالكذب.

د - جاء في الطبري عن سعيد بن المسيب أنه كان يحلف ان آدم لم يأكل من الشجرة الا بعد ان شرب الخمر^(٣).

وسعيد بن المسيب هذا نجده في موضع آخر لا يرضى ان يقول في القرآن شيئاً من التفسير؟!^(٤) فكيف يمكن ان نوفق بين يمينه ذاك ورأيه هذا؟!

(١) البقرة : ٩٨.

(٢) الصفات : ٨٩، الانبياء : ٦٣، الترمذي ١٢ : ٢٤.

(٣) تفسير الطبري ١ : ٢٣٧.

(٤) المصدر السابق ١ : ٣٨.

هـ - عن أبي سعيد الخدري قال : «قرأ رسول الله ﷺ واندبرهم يوم الحسرة...»^(١) قال يؤقُّ بالموت كأنه كبش أُمْلَح، حتى يوقف على السور بين الجنة والنار. فيقال : يا أهل الجنة! فيشربون. ويقال يا أهل النار! فيشربون. فيقال : هل تعرفون هذا؟ فيقولون : نعم هذا الموت. فيضجع فيذبح. فلولا ان الله قضى لاهل الجنة الحياة فيها والبقاء لماتوا فرحاً، ولولا ان الله قضى لاهل النار الحياة فيها لماتوا ترحاً»^(٢).

ويمكن ان نعرف مدى صحة هذا النص اذا درسنا النصوص التي تروى عن أبي سعيد هذا ووجدنا أنها تلتقي في نقطة واحدة وهي التحدث عن أشياء غريبة ترتبط بعالم الآخرة، وكأنه شخص اختصاصي لا يمارس إلا هذا اللون من التفسير^(٣).

قيمة الاسرائيليات في المعرفة التفسيرية :

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن المفارقات التي وقع فيها بعض الصحابة والتابعين، نتيجة اعتمادهم على الاسرائيليات في التفسير ان نعرف مدى قيمة هذا المصدر من ناحية اسلامية في المعرفة التفسيرية.

ويمكننا ان نجزم بسهولة بأن هذا المصدر لا يمثل في وجهة النظر الاسلامية أي قيمة حقيقية بعد ان نلاحظ الامرين التاليين :

اولاً : ان القصص والتفصيلات التي سردها التوراة والانجيل بوجودهما الفعلي لا يمكن الاعتماد عليها لانها محرفة؛ وفيها اتجاهات أخلاقية وعقيدية لا يقرها

(١) مريم : ٣٩.

(٢) الترمذي ١٢ : ١٤.

(٣) يمكن ملاحظة ما رواه السيوطي في الاتقان عنه ٢ : ١٩١ - ٢٠٥. والترمذي في كتاب

الاسلام الحنيف، وقد صرح القرآن الكريم في مواضع مختلفة بهذا التحريف الذي أصاب هذين الكتابين، وذم أهل الكتاب بصورة عامة على قيامهم بهذا التحريف والتزامهم له، فكيف يصح لنا بعد هذا كله ان نعتمد على شيء من هذه التفصيلات في تفسير القرآن الكريم.

ثانياً: ان الصحابة والتابعين حين كانوا يأخذون من أهل الكتاب هذه التفصيلات لم تكن لديهم وسائل الاطلاع على ذات التوراة والانجيل، وانما كانوا يعتمدون في ذلك على بعض من دخل الاسلام من اهل الكتاب وغيرهم، وقد كان بعض هؤلاء قد تظاهر بالاسلام وهو غير مخلص له، فن الطبعي ان يقوم بعملية تشويه للمفاهيم الاسلامية بادخال بعض الاتجاهات الفكرية والاخلاقية فيما يرويه عن التوراة والانجيل بصورة محرفة؛ وهذا الشيء وان كان غير وارد في الوقت الحاضر على اساس انتشار العهدين القديم والجديد، ولكنه كان ذا مفعول قوي في تشويه الفكر الاسلامي أيام الصحابة والتابعين.

بل نجد في ثقافة اهل الكتاب معلومات وأفكاراً كانوا يتداولونها ويتوارثونها جيلاً عن جيل ويحرفونها ويحورونها لاسباب مختلفة، وهي ليست موجودة بالأصل في التوراة والانجيل، بل هي من الثقافة العامة لهم، ولذا كان يعاتبهم القرآن ويدعوهم - احياناً - للرجوع الى ما بأيديهم من التوراة والانجيل لمعرفة الحقيقة.

وقضية اعتماد بعض الصحابة على الاسرائيليات في التفسير يمكن ان تعتبر بداية المشكلة لعصر التابعين، حيث كان هذا الاتجاه اتجاهاً رئيساً في عصرهم قامت عليه بعض المدارس التفسيرية وتبنته بعض الاساليب الثقافية كمصدر مهم من مصادر التكوين.

فقد ظهرت في هذه المدة من الزمن حركة اتخذت من سرد الحوادث التاريخية

حرفة خاصة^(١). وبرزت الاسرائيليات التي تتحدث عن حياة الانبياء السابقين -بصفتها جزءاً من الثقافة الاسلامية العامة -الى جانب السيرة النبوية وتفاصيلاتها.

بل تأثر بهذا الاسلوب رواة السيرة النبوية وتأريخ الفتح الاسلامي وملاحم العرب الجاهلية، فوضعوا القصص والملاحم والكتب التي تتحدث عن الغزوات ومعارك المسلمين والجاهليين من العرب وبشكل اسطوري له اهداف سياسية او ثقافية معينة.

كما اختلقت قصص وأساطير وهمية حول شخصيات حقيقية أريد منها تشويه الحقائق السياسية والاجتماعية، وتبرير أو تغطية الخلافات القبلية التي برزت في عهد الأمويين، أو السياسية والمذهبية، بل حتى تمادى بعضهم باختلاق الشخصيات ونسبة أدوار مهمة لهم من أجل هذه الاهداف، مثل قصص عنزة بن شداد، أو عبد الله بن سبأ، أو القعقاع التميمي، أو أيام العرب الجاهلية وغيرهم من الشخصيات الوهمية أو الحقيقية التي أحيطت بهالات وأطر وبطولات وهمية. وبعد هذا كله يمكننا أن ندرك بوضوح مقدار ما أصاب الثقافة الاسلامية من ضياع وتشويه نتيجة هذه السداجة في الضبط والحماية.

ثالثاً: سداجة عامة الصحابة الفكرية، وميلهم للبساطة، وتأثرهم في فهم الاسلام باطاراتهم الخاصة :

لقد كانت السداجة الفكرية لجمهور الصحابة، وتأثرهم في فهم الاسلام باطاراتهم الخاصة احدى النقاط المهمة التي كانت لها نتائجها ومضاعفاتها في المعرفة التفسيرية، ونذكر من تلك النتائج ما يلي :

(١) يشير الى هذا ما ذكره هبة الله بن سلامة في كتابه الناسخ والمنسوخ المطبوع بهامش أسباب النزول للواحيدي : ٦ - ٨.

١- فقد كان من مظاهر ذلك ما أشرنا إليه سابقاً من طبيعة المرحلة التي فرضت على الصحابة أن يعيشوا القرآن كمشكلة لغوية وتأريخية، فان ذلك كان بسبب عاملين :

احدهما خارجي : وهو عدم استيعاب الصحابة للثقافة الاسلامية .
والآخر داخلي : وهو المستوى العقلي والفكري الذي كان يعيشه رجال المرحلة، حيث كانوا ينظرون الى البحث والتأمل خارج حدود المشكلة اللغوية والتأريخية بحثاً غير اسلامي، قد ينتهي بهم الى الانحراف في فهم الدين والضلال عنه .
في الوقت الذي نجد القرآن الكريم يحث على التأمل في الكون، والتدبر في آيات القرآن الكريم ومفاهيمه، واستعمال العقل أداة لادراك بعض المفاهيم الكونية والاجتماعية من خلال النظرية الاسلامية ومفاهيمها .

٢- كما كان من نتائج هذه السداجة موقف الصحابة من القرآن الكريم -بصفته مصدراً مهماً من مصادر المعرفة التفسيرية في ذلك العصر- حيث لم يتمكنوا من الاستفادة الكاملة من العطاء القرآني في هذا المجال؛ ويلاحظ ذلك في ندرة ما ورد عنهم من محاولات تفسيرية تعتمد في فهم القرآن الكريم على القرآن نفسه، في الوقت الذي نعرف أن طبيعة نزول القرآن الكريم واسلوبه وترباط النظرية الاسلامية وتكاملها يحتم علينا فهم المقطع القرآني في ضوء جميع ما ورد في القرآن الكريم بصدد معناه .

وفي بعض الموارد حاول الصحابة الاستفادة من عطاء هذا المصدر الاصيل، فتجدهم يخضعون النص القرآني لاطاراتهم الفكرية الخاصة .

ومن الشواهد التي تدل على ذلك تلك المحاولة التي تنسب الى بعض الصحابة، حين حاول التعرف على حقيقة ابليس وماهيته، وانه من الجن أو الملائكة حيث خرج - بعد مقارنته لقوله تعالى : ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا﴾

ابليس أبى... ﴿^(١)﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا ابليسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ...﴾ ﴿^(٢)﴾ - بنتيجة معينة تقول: إنّ ابليس كان ينتمي الى قبيلة من الملائكة تسمى بالجن ﴿^(٣)﴾.

٣ - وعملية اخضاع النص القرآني للاطارات الفكرية الخاصة التي كان يعيشها بعض الصحابة والتابعين هي: احدى المظاهر التي أصيبت بها المعرفة التفسيرية في ذلك العصر نتيجة للسذاجة الفكرية؛ ولدينا شواهد كثيرة على هذا التأثير في العمليات التفسيرية المنسوبة الى بعض الصحابة والتابعين ﴿^(٤)﴾.

٤ - والى جانب ذلك كانت تبدو البساطة في فهم المعنى القرآني، والاستعارة القرآنية واضحة المعالم في تفاسير بعض الصحابة والتابعين:

فعرمة أحد التابعين يرى في قوله تعالى: ﴿... لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ ﴿^(٥)﴾ على أنه من تقديم ما حقه التأخير؛ اذ يفهم الآية على أساس أنّ تركيبها الاصلي «لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا» حيث لا يرى عكرمة أنّ نسيان يوم الحساب يمكن ان يكون سبباً معقولاً للعذاب الشديد ﴿^(٦)﴾.

وكذلك ابن عباس يرى في قوله تعالى: ﴿... فقالوا أرنا الله جهرة...﴾ ﴿^(٧)﴾ أنّ (جهرة) كان حقها التقديم في الكلام، فتأخرت حيث لا يعقل أن تتصف الرؤية

(١) البقرة : ٣٤.

(٢) الكهف : ٥٠.

(٣) الطبري ١ : في تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة . دار المعرفة - بيروت .

(٤) راجع بهذا الصدد الاتقان ١ : ١٤٤ و ٢ : ١٤١ . والترمذي ١١ : ٢٤٦ .

(٥) ص : ٢٦ .

(٦) الاتقان ٢ : ١٣ .

(٧) النساء : ١٥٣ .

بـ (الجهرة) لانهم اذا رأوا فقد رأوا، وانما كان قولهم الذي طلبوا فيه الرؤية جهرةً وعلناً^(١).

وهكذا نجد الصحابة في هذا ونظائره يفسرون القرآن حسب مدركاتهم واجتهاداتهم العقلية الخاصة، ويخضعون المجاز القرآني بأقسامه المختلفة لهذه المدركات على بساطتها وسذاجتها.

٥ - وقد انفتح بعض الصحابة والتابعين - نتيجة لهذه السذاجة الفكرية - على بعض الافكار الاسرائيلية وتفسيراتهم لبعض الالفاظ القرآنية، حين لم يجدوا فيها ما يتنافى مع أفكارهم الخاصة ومدركاتهم العقلية، خصوصاً ما يرتبط منها بعالم الغيب، هذا العالم الذي كانوا يجهلون الكثير من تفاصيله ودقائقه^(٢)؛ فكان أن فُرِضت على الثقافة القرآنية مجموعة غريبة من الافكار والمفاهيم، ونُظر اليها في العصور المتأخرة على أساس أنها جزء من الثقافة الاسلامية.

رابعاً: التفسير لاغراض سياسية وشخصية :

لقد عرفنا سابقاً أنَّ تسلم الصحابة لقيادة المسلمين فكرياً لم يتم على أساس التمييز بين رفاق النبي ﷺ الذين أخلصوا له ولرسالته، وبين الآخرين الذين لم يكونوا قد انفعلوا بدرجة كافية برسالة الاسلام وامتزجوا بها روحياً.

وكان لهذا التوجيه الخاطئ نتائج كثيرة في الثقافة الاسلامية بشكل عام؛ ولم تسلم المعرفة التفسيرية من مضاعفاته وآثاره، فترضت ثقافة القرآن الكريم للتزوير والتشويه بقصد الاستفادة السياسية أو الشخصية.

ويلاحظ الباحث في المعرفة التفسيرية لذلك العصر مواقف كثيرة كانت تتسم

(١) الالتقان ٢: ١٣.

(٢) راجع الترمذي ١١: ٢٨٤. والالتقان ٢: ١٤١ وغير ذلك.

بهذا الاتجاه الخاص وتحقق أغراضاً وأهدافاً معينة.

وهناك شواهد كثيرة تشير إلى اتهام أولئك الإبطال الذين اشتروا آيات الله بأثمان قليلة، فراحوا يخدمون جهات معينة سياسية أو شخصية، ويتقاضون أجر ذلك منصباً زائلاً أو ذهباً رناناً.

ولعل من أبرز هذه الشواهد هو ما نفهمه حين نقارن بين ما يذكره علماء القرآن في شأن المفسرين من الصحابة؛ حيث يذكرون: أنَّ علياً عليه السلام من أكثر الصحابة تفسيراً للقرآن، وأنَّ أبا هريرة من أقلهم تفسيراً^(١)... وبين ما يذكر في كتب التفسير (الصحيحة!) حيث نجد ما يروى عن أبي هريرة أكثر مما يروى عن علي عليه السلام^(٢).

ولا شك أنَّ هذه المفارقة ذات الدلالة على الظروف السياسية التي منعت من الرواية عن علي عليه السلام ودفعت الناس للأخذ من أبي هريرة، الأمر الذي سمح لهؤلاء نسبة ما يقولونه إلى رسول الله ﷺ والقرآن الكريم.

نماذج للتفسير بدوافع مختلفة :

أ- نماذج من التفسير لأغراض سياسية :

١- أحتج أبو بكر على الانصار يوم السقيفة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾^(٣) وفسر «الصادقين» في هذه الآية بالمهاجرين بقرينة قوله تعالى: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون

(١) الاتقان ٢ : ١٨٧ - ١٨٩ .

(٢) قارن ما ذكرناه، بالروايات المذكورة عن علي عليه السلام وأبي هريرة من كتابي التفسير للبخاري والترمذي .

(٣) التوبة : ١١٩ .

فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴿١١﴾ (٢). إذ من الواضح أن هذا اللون من التفسير لم يقصد منه إلا الغرض السياسي مع ابتعاده عن الغرض القرآني الاصيل.

٢- عن علي بن أبي طالب: قال صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني فقرأت: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون! قال فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون...﴾ (٣).

ولا يشك أي مسلم يعرف القليل عن شخصية الامام علي عليه السلام بوضع هذا الحديث على لسانه؛ حيث إن الامام علي عليه السلام تربى في حجر الرسول منذ أن كان طفلاً وتخلق باخلاقه، فكيف يمكن ان نتصور وقوع هذا الشيء منه، خصوصاً اذا أخذنا بعين الاعتبار نزول بعض الآيات القرآنية في ذم الخمر قبل هذا الوقت، واذا لاحظنا وجود بعض النصوص التي تذكر نزول الآية في شخص آخر من كبار الصحابة، ممن كان قد اعتاد شرب الخمر في الجاهلية عرفنا الهدف السياسي فيها.

ب- نماذج من التفسير لاغراض شخصية :

١ - عن عمر بن الخطاب، قال: «قال رسول الله يوم أحد اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحرث بن هشام، اللهم العن صفوان بن أمية؛ فنزلت ﴿ليس

(١) الحشر: ٨.

(٢) ذكر هذه الواقعة الزركشي في كتابه: البرهان في علوم القرآن ١: ١٥٦. ولسنا على يقين من صحة صدور هذا التفسير عن شخص أبي بكر، ولكن الرواية - مع ذلك - تدل على لون من ألوان الوضع السياسي في عصر متأخر عن أبي بكر.

(٣) الترمذي ١١: ١٥٧. وسورة النساء: ٤٣.

لك من الامر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم... ﴿^(١)﴾ فتأب عليهم فأسلموا فحسن اسلامهم» ^(٢).

ومن الواضح أنّ هذا الحديث وضع لصالح الامويين على لسان عمر بن الخطاب، اذ لا يتفق هذا الحديث مع الواقع التاريخي المعروف عن هؤلاء الاشخاص بعد اسلامهم في حياة النبي ﷺ وبعدها.

ولكن يبدو أنّ التزوير غير متقن، لانه يفرض صدور التوبة من الله قبل اسلامهم!.

٢- عن أبي بكر قال : «كنت عند رسول الله ﷺ فأنزلت عليه هذه الآية : ﴿... من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ ^(٣) قلت يا رسول الله بأبي أنت وامي أيّنا لم يعمل سوءاً وانا لمجزون بما عملنا، فقال رسول الله ﷺ أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب، واما الآخرون فيجمع لهم حتى يجزوا به يوم القيامة» ^(٤).

فهذا الحديث بالرغم من مخالفته لظهور كثير من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية يحاول أن يبرئ موقى المسلمين - كما ترى - من التبعات الاخرية لاعمالهم، ليقبوا اولياء على كل حال في نظر الناس.

٣- روى مسلم عن ابن عباس في رواية باذان : بعث رسول الله ﷺ خالد ابن الوليد في سرية الى حي من احياء العرب، وكان معه عمار بن ياسر فسار خالد حتى اذا دنا من القوم، عرس لكي يصبحهم، فأتاهم النذير، فهربوا عن

(١) آل عمران : ١٢٨.

(٢) الترمذي ١١ : ١٣١.

(٣) النساء : ١٢٣.

(٤) الترمذي ١١ : ١٦٩ - ١٧٠.

رجل قد كان أسلم، فأمر أهله أن يتأهبوا للمسير، ثم انطلق حتى أتى عسكر خالد، ودخل على عمار، فقال يا أبا اليقظان اني منكم وان قومي لما سمعوا بكم هربوا وأقت لإسلامي أفنافي ذلك، أو أهرب كما هرب قومي ؟ فقال : أقم فان ذلك نافعك، وانصرف الرجل الى أهله وأمرهم بالمقام.

وأصبح خالد فغار على القوم فلم يجد غير ذلك الرجل، فأخذه وأخذ ماله؛ فأتاه عمار فقال اخل سبيل الرجل فانه مسلم، وقد كنت آمنتته فأمرته بالمقام؛ فقال خالد أنت تجير عليّ وأنا الامير، فقال : نعم أنا أجير عليك وأنت الامير؛ فكان في ذلك بينها كلام، فانصرفوا الى النبي ﷺ فأخبروه خبر الرجل، فأمنه النبي ﷺ وأجاز أمان عمار، ونهاه أن يجير بعد ذلك على أمير بغير اذنه.

قال واستب عمار وخالد بين يدي رسول الله ﷺ فأغلظ عمار لخالد، فغضب خالد وقال يا رسول الله أددع هذا العبد يشتمني، فوالله لولا أنت ما شتمني، وكان عمار مولى لهاشم بن المغيرة؛ فقال رسول الله ﷺ : يا خالد كف عن عمار، فانه من يسب عماراً يسبه الله، ومن يبغض عماراً يبغضه الله. فقام عمار ف تبعه خالد فأخذ بثوبه، وسأله أن يرضى عنه فرضى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم ﴾ ^(١) وأمر بطاعة اولي الامر ^(٢).

والتلفيق في هذه الرواية واضح لما فيها من التناقض في الاحكام والمواقف بالشكل الذي لا ينسجم مع أوضاع أبطالها الثلاثة : رسول الله وعمار وخالد؛ فلماذا يحتاج هذا الرجل المسلم الى أن يجيره شخص من السرية، ليكون آمناً ولا يكفيه اسلامه في ذلك حتى يقع النزاع بين عمار وخالد فيمن يجير؟! وكيف يسب

(١) النساء : ٥٩.

(٢) الواحدى، أسباب النزول : ١١٨.

عمار خالداً بعد أن حقق عمار هدفه في الحصول على أمانٍ للرجل من رسول الله ﷺ وبعد نهي رسول الله له - كما تفرض الرواية - بمخالفة أمير السرية؟! ثم كيف ينتصر النبي لعمار على خالد والرواية تظهر عماراً كظالم لخالد؟! ثم كيف يترضى خالد عماراً بعد ظلم عمار له، وبعد أن تكشف خالد عن نفسية جاهلية تأبى عليه هذا الذل؟!

وبعد كل هذا ألا يجوز لنا أن نحكم بتزوير هذه الرواية لمصلحة خالد بن الوليد على حساب الصحابي المجاهد المناهض للظلم عمار بن ياسر؟

التفسير في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

تمهيد :

من أجل أن نوضح المعالم الأساسية والميزات الخاصة التي تتميز بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام في التفسير، لا بد أن نُشير إلى نقطتين لهما أهمية بهذا الصدد :

الاولى: نظرة أهل البيت عليهم السلام إلى القرآن الكريم.
الثانية: نظرة أهل البيت عليهم السلام العامة إلى طرق إثبات الحقائق والوصول إلى فهم القرآن الكريم والشريعة الإسلامية ومعرفة السنة النبوية.

نقطتان مميزتان للتفسير في مدرسة أهل البيت عليهم السلام :

النقطة الاولى: نظرة أهل البيت عليهم السلام إلى القرآن الكريم :

في البداية لا بد أن نشير إلى نظرة أهل البيت عليهم السلام المتميزة في تقديس القرآن الكريم، حيث يضعونه في المرتبة الثانية بعد الله تعالى، وإلى اهتمامهم الخاص في حفظ وتعلم القرآن الكريم وقراءته فإنها أفضل العبادات، واحترامه وأهميته والتفاعل معه والتفكير والتدبر في آياته من خلال مئات الأحاديث التي وردت عنهم عليهم السلام في الحث على ذلك، وتقديرهم واحترامهم الخاص لحملة القرآن ودورهم في الحياة الاجتماعية وذكر مقاماتهم عند الله تعالى، وبيان الأجر والثواب المترتب على كل هذه الاعمال المرتبطة بالقرآن، فهو شفيع، يشفع يوم

القيامة، بل هو أفضل شفيع...^(١) إضافة الى كل ذلك نذكر أمرين رئيسين :

أحدهما : ثبوت النص القرآني :

إنّ القرآن الكريم المتداول بين المسلمين هو مجموع ما نزل على النبي ﷺ في مدة نبوته ورسالته، باعتباره كلاماً إلهياً دون زيادة أو نقصان، وهو ما نسميه بثبوت النص القرآني وسلامته من التحريف بالزيادة أو النقص، وقد أوضحنا القرائن والأدلة على هذه الحقيقة في بحثنا السابق ثبوت النص القرآني.

وبهذا الصدد لا بد أن نُشير الى ظاهرتين مهمتين توضحان الصورة والموقف تجاه قضية تحريف القرآن الكريم :

١ - إنّ المسلمين جميعاً سنة وشيعة - بالرغم من اختلاف مذاهبهم الفقهية والكلامية، وتعدد آرائهم، ومواقفهم في فهم التأريخ والسنة وتفسيرهم للأحداث - متفقون على تداول نص واحد من القرآن الكريم وفي جميع العصور، بحيث لا نجد في جميع الاصقاع والأقطار الاسلامية أو غيرها، وفي زوايا المكتبات القديمة والحديثة أي نص آخر للقرآن الكريم غير النص الذي يتداولونه بشكل عام؛ الأمر الذي يؤكد حقيقة سلامة النص القرآني ويبطل كل الشبهات والاثارات التي يتداولها بعض الأشخاص لاتهم فرقة أو جماعة من المسلمين بأنهم يعتقدون بالتحريف.

ولا شك أنّ هذه الاثارات والشبهات لها خلفية وأهداف سياسية أو اجتماعية أو مذهبية متعصبة، وان كان بعض من يتداولها ممن وقع في هوة التضليل والجهالة دون نية سيئة.

٢ - اننا نجد على مستوى الروايات والأحاديث، وأحياناً على مستوى الأبحاث

(١) راجع ما ذكره صاحب كتاب جامع أحاديث الشيعة الجزء : ١٥، فانه ذكر أكثر من سبعمائة حديث تتناول مختلف هذه الابعاد .

العلمية والآراء النظرية ما يمكن أن يوهم بالتحريف والنقيصة، سواء على مستوى علماء وحفاظ جمهور المسلمين، كالبخاري ومسلم وغيره، أو مستوى حفاظ وعلماء أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، الأمر الذي لا بد من معالجته بالموقف الواضح والتسالم القطعي بين المسلمين على سلامة القرآن من التحريف أو تأويل هذه الروايات والأحاديث أو الآراء، كما أشرنا إلى ذلك في بحث ثبوت النص القرآني. ولا يستفيد من مثل هذه الاثارات إلا أعداء الاسلام والقرآن من المستشرقين والمبشرين والصهاينة والاستكبار العالمي الغربي، أو الملاحدة والمرتدين من أوساط المجتمعات الاسلامية.

ولكن لا بد أن نُشير هنا إلى أن هذه الروايات والاثارات انما كانت احدى النتائج الخطرة - التي تمت الاشارة إليها في البحث السابق - بسبب عدم التمييز بين المستويين (العام والخاص) من التفسير، وإبعاد أهل البيت عليهم السلام عن دورهم في المرجعية الدينية على المستوى الخاص وخصوصاً في التفسير، الأمر الذي جعل الأمور تختلط على المسلمين بهذا الشكل، ولولا العناية الالهية والاهتمام الخاص الذي أولاه النبي صلى الله عليه وآله، وأهل البيت عليهم السلام وكبار الصحابة والمسلمون بشكل عام، في استظهار القرآن وحفظه لحدثت كارثة بين المسلمين تشبه ما تعرضت له الديانات الالهية السابقة.

والآخر: القرآن الكريم هو المرجع العام للرسالة الاسلامية :

إنّ القرآن الكريم هو المرجع الاول والمصدر العام للرسالة الاسلامية بكل أبعادها - والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - ومنها العقيدة والشريعة الاسلامية والسنن التاريخية والنظرة العامة للكون والحياة والمجتمع والسلوك الانساني.

والسنة النبوية وان كانت تمثل المرجع الآخر، إلا أنّ القرآن الكريم يمتاز على

السنة النبوية في ثبوته بنصه يقيناً وفي قدسيته باعتباره الكلام الالهي، ومن ثمّ يكون المرجع للسنة عند الشك في ثبوت مضمونها أو نصها، ولا يقبل من الحديث إلا ما كان موافقاً للقرآن الكريم.

كما أنّ أهل البيت عليهم السلام ينظرون الى السنة النبوية القطعية نظرة التقديس، ويضعونها حكماً يمكن تمييز صحة حديثهم من خلال موافقتها، كما يمكن رد الحديث والحكم عليه بالبطلان من خلال مخالفته للسنة النبوية فضلاً عن مخالفته للقرآن، ولا يجدون أي مبرر للاجتهاد في مقابل النص القرآني، ويمكن أن نحدد - بشكل إجمالي - نظرة أهل البيت الى منزلة القرآن الكريم من هذه الزاوية في الابعاد التالية :

١ - إنّ القرآن الكريم يمثل شاهداً على الحق والباطل في مضمون الاحاديث والروايات التي تنسب الى النبي ﷺ أو أهل البيت عليهم السلام، حيث يمكن من خلاله تمييز الحق من الباطل.

فقد روى ثقة الاسلام الكليني في الكافي عن علي بن ابراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه». وقد رواه البرقي في المحاسن والصدوق في الأمالي بسندهما عن النوفلي والسكوني^(١).

وفي رواية أخرى للكليني صحيحة السند عن هشام بن الحكم وغيره، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال: خطب النبي ﷺ بمنى، فقال: «أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله»^(٢).

(١) وسائل الشيعة ١٨ : ٧٨ .

(٢) المصدر السابق : ١٧٩ الحديث ١٥ .

وقد رواه البرقي في المحاسن أيضاً.

وفي صحيحة أخرى نكليني عن جميل بن دراج، عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال: «الوقوف عند الشبهة خير من اقتحام الهلكة، إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً، فوافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه»^(١).

٢- وقد ورد في بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام أن لكل شيء في الشريعة الإسلامية أصلاً في القرآن الكريم، ولكن لا يمكن لعامة الناس أن يفهموه ويرجعوه إلى القرآن الكريم؛ فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله ولكن لا تبلغه العقول»^(٢).
وسياق مزيد من التوضيح لهذا البعد في هذا البحث.

٣- ارجاع جميع الشروط والالتزامات والعهود والعقود إلى القرآن الكريم، بحيث لا يصح أن نقبل أي شيء من هذه الالتزامات والعهود، إذا كان مخالفاً للكتاب.

وقد ورد هذا المعنى في الاحاديث المروية عن طرق الفريقين وهو أمر متفق عليه بين عامة المسلمين.

ففي حديث عن الصادق عليه السلام: «المسلمون عند شروطهم إلا كل شرط خالف كتاب الله عز وجل فلا يجوز» وفي حديث آخر «وإن كان شرطاً يخالف كتاب الله عز وجل فهو رد إلى كتاب الله»^(٣).

٤ - الرجوع إلى الكتاب لتمييز وترجيح أحد الحديثين المختلفين في حالة

(١) وسائل الشيعة ١٨ : ٨٦ الحديث ٣٥ و ٣٧.

(٢) المصدر السابق ١٧ : ٥٨١ الحديث ٣.

(٣) المصدر السابق ١٢ : ٣٥٣ الحديث ٢ و ٤.

التعارض وذلك في الموارد التي يكون فيها الحديث مخصصاً أو مقيداً أو مبيناً للقرآن الكريم، ولكن يوجد ما يعارضه في مضمونه، فإن ما يكون موافقاً للعام القرآني وإطلاق الكتاب الكريم يكون مقدماً ومرجعاً على الحديث الآخر.

فقد روى سعيد بن هبة الله الراوندي بسنده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله قال: قال الصادق عليه السلام: «إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فردوه...»^(١).

كما روى الصدوق في عيون الأخبار بسند صحيح، عن محمد بن عبد الله السمعي، عن أحمد بن الحسن الميثمي أنه سأل الرضا عليه السلام يوماً وقد اجتمع عنده قوم من أصحابه، وقد كانوا يتنازعون في الحديثين المختلفين عن رسول الله ﷺ في الشيء الواحد، فقال - في حديث -: «ما ورد عليكم من خبرين مختلفين فاعرضوهما على كتاب الله، فما كان في كتاب الله موجوداً حلالاً أو حراماً فاتبعوا ما وافق كتاب الله...»^(٢).

كما إن في الأحاديث التي وردت بصدد البعد الأول ما يؤيد ويؤكد هذا المعنى. النقطة الثانية: نظرة أهل البيت عليه السلام العامة إلى طرق الإثبات: إن من الملاحظ أن أهل البيت عليه السلام قد أكدوا في كثير من الروايات والنصوص أهمية سلوك طريق العلم والمناهج العلمية في الوصول إلى حقائق الإسلام والقرآن.

وهنا يمكن أن يثار هذا السؤال وهو أننا نعرف بأن القرآن الكريم تناول هذا الموضوع بشكل واسع في مثل قوله تعالى: ﴿... ان الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾^(٣)

(١) وسائل الشيعة ١٨: ٨٤ الحديث ٢٩.

(٢) المصدر السابق: ٨٢ الحديث ٢١.

(٣) النجم: ٢٨.

وقوله تعالى ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولاً﴾^(١) وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

كما ان السنة النبوية الثابتة لدى المسلمين جميعاً أكدت ذلك أيضاً خصوصاً في مجال تفسير القرآن، حيث ورد عن النبي ﷺ: «أنه من فسر القرآن برأيه فقد كفر، فما هو السبب في شدة تأكيد أهل البيت هذا الموضوع؟ وهل هو مجرد انسجام مع القرآن الكريم والسنة النبوية، أو أن الاوضاع التي كان يعيشها المسلمون تقتضي هذا التأكيد؟

والذي يبدو من خلال مراجعة التأريخ الاسلامي وخصوصاً تأريخ تطور (علم الحديث) من ناحية، والظروف التي مر بها العالم الاسلامي في الصدر الاول للاسلام من ناحية أخرى، والنصوص الكثيرة التي وردت عن أهل البيت عليه السلام، أن هناك مجموعة من القضايا والمشاكل والظواهر شهدت الأمة الاسلامية أدت الى هذه الاثار والتأكيدات من قبل مدرسة أهل البيت، منها:

١- المنع الذي فرضه الخليفة الثاني عمر على تدوين الحديث - وقد استمر الى عهد الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز مع غض النظر عن تفسير خلفائه وأسبابه - أدى بطبيعة الحال الى ضياع الكثير من السنة النبوية أو عدم ضبطها بشكل مناسب، الأمر الذي فتح الباب واسعاً أمام حركة (الرأي) و(الظن) و(الاجتهاد) للوصول الى الحكم الشرعي.

٢- المشكلات الجديدة التي واجهها العالم الاسلامي بسبب الفتح الاسلامي الواسع سواء على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، أو الحكم وادارته، أو على مستوى الفرد والجماعة والعلاقات السياسية والتي تحتاج الى معالجة على ضوء الشريعة الاسلامية.

٣- اصفاء الشرعية والحجية - في القول والعمل - على كل من عاصر النبي أو سمع منه ولو لمدة بسيطة أو في الاماكن العامة بحيث يكون مرجعاً للمسلمين في الشؤون الدينية، استناداً الى فكرة عدالة جميع هؤلاء الافراد على الاطلاق دون وضع اصول وضوابط في ذلك، مثل: الورع، والضبط، والاستيعاب، والاحاطة بالظروف الحالية والمقالية التي ورد فيها النص، أو حتى الاطلاع على النصوص الأخرى والعالم المتعددة للسنة النبوية من أقوال وأفعال واقرار، والتي تلقي الضوء على مضمون النص أو تفسيره وتوضيحه وتبيينه، فكان شأن المسلمين حينذاك في كثير من الاحيان شأن من يحاول استنباط الاحكام الشرعية في العصور المتأخرة بمجرد الرجوع الى رواية يجدها في أحد الكتب الحديثة دون الفحص عن الروايات الأخرى أو رجال الحديث الذين رووا هذه الرواية.

إنّ صحبة رسول الله ﷺ شيء مقدس ولها نتائج وإيحاءات روحية ومعنوية عظيمة، ولكن اصفاء هذا العنوان على كل من عاصر رسول الله أو التقى به أو سمع منه، مع أنّ فيهم (المتافق الذي مرد على النفاق)، و(الاعرابي)، و(الساذج)، او الذي خلط عملاً صالحاً بآخر سيئ، او عرف من الاسلام مجرد مفاهيم عامة وشعارات وطقوس دون أن يدخل الايمان الى قلبه أو يتربى على المعرفة والاخلاق والعقائد والآداب الاسلامية، أو دون أن يعرف التقوى حق المعرفة، أو كان ممن بقيت في اعماقه رواسب العادات والاخلاق الجاهلية والافكار الوثنية.

إنّ وجود مثل هذه الاصناف في المجتمع الاسلامي الذي عاصر الرسول ﷺ حقيقة لا يمكن لأحد انكارها، حيث تحدث عنها القرآن الكريم والسنة النبوية والتأريخ الاسلامي، ودلت على هذه الحقيقة بمجمل الأحداث والتصرفات والمواقف والسلوكيات التي صدرت عن هؤلاء المعاصرين.

٤ - الأغراض السيئة لبعض الجماعات والأفراد التي كان لها مواقع في المجتمع الاسلامي، وخصوصاً في العهد الاموي من دون فرق بين الأغراض السياسية، أو النفعية الذاتية، أو الاخلاقية التي تنطلق من الحسد والحقد أو النعرات الجاهلية في الصراعات القبلية الموروثة.

إنّ هذه الأغراض كان لها دور كبير ومهم في ايجاد الفوضى والاضطراب، واستغلال الفراغ الذي تركه عدم تدوين السنة النبوية وعدم تشخيص المرجعية الدينية للمسلمين المتمثلة بأهل البيت عليه السلام.

ولا نريد بهذه المعالجة أن نشير الى جميع هذه القضايا والمشاكل، ولكن نريد ان نوضح الأوضاع والظروف التي ولدت فيها حركة الرأي والاجتهاد والحدس الذي لا يعتمد على الضوابط والاصول.

كما لا نريد هنا أيضاً أن نتناول قضية تم بحثها في علم الاصول ترتبط بالأدلة الظنية التي أنكرها أئمة أهل البيت عليه السلام، مثل (القياس) و(الاستحسان) و(المصالح المرسلة) و(رأي الصحابي) وغيرها، فإن بحث هذا الموضوع له مجال آخر، وإنما نريد أن نشير هنا الى نقطة محورية في هذا البحث وهي: أنّ أهل البيت عليه السلام كانوا يرون أنّ طريق الوصول الى حقائق الاسلام بقي مفتوحاً وميسوراً من خلاهم، أي من خلال الامام علي عليه السلام الذي هو باب مدينة العلم الذي اعتمده النبي صلى الله عليه وآله وعلمه القرآن وتفسيره، حيث دون كل هذه المعلومات في صحيفة جامعة، اشتملت على جميع تفاصيل الشريعة حتى ارش الحدس وأحاط بالقرآن الكريم:

في المضمون وفي العمق؛ فهو يعرف ظاهره وباطنه ومحكمه ومتشابهه،
وفي نصه وآفاقه؛ فهو يعرف ناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه ومطلقه
ومقيده.

وفي الظروف المحيطة به والقرائن الحالية التي اقترنت بنزوله؛ فهو يعرف في أي وقت نزلت وفي أي الاشخاص والجماعات، ولأجل أي غرض أو هدف.

وحتى أولئك الذين يرون صحة الرجوع الى القياس وغيره من الادلة الظنية انما يصح ذلك في رأيهم أو يقولون بحجية هذه الأدلة إذا فقدوا الدليل والنص على الحكم الشرعي والمعرفة الاسلامية، أي (إذا انسد باب العلم) الى هذه الحقائق كما يعبر الاصوليون.

وأما اذا كانت الفرصة قائمة وموجودة للوصول الى الحكم الشرعي والمعرفة، من خلال طريق العلم ووسائل الاثبات اليقينية فلا يصح ذلك بالاجماع.

وهذا ما عناه وأكده أهل البيت عليهم السلام في هذه الروايات الكثيرة وهو الذي كان سبباً رئيساً في هذا القدر من الانكار والاستنكار على مدرسة الرأي.

والايمان بصحة هذا الأمر هو الذي دعا جماعة كبيرة من كبار فقهاء الجمهور في عصور الأئمة المختلفة للرجوع الى أهل البيت عليهم السلام من أجل أن يعرفوا هذه الحقائق اليقينية، وتأثروا بهم في مختلف مجالات المعرفة وخصوصاً في التفسير^(١).

وهنا نشير الى بعض الروايات التي تعكس هذا التصور والفهم للموقف من قبل أهل البيت عليهم السلام:

١ - الرواية التي رواها ثقة الاسلام الكليني وكذلك الصدوق في العقائد عن سليم بن قيس والتي تقدمت الاشارة اليها في هذا الموضوع.

٢ - ما رواه ثقة الاسلام الكليني بسند صحيح عن أبي الصباح (الكناني) قال : والله قال لي جعفر بن محمد عليه السلام : إن الله علم نبيه ﷺ التنزيل والتأويل، فعلمه

(١) تناولنا هذا الموضوع في كتابنا « دور أهل البيت في الحياة الاسلامية » الذي نأمل منه تعالى أن يوفقنا لاكماله وطبعه .

رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام، ثم قال وعلمنا - والله - الحديث ^(١).

٣- عن موسى بن عقبة ان معاوية (بن أبي سفيان) أمر الحسين عليه السلام ان يصعد المنبر فيخطب فحمد الله واثني عليه، ثم قال :

نحن حزب الله الغالبون وعتره نبيه الأقربون، وأحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله صلى الله عليه وآله ثاني كتاب الله، فيه تفصيل لكل شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمول علينا في تفسيره لا تنتظي تأويله بل تتبع حقائقه، فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله مقرونة. قال الله تعالى :

﴿... أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول...﴾ ^(٢) وقال :

﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم...﴾ ^(٣).

وروى الطبري نحوه في بشارة الاسلام بسنده عن الحسن بن علي ^(٤).

٤- وروى الكليني بسند صحيح عن أبي عبيدة (الحذاء) قال : قال أبو جعفر (الباقر عليه السلام) : «من أفتى الناس بغير علم ولا هدى من الله لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه» ^(٥).

وروى أيضاً بسند معتبر في حديث عن أبي الحسن موسى (الكاظم عليه السلام)

(١) وسائل الشيعة ١٨ : ١٣٥ الحديث ١٩.

(٢) النساء : ٥٩.

(٣) النساء : ٨٣.

(٤) وسائل الشيعة ١٨ : ١٤٤ الحديث ٤٥.

(٥) المصدر السابق : ٩ الحديث ١ ولاحظ أحاديث هذا الباب والتأكيد الذي ورد عن أئمة أهل البيت بعدم الفتيا أو القضاء بغير علم، وأهمية التعلم ووجوبه.

قال : « ما لكم والقياس ، انما هلك من قبلكم بالقياس ... ثم قال :
إذا جاءكم ما تعلمون فقولوا به ، وإذا جاءكم ما لا تعلمون فيها (وأوماً بيده الى
فيه) ثم قال :
إنّ أبا حنيفة كان يقول : قال علي عليه السلام وقلت ، وقالت الصحابة وقلت ، ثم
قال :

أكنت تجلس اليه ؟ قلت : لا ، ولكن هذا كلامه ، فقلت : أصلحك الله ، أتى
رسول الله صلى الله عليه وآله الناس بما يكتفون به في عهده ؟ قال : نعم . وما يحتاجون إليه يوم
القيامة . فقلت : فضاع من ذلك شيء ؟ فقال لا هو عند أهله ^(١) .

معالم نظرية أهل البيت عليهم السلام في التفسير :

بعد أن عرفنا منطلقات أهل البيت عليهم السلام إلى القرآن الكريم وتفسيره ، يحسن
بنا أن نشير الى 'عالم نظرية أهل البيت في التفسير ، حيث يمكن أن نلخصها في المعالم
الأربعة التالية :

الأول : الوحدة البيانية للقرآن :

النظر الى القرآن الكريم كوحدة لفظية وكلامية متكاملة بحيث لا يمكن أن نفهم
فقراته أو آياته إلا من خلال النظر الى جميع أبعاد وجوانب هذه الوحدة اللفظية
وكذلك الى جميع فقراتها .
ويعتمد هذا الفهم للقرآن الكريم على رؤية علمية وواقعية مستنبطة من القرآن
الكريم وطبيعة الظروف التي أحاطت بنزوله .

(١) وسائل الشيعة ١٨ : ٢٣ حديث ٣ . راجع أيضاً حديث ٥ و ١٦ و ١٨ و ٣٣ و ٤١ و ٤٩
وغيرها من أحاديث الباب ٦ من أبواب صفات القاضي ج ١٨ .

فالقرآن الكريم كما نعرف هو ﴿...كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾^(١). فهو (كلام واحد) يعبر عن تصور متكامل وشامل للكون والحياة والدين، ولكن شاءت الحكمة الالهية أن ينزل هذا الكلام بشكل تدريجي (و منجماً) لتحقيق أغراض عديدة تحدثنا عنها في محله من علوم القرآن، كما أشار إليه القرآن الكريم نفسه^(٢).

وقد أحاطت بالنزول التدريجي هذا ظروف وأحداث تُلقي الضوء على معانيه وأهدافه من ناحية، وكان لها تأثير في أسلوب العرض والبيان والمقاصد أحياناً أخرى.

فقد يأتي البيان في البداية (عاماً) لمصلحة سياسية أو تربوية أو لرسم الأساس الفكري والمنطلقات النظرية، ثم يأتي تخصيص هذا (العام) وبيان الاستثناءات التي تقتضيها المصالح السياسية أو الاجتماعية، خصوصاً إذا اخذنا بنظر الاعتبار أن بعض هذه التخصيصات جاءت من السنة النبوية الشريفة، وهو شيء يقبله جمهور علماء الاسلام استناداً لقوله تعالى: ﴿... ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا...﴾^(٣).

أو يثبت القرآن الكريم موقفاً سياسياً أو حكماً شرعياً مراعيّاً تطور الدعوة والرسالة وحركتها في أرض الواقع، ثم (ينسخ) ذلك الموقف والحكم بعد أن تتغير الظروف وتتطور لصالح تثبيت حكم آخر أكثر انسجاماً مع تطور المرحلة واستقرار الكيان السياسي أو الأوضاع الاجتماعية^(٤).

(١) هود : ١.

(٢) تحدثنا عن هذه الظاهرة وأغراضها في أبحاث علوم القرآن.

(٣) الحشر : ٧.

(٤) تحدثنا عن تفسير النسخ وأهدافه وكذلك الغرض من العموم والخصوص والاطلاق

ومن هنا فلا يمكن أن يفهم القرآن الكريم بشكل صحيح دون الاحاطة الكاملة بكل هذه الأبعاد والجوانب (العام والخاص) و(الناسخ والمنسوخ) ...

وفي جانب آخر اقتضت الحكمة الالهية في نزول القرآن الكريم أن يكون مشتملاً على الآيات (الحكمة) التي هي أم الكتاب والأخرى (المتشابهة) التي لا بد من ارجاعها الى الآيات المحكة لفهمها والاستفادة منها^(١) حيث تعتمد عملية تقريب الصورة للمعاني القرآنية واحاطتها بالابعاد المتعددة للمعنى على هذه الآيات المتشابهة إضافة الى أن طبيعة المداليل اللفظية تقبل الاحتمالات المتعددة - كما سوف نشير إليه في بحث قريب - الأمر الذي يفرض التشابه في الكلام ومن ثمَّ يمكن تحديد الصورة وفهمها بشكل كامل من خلال الرجوع الى المحكمات أو المقارنة بين المتشابهات المتعددة .

وعلى هذا الاساس كان يوجه أهل البيت الانتقاد الى أولئك المفسرين الذين كانوا يمارسون عملية التفسير دون هذه الاحاطة .

ففي رواية رواها البرقي في المحاسن عن أبي الوليد البحراني ثم البحري، عن أبي جعفر عليه السلام، أن رجلاً قال له : أنت الذي تقول ليس شيء من كتاب الله إلا معروف ؟ « قال : ليس هكذا قلت . إنما قلت : ليس شيء من كتاب الله إلا عليه دليل ناطق عن الله في كتابه مما لا يعلمه الناس ... الى ان قال : إن للقرآن ظاهراً وباطناً ومعانياً وناسخاً ومنسوخاً ومحكماً ومتشابهاً وسنناً وامثالاً وفصلاً ووَصلاً

والتقيد في أبحاث علوم القرآن .

(١) ذكرنا السبب في اشتمال القرآن الكريم على الآيات المتشابهة في بحث المحكم والمتشابه .

وأحرفاً وتصريفاً، فن زعم ان الكتاب مبهم فقد هلك وأهلك ...»^(١).

الثاني : الاحاطة بطروف النص القرآني :

الاحاطة الكاملة بجميع ظروف النص القرآني سواء على مستوى الاحداث والوقائع التي اقترن بها نزول النص القرآني وما يسمى بـ«أسباب النزول»، أو على مستوى العادات والتقاليد التي كان يعيشها المجتمع الجاهلي خصوصاً في مكة والمدينة، أو على مستوى الأوضاع السياسية والأخلاقية التي كان يعيشها المسلمون أنفسهم.

إذ من الواضح أنّ القرآن الكريم، في الوقت الذي يمثل الكتاب الالهي الذي جاء لتبيان رسالة الأمة الخاتمة، كذلك يمثل الكتاب الذي استهدف تغيير الأمة التي نزل في أوساطها من الأميين وأبناء أم القرى بشكل مباشر من اجل أن يخلق قاعدة قوية ثابتة قادرة على تحمل أعباء الرسالة ومسؤولية ابلاغها وإيصالها الى الامم والناس جميعاً^(٢). ولذلك نجد القرآن الكريم راعى الظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية والنفسية والعادات والتقاليد التي كان يعيشها المجتمع الجاهلي، ولم يأت مجرداً عن كل هذه الظروف؛ فهي بطبيعة الحال تلقي بظّلها على فهم القرآن الكريم ومقاصده، وفهمها ومعرفتها له دور كبير في فهم القرآن وتفسيره.

إضافة الى أنّ فرز وتمييز المعاني أو الجوانب المرتبطة بالأحداث خصوصاً عن غيرها من المفاهيم ذات الطبيعة الشمولية تحتاج الى هذه الاحاطة والاستيعاب الكامل لكل هذه الظروف، وهذا ما يؤكداه أهل البيت عليه السلام في بعض الروايات

(١) وسائل الشيعة ١٨ : ١٤١ الحديث ٣٩، ١٤٢ الحديث ٤٠ و ٤٢، وص ١٣٨ الحديث

٣١، و ص ١٤١ الحديث ٣٨.

(٢) أوضحنا هذه الفكرة في كتابنا (الهدف من نزول القرآن الكريم).

من خلال بيان معرفتهم بزمان نزول الآيات ومن نزلت فيه و...^(١)، فإن هذا التأكيد لا يراد منه مجرد بيان سعة علمهم بالأحداث، وإنما لبيان ارتباط ذلك بفهم القرآن وتفسيره.

الثالث: الاعتماد على السنة الصحيحة في التفسير :

الأخذ المباشر في التفسير عن رسول الله ﷺ والاعتماد على السنة النبوية، وتعليم رسول الله القواعد والضوابط التي يمكن من خلالها تفسير القرآن وفهمه ومعرفة مقاصده وأغراضه، كل تلك الأمور شدد أهل البيت عليهم السلام على الالتزام بها في أحاديثهم انطلاقاً من نقطتين رئيسيتين :

الأولى: ما أشرنا إليه من تعليم رسول الله ﷺ علياً عليه السلام تفسير القرآن بشكل كامل، إضافة الى النصوص السابقة التي أشرنا إليها، نجد بعض النصوص تؤكد هذا المعنى بشكل خاص.

الثانية: إن القرآن الكريم والسنة النبوية قد استوعبا كل القضايا التي يحتاجها الانسان في حياته، لأنها يمثلان الرسالة الخاتمة للبشرية ولا بد لها من هذا الاستيعاب، ولذلك فلا بد من الرجوع اليها في كل هذه القضايا، وعدم جواز الأخذ بالرأي والقياس والاجتهاد والظنون.

غاية الأمر أن الناس العاديين ليس لهم القدرة على فهم القرآن والسنة بالشكل الذي يستوعب كل هذه القضايا، أو لم يتلقوا من الرسول ﷺ كل هذه الأمور كما ذكرنا في النقطة الأولى.

ومن هنا نجد أهل البيت عليهم السلام يؤكدون هذه الشمولية والاستيعاب للقرآن الكريم والسنة النبوية، ويرفضون أي طريق آخر للوصول الى الأحكام الشرعية، ولا يسمحون حتى لأصحابهم أن يسلكوا الطرق الاجتهادية، كالقياس من دون

(١) راجع النص السابق الذي رواه الكليني عن سليم بن قيس في الصفحة ٢٦٠

فرق في ذلك بين الاستناد الى الأحاديث العامة أو الأحاديث الخاصة التي عرفوها عن أئمتهم.

فقد روى الكليني بسند صحيح عن أبي عبد الله (الصادق عليه السلام)، قال: «إن الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى - والله - ما ترك شيئاً يحتاج اليه العباد، حتى لا يستطيع عبد أن يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن؟ إلا وقد أنزله الله فيه»^(١).

وفي حديث آخر معتبر عن أبي عبد الله قال: سمعته يقول: «ما من شيء إلا وفيه كتاب وسنة»^(٢).

ويتحدث أهل البيت عليهم السلام عن وجود صحيفة جامعة عند علي عليه السلام تشتمل على تفاصيل الشريعة وقواعدها وأصولها: روى الكليني بسنده عن أبي شيبة، قال: «سمعت أبا عبد الله (الصادق عليه السلام) يقول ضلّ علم (ابن شبرمة)، عندنا (الجامعة) املاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام بيده: إن (الجامعة) لم تدع لأحد كلاماً، فيها علم الحلال والحرام، إن أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدادوا من الحق إلا بعداً، إن دين الله لا يُصاب بالقياس»^(٣).

ويؤكد أهل البيت عليهم السلام أنّ حلال محمد حلال الى يوم القيامة، وحرامه حرام الى يوم القيامة، فلا بد أن يكون كل ذلك مذكوراً ومعروفاً من قبل رسول الله: روى الكليني بسند معتبر عن زرارة، قال: سألت أبا عبد الله (الصادق عليه السلام) عن الحلال والحرام، فقال: «حلال محمد حلال أبداً الى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً الى يوم القيامة، لا يكون غيره ولا يجيء غيره وقال: قال علي عليه السلام:

(١) الكافي ١: ٥٩ الحديث ١.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٤.

(٣) المصدر السابق: ٥٧، الحديث ١٤ وص ٢٣٨، الحديث ١ وص ٢٤١، الحديث ٥ و ٦ و ٧.

ما أحد ابتدع بدعة إلا ترك بها سنة»^(١).

الرابع: القرآن تحدث عن كل عصر وزمان:

إن القرآن الكريم حي لا يموت، تجري أحكامه وأمثاله ومفاهيمه في جميع الأزمان والعصور؛ فهو وإن كان قد نزل في عصر معين وعالج قضايا وأحداثاً خاصة، وتحدث عن أشخاص معينين ماضين أو معاصرين في القصص، أو أحداث نزول الرسالة وتطورها مما يرتبط بأسباب النزول، وبني قاعدة بشرية قوية من خلال هذه المعالجة تحملت أعباء الرسالة الإسلامية - كما أشرنا سابقاً - إلا أن القرآن - مع ذلك كله - هو الكتاب الإلهي للرسالة الخاتمة والمعجزة الخالدة للإسلام ونبيه الكريم، يتحدث إلى جميع الناس في مختلف العصور والأزمان.

وفي هذا المجال توجد نظرة شمولية يتميز بها أهل البيت عليهم السلام، فإنه بالرغم من أن أكثر علماء الإسلام ذهبوا إلى مبدأ «إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» ومن ثم فهم يرون أن خصوص السبب لا يتقيد بخصوص الأحداث والوقائع التي تحدث عنها أو نزل فيها، لأن جميع هذه القضايا إنما جاء بها القرآن الكريم للعبرة والهداية والموعظة، كما دلت على ذلك الآيات الكريمة:

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾^(٢).

﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾^(٣).

﴿ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾^(٤).

(١) الكافي ١: ٥٨ الحديث ١٩ راجع أيضاً الحديث ١ و ٢ و ٣.

(٢) يوسف: ١١١.

(٣) آل عمران: ١٣٨.

(٤) الاسراء: ٨٩.

حيث نلاحظ أنّ القرآن الكريم ضرب الأمثال وتحدث عن الأحداث والوقائع بروح التربية والتزكية والهداية؛ فكما أن هذا المثل له مصاديقه في عصر النزول، فهو له مصاديق (يؤول) إليها في العصور الأخرى.

وكما أن قصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء تمثل حقائق عاصرها الأنبياء، ولم يذكرها القرآن الكريم لمجرد التسلية أو تسجيل حوادث التاريخ وتوثيقها، بل لأنها تمثل أيضاً حقائق وقعت في عصر نزول القرآن، فكذا هي - في نظر أهل البيت عليه السلام - تمثل حقائق متشابهة ومطابقة لها في العصور والأزمنة الأخرى التي تلت عصر الرسالة الإسلامية، وفي كل عصر وزمان.

وهكذا الحال في الأحكام الشرعية والأخلاق الإسلامية والسنن التاريخية والحقائق الكونية كلها تتحدث عن مصاديق ونظائر ومفردات وتطبيقات لعصر الرسالة، بل ولكل عصر وزمان.

ونحن هنا لا نريد أن نفصل في الاستدلال على صحة هذه (الرؤية) فإن لذلك مجالاً آخر، وإنما نريد هنا أن نذكر الجانب (التصوري) لهذه (النظرية) من خلال ما ذكره أهل البيت عليه السلام.

ولعل هذا المعلم يمثل أحد أهم المعالم التي تتميز بها (رؤية) أهل البيت لتفسير القرآن الكريم بشكل واضح وأساسي عن بقية النظريات في المذاهب الإسلامية.

نظرية أهل البيت عليه السلام في فهم القرآن الكريم :

لقد تناول هذا الموضوع عددٌ كبيرٌ من الروايات التي وردت عن أهل البيت عليه السلام، كما ورد بعضها عن النبي صلى الله عليه وآله، وذكرت في كتب علماء أهل السنة، الأمر الذي يؤكد أهمية الموضوع ودقته.

كما أننا نلاحظ أيضاً في هذه الروايات أنها متفاوتة في مضامينها بحيث قد تبدو أحياناً وكأنها متناقضة أو متضاربة أو مختلفة، وفي نفس الوقت اختلفت آراء العلماء في تفسيرها والأخذ منها حتى تباينت واضطربت.

وقد تركز البحث فيها حول موضوعين رئيسين :

احدهما : بحث (المحكم والمتشابه) والتفسير والتأويل الذي دار حول الآية السابعة من سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾^(١).

والآخر : بحث (التفسير بالرأي) الذي ورد النهي عنه في أحاديث مسلمة عند المسلمين، وجاء فيها الوصف بالكفر لمن صنع ذلك في القرآن الكريم؛ حيث وقع الخلاف في تحديد معنى (الرأي) هذا.

ولعل من أفضل الأبحاث استيعاباً وتحليلاً واختصاراً وفائدة هو ما ذكره العلامة الطباطبائي رحمته في كتابه «الميزان في تفسير القرآن» والذي استنبط فيه النظرية القرآنية التي تبناها أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال واستند فيها إلى الآيات الشريفة والسنة النبوية المروية عن النبي وأهل بيته الكرام^(٢).

ومن أجل أن تتضح صورة هذا المعلم من التفسير، نشير إلى مجموعة من الروايات والنصوص التي تدل أو تُشير إلى وجود مستويين من تفسير القرآن والأخذ منه :

الأول : تفسير القرآن على مستوى الظاهر أو المحكم أو التنزيل ... حسب ما

(١) آل عمران : ٧.

(٢) راجع الميزان ٣ : ١٩ - ٨٧ لمعرفة تفصيل حديثه .

ورد في التعبير عنه في هذه النصوص .

الثاني : التفسير على 'مستوى' الباطن أو المتشابه أو التأويل ...

حيث يبدو من هذه النصوص وغيرها أنّ المستوى الأول من التفسير يمكن تناوله لعامة الناس ، بعد الاحاطة الكاملة بالقرآن الكريم ومفاهيمه وآياته .

وأما المستوى الآخر من التفسير فهو مما اختص به النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام .

وهذا المستوى (الكامل) يمكن أن نراه في أحد الخطوط التالية التي أشارت

إليها الروايات والأحاديث من هذه الطائفة :

أ - المعلومات القرآنية التي تجري مجرى المعلومات الغيبية في مستقبل

الأحداث التي تمر بالانسان والحياة ، والتي يمكن استنباطها من القرآن الكريم .

ب - المعلومات المرتبطة بتفاصيل الشريعة الاسلامية ذات العلاقة

بالموضوعات الشرعية التي تناوّلها القرآن الكريم ، أو التي لها علاقة بالأمر

المستجدة والمستحدثة في الحياة الاسلامية ، والتي تعلمها الامام علي عليه السلام وأولاده

الأئمة المعصومون من رسول الله صلى الله عليه وآله .

ج - التطبيق الدقيق للمفاهيم والسنن والأحداث التي أشار إليها القرآن الكريم

والتشخيص الكامل للمصاديق والمفردات الخارجية لها ، والتي (تؤول) إليها

الأوضاع الاجتماعية والسياسية في حركة المجتمع الاسلامي في مختلف العصور

والأزمنة .

د - التمثيل والتشبيه للمضامين القرآنية والأمثال والمفردات التي وردت في

القرآن الكريم ، نظير الأمثلة التي ضربها القرآن الكريم مفهوماً ، أو من خلال

الاشارة لأحداث سابقة بشكل ينطبق على أحداث الرسالة ، حيث قام الأئمة

أيضاً بضرب هذه الامثلة من خلال النصوص القرآنية وتطبيقها على أحداث

كانت في عصر الرسالة أو بعدها ، فإن علم هذا النوع من التفسير مختص بالنبي

والأئمة من أهل بيته عليهم الصلاة والسلام.

وهنا نشير الى مجموعة من الروايات ذات العلاقة بهذه الطائفة من الأخبار :

١- روى محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات بسند معتبر عن فضيل ابن يسار، قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية : ما من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، قال : ظهره وبطنه تأويله، ومنه ما قد مضى ومنه ما لم يكن، يجري كما تجري الشمس والقمر كلما جاء تأويل شيء يكون على الأموات كما يكون على الأحياء، قال الله : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ ^(١) نحن نعلمه ^(٢).

٢- روى الصفار أيضاً في بصائر الدرجات بسند معتبر ^(٣) عن اسحاق بن عمار قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إن للقرآن تأويلاً، فنه ما قد جاء، ومنه ما لم يجيئ، فإذا وقع التأويل في زمان إمام من الأئمة عرفه إمام ذلك الزمان ^(٤).

٣- عن جميل بن دراج، عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال : تفسير القرآن على سبعة أوجه، منه ما كان، ومنه ما لم يكن بعد، تعرفه الأئمة عليهم السلام ^(٥).

٤- روى الصدوق في معاني الاخبار بسنده عن حمران بن أعين قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن ظهر القرآن وبطنه، فقال : ظهره الذين نزل فيهم القرآن، وبطنه الذين عملوا بأعمالهم، يجري فيهم ما نزل في أولئك ^(٦).

(١) آل عمران : ٧.

(٢) وسائل الشيعة ١٨ : ١٤٥ الحديث ٤٩.

(٣) اعتبار السند لأن المرزبان بن عمر روى عنه صفوان بن يحيى فيكون معتمداً لأن صفوان من الثلاثة التي أجمعت الصحابة على تصحيح ما يصح عنهم، كما ذكر الشيخ الطوسي في العدة وهم محمد بن أبي عمير وأحمد بن محمد بن أبي نصر و صفوان بن يحيى.

(٤) وسائل الشيعة ١٨ : ١٤٥ الحديث ٤٧.

(٥) المصدر السابق : ١٤٥ الحديث ٥٠.

(٦) بحار الانوار ٩٢ : ٨٣ الحديث ١٤.

ملاحظات واستنتاجات عامة :

وفي ختام هذا الحديث يحسن بنا أن نسجل بعض الملاحظات العامة والاستنتاجات حول مجموع ما ورد عن أهل البيت عليه السلام بشأن تفسير القرآن :
 الملاحظة الاولى : توثيق الروايات سنداً ومضموناً :

إن هذه الروايات التي وردت عن أهل البيت عليه السلام تحتاج الى بحث علمي دقيق طبقاً للضوابط والأصول المحققة في علم الحديث .

ذلك أن حديث أهل البيت قد تعرض الى مجموعة من المشاكل الأساسية والمهمة التي ألفت بثقلها على هذه الروايات ، باعتبار أهمية القرآن الكريم من ناحية والارتباط الوثيق بينه وبين أهل البيت من ناحية ثانية ، وتعرض القرآن الى التفسير بالرأي لتحقيق أغراض سياسية أو ذاتية أو لمجرد ضعف التقوى والايان والتساهل في الدين ، أو لأي سبب آخر من الأسباب التي أشرنا اليها سابقاً من ناحية ثالثة .

ثم تصدى أهل البيت باعتبار شعورهم بالمسؤولية تجاه الاسلام والأمة الاسلامية لكل هذه القضايا ، وما تعرضت له الأمة الاسلامية من مشكلات ثقافية أو عقائدية أو سياسية .

ويمكن أن نلخص أهم هذه المشكلات التي تعرض لها حديث أهل البيت عليه السلام بالامور التالية :

١- الدس والوضع والتزوير في حديثهم ، حيث تعرض حديثهم لذلك في زمن الأئمة فضلاً عن العصور المتأخرة عنهم ؛ ويمكن أن نلاحظ هذه الظاهرة بوضوح من خلال مراجعة ترجمة بعض الأشخاص في كتب الرجال ، ولعل من أطرف الروايات في هذا المجال ما رواه الكشي عن محمد بن عيسى بن عبيد ، عن يونس ابن عبد الرحمن ، قال ابن عبيد : « إن بعض أصحابنا سأل يونس بن عبد الرحمن

وأنا حاضر، فقال له يا أبا محمد ما أشدك في الحديث، وأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا، فما الذي يملك على رد الأحاديث؟! فقال: حدثني هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله (الصادق) عليه السلام يقول: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقولوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا محمد ﷺ فإنا إذا حدثنا قلنا: قال الله عز وجل وقال رسول الله ﷺ» (١).

«قال يونس: وافيت العراق فوجدت بها قطعة من أصحاب أبي جعفر (الباقر) عليه السلام ووجدت أصحاب أبي عبد الله عليه السلام متوافرين، فسمعت منهم وأخذت كتبهم، فعرضتها من بعد على أبي الحسن الرضا عليه السلام فأنكر منها أحاديث كثيرة أن يكون من أحاديث أبي عبد الله عليه السلام، وقال لي: إن أبا الخطاب كذب على أبي عبد الله عليه السلام، لعن الله أبا الخطاب، وكذلك أصحاب أبي الخطاب، يدسون في هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كتب أبي عبد الله عليه السلام، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن، فإنا إن تحدثنا حدثنا بموافقة القرآن وموافقة السنة...» (٢).

٢- الغلو والتطرف في حب أهل البيت عليه السلام والاعتقاد بهم؛ حيث كان لهذه الحركة السياسية والعقائدية أسبابها وظروفها المختلفة السياسية والاجتماعية والنفسية والثقافية، وانعكست على الأخبار في فهمها أو تزويرها وتحريفها. وكتب رجال الحديث فيها عدد من تراجم من كان يرمى بالغلو، أو ممن طردهم أئمة أهل البيت من حوزتهم ومصاحبتهم وأعلنوا البراءة منهم.

٣- الانحرافات والانشقاقات التي كانت تحصل في جماعة أتباع أهل البيت،

(١) بحار الانوار ٢: ٢٤٩.

(٢) رجال الكشي: ١٤٦.

بسبب الظروف السياسية أو الاخلاقية والاجتماعية، كما حصل في ظهور الزيدية والاسماعيلية والواقفية وغيرهم، حيث استمرت هذه الظاهرة الى زمن الامام الحسن العسكري عليه السلام وبعده.

٤- ظروف الاضطهاد والمطاردة والسرية في العمل والحركة، الأمر الذي كان سبباً مهماً لاختفاء البيانات الواقعية أو للدس والتزوير تحت شعار (التقية)^(١) حيث استغل أعداء أهل البيت أو الفاسدون من الأشخاص الذين يتظاهرون بالارتباط بهم هذه الظروف، لتمرير الكثير من الأحاديث أو تشويهها وتزويرها.

٥- التعصب والنصب والعداء وعمليات كتمان الحقائق أو التشويه وإصاق التهم الباطلة ونشر الاشاعات، حيث كان كل ذلك سبباً لنشر الكثير من الأحاديث ووضعتها وتضليل البسطاء من المسلمين بها، وقد أشرنا سابقاً الى أنّ هذا العداء والتعصب كان سبباً لكتمان الكثير من أسباب النزول المرتبطة بأهل البيت عليه السلام.

٦- عدم الدقة في النقل، أو سوء الفهم في التلقي والأخذ عن الائمة، ولذلك نجدهم عليه السلام يؤكدون الضبط وأهميته من ناحية وأنّ في أحاديثهم المحكم والمتشابه من ناحية أخرى، كما سوف نوضح ذلك.

٧- الجمود على نصوص الألفاظ وفصل بعضها عن بعض.

٨- ضياع الكثير من القرائن الحالية والمقالية التي كانت تقترن بالروايات والأحاديث وتوضع المقصود منها^(٢).

(١) بحثنا موضوع التقية في كتابنا «الوحدة الاسلامية من منظور الثقلين» وبحث التقية في نظر الشيخ المفيد، حيث وضع أهل البيت ضوابط لتمييز موارد التقية عن غيرها.

(٢) للمزيد من الاطلاع والوضوح راجع بحث سيدنا الاستاذ الشهيد عليه السلام في بحوث علم الاصول، تقارير آية الله السيد محمود الهاشمي ٧: ٢٨.... وكذلك كتب الرجال مثل كتاب الخلاصة للعلامة الحلي، قسم الضعفاء.

إن هذه الطوائف والأخبار يجب أن تخضع للبحث والتحصيل والغلبة العلمية سواء على مستوى السند أو المضمون والدراية، وكذلك إلى المقارنة بين بعضها وبعضها الآخر لمعرفة المحكم من المتشابه منها، والعام من الخاص، والمطلق من المقيد، والراجح من المرجوح، إلى غير ذلك من الموازين العلمية.

وهنا لا بد أن نشير إلى أنه لا يوجد في (مدرسة أهل البيت) عليهم السلام (حديث) لا يقبل الدرس والمناقشة والتحصيل إلا النادر من الأحاديث المتواترة، ولذلك فهم يخضعون كل هذه الاحاديث وغيرها مهما كانت الكتب التي دونتها أو الرجال الذين رووها إلى الدرس والتحصيل.

نعم يوجد اتجاه بين العلماء من الاخباريين من يحاول أن يضفي صفة الاعتبار والصحة على جميع ما في الكتب الأربعة المعروفة، وهي الكافي للشيخ الكليني، ومن لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق، والتهذيب والاستبصار للشيخ الطوسي، ولكن الاتجاه العام والسائد عند علماء مدرسة أهل البيت لا يقبل مثل ذلك^(١).

ومن هذا المنطلق نجد سيدنا الاستاذ الشهيد الصدر رحمته الله يرفض الأخبار التي تقول بأن فهم القرآن مختص بأئمة أهل البيت عليهم السلام بعد أن يسلم دلالتها، لأنها مخالفة للقرآن الكريم والسنة النبوية القطعية، ولأن روايتها ضعفاء متهمون بالغلو^(٢). ولكن العلامة الطباطبائي - كما عرفنا - يحاول أن يؤول هذه الأخبار بأنها بصدد بيان أن (الأئمة) لهم دور التعليم والدلالة إلى طريق التفسير، لا أن القرآن لا يفهمه إلا الأئمة من أهل البيت عليهم السلام. ولكننا يمكن أن نحمل هذه الروايات على أنهم عليهم السلام مختصون بمستوى خاص من التفسير.

الملاحظة الثانية: التفسير مفهوم واسع :

ان التفسير في نظر أهل البيت له مفهوم واسع يشمل فهم الظهور القرآني، كما

(١) راجع معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ١ : ٢٢ - ٣٦.

(٢) بحوث في علم الاصول ٤ : ٢٨٤.

يشمل معرفة المصاديق والأمثلة والتفاصيل المرتبطة بالقرآن الكريم، سواء كانت في قصص الانبياء أو الأمثال المضروبة أو الأحكام التفصيلية للشريعة، أو الأحداث التي اقترنت بنزول القرآن الكريم، أو التطبيقات التي يمكن أن تتحقق في مستقبل الأيام، كما أوضحنا ذلك قبل الحديث عن الملاحظات.

وهذا الفهم للتفسير يعتمد على عدة منطلقات -أشرنا إليها سابقاً- مثل تعرض القرآن وبيانه لكل شيء^(١)، وكذلك ثبوت تفسير النبي ﷺ للقرآن الكريم بهذا الشكل الواسع وتعليمه للإمام علي عليه السلام بشكل خاص^(٢)، أو ارتباط بقاء القرآن الكريم حياً ونوراً هادياً على مر العصور والأجيال بهذا الفهم الواسع للتفسير^(٣).

وهذا الفهم لشمولية التفسير لا ينافي أيضاً ما عرفناه في بعض الأخبار والنصوص من هداية القرآن وأنه مبين وبيان وهداية ورحمة، وقد حث أئمة أهل البيت على الأخذ به والرجوع إليه والعرض عليه، فإن ذلك لا شك أمر قائم وموجود في القرآن، حيث يمكن للناس في كل عصر وزمان أن يفهموا ظاهره ومحكمه، ويتعرفوا على مصاديقه بالمقدار الذي آتاهم الله من العلم والفهم وما اكتسبوه من التعلم واتصفوا به من الطهارة، ولا يجب أن يعرف كل واحد من الناس جميع الأبعاد والوجوه الأخرى.

خصوصاً إذا عرفنا أنه لا يوجد أي منافاة بين الظاهر والباطن أو المحكم والمتشابه، أو التنزيل والتأويل، بل كل واحد من الظاهر والمحكم والتنزيل يدل على الباطن والمتشابه والتأويل بنحو من الدلالة، غاية الأمر أن بعض هذه الدلالة لا يعلمها إلا الله تعالى والراسخون في العلم بعد أن علّمهم الله تعالى إياها، أو بما

(١) الأنعام: ٣٨، ويوسف: ١١١، والاسراء: ١٢، والنحل: ٨٩، وغيرها.

(٢) راجع فصل مرجعية أهل البيت في هذا البحث.

(٣) راجع الروايات التي ذكرناها سابقاً عند التعرض لنظرية أهل البيت في التفسير.

وفقهم إليه من الطهارة والنقاوة والمعرفة .

وشأن ذلك شأن الحوادث المستجدة أو المكتشفات العلمية الحديثة أو الموضوعات الشرعية الجديدة الحادثة التي يمكن أن نفهم مضمونها والاشارة إليها أو الى حكمها من القرآن الكريم مع أنّها لم تكن معلومة سابقاً، وكانت بالنسبة لانسان عصر الزول من عوالم الغيب وعرفها اللاحقون فكانت من عالم الشهود، فعرفة كل ذلك يمثل تفسيراً للقرآن الكريم كان يعلمه أهل البيت عليه السلام .

أو شأن ذلك شأن تأويل الأحاديث الذي أشار إليه القرآن الكريم في قصة يوسف عليه السلام، حيث أمكن ليوسف أن يفهم من الرؤيا التي رآها الملك هذا المعنى الخاص الذي يمثل باطناً للصورة الظاهرية التي انعكست في ذهنه عند الرؤيا، فالبقرات العجاف والسنابل اليابسة هي سنين القحط، والبقرات السمان والسنابل الخضراء هي سنين الرخاء، وكذلك الرؤيا التي رآها السجينان في السجن ومداليلها الباطنية .

الملاحظة الثالثة : التأويل في نظر القرآن وأهل البيت عليه السلام :

ان أهل البيت عليه السلام ركزوا بشكل واضح في هذه الروايات - على اختلافها - على قضية التأويل والظاهر والباطن، وهذا الموضوع مما أجمع المسلمون على صحته ونسبته للقرآن الكريم وإن اختلفوا في تحديد مفهومه .

ومن أجل أن تتضح الفكرة الأساسية في نظرية أهل البيت بشكل أفضل، بحيث تنسجم مع ما ورد في القرآن الكريم من نصوص من ناحية ومع المضمون الاجمالي للروايات السابقة من ناحية أخرى، يحسن بنا أن نقف عند كلمة (التأويل) بعض الشيء، ويمكن من خلالها أن نفهم الباطن والمتشابه أيضاً إضافة الى التوضيحات التي قدمها العلامة الطباطبائي في بحثه السابق^(١).

لقد اختلف علماء الاسلام والقرآن بشكل خاص حول تحديد المقصود من كلمة التأويل خصوصاً المعنى المصطلح لها؛ ونحن هنا لا نريد أن نعالج الجانب الاصطلاحي ولا حتى الجانب اللغوي المفهومي لها، إذ يمكن معرفة ذلك من خلال بحثنا السابق في التفسير والتأويل.

وإنما نريد أن نعالج هنا مدلول الكلمة قرآنيّاً على مستوى (تفسير المعنى) وتشخيص المصداق، من خلال مراجعة الآيات الشريفة التي وردت في القرآن الكريم وسياقها.

وفي هذا المجال يمكن أن نرى أمامنا إرادة المصاديق التالية من القرآن الكريم:

١- في سورة يوسف الآيات (٦ و ٢١ و ٣٦ و ٣٧ و ٤٤ و ٤٥ و ١٠٠ و ١٠١) حيث يبدو منها أنها وردت في بيان تفسير وتأويل الأحلام والرؤى في المنام، بمعنى بيان مصاديقها وتجسيدها الخارجية.

٢- في سورة الكهف الآيتان (٧٨ و ٨٢) حيث يراد بالتأويل منها بيان سلامة وصحة سلوك (العبد الذي آتاه الله من لدنه علماً) وانسجامه مع الحق والعدل والمصلحة، مع انه كان يبدو بحسب الظاهر الذي كان يراه موسى عليه السلام ^(١) أنه غير منسجم مع الشرع والمصلحة العقلانية، ولذا أثار استغرابه وتعجبه وتسأوله.

٣- في سورة يونس الآية (٣٩) جاء التأويل فيها بمعنى تحقق ما ذكره القرآن الكريم من تصديق الرسالات السابقة وتفاصيل الشريعة والرسالة، وما يمكن أن يتحقق في مسيراتها بعد ذلك من أحداث.

٤- في سورة الأعراف الآية (٥٣) جاء التأويل فيها بمعنى تحقق ما أخبر به الكتاب أو القرآن الكريم بما يقع يوم القيامة من العذاب والثواب ومصائر الناس،

(١) لم يصرح القرآن أن موسى هو النبي موسى عليه السلام، ولكن المفسرين يستظهرون ذلك إذ لم يأت في القرآن ذكر لموسى آخر غير النبي، مع أنه تحدث كثيراً عن موسى النبي

حيث يصدق الانسان ما جاءت به الرسل عن الله تعالى من حقائق هذا اليوم .
 ٥ - في سورة آل عمران الآية (٧) جاء التأويل فيها بمعنى 'الأخذ بالمتشابه بتطبيقه على' أحد مصاديقه التي تؤدي الى الفتنة والزيف ، بدون الرجوع الى المحكم من القرآن لتشخيص المصداق الصحيح .

٦ - في سورة النساء الآية (٥٩) جاء التأويل فيها بمعنى 'بيان الموضوع أو تشخيص نوع الحكم الشرعي عند الاختلاف فيه .
 ٧ - في سورة الاسراء الآية (٣٥) جاء التأويل فيها بمعنى 'الالتزام بالضوابط والموازن في تشخيص الحقائق ومعرفة المقادير .

وإذا أردنا أن نجمع بين مصاديق هذه الموارد نرى بوضوح أنّ التأويل هو بيان الحقيقة والواقع الذي يغيب عن نظر الانسان عادة ، كالأمور الغيبية أو الدقيقة التي قد يحصل الاختلاف فيها ، وإن كان هناك ما يدل عليها ويؤمى اليها مثل الرؤى والصور في المنام ، أو الاخبارات الغيبية بواسطة الوحي الالهي ، أو الأفعال الصادرة عن أهل العلم والحكمة والدين ، أو الموازين والضوابط الشرعية ، كالرجوع الى مصدر الشريعة والمرجع فيها ، أو الموازين العقلانية كاستخدام الكيل أو الوزن لمعرفة المقادير .

ويؤكد هذا الفهم لمعنى 'التأويل' الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ، حيث تشير أيضاً الى 'أنّ التأويل في الغالب هو تطبيق مفاهيم القرآن على' المصاديق المستقبلية ، كما يفهم ذلك من رواية الفضيل بن يسار المعتمدة ، ورواية المرزبان عن اسحاق بن عمار المعتمدة أيضاً ، ورواية زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام والتي مرت الاشارة إليها .

أو يكون التأويل هو اتباع الضوابط في تشخيص موارد الاختلاف والوجوه المتعددة ، مثل رواية العياشي عن عبد الرحمن السلمي : «ان علياً مر على قاضي

فقال له أتعرف الناسخ من المنسوخ، قال : لا . قال : هلك وأهلك ؛ تأويل كل حرف من القرآن على وجوه»^(١).

أو رواية النعماني في تفسيره عن اسماعيل بن جابر في قول الصادق عليه السلام : « ذلك بأنهم ضربوا القرآن بعضه ببعض واحتجوا بالمنسوخ وهم يظنون أنه الناسخ، واحتجوا بالخاص وهم يقدرُونَ أنه العام، واحتجوا بأول الآية وتركوا السنة في تأويلها، ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه ... »^(٢).

وكذلك حديث أبي داود عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وآله : « يا علي أنت تعلم الناس تأويل القرآن مما لا يعلمون ؛ فقال علي : علي ما أبلغ رسالتك من بعدك يا رسول الله ؟ قال : تخبر الناس بما يشكل عليهم من تأويل القرآن »^(٣).

إذن فالتأويل عملية تطبيق وتشخيص تنسجم مع الظاهر والتنزيل والمحكم، وتعتمد على المعلومات والقواعد والضوابط العامة أو الخاصة التي يتلقاها الإنسان الصالح من الله تعالى، كما في قوله تعالى :

﴿ ... وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾^(٤).

وكذلك قوله تعالى في أول سورة يوسف :

﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ... ﴾^(٥).

(١) وسائل الشيعة ١٨ : ١٤٩ ، الحديث ٦٥ .

(٢) المصدر السابق : الحديث ٦٢ .

(٣) المصدر السابق : ١٤٤ ، الحديث ٤٦ .

(٤) الكهف : ٨٢ .

(٥) يوسف : ٦ .

وقوله تعالى في وسطها :

﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي... ﴾ (١).

وقوله تعالى في آخرها :

﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والارض... ﴾ (٢).

أو تعتمد على الضوابط والقوانين والقواعد اللغوية أو القرائن الحالية والمقالية أو المعلومات العلمية أو الحسية أو الشرعية أو الطبيعية أو غير ذلك من قوانين العلم والتوثيق.

الملاحظة الرابعة : اختصاص أهل البيت عليهم السلام بهذا العلم :

إنَّ أهل البيت عليهم السلام وهم رسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وآله والأئمة الاثنا عشر عليهم السلام والصديقة الزهراء عليها السلام يختصون من بين المسلمين بامتيازات كثيرة، أحدها هي أنَّهم يعلمون تنزيل القرآن وتأويله وظاهره وباطنه ومحكمه ومتشابهه. ومع غض النظر عن مصدر هذا العلم (٣) فانه لا بد أن نشير في هذا المجال الى عدة نقاط :

الأولى : إن المراد من اختصاصهم بهذا العلم كما هو مقتضى الجمع بين هذه الروايات هو اختصاص العلم بـ (جميع) تفسير القرآن و (كل) القرآن بهذا المعنى

(١) يوسف : ٣٧.

(٢) يوسف : ١٠١.

(٣) يوجد بحث كلامي وروائي في أنَّ هذا العلم هل هو من باب التلقي عن الرسول صلوات الله عليه وآله ، أو من باب الالهام والاتقاء من الله تعالى ، أو من باب العلم بالغيب الذي اطلع الله تعالى بعض عباده عليه ، أو هو من جميع هذه المصادر ولا يهمننا الآن الدخول في هذا البحث.

الواسع الذي أشرنا إليه ، لا أن القرآن لا يفهمه غير أهل البيت عليهم السلام ، ولذا جاء التعبير بهذا الاختصاص مقروناً - أحياناً - بكلمة (كل) و (جميع) ^(١) ، وجاء هذا التعبير مقروناً - أحياناً أخرى - ببيان تفصيل أبعاد هذا العلم ^(٢) .

وهذا المعنى لا ينافي - كما ذكرنا - أن يكون القرآن هادياً للبشرية ولجميع الناس ؛ حيث يمكن للناس أن يفهموا القرآن ويرجعوا إليه فيما يعرفونه من معانيه ، وفق الضوابط والقوانين العلمية الصحيحة .

الثانية : أنَّ أهل البيت في الكثير من هذه الروايات كانوا يحاولون معالجة الواقع الخطير الذي كان عليه بعض المفسرين للقرآن الذين اعتمدوا على الرأي والظنون دون الرجوع إلى الضوابط العلمية والسنة المروية والعترة الطاهرة التي جعلها النبي الأكرم مرجعاً للمسلمين والثقل الآخر الذي لا يفترق عن القرآن الكريم . فأهل البيت انكروا على بعض المسلمين العدول عن العلم إلى الظن ، وهذا غير جائز باجماع المسلمين .

الثالثة : أنَّ من الطبيعي أن يكون أهل البيت عليهم السلام لهم هذا النوع من الاختصاص إذا أخذنا التفسير بمعناه الواسع الذي أشرنا إليه .

فكما صح أن يكون هذا النوع من الاختصاص ليوסף عليه السلام وهو من أنبياء بني إسرائيل ، أو يكون لعبد من عباد الله الصالحين آتاه الله العلم والمعرفة ، يمكن أن يكون هذا الأمر للأئمة الطاهرين وهم ورثة النبي في علمه .

وهذا النوع من المعلومات لا دليل على وجود قواعد وضوابط يمكن من خلالها الاطلاع عليها وتعلمها - كما يحاول أن يذهب إلى ذلك العلامة

(١) الكافي ١ : ٢٢٨ ، الحديث ١ و ٢ وص ٢٢٩ ، الحديث ٥ وص ٢٥٧ ، الحديث ٣ .

(٢) وسائل الشيعة ١٨ : ١٣٥ ، الحديث ٢٣ وص ١٣٦ ، الحديث ٢٥ وص ١٤١ ، الحديث

الطباطبائي - بل قد تكون هي من الأمور الغيبية التي يكون علمها عند الله - تعالى - وهو الذي يلقيها ويعلمها للأنبياء، أو لهم وللأوصياء والأولياء الذين يختارهم - تعالى - ويصطفهم عندما تقتضي حكمته ذلك، أو يحجبها عنهم عند اقتضاء الحكمة ذلك.

ولعل هذا هو وجه الجمع بين الالتزام بالوقف على قوله تعالى: ﴿... وما يعلم تأويله إلا الله...﴾^(١) وبين قوله تعالى: ﴿لا يمشه إلا المطهرون﴾^(٢). فالراسخون في العلم لا يعلمون التأويل الذي هو من الغيب بل يؤمنون به و﴿... يقولون آمنا به كل من عندنا ربنا...﴾^(٣)، ولكنهم في نفس الوقت يعلمون التأويل بتعليم الله تعالى لهم عندما يكونون من المطهرين كما أشار إلى ذلك العلامة الطباطبائي نفسه:

فأهل البيت عليهم السلام يختصون بعلم (جميع) تفسير القرآن، وهذا الاختصاص أمر طبيعي بعد أن كان هذا الجانب من العلم من الأمور الغيبية التي علمهم الله - تعالى - إياها.

كما أنهم في نفس الوقت يشاركون الناس، بل أهل المعرفة بالعلم بظواهر القرآن الكريم، بل هم أحد الضوابط والموازن المهمة في هذه المعرفة العامة للناس. وبهذا يمكن أيضاً أن نجمع بين روايات اختصاص تفسير القرآن بأهل البيت عليهم السلام وما ورد من الآيات والروايات التي تدل على أن القرآن ميسر الفهم لجميع الناس. حيث يكون القرآن ميسر الفهم طبقاً للضوابط العامة للغة التي يمكن للعلماء أن يعرفوها. ولكن في الوقت نفسه يكون هناك جانب من الاختصاص يرتبط بتطبيق مفاهيم القرآن على الأمور الغيبية وتفصيل الشريعة وغيرها كما أشار إلى ذلك العلامة الطباطبائي، فلا نحتاج إلى ردّ هذه الروايات بسبب مخالفتها للقرآن كما قد يفهم ذلك من الشهيد الصدر في بحوثه الأصولية التي أشرنا إليها.

(٢) الواقعة : ٧٩.

(١) آل عمران : ٧.

(٣) آل عمران : ٧.

القسم الرابع

التفسير الموضوعي

القصص القرآني .

فواتح السور .

استخلاف آدم (الانسان) .

التفسير الموضوعي

تمهيد : التعريف بالتفسير الموضوعي :

حين نريد أن نلاحظ الدراسات التفسيرية منذ العصور الاسلامية الأولى نجد بينها اختلافاً كثيراً في الانطباعات، وتفاوتاً كبيراً بالموضوعات ذات العلاقة في البحوث القرآنية؛ حيث نرى بعض المفسرين يتجه الى تأكيد الجوانب اللغوية واللفظية في النص القرآني، وبعضهم الآخر يتجه الى تأكيد الجانب التشريعي والفقهية من القرآن، وبعض آخر يتجه الى تأكيد الجانب العقيدي أو الأخلاقي أو العلمي التجريبي أو الجانب العرفاني منه، وهكذا بالنسبة الى بقية الموضوعات القرآنية كالقصة وغيرها.

وبالرغم من هذا الاختلاف الكبير لا نكاد نجد اختلافاً مهماً في منهج الدراسة والبحث، ذلك أنهم اعتادوا على أن يتهجوا في البحث طريقة تفسير الآيات القرآنية بحسب تسلسل عرضها في القرآن الكريم، وتنتهي مهمة تفسيرها عند تحديد معنى الآية موضوع البحث مع ملاحظة بعض ظروف السياق أو بعض الآيات الأخرى المشتركة معها في نفس الموضوع، ويمكن أن نسمي هذا المنهج بالتفسير التجزيئي أو الترتيبي للقرآن الكريم.

نعم نلاحظ ان مجموعة من الآيات اهتم المفسرون بها بشكل خاص لوجود قاسم مشترك بينها، كآيات الأحكام أو القصص القرآني أو الآيات الناسخة والمنسوخة أو غيرها، ولكن لم تدرس كموضوع مستقل بل باعتبار وجود الجامع

والخصوصية المشتركة.

وفي وقت متأخر من تأريخ علم التفسير أخذت تنمو بوادر منهج جديد في التفسير أو البحث القرآني، يقوم على أساس محاولة استكشاف النظرية القرآنية في جميع المجالات: العقيدية والفكرية والثقافية والتشريعية والسلوكية من خلال عرضها في مواضعها المختلفة من القرآن الكريم.

فحين نريد أن نعرف رأي القرآن الكريم في (الالهية)، يستعرض هذا المنهج الجديد الآيات التي جاءت تتحدث عن هذا الموضوع في مختلف المجالات وفي جميع المواضع القرآنية، سواء في ذلك ما يتعلق بأصل وجود الاله أو بصفاته وحدوده، ومن خلال هذا العرض العام والمقارنة بين الآيات، وحدودها نستكشف النظرية القرآنية في (الاله).

ونظير هذا الموقف يتخذه في كل المفاهيم والنظريات أو بعض الظواهر القرآنية، فيبحث عن (الأُسرة) أو (التقوى) أو (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أو (المجتمع) أو (الجهاد) أو (فوائح السور) أو (القصص القرآني) أو (الانسان) أو غير ذلك من الموضوعات القرآنية.

وقد يقتصر البحث على مقطع قرآني واحد لأن القرآن لم يعرض لموضوع البحث إلا في هذا المقطع؛ ومع ذلك نجد هذا الاختلاف بين المنهج الجديد والمنهج السابق في دراسة هذا المقطع الواحد؛ حيث تكون مهمة المنهج الجديد استخلاص الفكرة والنظرية من خلال هذا المقطع دون المنهج السابق.

فالتفسير الموضوعي - إذن - يقوم على أساس دراسة موضوعات معينة تعرض لها القرآن الكريم في مواضع متعددة أو في موضع واحد، وذلك من أجل تحديد النظرية القرآنية بملامحها وحدودها في الموضوع المعين، ومن أجل أن يتضح المراد من التفسير الموضوعي يحسن بنا أن نفهم مصطلح الموضوعية، كما شرحه

استاذنا الشهيد الصدر رحمه الله فقد ذكر ثلاثة معان لمصطلح الموضوعية :
 أولاً: (الموضوعية) في مقابل (الذاتية) و(التحيز)، والموضوعية بهذا المعنى عبارة عن الأمانة والاستقامة في البحث^(١)، والتمسك بالاساليب العلمية المعتمدة على الحقائق الواقعية في نفس الأمر والواقع، دون أن يتأثر الباحث بأحاسيسه ومتبنياته الذاتية ولا أن يكون متحيزاً في الأحكام والنتائج التي يتوصل إليها.
 وهذه (الموضوعية) أمر صحيح ومفترض في كلا المنهجين (التجزيئي) و(الموضوعي) ولا اختصاص لأحدهما بها.

ثانياً: (الموضوعية) بمعنى أن يبدأ في البحث من (الموضوع)، الذي هو (الواقع الخارجي) ويعود الى (القرآن الكريم)^(٢) لمعرفة الموقف تجاه الموضوع الخارجي.
 «فيركز [المفسر في منهج التفسير الموضوعي] نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الانساني حول ذلك الموضوع من مشاكل، وما قدمه الفكر الانساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني ... ويبدأ [معه] حواراً، فالمفسر يسأل والقرآن يجيب ... وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح...»^(٣).

وقد سمى هذا المنهج أيضاً بالمنهج (التوحيدي) «باعتبار أنه يوحد بين (التجربة البشرية) و(القرآن الكريم) لا بمعنى أنه يحمل التجربة البشرية على القرآن ... بل بمعنى أنه يوحد بينهما في سياق بحث واحد لكي يستخرج نتيجة هذا السياق ... المفهوم القرآني الذي يمكن أن يحدد موقف الاسلام تجاه هذه التجربة أو

(١) المدرسة القرآنية، الدرس الثاني : ٢٩. ط. بيروت.

(٢) المصدر نفسه : ٢٨.

(٣) المصدر نفسه : ١٩.

المقولة الفكرية»^(١).

ثالثاً: وقد يراد من (الموضوعية) ما ينسب الى الموضوع، حيث يختار المفسر موضوعاً معيناً ثم يجمع الآيات التي تشترك في ذلك الموضوع فيفسرها، ويحاول استخلاص نظرية قرآنية منها فيما يخص ذلك الموضوع.

ويمكن أن يسمى مثل هذا المنهج منهجاً توحيدياً أيضاً «باعتباره يوحد بين هذه الآيات ضمن مركب نظري واحد»^(٢).

ولاشك أن المعنى الأول ليس موضوع البحث، إذ لا يختلف التفسير الموضوعي عن التفسير التجزيئي في ضرورة توفر هذا الوصف فيه، ويبقى عندنا المعنى الثاني والثالث.

وقد خضع هذا المنهج في البحث لقانون التطور الذي يحدث عادة في مناهج البحث فمر براحل متعددة، حيث قام المنهج القديم للتفسير بدور الحضانة له ثم بلغ رشده وانفصل عنه، فاذا بالموضوعات القرآنية المختلفة تتخذ صفة البحث المستقل عن (الهيكل العام للتفسير القديم).

حاجة العصر الى التفسير الموضوعي* :

لقد عرف الاسلام في أنظمتها وتشريعاته طريقه الى المجتمع في بداية الأمر من خلال التطبيق، وذلك لأن الجانِب الاجتماعي من الاسلام لم يطرحه الرسول

(١) المدرسة القرآنية، الدرس الثاني : ٢٨.

(٢) المصدر نفسه.

(*) لمعرفة مزيد من أهمية التفسير الموضوعي وميزاته تُراجع المدرسة القرآنية للشهيد الصدر رحمته الله - الدرس الاول والثاني، وكراس محاضرات في تفسير القرآن (مقدمة التفسير) لمؤلف هذا الكتاب.

الأعظم ﷺ كنظريات عامة ومبادئ دستورية عن المجتمع وعلاقاته المختلفة، ثم جاء التشريع والتقنين بناءً فوقياً لها ليشمل جميع مناحي الحياة، وانما طرحه الرسول الأعظم ﷺ في كثير من الأحيان من خلال التقنين والتشريع وبيان الأحكام المختلفة في قضايا المجتمع التفصيلية.

ومن هنا لا نجد البحث الموضوعي النظري يدخل في الشريعة الإسلامية إلا في العصور المتأخرة من تاريخ المسلمين، لأن المجتمع الإسلامي كان يباشر التطبيق للقانون الإسلامي على أساس أنه تشريع وأحكام من قبل الله سبحانه لا بد من الالتزام بها ضمن نطاقها المعين وفي حدودها الخاصة، بلا حاجة إلى معرفة النظرية التي يقوم عليها الحكم الشرعي، وكيفية معالجتها لمشاكل الحياة الاجتماعية.

ويكاد يختص هذا الأمر بالشريعة فقط دون الجانب العقدي للإسلام، فانه كان ولا يزال مجالاً للبحث النظري بسبب أن جانب التطبيق فيه هو فهم النظرية والايان بها؛ وهذا ما فعله رسول الله ﷺ فإنه طرح في العقيدة النظرية الإسلامية بشكلها العام.

وحين انحسر الإسلام عن التطبيق في مجتمع المسلمين وواجه النظريات المذهبية المختلفة ظهرت الحاجة الملحة إلى البحث الموضوعي القرآني في مختلف المجالات، لأن الإسلام أصبح بحاجة إلى أن يعرض كـ (نظرية) مذهبية جاء بها الرسول محمد ﷺ عن طريق الوحي، وذلك من أجل مواجهة النظريات المذهبية الأخرى، ومن أجل أن يتضح مدى صلاحيته لمعالجة مشاكل الحياة المعاصرة وصلته بتلك النظريات المذهبية، كما أن فهم الإسلام كـ (نظرية) عامة هو الذي يسر لنا سبيل ان تنبناه نظاماً للحياة، ندافع عنه ونكافح من أجل تطبيقه وصيائمه. فالحاجة إلى التفسير الموضوعي في هذا العصر تنبع - في الحقيقة - من الحاجة إلى عرض الإسلام ومفاهيم القرآن عرضاً نظرياً، يتكفل الأساس الذي تنبثق

منه جميع التفصيلات والتشريعات الأخرى، حيث من الممكن ان نستكشف النظريات العامة من خلال التشريع والقانون الاسلامي لوجود الارتباط الوثيق بين النظرية والتطبيق^(١).

الموضوعات التي عرض لها القرآن اجمالاً وطريقته في هذا العرض :
لقد عرض القرآن الكريم الى موضوعات كثيرة، حيث تناول في ما تعرض له أكثر الجوانب الفكرية والثقافية المرتبطة بالحياة والكون والمجتمع سواء، ما يتعلق منها بالعقيدة أو بالتشريع أو بالأخلاق أو الحكم والعلاقات الاجتماعية أو التأريخ أو غير ذلك من الجوانب الأخرى.

وهنا نُشير الى فهرست عام للنقاط الرئيسة التي تناولها القرآن الكريم، علماً بأن أكثر هذه النقاط تتفرع الى نقاط أخرى وموضوعات ثانوية تصلح للبحث الموضوعي والدرس العلمي، وهذه النقاط هي كالتالي :

الالوهية، أفعال الله، عالم الغيب، الانسان قبل الدنيا، الانسان في هذه الدنيا، الانسان بعد هذه الدنيا، الأخلاق الانسانية، التشريع الاسلامي، الكون والحياة، وحركة الدعوة الاسلامية.

وتتناول النقطة الأولى: كلّ المعلومات التي ترتبط باسماء الله سبحانه وصفاته من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها.

وتتناول النقطة الثانية: كلّ المعلومات التي ترتبط بالخلق والارادة والأمر والمشئبة والهداية والاضلال والقضاء والقدر والجبر والتفويض والرضا والسخط والحب وغيرها.

وتتناول النقطة الثالثة: كل المعلومات التي ترتبط بالحبج والروح والقلم

(١) راجع هذا الصدد «اقتصادنا» لاسناذنا السيد محمد باقر الصدر رحمه الله ٢ : ١٦.

والعرض والكرسي والبيت المعمور والسماء والأرض والملائكة والشياطين والجن، وغير ذلك.

وتتناول النقطة الرابعة: كل المعلومات التي ترتبط بآدم وكيفية خلقه وخلافته وخلق ابليس وعلاقته بآدم وذريته وحياته في الجنة مع زوجته وغيرها.

وتتناول النقطة الخامسة: كل المعلومات التي ترتبط بتاريخ الانسان ومزاجه النفسي والروحي والعقلي والقوانين الاجتماعية العامة التي تتحكم في سلوكه وعلاقاته وحركته الاجتماعية والتأريخية، ومدى صلته بالسماء وأساليب هذه الصلة من النبوة والوحي والالهام والدين والكتاب والشرعية، وجميع صفات الأنبياء التي تستنبط من قصصهم.

وتتناول النقطة السادسة: كل المعلومات التي ترتبط بالبرزخ والمعاد والجنة والنار...

وتتناول النقطة السابعة: كل المعلومات التي ترتبط بالقيم والمثل والصفات التي يجب أن يتحلى بها الانسان والتي ترتفع به في عالم الانسانية وتوصله الى الكمال المنشود، وكذلك الأمثال والمواعظ التي لها دور في تربية هذا الانسان وتكميله وتوجيهه.

وتتناول النقطة الثامنة: كل المعلومات التي ترتبط بالشرعية الاسلامية بجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والفردية والتجارية والحرية وغيرها^(١).

وتتناول النقطة التاسعة: كل المعلومات المرتبط بالسماء والأرض والجبال والماء والحيوان والنبات والمطر والرياح، والعوالم التي تحيط بهذا الانسان في هذا الكون الواسع.

وتتناول النقطة العاشرة: كل الأحداث التي واجهها النبي والمسلمون، والمواقف

(١) راجع بهذا الصدد الميزان، مقدمة تفسير الميزان: ١١.

التي اتخذها القرآن الكريم تجاهها، وكذلك الاثارات والأسئلة والشبهات والمشكلات التي كانت تطرح من قبل أعداء الرسالة أو المسلمين أنفسهم ومعالجتها والتطورات والمراحل التي مرت بهذه الرسالة والقضايا ذات العلاقة ببناء القاعدة الانسانية الثورية التي حملت أعباء الرسالة بعد ذلك.

وقد سلك القرآن الكريم لتبيان هذه الموضوعات منهجاً فريداً يكاد يتميز عن سائر مناهج الكتب الدينية الأخرى حيث نرى أنه لا تكاد تمر سورة من القرآن الكريم أو جزء منه إلا وقد تناول الكثير من هذه الموضوعات، بأسلوب غاية في التناسق والربط والانسجام.

كما نجد القرآن الكريم - من ناحية أخرى - يعمل على إيضاح بعض المفاهيم والأفكار غير المادية (الغيبية) عن طريق الأمثلة والصور المادية، ليقرب بذلك (الفكرة) إلى ذهن الانسان الذي لا يدرك إلا من خلال هذه الصور ويحدد الفكرة عن طريق تكرار الأمثلة وتكثير الصور، لتخلص مما قد يعلق بها من شوائب المادة وحدودها، كما أشرنا إلى ذلك في بحث المحكم والمتشابه.

ونحن نعرف أن الهدف الأساس الذي استهدفه القرآن الكريم في نزوله هو التربية والتغيير الاجتماعي لا التثقيف والتعليم فحسب، ولذا نجد الأسلوب القرآني يخضع في جميع مراحلها إلى هذا الهدف ويأتي بهذا الشكل الذي قد يبدو متداخلاً ولكنه يؤدي إلى الغاية والهدف؛ وقد أوضحنا في بعض أبحاثنا السابقة جوانب متعددة من هذه الطريقة في العرض والبيان.

وباعتبار أن موضوعات القرآن الكريم واسعة وكثيرة، لذا سوف نختار في بحثنا هذا بعض النماذج من الموضوعات لبحث التفسير، حيث نكون على معرفة من هذا المنهج مع خلال التطبيق أولاً، والاستفادة من المضمون العلمي لهذه الموضوعات ثانياً؛ وقد اخترنا الموضوعات التالية لأهميتها في بحث علوم القرآن:

١- القصص القرآني.

٢- فواتح السور المقطعة.

٣- خلافة الانسان.

القصص القرآني

الفرق بين القصص القرآني وغيره :

يختلف القصص القرآني عن غيره من القصص في ناحية أساسية هي ناحيه الهدف والغرض الذي جاء من أجله، ذلك أنَّ القرآن الكريم لم يتناول القصة لأنها عمل (فني) مستقل في موضوعه وطريقة التعبير فيه، كما انه لم يأت بالقصة من أجل التحدث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونها - كما يفعل المؤرخون - وإنما كان عرض القصة في القرآن الكريم مساهمة في الأساليب العديدة التي سلكها لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينية التي جاء الكتاب الكريم من أجلها، بل يمكن أن نقول : ان القصة هي من أهم هذه الاساليب .

فالقرآن الكريم - كما عرفنا في وقت سابق عند الحديث عن الهدف من نزول القرآن - رسالة دينية قبل كل شيء تهدف بصورة أساسية الى عملية التغيير الاجتماعي بجوانبها المختلفة، هذه العملية التي وجدنا بعض مظاهرها وآثارها في طريقة نزول القرآن التدريجي وفي طريقة عرض المفاهيم المختلفة، وفي ربط نزول القرآن بالأحداث والوقائع والاسئلة، وفي اسلوب القرآن في القصر والايجاز، أو المزج بين الصور والمشاهد المتعددة، الأمر الذي أدى الى نشوء كثير من الدراسات القرآنية، عرفنا منها الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والمكي والمدني وغيرها.

لذا فلا بد لنا - حين نريد أن ندرس القصة القرآنية - أن نضع أمامنا هذا الهدف

القرآني العام لتتعرف من خلاله على الاسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم في عرضه القصة القرآنية مساهمة منه في تحقيق هذا الهدف.

أغراض القصة في القرآن الكريم* :

لقد جاءت القصة في القرآن الكريم لتساهم في عملية التغيير الانساني بجوانبها المتعددة، فاهي الأغراض ذات الأثر الرسالي التي استهدفتها القصة القرآنية؟

وبهذا الصدد نجد القصة القرآنية تكاد تستوعب في مضمونها وهدفها جميع الأغراض الرئيسة التي جاء من أجلها القرآن الكريم^(١)، ونظراً لكثرة هذه الأغراض تشعبها نجد من المستحسن أن تقتصر في عرضنا لأغراض القصة في القرآن على الأغراض القرآنية المهمة، لتتعرف - من خلال ذلك - أهمية ذكر القصة في القرآن الكريم والفوائد التي تترتب عليها :

أ- اثبات الوحي والرسالة :

ان ما جاء به القرآن الكريم لم يكن من عند محمد ﷺ وانما هو وحي أوحاه الله تعالى إليه وأنزله هداية للبشرية.

(*) راجع في بحث أغراض القصة ما كتبه سيد قطب في كتابه «التصوير الفني في القرآن» : ١٢٠ - ١٤١، وما سجله السيد رشيد رضا في مواضع مختلفة من كتابه «تفسير المنار» .

(١) يمكن ان نقسم الأغراض القرآنية للقصة الى قسمين رئيسين :

أولاً: الأغراض ذات المدلول الموضوعي، كمحاولة القرآن الكريم من وراء سرد القصة اثبات صحة النبوة أو اثبات وحدة الرسالات الالهية أو شرح بعض القوانين والسنن التاريخية التي تتحكم في مسيرة المجتمع الانساني.

ثانياً: الأغراض ذات المدلول الذاتي التربوي، كمحاولة القرآن الكريم من وراء سرد القصة تربية الانسان على الايمان بالغيب أو خضوعه للحكمة الالهية أو التزامه بالأخلاق الاسلامية والاعتبار أو الاقتداء بسيرة الماضين.

وقد أشرنا الى هذا الهدف القرآني من القصة عند بحثنا لاجاز القرآن الكريم حيث عرفنا: أنَّ حديث النبي محمد ﷺ عن اخبار الامم السالفة وأنبيائهم ورسلمهم بهذه الدقة والتفصيل والثقة والطائنية، مع ملاحظة ظروفه الثقافية والاجتماعية كل ذلك يكشف عن حقيقة ثابتة وهي تلقيه هذه الانباء والاخبار من مصدر غيبي مطلع على الاسرار وما خفي من بواطن الامور، وهذا المصدر هو الله سبحانه وتعالى.

وقد نص القرآن الكريم على أنَّ من أهداف القصة هو هذا الغرض السامي، وذلك في مقدمة بعض القصص القرآنية أو ذيلها، فقد جاء في سورة يوسف: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ (١).

وجاء في سورة القصص بعد عرضه لقصة موسى: ﴿ وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ﴾ ولكننا انشأنا قروناً فتناول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ﴾ وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ (٢).

وجاء في سورة آل عمران في مبدأ قصة مريم: ﴿ ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون ﴾ (٣).

وجاء في سورة (ص) قبل عرضه لقصة آدم: ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ انتم عنه

(١) يوسف : ٣.

(٢) القصص : ٤٤ - ٤٦.

(٣) آل عمران : ٤٤.

معروضون * ما كان لي من علم بالملاء الاعلى اذ يختصمون * ان يوحى اليّ الا انما انا نذير مبين ﴿١﴾.

وجاء في سورة هود بعد قصة نوح : ﴿ تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين ﴾ ﴿٢﴾.

فكل هذه الآيات الكريمة وغيرها تشير الى أنّ القصة انما جاءت في القرآن تأكيداً لفكرة الوحي التي هي الفكرة الأساس في الشريعة الاسلامية.

ب - وحدة الدين والعقيدة لجميع الأنبياء :

اكدت القصة أنّ الدين كله من الله سبحانه وان الأساس للدين الذي جاء به الأنبياء المتعددون هو أساس واحد لا يختلف بين نبي وآخر، فالدين واحد ومصدر الدين واحد أيضاً وجميع الأنبياء أمة واحدة تعبد هذا الاله الواحد وتدعو اليه.

وهذا الغرض من الأهداف الرئيسة للقرآن الكريم حيث يهدف القرآن من جملة ما يهدف اليه ابراز الصلة الوثيقة بين الاسلام الحنيف وسائر الاديان الالهية الأخرى التي دعا اليها الرسل والأنبياء الآخرون، ليحتل الاسلام منها مركز الخاتمية التي يجب على الانسانية أن تنتهي اليها، ويسد الطريق على الزيف الذي يدعو الى التمسك بالاديان السابقة على أساس أنّها حقيقية موحاة من قبل الله تعالى.

إضافة الى ذلك تظهر الدعوة على انها ليست بدعاً في تأريخ الرسالات وانما هي وطيدة الصلة بها في أهدافها وأفكارها ومفاهيمها : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ... ﴾ ﴿٣﴾، بل انها تمثل امتداداً لهذه الرسالات الالهية وتلك الرسالات تمثل

(١) ص : ٦٧ - ٧٠.

(٢) هود : ٤٩.

(٣) الاحقاف : ٩.

الجذر التاريخي للرسالة الاسلامية، فهي رسالة أخلاقية وتغييرية لها هذا الامتداد في التاريخ الانساني ولها هذا القدر من الأنصار والمضحين والمؤمنين.

وعلى اساس هذا الغرض تكرر ورود عدد من قصص الأنبياء في سورة واحدة ومعروضة بطريقة خاصة، لتؤكد هذا الارتباط الوثيق بينهم في الوحي والدعوة التي تأتي عن طريق هذا الوحي، ولنضرب لذلك مثلاً ما جاء في سورة الأنبياء^(١):

﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين ﴾ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ؟ ﴾ .

﴿ ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ اذ قال لابييه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ﴿ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ الى قوله ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الاخسرين ﴾ ونجيناه ولو طأ الى الارض التي باركنا فيها للعالمين ﴿ ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين ﴾ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴿ .

﴿ ولو طأ آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ وأدخلناه في رحمتنا انه من الصالحين ﴿ .

﴿ ونوحاً اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فاغرقناهم اجمعين ﴾ .

﴿ ودادود وسليمان اذ يحكمان في الحرت اذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان - وكلاً آتينا حكماً وعلماً - وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴾ وعلمناه صنعة لبوس لكم لثخنكم من بأسكم فهل انتم شاكرون ؟ ﴾ .

﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ﴾ ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴾ .

﴿ وايوب اذ نادى ربه اني مسني الضر وانت ارحم الراحمين ﴾ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ .
﴿ واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ وادخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين ﴾ .

﴿ وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه فتادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين ﴾ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ .

﴿ وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وانت خير الوارثين ﴾ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

﴿ والتي احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ .
﴿ ان هذه امتكم امة واحدة وانا بكم فاعبدون ﴾ ^(١) .

ويبدو أن القرآن الكريم يريد أن يشير الى الغرض الاصيل من هذا الاستعراض لقصص الانبياء بالآية الخاتمة المعبرة عن هذه الوحدة العميقة الجذور في القدم للأمة المؤمنة بالاله الواحد، وتأتي بقية الاغراض الأخرى في ثنايا هذا الغرض .
ومثال آخر يوضح وحدة العقيدة الاساسية التي استهدفها الانبياء في تأريخهم الطويل وفي نضالهم المتواصل ، هذه العقيدة التي تدعو الى الايمان بالله سبحانه الهاً واحداً لا شريك له في ملكه ، وذلك ما جاء في سورة الاعراف :

﴿ لقد أرسلنا نوحاً الى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ... ﴾^(١).
 ﴿ والى عاد اخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ... ﴾^(٢).
 ﴿ والى ثمود اخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ... ﴾^(٣).
 ﴿ والى مدين اخاهم شعيباً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ... ﴾^(٤).
 فالاله واحد والعقيدة واحدة والانبياء امة واحدة والدين واحد وكله لواحد هو الله سبحانه .

ج - تشابه طرق الدعوة والمجاهدة :

من اغراض القصة بيان ان وسائل الأنبياء وأساليبهم في الدعوة واحدة وطريقة مجاهدة قومهم لهم واستقبالهم متشابهة، وان القوانين والسنن الاجتماعية التي تتحكم في تطور الدعوة وسيرها واحدة أيضاً، فالأنبياء يدعون الى الاله الواحد ويأمرون بالعدل والاصلاح والناس يتمسكون بالعادات والتقاليد البالية ويصر على ذلك أصحاب المنافع الشخصية والأهواء الخاصة بشكل خاص، والطواغيت والجبابرة منهم بشكل أخص .

وتبعاً لهذه الاهداف ترد قصص كثيرة من الانبياء مجتمعة مكررة فيها طريقة الدعوة على نحو ما جاء في سورة هود :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه : إني لكم نذير مبين * ان لا تعبدوا الا الله اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم

(١) الاعراف : ٥٩ .

(٢) الاعراف : ٦٥ .

(٣) الاعراف : ٧٣ .

(٤) الاعراف : ٨٥ .

كاذبين ﴿ الى ان يقول : ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان اجري الا على الله ... ﴾ والى ان يقولوا له : ﴿ ... يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ﴾ (١).

﴿ والى عاد اخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان انتم الا مفترون ﴾ يا قوم لا اسألكم عليه أجراً ان أجري الا على الذي فطرني أفلا تعقلون ؟ ﴿ الى قوله : ﴿ قالوا يا هود ما جئنا بينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾ ان نقول : الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال : إني أشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون ﴾ من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ (٢).

﴿ والى ثمود اخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هوانشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه ان ربي قريب مجيب ﴾ قالوا : يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ (٣).

ومثل هذه المواقف نجدها في سورة الشعراء أيضاً.

د - النصر الالهي للانبياء :

بيان نصره الله لأتبيائه وان نهاية المعركة تكون في صالحهم مهما لاقوا من العنت والجور والتكذيب - كل ذلك - تثبيتاً لرسوله محمد ﷺ وأصحابه وتأثيراً في نفوس من يدعوهم الى الايمان.

وقد نص القرآن الكريم على هذا الهدف الخاص أيضاً بمثل قوله تعالى :

﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق

(١) هود : ٢٥ - ٣٢.

(٢) هود : ٥٠ - ٥٥.

(٣) هود : ٦١ - ٦٢.

وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿١﴾.

وتبعاً لهذا الغرض وردت بعض قصص الانبياء مؤكدة على هذا الجانب بل جاءت بعض هذه القصص مجتمعة ومختومة بمصارع من كذبوهم وقد يتكرر عرض القصة نتيجة لذلك كما جاء في سورة هود والشعراء والعنكبوت ولنضرب مثلاً من سورة العنكبوت :

﴿ لقد ارسلنا نوحاً الى قومه فلبث الف سنة - الا خمسين عاماً - فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ فأجنيباه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴿.

﴿ وإبراهيم اذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ﴾ (٢).
الى ان يقول : ﴿ فما كان جواب قومه الا ان قالوا : اقتلوه أو حرّقه فانجاه الله من النار ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (٣).

﴿ ولوطاً اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ (٤).

الى ان يقول : ﴿ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴿.

﴿ والى مدين اخاهم شعيباً فقال : يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾.

﴿ وعاداً وثموداً - وقد تبين لكم من مساكنهم - وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾.

(١) هود : ١٢٠.

(٢) العنكبوت : ١٤ - ١٦.

(٣) العنكبوت : ٢٤.

(٤) العنكبوت : ٢٨.

﴿ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين ﴾ .

﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من اغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ﴾ ^(١) فهذه هي النهاية الحتمية التي يريد ان يصورها القرآن الكريم لمعارضى الانبياء والمكذبين بدعوتهم .

هـ - تصديق التبشير والتحذير :

فقد بشر الله سبحانه عباده بالرحمة والمغفرة لمن أطاعه منهم وحذرهم من العذاب الاليم لمن عصاه منهم ؛ ومن أجل ابراز هذه البشارة والتحذير بصورة حقيقية متمثلة في الخارج عرض القرآن الكريم لبعض الوقائع الخارجية التي تتمثل فيها البشارة والتحذير ، فقد جاء في سورة الحجر التبشير والتحذير أولاً ، ثم عرض النماذج الخارجية لذلك ثانياً :

﴿ نبئ عبادي أَنِّي انا الغفور الرحيم * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْاَلِيمُ ﴾ ^(٢) .

وتصديقاً لهذه أو ذلك جاءت القصص على النحو التالي :

﴿ ونبئهم عن ضيف ابراهيم * اذ دخلوا عليه فقالوا : سلاماً قال : انا منكم وجلون * قالوا : لا توجل انا نبشرك بغلام عليم ﴾ ^(٣) ... وفي هذه القصة تبدو الرحمة والبشارة . ثم ﴿ فلما جاء آل لوط المرسلون * قال انكم قوم منكرون ﴾ قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق وانا لصادقون * فأسر باهلك بقطع من الليل واتبع ادبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون * وقضينا إليه ذلك الامر : أَنَّ دابر

(١) العنكبوت : ٣٤ - ٤٠ .

(٢) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) الحجر : ٥١ ، ٥٣ .

هؤلاء مقطوع مصبحين ﴿^(١)﴾. وفي هذه القصة تبدو (الرحمة) في جانب لوط ويبدو (العذاب الاليم) في جانب قومه المهلكين.

ثم: ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ ^(٢). وفي هذه القصة يبدو (العذاب الاليم) للمكذبين، وهكذا يصدق الانباء ويبدو صدقه في هذه القصص الواقع بهذا الترتيب. و- اللطف الالهي بالانبياء :

بيان نعمة الله على انبيائه ورحمته بهم وتفضله عليهم وذلك تأكيداً لارتباطهم وصلتهم معه، كبعض قصص سليمان وداود وابراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى. ذلك أن الانبياء يتعرضون - عادة - الى مختلف ألوان الآلام والمحن والعذاب، فقد يتوهم السذج والبسطاء من الناس أن ذلك اعراض من الله تعالى عنهم، فيأتي الحديث عن هذه النعم والألطف الالهية التي شملتهم تأكيداً لعلاقة الله سبحانه وتعالى بهم، ولذلك نشاهد أن بعض الحلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى، ويكون ابرازها هو الغرض الأول منها وما سواه يأتي في هذا الموضوع عرضاً.

ز- عداوة الشيطان :

بيان غواية الشيطان للانسان وعداوته الأبدية له وتربص به الدوائر والفرص وتنبيه بني آدم لهذا الموقف المعين منه، ولاشك أن ابراز هذه المعاني والعلاقات بواسطة القصة يكون واضحاً وأدعى للحذر والالتفات، لذا نجد قصة آدم تكرر بأساليب مختلفة تأكيداً لهذا الغرض، بل يكاد أن يكون هذا الغرض هو الهدف

(١) الحجر : ٦١ - ٦٦.

(٢) الحجر : ٨٠ - ٨٤.

الرئيس لقصة آدم كلها.

ح - أهداف بعثة الانبياء :

بيان أنَّ الغايات والأهداف من ارسال الرسل والأنبياء هي من أجل هداية الناس وارشادهم وحل الاختلافات والحكم بالعدل بينهم ومحاربة الفساد في الارض، وفوق ذلك كله هو اقامة الحجة على الناس، ولذا جاء استعراض قصص الأنبياء بشكل واسع لبيان هذه الحقائق.

وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الهدف من القصة في عدة مواضع :

﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ... ﴾ (١).

﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (٢).

﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٣).

فانها وردت في سياق قوله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ... ﴾ (٤).

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل

(١) البقرة : ٢١٣.

(٢) النساء : ١٦٥.

(٣) الأنعام : ٤٨.

(٤) الانعام : ٤٢.

الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما انذروا هزواً ﴿١﴾.

وكذلك ما ورد في تعقيب قصص الأنبياء من سورة الشعراء من قوله تعالى:

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٢).

ط - أهداف تربوية أخرى :

وبيان أغراض أخرى ترتبط بالتربية الاسلامية وجوانبها المتعددة، فقد استهدف القرآن بشكل رئيس تربية الانسان على الايمان بالغيب وشمول القدرة الالهية لكل الأشياء، كالقصص التي تذكر الخوارق والمعاجز كقصة خلق آدم، ومولد عيسى، وقصة ابراهيم مع الطير الذي آب إليه بعد أن جعل على كل جبل جزءاً منه، وقصة ﴿...الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها...﴾ (٣) وإحياء الله له بعد موته مائة عام.

كما استهدف تربية الانسان على فعل الخير والأعمال الصالحة وتجنبه الشر والفساد، وذلك ببيان العواقب المترتبة على هذه الأفعال، كقصة النبي آدم وقصة صاحب الجننتين، وقصص بني اسرائيل بعد عصيانهم، وقصة سد مأرب، وقصة أصحاب الاخدود.

ومما استهدفه القرآن الكريم في التربية الاستسلام للمشيئة الالهية والخضوع للحكمة التي أرادها الله سبحانه من وراء العلاقات الكونية والاجتماعية في الحياة، وذلك ببيان الفارق بين الحكمة الالهية ذات الهدف البعيد والعميق في الحياة الانسانية والفهم الانساني للظواهر في الحياة الدنيا، والحكمة الانسانية القريبة العاجلة، كما جاء في قصة موسى التي جرت مع عبد ﴿...من عبادنا آتيناه رحمة من

(١) الكهف : ٥٥ - ٥٦.

(٢) الشعراء : ١٥٨، ١٥٩.

(٣) البقرة : ٢٥٩.

عندنا وعلمناه من لدنا علماً^(١) الى آخر ذلك من الأغراض الوعظية والتربوية الأخرى التي سوف نطلع على بعضها في دراستنا التفصيلية لقصة موسى عليه السلام.

ظواهر عامة في القصة القرآنية :

وفي ضوء هذه الاهداف للقصة يحسن بنا أن ندرس ثلاث ظواهر أساسية برزت في مجمل القصة القرآنية :

أ - ظاهرة التكرار في القصة القرآنية.

ب - ظاهرة اختصاص قصص الأنبياء في القرآن بأنبياء منطقة الشرق الأوسط.

ج - ظاهرة تأكيد قصص بعض الأنبياء كإبراهيم وموسى عليهم السلام.

أ - تكرار القصة في القرآن الكريم :

من ظواهر القصة في القرآن الكريم هي ظاهرة تكرار القصة الواحدة في مواضع مختلفة من القرآن، وقد أثرت بعض المشاكل حول هذه الظاهرة حيث يقال : إن هذا التكرار قد يشكل نقطة ضعف في القرآن الكريم، لأن القصة بعد أن تذكر في القرآن مرة واحدة تستنفد أغراضها الدينية والتربوية والتأريخية، وقد أثرت هذه المشكلة في زمن متقدم من البحث العلمي، لذا نجد الإشارة في مفردات الراغب الاصفهاني، وفي مقدمة تفسير التبيان للشيخ الطوسي^(٢). والطوسي وان كان يبدو أنه لم يعالج المشكلة بشكل رئيس، ولكنه يدل على الأقل أن المشكلة قد طرحت على صعيد البحث القرآني.

ونحن هنا نذكر بعض الوجوه التي يمكن أن تكون تفسيراً لتكرار القصة

(١) الكهف : ٦٥.

(٢) التبيان، مقدمة المؤلف ١ : ١٤.

الواحدة في القرآن الكريم :

الأول : ان التكرار انما يكون بسبب تعدد الغرض الديني الذي يترتب على القصة الواحدة ، وقد عرفنا في بحثنا السابق لأغراض القصة^(١) أن أهداف القصة متعددة ، فقد تجيء القصة في موضع لأداء غرض معين وتأتي في موضع آخر لأداء غرض آخر وهكذا .

الثاني : أن القرآن الكريم اتخذ من القصة اسلوباً لتأكيد بعض المفاهيم الاسلامية لدى الأمة المسلمة ، وذلك عن طريق ملاحظة الوقائع الخارجية التي كانت تعيشها الأمة ، وربطها بواقع القصة من حيث وحدة الهدف والمضمون .

وهذا الربط بين المفهوم الاسلامي في القصة والواقعة الخارجية المعاشة للمسلمين قد يؤدي الى فهم خاطئ للمفهوم المراد اعطاؤه للأمة ، فيفهم انحصاره في نطاق الواقعة التي عاشتها القصة وظروفها الخاصة ، فتأتي القصة الواحدة في القرآن الكريم مكررة من أجل تفادي هذا الحصر والتضييق في المفهوم من أجل تأكيد شموله واتساعه لكل الوقائع والأحداث المتشابهة ليتخذ صفة القانون الأخلاقي أو التاريخي الذي ينطبق على كل الوقائع والأحداث ... إضافة الى فاعليته كمنبه للأمة على علاقة القضية الخارجية التي تواجهها - في عصر النزول أو بعده - بالمفهوم الاسلامي لتستمد منه روحه ومنهجه .

ولعل هذا السبب هو ما يمكن أن نلاحظه في تكرار قصة موسى والفرق بين روحها العامة في القصص المكي وروحها في القصص المدني ، فانها تؤكد في القصص المكي منها العلاقة العامة بين موسى من جانب وفرعون وملئه من جانب آخر ، دون أن تذكر أوضاع بني اسرائيل تجاه موسى نفسه ، إلا في موردين يذكر فيها انحراف بني اسرائيل عن العقيدة الالهية بشكل عام ؛ وهذا بخلاف الروح

(١) لزيادة الايضاح ، راجع التصوير الفني في القرآن ١٢٨ - ١٣٤ .

العامة لقصة موسى في السور المدنية فانها تتحدث عن علاقة موسى مع بني اسرائيل، وتتحدث عن هذه العلاقة وارتباطها بالمشاكل الاجتماعية والسياسية. وهذا قد يدلنا على أن هذا التكرار للقصة في السور المكية انما كان يعني نزول القصة لمعالجة روحية تتعلق بحوادث مختلفة كانت تواجه النبي والمسلمين، ومن أهداف هذه المعالجة توسعة نطاق المفهوم العام الذي تعطيه قصة موسى في العلاقة بين النبي والمجبارين من قومه أو القوانين التي تحكم هذه العلاقة، وان هذه العلاقة مع نهايتها لا تختلف فيها حادثة عن حادثة أو موقف عن موقف.

ولعل الى هذا التفسير تشير الآيات الكريمة التي جاءت في سورة الفرقان :

﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً * الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً * ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً ﴿^(١).

فان من الملاحظ في هذه الآيات أن القرآن يذكر ان السبب في التدرج والترتيل في القرآن الكريم هو التثبيت للنبي من ناحية، والاتبان بالحق والتفسير الأفضل للوقائع والأحداث والأمثال من ناحية أخرى، ثم يأتي بهذا التفسير الأحسن من قصة موسى عليه السلام.

الثالث : ان الدعوة الاسلامية مرت بمراحل متعددة في سيرها الطويل، وقد كان القرآن الكريم يواكب هذه المراحل ويماشيها في عطاءه وطبيعته اسلوبه، وهذا كان يفرض أن تعرض القصة الواحدة بأساليب متفاوتة في الطول والقصر، نظراً لطبيعة الدعوة وطريقة بيان المفاهيم والعبر فيها، كما نجد ذلك في قصص الأنبياء حين تعرض في السورة القصيرة المكية، ثم يتطور العرض بعد ذلك الى شكل أكثر

تفصيلاً في السور المكية المتأخرة أو السور المدنية.

الرابع : ان تكرار القصة لم يأت في القرآن الكريم بشكل يتطابق فيه نص القصة مع نص آخرها، وانما تختلف الموارد في بعض التفاصيل وطريقة العرض، وطريقة عرض القصة القرآنية قد تستبطن مفهوماً دينياً يختلف عن المفهوم الديني الآخر الذي تستبطنه طريقة عرض أخرى، هذا الأمر الذي نسميه بالسياق القرآني وهذا يقتضي التكرار أيضاً لتحقيق هذا الغرض السياقي الذي يختلف عن الغرض السياقي الآخر لنفس القصة، وسوف نتضح معالم هذه النقاط بشكل أكثر عند دراستنا التطبيقية التالية لقصة موسى في القرآن الكريم.

ب - اختصاص القصة بأنبياء الشرق الأوسط :

وأما الظاهرة الثانية فمن الملاحظ ان القرآن الكريم تحدث عن مجموعة من الأنبياء يشتركون في خصوصية : أنهم يعيشون جميعاً في منطقة الشرق الأوسط، أي المنطقة التي كان يتفاعل معها العرب الذين نزل القرآن في محيطهم ومجتمعهم.

وقد تفسر هذه الظاهرة لأول وهلة بأن النبوات لما كانت بالأصل في هذه المنطقة ومن خلالها انتشر الهدى في جميع أنحاء العالم، حيث كانت البشرية تعيش في البداية بهذه المنطقة ولا يوجد في المناطق الأخرى نبوات وأنبياء، كما قد يفهم ذلك من خلال الاستعراض التاريخي للنبوات وتاريخ الانسان في التوراة، وحينئذ لا تعني هذه الخصوصية ظاهرة تحتاج الى تفسير، بل هي قضية فرضتها الحقيقة التاريخية ويكفي في تفسيرها هذا الواقع التاريخي.

الرسالات الالهية لا تختص بمنطقة الشرق الأوسط :

ولكن توجد شواهد في القرآن الكريم تنفي هذا التفسير لهذه الظاهرة، فالقرآن يشير في بعض آياته الى أن هناك مجموعة أخرى من الأنبياء لم يتحدث

عنهم، مع أنَّ حياتهم لا بد وأنَّها كانت زاخرة بالأحداث شأنهم في ذلك شأن الأنبياء الآخرين :

﴿إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾ ورسلًا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلًا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً^(١).

كما ان هذا المضمون جاء أيضاً في سورة غافر: (٧٨). علماً بأن سورة النساء من السور المدنية المتأخرة، ومن هنا فلا مجال لاحتمال أنَّ هذه الآية نزلت في مدة زمنية لم يكن القرآن قد تعرض فيها الى جميع قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم فعلاً.

كما ان هناك مجموعة من الآيات تدل على أنَّ الأنبياء والرسل كانوا يُبعثون الى كل قرية ومدينة لاقامة الحجة من الله على الناس، كما نفهم من الآية (١٦٥) من سورة النساء، التي جاءت في سياق الآيتين السابقتين :

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾^(٢).

إضافة الى موارد أخرى لها هذه الدلالة :

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾^(٣).

(١) النساء : ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) النساء : ١٦٥ .

(٣) النحل : ٣٦ .

- ﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ... ﴾^(١).
 ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾^(٢).
 ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وان من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾^(٣).
 وجاء التعبير في بعض الآيات عن ذلك بوجود الشهيد في كل أمة^(٤).

تفسير الاختصاص بالمنطقة المحدودة :

ومن هنا فلا بد من تفسير هذه الظاهرة بتفسير آخر، ويمكن أن يكون هذا التفسير هو أن القرآن الكريم انما خص هؤلاء الأنبياء بالذكر باعتبار أن الغرض الأساس من القصة - كما ذكرنا - هو انتزاع العبرة واستنباط القوانين والسنن التاريخية منها، ولم يكن الغرض من القصة السرد التاريخي لحياة الأنبياء أو كتابة تأريخ الرسالات، ولذلك يتحدث القرآن عن الأمور العامة المشتركة بين هؤلاء الأنبياء عدا بعض الموارد التي يكون هناك غرض خاص في طرح بعض القضايا فيها. ولما كان تأثير القصة في تحقيق هذه الاغراض يرتبط بمدى ايمان الجماعة بواقعيتها، وادراكهم لحقائقها، ومدى انطباق ظروفها على ظروف الجماعة نفسها، لذا تكون القصة المنتزعة من تأريخ الأمة نفسها، ومن واقعها وظروفها وحياتها، أكثر تأكيداً وانطباقاً على السنة التاريخية.

وبهذا تكون هذه القصص أكثر انسجاماً مع هذا الهدف القرآني، بلحاظ أن القاعدة التي يريد أن يحقق القرآن الكريم التغيير فيها في المرحلة الأولى هي

(١) التوبة : ١١٥.

(٢) يونس : ٤٧.

(٣) فاطر : ٢٤.

(٤) النساء : ٤١، التحل : ٨٤، القصص : ٧٥.

الشعوب التي تسكن هذه المنطقة، وتتفاعل مع هذا التاريخ، وهذا لا يعني أن القرآن تختص هدايته بهذه الشعوب، بل ان أحد أغراض القرآن هو إيجاد التغيير في هذه الشعوب كقاعدة ينطلق منها التغيير ويستند إليها في مسيرته الى بقية الشعوب كما حصل ذلك فعلاً.

صحيح أنه قد تكون القصة المنزعة من تاريخ النبوات التي كانت في الهند أو الصين - على فرض وجودها في تلك المناطق وهو فرض منطقي ومقبول جداً - مؤثرة في الشعب الهندي أو الصيني، إلا أن القرآن الكريم كان مهتماً بشكل خاص وفي مرحلة نزوله بتغيير القاعدة التي تتمثل بالشعب العربي والشعوب المتفاعلة معه فعلاً في ذلك الوقت، وضرب الأمثال وسرد القصص عن هذه الأمم، مع أنها لم تكن موجودة في المحيط الذي نزل فيه القرآن، يبعد القصة بأكملها عن الواقعية التي كان يحرص القرآن الكريم على تأكيدها في قصصه، ولم يكن يكفي منها انها مجرد أمثال وتصورات، بل كان يؤكد صدقها.

وبلحاح أن التغيير العام للإنسان الذي كان يستهدفه القرآن أيضاً، أريد له أن يطلق من تلك القاعدة، وهذه القصص هي التي يمكن أن تساهم في تحقيقه. وتبقى النتائج العامة المشتركة بين الأنبياء ذات تأثير عام بالنسبة الى مختلف الشعوب؛ فقصّة النبي الواحد لها تأثير خاص يرتبط بالوسط الذي تواجد فيه ذلك النبي، باعتبارها حالة التجسيد المعاش في ذلك الوسط، وذات التأثير الشعوري والوجداني بالنسبة الى ذلك الوسط، وفي الوقت نفسه يكون للقصة تأثير عام ضمن المفاهيم العامة والسنن التاريخية التي توحى بها القصة، والعبر التي يمكن أن تستلخص منها، وهذا ما يمكن أن تستفيد منه كل الشعوب.

وبذلك يتحقق للقرآن الكريم بعده العام الشامل ويبقى حياً ومؤثراً في هذا الوسط وغيره من الأوساط الانسانية.

ولكن يكون للبعد الأول المتمثل في التأثير الخاص أثره في تحقيق الهدف التغييري في خلق القاعدة التي تنطلق منها الرسالة .

نعم من الصحيح أن نقول أيضاً : إن أنبياء مثل : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى يمثلون الأصول العامة للنبوات في كل العالم ، وكان خاتمهم النبي محمد ﷺ يمثل امتداداً لتلك النبوات ، ولكن نجد أن القرآن لم يتحدث عن هذه الأصول وتفرعاتها فحسب ، بل تحدث عن أنبياء مثل صالح وشعيب وهود ويونس وادريس وغيرهم ممن يمثلون نبوات ليست بهذا القدر من الأهمية على الظاهر . والله هو العالم بحقائق الأمور .

ج - ظاهرة تأكيد دور إبراهيم وموسى ﷺ :

وأما الظاهرة الثالثة : فمن الملاحظ ان القرآن الكريم أكد دور بعض الأنبياء في ذكر تفاصيل حياتهم وظروفهم أكثر من دور بعضهم الآخر وبالخصوص النبي إبراهيم وموسى ﷺ ، مع أن الخصائص العامة التي يراد منها بالأصل استنباط العبرة والموعظة واستخلاص القانون والسنة التاريخية متشابهة ، ولذا تأتي الإشارة الى قصص مجموعة من الأنبياء في كثير من الموارد في سياق واحد ، فهل يعني هذا التأكيد أهمية شخصية هذا النبي وفضله بالمقارنة مع بقية الأنبياء فقط ؟ أو يمكن أن يكون وراء ذلك - إضافة الى هذه الأهمية - مقاصد وأهداف أخرى اقتضت هذا اللون من التأكيد ؟

قد يكون في الحقيقة أن بعض هؤلاء الأنبياء أفضل من بعضهم الآخر كما انه قد يكون هذا (البعض) هو إبراهيم وموسى ، ولكن لا يعني ذلك أن يؤكد القرآن دور هذين النبيين مثلاً ، أو غيرهما كعيسى الذي جاء الحديث عنه بنسبة أقل لمجرد فضلهم ، لأن القرآن بالأصل ليس بصدد تقييم عمل هؤلاء الأنبياء والحديث عن التفاضل بينهم ، وإنما الأهداف الأصلية للقصة التي أشرنا اليها وذكرها القرآن

هي: العبرة والموعظة والتثنية واقامة الحجة والبرهان على صدق نبوة محمد ﷺ ومضمون رسالته:

﴿وكلأ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ (١).

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (٢).

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ (٣).

ولذلك يمكن أن نقول بأن القرآن انما كان يؤكد دور هؤلاء الأنبياء في حديثه عنهم لأنه كان يواجه حقيقة هي: أن هؤلاء الأنبياء اتباعاً واقواماً يرتبطون بهم فعلاً في المجتمع الذي كان يتفاعل القرآن معه عند نزوله، وهذا الامر كان يفرض - من أجل ايجاد القاعدة التغييرية - أن يتحدث عنهم القرآن بأسهاب. أهمية تأكيد دور ابراهيم عليه السلام:

فالنبي ابراهيم عليه السلام كان يمثل لدى القاعدة (المشركين، واليهود، والنصارى) أباً لجميع الأنبياء ويحظى باحترام الجميع.

وتأكيد ارتباط الاسلام وشعائره به له أهمية خاصة في اعطاء الرسالة الاسلامية جذراً تاريخياً ممتداً الى ما هو أبعد من الديانتين اليهودية والنصرانية، ويعطي فكرة التوحيد التي طرحها القرآن على المشركين أصلاً وانتماءً يعيشه هؤلاء المشركون في تاريخهم:

(١) هود: ١٢٠.

(٢) يوسف: ١١١.

(٣) النساء: ١٦٥.

﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو ستاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾^(١).

ويتجلى هذا الربط التأريخي بشكل أوضح بحيث يصبح إبراهيم عليه السلام هو المبشر بالنبي العربي الأمي، وتكون بعثة الرسول محمد ﷺ استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسلاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾^(٢).

إضافة إلى أنه يعطي الرسالة الإسلامية شيئاً من الاستقلال عن اليهودية والنصرانية، ومن ثمَّ عدم الشعور بالتبعية لعلماء اليهود والنصارى:

﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾^(٣).

﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾^(٤).

(١) الحج : ٧٨.

(٢) البقرة : ١٢٧ - ١٢٩.

(٣) آل عمران : ٦٧ - ٦٨.

(٤) البقرة : ١٣٥.

ومن هنا يأتي تأكيد قصة ابراهيم في بناء الكعبة التي جاءت في عدة موارد من القرآن الكريم، وندائه بالحج، وذلك للموقع الخاص الذي كانت تحتله الكعبة بين العرب عامة، وللقرار الذي كان القرآن قد اتخذته يجعل الكعبة قبلة للمسلمين، تأكيداً لاستقلالية الرسالة في كل معالمها لأن صرف الأنظار عن الأرض المقدسة وبيت المقدس الذي كان يحظى بالقدسية الخاصة - وما زال - بسبب نشوء الديانات المختلفة فيه، ووجود ابراهيم وأنبياء بني اسرائيل كلهم في هذه الأرض يحتاج الى اعطاء هذه الأهمية للبيت والكعبة المشرفة وهذا الانتساب الأصيل الى ابراهيم عليه السلام .

أهمية تأكيد دور موسى عليه السلام :

وأما النبي موسى عليه السلام فان موقعه من الديانة اليهودية والشعب الاسرائيلي والانجاز السياسي والاجتماعي الذي حققه لهم، وكذلك ما تحقق من خلال التوراة من تشريع وحكمة وقانون، إضافة الى معاناته الطويلة التي تشبه معاناة رسول الله ﷺ سواء تجاه الطغاة الفراعنة أم المنافقين من الاسرائيليين، أم في توطيد دعائم الحكم الالهي في الأرض، وموقعه من الديانتين اليهودية والنصرانية، لان النصرانية أيضاً كانت تعترف بالتوراة القائمة (العهد القديم) كل هذه الأمور كانت تفرض هذا اللون من التأكيد.

ونجد ملامح الظروف الموضوعية القائمة التي كانت تواجهها الرسالة والقرآن الكريم في موطن نزوله، والمجتمع الذي يعمل على تغييره موجودة في كل هذه الامور المرتبطة بهذين النبيين العظيمين، لأن القرآن كان يعايش ويتفاعل باستمرار مع أهل الكتاب وعلمائهم وأقوامهم، وكان بحاجة الى هذه التفاصيل، والحديث - أحياناً - حتى عن الحياة الشخصية لموسى عليه السلام، لما في ذلك من التأثير في أوساطهم.

خصوصاً وان العرب المشركين كانوا ينظرون الى علماء اليهود -الذين يتصلون بهم أحياناً -أنهم أهل الذكر والكتاب والوحي والمعرفة كما أشار القرآن الكريم الى ذلك، وبذلك يكون القرآن الكريم أكثر تأثيراً في هذه الاوساط أيضاً عندما يتحدث عن النبي موسى عليه السلام .

كما أن القرآن كان يسعى جاداً لاعطاء فكرة أن هذه الرسائل انما تمثل امتداداً واحداً في الوحي الالهي، وانتساباً واحداً الى السماء في الوقت الذي كان يؤكد استقلالية الرسالة الاسلامية، بمعنى أنها ليست تابعة ومتشعبة من التحرك الرسالي أو السياسي للرسالات الأخرى، كما انها ليست عملاً تغييراً في اطار تلك الرسائل، بل هي من جانب مصدقة لها، ولكنها من جانب آخر وفي الوقت نفسه مهيمنة عليها :

﴿وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ (١)

ويتضح ذلك بشكل أفضل بملاحظة سياق الآيات السابقة عليها والتي يشير فيها القرآن الكريم الى نزول التوراة والانجيل والنسبة بينها، والتي تختلف عن نسبة القرآن اليها.

الحديث عن عيسى عليه السلام :

ومن الملاحظ أيضاً -عندما ندرس ظاهرة القصة في ضوء الهدف التغييري - أن القرآن الكريم تعرض لقصص بعض الأنبياء، أو لتفاصيل فيها على الأقل، من أجل أن يزيل ما علق في أذهان الجماعة التي نزل فيها القرآن من أفكار

وتصورات منحرفة عن الأنبياء تنافي عصمتهم أو علاقتهم بالله أو طبيعة شخصيتهم، كما يتضح ذلك بشكل خاص في الحديث عن عيسى عليه السلام الذي تحدث القرآن الكريم عن شخصيته وظروفها أكثر مما تحدث عن أعماله ونشاطاته :

﴿إن مثل عيسى كمثّل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهُوَ القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهُوَ العزيز الحكيم﴾^(١).

وكذلك ما جاء من الحديث في القرآن عن حياة مريم وولادة عيسى في سورة آل عمران أو سورة مريم، أو الاهتمام بمناقشة فكرة الوهية عيسى التي جاءت في عدة موارد، منها ما جاء في سورة المائدة.

دراسة قصة موسى عليه السلام :

بعد دراسة الظواهر السابقة للقصة يحسن بنا أن نتناول قصص الأنبياء موضوعاً من موضوعات التفسير الموضوعي .

ومن هذا المنطلق نجد أمامنا أبعاداً متعددة وكثيرة لدراسة القصة في القرآن الكريم، من أهمها البعد الأدبي والتصويري وكذلك البعد الذي يرتبط ببيان أغراض القصة في هذا الموضوع أو ذاك، إضافة الى الجانب التاريخي أو السنن والمفاهيم العامة التي يمكن انتزاعها منها .

ولكن سوف نتناول هنا مثلاً واحداً للقصة وهو (قصة موسى عليه السلام)، حيث تعتبر قصة موسى عليه السلام من أكثر قصص الأنبياء وروداً في القرآن الكريم وتفصيلاً.

ونعني هنا بالموارد القرآنية لهذه القصة : الموارد التي تحدث القرآن الكريم فيها عن علاقة موسى مع فرعون أو علاقته مع قومه أو لحالة اجتماعية قارنت عصره .

وسوف ندرس قصة موسى في القرآن الكريم لنأخذها نموذجاً لدراسة تفصيلية يمكن أن تستوعب قصص جميع الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم، كما اننا سوف ندرسها من خلال بعض الأبعاد المهمة ذات العلاقة بالمضمون، وبالقدر الذي يتناسب مع هذه الدراسة من حيث الاختصار والمنهج .

١ -دراسة القصة بحسب مواضعها في القرآن الكريم :

ونأخذ النقاط التالية بعين الاعتبار في دراستنا للقصة هذه :

أ -التنبيه الى أسرار تكرار القصة الواحدة في القرآن .

ب -التنبيه الى الغرض الذي سبقت له في كل مقام .

ج -التنبيه الى أسرار تباين الأسلوب في القصة بحسب المواضع .

٢- قصة موسى بحسب تسلسلها التاريخي .

٣- دراسة عامة للقصة من خلال المراحل التي مر بها موسى والموضوعات العامة التي تناولها .

ونكتفي هنا بالتنبيه بشكل اجمالي الى هذه النقاط ، لنترك معالجة جميع التفصيلات وكذلك الأبعاد الأخرى الى دراسة مستوعبة في ظرف آخر .

وعلى هذا الاساس سوف نتناول القصة من زاوية نحو تسعة عشر موضعاً من القرآن الكريم ونترك المواضع الأخرى التي جاءت فيها القصة بشكل إشارات أو تلميحات .

١- قصة موسى عليه السلام بحسب مواضعها من القرآن الكريم :

الموضع الاول :

الآيات التي جاءت في سورة البقرة والتي تبدأ بقوله تعالى :

﴿ واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبجون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ واذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم واغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون ﴾ واذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون ﴿^(١) الى ان يختم بقوله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾^(٢)

(١) البقرة : ٤٩ - ٥١ .

(٢) البقرة : ٧٤

والملاحظ في هذا المقطع :

اولاً: جاء في سياق قوله تعالى ﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واوفوا بعهدي اوف بعهدكم واياي فارهبون ﴾ (١).

ثانياً: انه يتناول احداثاً معينة انعم الله بها على بني اسرائيل مرة بعد الأخرى، مع الإشارة الى ما كان يعقب هذه النعم من انحراف في الايمان بالله تعالى أو في الموقف العبادي الذي تفرضه طبيعة هذا الايمان.

ثالثاً: ان القرآن الكريم بعد أن يختم هذا المقطع يأتي ليعالج المواقف الفعلية العدائية لبني اسرائيل من الدعوة ويربط هذه المواقف بالمواقف السابقة لهم بقوله تعالى :

﴿ أفطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون ... وأني فضلتكم على العالمين ﴾ (٢).

وعلى أساس هذه الملاحظة يمكننا أن نقول : إنَّ هذا المقطع جاء يستهدف غرضاً مزدوجاً وهو تذكير بني اسرائيل بنعم الله المتعددة عليهم، وذلك موعظة وعبرة لهم تجاه موقفهم الفعلي من ناحية، ومن ناحية أخرى كشف الخصائص الاجتماعية والنفسية العامة التي يتصف بها الشعب الاسرائيلي للمسلمين، لثلا يقع المسلمون في حالة الشك والريب في هذه المواقف، فيتصور بعضهم أنها تنجم عن رؤية موضوعية تجاه الرسالة، الأمر الذي جعل اليهود يتوقفون عن الايمان بها، خصوصاً وأنَّ اليهود هم أهل الكتاب في نظر عامة المسلمين فأراد القرآن هنا أن يبين أنَّ هذا الموقف انما هو موقف نفسي وذاتي ومتأثر بهذه الخصائص الروحية والاجتماعية.

(١) البقرة : ٤٠.

(٢) البقرة : ٧٥-١٢٢.

وهذا الغرض فرض اسلوباً معيناً على استعراض الأحداث اذ اقتصر المقطع على ذكر الوقائع التي تلتقي مع هذا الغرض وتتناسب مع هذا الهدف، دون أن يعرض التفصيلات الأخرى للأحداث التي وقعت لموسى عليه السلام مع فرعون أو الاسرائيليين.

الموضع الثاني :

الآيات التي جاءت في سورة النساء، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ الى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نَهَوْنَا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَاعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١).

والملاحظ في هذا المقطع :

أولاً: إنه جاء ضمن سياق عرض عام لمواقف فئات ثلاث من أعداء الدعوة الاسلامية تجاهها وهو موقف المنافقين وموقف اليهود من أهل الكتاب وموقف النصارى من أهل الكتاب، وعرض الموقف الاول يبدأ بقوله تعالى: ﴿بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٢) وعرض الموقف الثاني يبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نَحْنُ مُؤْمِنُونَ بَعْضٌ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾^(٣) وعرض الموقف الثالث يبدأ بقوله تعالى:

(١) النساء : ١٥٣ - ١٦١ .

(٢) النساء : ١٣٨ .

(٣) النساء : ١٥٠ .

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ... ﴾^(١).

ثانياً: إنّ المقطع يتناول بعض الاحداث ذات الدلالة على نبوة موسى، والمواثيق الغليظة المأخوذة على اليهود بصدد الامتثال والطاعة، وموقف اليهود من ذلك والمخالفات التي ارتكبوها، سواء فيما يتعلق بالجانب العقيدي من الفكرة أو بالجانب العملي التطبيقي منها.

وعلى اساس هاتين الملاحظتين يمكن أن نستنتج :

أنّ هذا المقطع من القصة جاء ليوضح أنّ موقف اليهود من الدعوة بطلبهم المزيد من الآيات والبيّنات ليس نابعاً من الشك بالرسالة، وانما هو موقف شكلي ذرائعي يستبطن الجحود والظغيان، ولذا نجد المقطع يكفي بعرض هذا الطلب العجيب الذي تقدم به اليهود الى موسى، ويضيف الى ذلك المواثيق التي أخذت منهم في الطاعة ونكولهم عنها بمخالفاتهم العديدة، الأمر الذي يكشف عن اصرارهم على الجحود والظغيان وأنهم يتذرعون بمثل هذه المطالب.

وقد فرض السياق العام للسورة الكريمة تكرار القصة على أساس ايضاح ومعالجة موقف اليهود من الدعوة الى جانب ايضاح ومعالجة موقف المنافقين والنصارى من أهل الكتاب، لأن هذه المواقف هي المواقف الرئيسة التي كانت تواجهها الدعوة الاسلامية حينذاك.

الموضع الثالث :

الآيات التي جاءت في سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿ واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت

أحدًا من العالمين * يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴿ الى قوله تعالى: ﴿ قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ (١)

ويلاحظ في هذا المقطع :

اولاً: انه جاء في سياق دعوة عامة لأهل الكتاب الى الايمان بالرسول الجديد، مع إيضاح حقيقة رسالته، ومناقشة ما يقوله اليهود والنصارى واقامة الحجة عليهم بذلك، إذ يختم هذا السياق بقوله تعالى :

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾ (٢).

ثانياً: إنّ المقطع يكتفي بأن يذكر دعوة موسى لقومه الى دخول الأرض المقدسة حيث كان دخولها منتهى آمالهم، ولكنهم يأبون ذلك فيكون مصيرهم التيه اربعين سنة.

وعلى أساس هاتين الملاحظتين يمكن أن نستنتج: أنّ القرآن الكريم يبدو وكأنه يريد أن يذكر أهل الكتاب ويفتح الطريق أمامهم لتحقيق أهدافهم الصحيحة من وراء الدين والشريعة بدخولهم دعوة الاسلام، ولا يكون موقفهم كموقف قوم موسى حين دعاهم الى دخول الأرض المقدسة، مع أنّها أمنيتهم وهدفهم، فتفتتهم الفرصة السانحة ويصيبهم التيه الفكري والعقائدي والاجتماعي في عصر نزول الرسالة، كما أصابهم التيه السياسي والاجتماعي من قبل.

ومن هنا نعرف السر الذي كان وراء اكتفاء القرآن الكريم بذكر هذا الموقف الخاص لبني اسرائيل دون غيره لأنه هو الذي يحقق هذا الغرض، خصوصاً اذا

(١) المائدة : ٢٠ - ٢٦.

(٢) المائدة : ١٩.

عرفنا أنَّ هذه القصة مما يؤمن به اليهود والنصارى.

كما أنَّ هذا الجانب من القصة لم يُذكر في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع.
الموضع الرابع :

الآيات التي جاءت في سورة الأعراف والتي تبدأ بقوله تعالى :

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ والتي تختم بقوله تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ ^(١).

ونلاحظ في هذا الموضع من القصة عدة أمور :

الأول : أنَّ القصة جاءت في عرض قصصي مشترك مع قصة نوح ، وهود ، ولوط ، وشعيب ، تكاد تتحدد فيه صيغة الدعوة والتكذيب والعقاب الذي ينزل بالمكذبين.

الثاني : أنَّ هذا العرض القصصي العام يأتي في سياق بيان القرآن الكريم لحقيقة حشر المخلوقات وصورته وأنهم يحشرون أئماً بكاملهم من الجن والانس ، وعلى صعيد واحد يتلاعبون بينهم ، أو يتحابون : ﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أوراهاهم لأولاهم : ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ ^(٢).

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ * ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ،

(١) الاعراف : ١٠٣ - ١٧١ .

(٢) الاعراف : ٣٨ .

ونودوا ان تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴿١﴾. ثم يعرض القرآن الكريم مشاهد متعددة من هذا الحشر وبعض العلاقات التي تسود الناس فيه، وانه تصديق لدعوة الرسل وما بشروا وأنذروا منه.

الثالث: أن القصة على ما جاء فيها من التفصيل واستعراض للحوادث تبدأ في سرد الوقائع من حين بدء البعثة والدعوة، كما انها تذكر الوقائع في حدود المجابهة -التي كان يواجهها الرسول - الخارجية مع فرعون وملئه، والداخلية مع بني اسرائيل وفي اطار بيان ما ينزل بالمكذبين والمنحرفين من عذاب وعقاب واضرار.

الرابع: أن القصة تتناول في معرض حديثها عن الحوادث جوانب من المفاهيم الاسلامية العامة والسنن التاريخية كتأكيد أهمية (الصبر)، و(وراثه المتقين للأرض)، وأن الرحمة لا تنال إلا الذين اتقوا وآتوا الزكاة وآمنوا بآيات الله واتبعوا الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم.

وعلى أساس هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج:

أن القصة جاءت منسجمة مع السياق العام للعرض القصصي ومحقة لأغراضه على ما أشرنا إليه في حديثنا عن أغراض القصة، ومع ذلك فانه لا تغفل عن الفرصة المناسبة لتأكيد المفاهيم الاسلامية العامة منسجمة مع الهدف القرآني العام في التربية.

كما أنها تؤكد بصورة خاصة نبوة محمد ﷺ وكأنها سبقت بتفاصيلها لتحقيق ربط هذه الدعوات والرسالات بهذه النهاية الخاتمة لها، وان هذه المفاهيم والسنن والأهداف التي عاشتها هذه الرسالات سوف تتحقق في نهاية المطاف في اتباع رسالة الاسلام: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم

في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم ... ﴿١﴾.

على أن هناك شيئاً تجدر الإشارة اليه وهو أن القرآن الكريم يهتم عادة بتفصيل قصص الرسل الذين هم من أولي العزم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، ذلك لأغراض متعددة^(٢) يمكن أن يكون من جملتها:

أ- ان هؤلاء الأنبياء يمثلون مراحل مختلفة لرسالة السماء، وأنهم مع صلة القربى والوحدة في دعوتهم نجدهم يشكلون مواضع فاصلة في تطور الدعوة الدينية النازلة من السماء.

ب- ان لبعض هؤلاء الأنبياء اتباعاً وأماً عاشت حتى نزول رسالة الاسلام مما يفرض الاهتمام بمعالجة أوضاعهم وعلاقتهم بدعوة الاسلام الجديدة.

ج- ان أحداثاً مفصلة ومختلفة عاشها هؤلاء مع أمهم وأقوامهم تمثل جوانب عديدة مما تعيشه كل دعوة دينية عامة واسعة النطاق تستهدف تغييراً جذرياً لواقع ذلك المجتمع.

الموضع الخامس :

الآيات التي جاءت في سورة يونس والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه باياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾^(٣) والتي تختم بقوله تعالى: ﴿ولقد بوأنا بني اسرائيل ميثاقاً صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾^(٤).

(١) الاعراف : ١٥٧.

(٢) تحدثنا عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل في بداية هذا الفصل.

(٣) يونس : ٧٥.

(٤) يونس : ٩٣.

وتلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة الأمور التالية :

اولاً: إنّ المقطع جاء بعد مقارنة عرضها القرآن الكريم بين مصير اتباع الحق والمؤمنين بالله وبالرسل والمصدقين بهم، ومصير اتباع الباطل والمفترين على الله والمكذبين بالرسل : ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ... قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴿متاع في الدنيا ثم ألينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾^(١).

ثانياً: إنّ هذا المقطع من القصة جاء بعد اشارة قصيرة الى نبأ نوح وقومه، تتبعها لمحة عامة عن الرسل من بعد نوح وموقف قومهم منهم.

ثالثاً: إنّ المقطع لا يتناول من التفاصيل الا القدر الذي يرتبط بموقف فرعون وملئه من موسى والمصير الذي لاقاه هؤلاء، نتيجة لاعراضهم عن الدعوة وتكذيبهم بها كما انه يشير الى نهاية بني اسرائيل الطيبة بعد معاناتهم الطويلة في المجتمع الفرعوني.

وبعد هذه الملاحظة يمكن ان نستنتج :

أنّ القصة إنّما جاءت هنا من أجل تصديق (الحقيقة) التي ذكرها القرآن الكريم في مقارنته بين الذين آمنوا والذين يفترون على الله الكذب.

كما ان السياق العام هو الذي فرض مجيء القصة بشيء من التفصيل لأن قصة موسى تمثل بتفاصيلها الانقسام بين جماعتين، احدهما مؤمنة به، والاخرى كافرة بدعوته، حيث يقع الصراع بينها وينتهي بالغلبة للمؤمنين على الكافرين، بخلاف قصص الأنبياء الآخرين فانها تعرض في القرآن الكريم على أساس أنّ النبي لم يؤمن به إلا النزر اليسير من الناس، ولذلك ينزل العذاب بقومه بشكل عام؛ فهذه

القصص تمثل جانباً واحداً من المقارنة وهو جانب المصير الذي يواجهه المكذبون والمنحرفون، بخلاف قصة موسى فانها تمثل الجانبين معاً: جانب المؤمنين وجانب المكذبين؛ ومن هنا يمكن أن نفسير مجيء قصة نوح في هذا الموضع مختصرة مع الإشارة العامة لموقف بقية الأنبياء.

إضافة الى ان نوحاً يمثل بداية الأنبياء الذي لاقى قومهم العذاب في قصص القرآن وموسى يمثل نهايتهم وختامهم.

ويؤكد هذا التفسير لسياق القصة ما أشرنا إليه في الملاحظة الثالثة من أن التفاصيل التي تناولها المقطع انحصرت في بيان التزام بني اسرائيل الحق، دون أن تتعرض الى الجوانب الأخرى لموقفهم، والتي تمثل الانحراف والعصيان لأوامر موسى، وهذا الالتزام يكاد يشعرنا ان القصة سبقت لابرار صدق هذه المقارنة في التأريخ الانساني والتي كانت تتحكم في المواجهة التي يلاقيها الأنبياء.

ومن الممكن أن نلاحظ في تكرار القصة بهذا المقطع ملامح السبب الرابع من أسباب التكرار التي ذكرناها سابقاً، حيث إن طريقة عرض القصة في هذا المقطع حققت غرضاً معيناً ما كان يحصل لو عرضت القصة بجميع تفاصيلها كما أشرنا.

الموضع السادس :

الآيات التي جاءت في سورة هود وهي قوله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * الى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد * يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ويؤس الورد * المورود * وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة يؤس الرفض المرفود ﴾ (١).

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة ما يلي :

اولاً: إنه جاء في عرض قصصي عام يبدأ بنوح عليه السلام ويختم بهذه اللوحة عن قصة موسى عليه السلام.

ثانياً: إن هذا العرض العام جاء في سياق الحديث عن مكذبي الرسول صلى الله عليه وسلم وما يجب أن يكون الموقف العام منهم والمصير الذي ينتظرهم في الآخرة، كما انه يختم العرض بما يشبه بيان الغاية منه، وهو قوله تعالى: ﴿ذلك من انباء القرئ نقضه عليك منها قائم وحصيد﴾ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيب * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرئ وهي ظالمة إن أخذهم شديد ﴿^(١)﴾.

ثالثاً: إن المقطع جاء لمحة عابرة عن القصة ونهايتها على خلاف قصص الأنبياء الآخرين التي جاءت في شيء من التفصيل.

ومن هنا يمكن أن نستنتج أن الإتيان بهذا المقطع من القصة كان من أجل إكمال الصورة التي بدأها بنوح وأراد القرآن الكريم ان يختمها بموسى، ليظهر بذلك الارتباط الوثيق بين اسلوب الانبياء في الدعوة الى الله وجهودهم في سبيل هذه الغاية والمواجهة التي كانوا يلاقونها من أمهم واقوامهم، والنتيجة الحاسمة التي كان ينتهي اليها مصير هذه الأمم من العذاب الشديد والعقاب القاسي.

الموضع السابع :

الآيات التي جاءت في سورة ابراهيم وهي قوله تعالى:

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ان أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ واذا قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ انجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * واذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان

عذابي لشديد * وقال موسى ان تكفروا انتم ومن في الأرض جميعاً فان الله لغني حميد^(١).

وبلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة ما يلي :

أولاً : إنّ القرآن الكريم قد مهد لهذه الاشارة بقوله : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾^(٢).

ثانياً : إنّ القرآن يتحدث بعد هذا المقطع من القصة عن المفاهيم العامة التي كان يطرحها الرسل ، والأساليب التي كانوا يسلكونها لتحقيق أغراضهم الرسالية .

ثالثاً : إنّ الحديث عن القصة في المقطع جاء بشكل مختصر وقد أكد المشكلة العامة التي كان يعانيها الاسرائيليون ، والنعمة العامة التي تفضل بها عليهم والدعوة لشكر النعمة وان الله لا يضره كفرانها .

ومن هنا يمكن أن نستنتج :

أنّ المقطع قصد به التمثيل على ' صدق الحقيقة التي أشار اليها القرآن الكريم من مجيء كل رسول بلسان قومه ، حيث قد يراد بلسان القوم اللغة التي يتكلم بها القوم - كما لعله هو الظاهر - ولكن قد يراد من اللسان - كما يشير إليه السياق - هو الجوانب والمشاكل الاجتماعية والسياسية والانسانية المثيرة التي تستقطب اهتمام الأمة ونظرتها ومشاعرها ، فيكون تأكيدها اسلوباً ولساناً لالقات نظر الأمة الى الدعوة وقيمتها الروحية والاجتماعية ، ولذا جاءت قصة موسى مثلاً لهذه الحقيقة لأنه دعا لاتخاذ قومه من مشكلة اجتماعية عامة كانوا يعانونها .

ولعل ما يؤكد هذا القصد هو أنّ العرض جاء بلسان الخطاب الى القوم لا بلسان الحديث عن القضايا والأحداث .

(١) ابراهيم : ٥ - ٨ .

(٢) ابراهيم : ٥ .

ولما كانت الغاية الحقيقية من ارسال الرسل هي هداية الناس وارشادهم، لذلك نجد القرآن الكريم، بعد هذه الاشارة الى قصة موسى وتصديق الحقيقة يعود فيتحدث عن المفاهيم العامة التي كان يطرحها الرسل، على أساس انها الشيء المطلوب من الناس التصديق به، دون أن يكون للاسلوب المعين المتبع في تحقيق هذا الهدف أهمية ذاتية خاصة.

الموضع الثامن :

الآيات التي جاءت في سورة الاسراء وهي قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون اني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الآ رب السماوات والارض بصائر واني لأظنك يا فرعون مثيراً ﴾ فأراد أن يستفزهم من الارض فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾ وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيقاً ﴿^(١).

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة ما يلي :

اولاً: أنه جاء في سياق المطالبات التعجيزية المتعددة التي كان يقترحها المشركون والكفار على الرسول ﷺ وعدم اكتفائهم بالقرآن الكريم دليلاً ومعجزة على النبوة : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الاّ كفوراً ﴾ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً ﴾ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب تفجر الانهار خلالها تفجيراً ﴾ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ﴾^(٢).

ثانياً: إن القرآن الكريم يعقب على القصة بالحديث عن القرآن بقوله :

(١) الاسراء : ١٠١ - ١٠٤.

(٢) الاسراء : ٨٩ - ٩٢.

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾^(١).

ثالثاً: إن القرآن لم يشر في هذا المقطع من القصة إلا إلى الآيات التسع التي جاء بها موسى، ورفض فرعون لدعوته ومصيره نتيجة لهذا الرفض.

ويمكن أن نستنتج من هذه الملاحظة:

أن القصة إنما جاءت هنا شاهداً على أن هذه المطالب المتعددة التي صدرت من الكفار لم تكن بسبب حاجة نفسية يحسها هؤلاء الكافرون تجاه هذه المطالبات وإنما هو أسلوب عام يتذرع به الكفار للتأدي في الضلال والاصرار عليه، والشاهد على ذلك قصة موسى عليه السلام، حيث جاء موسى بتسع آيات ومع ذلك فقد كان موقف فرعون منها موقف المكذبين، بالرغم من أن هذه الآيات التسع جاءت في أزمنة متعددة.

فالسباق هو الذي فرض الاتيان بالقصة على أساس الاستشهاد بها وهذا شيء تفرضه طبيعة الواقع التاريخي لرسالة موسى الذي أرسله الله سبحانه بالآيات التسع.

كما ان التكرار كان بسبب تأكيد مفهومي:

الأول: أن طلبات الكفار وتمنياتهم ليست نتيجة لواقع نفسي يدعوهم إلى الشك بالرسالة ويفرض عليهم التأكد من صحتها، ولا يكون عدم اتيان الرسول بمطالبهم حينئذ بسبب فقدان صلته بالسماء، وإنما بسبب كفاية القرآن الكريم لإقامة الحجة عليهم، كما دلت الآية الكريمة بعد القصة على ذلك.

الثاني: ان مصير هؤلاء المكذبين كمصير فرعون من الهلاك والهزيمة، وان اتباع النبي يصيرون إلى ما صار عليه بنو اسرائيل من وراثة الأرض.

الموضع التاسع :

الآيات التي جاءت في سورة الكهف والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لفته لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقياً ﴾ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً^(١) والتي تختتم بقوله تعالى: ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ريك أن يبلغا أشدهما فيستخرجا كنزهما رحمة من ريك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾^(٢).

ويبدو هذا المقطع منفصلاً عن قصة موسى المذكورة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، لأنه يتحدث عن جانب معين من شخصية هذا الانسان يختلف عن الجوانب الأخرى التي تصورها القصة، والتي تظهر فيها شخصية موسى النبي صاحب الرسالة والدعوة الذي يجاهد من أجل التوحيد واقامة العدل الالهي والدفاع عن المستضعفين، أو تتحدد فيها معالم هذه الشخصية من خلال سيرته ونشأته الذاتية؛ أما هنا فيبدو موسى الانسان الذي يسير في طريق التعلم والحريص على تفسير الظواهر غير العادية.

وحين نلاحظ أن القرآن الكريم يأتي بهذا المقطع في سياق قوله تعالى: ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ تلك القرى أهلكتهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً^(٣) قد نستنتج أن الاتيان به كان من أجل التدليل على مدى مطابقة الحكمة الالهية للمصلحة وانسجامها مع واقع الأشياء مهما بدت غير واضحة المقصد والهدف.

(١) الكهف : ٦٠ - ٦١.

(٢) الكهف : ٨٢.

(٣) الكهف : ٥٨ - ٥٩.

فان هاتين الآيتين اللتين جاء المقطع في سياقها تشيران الى وجود حكمة الهية من وراء تأخير العذاب وعدم التعجيل به مع استحقاق الظالمين له، مع انه قد يبدو في النظرة السطحية الانسانية ان التعجيل بالعذاب أوفق بالمصلحة، حيث يكون رادعاً للآخرين عن الظلم، فجاء المقطع تأكيداً لحقيقة الحكمة الالهية ونظرتها البعيدة، وان هذه الحكمة قد تخفى حتى على الأنبياء أنفسهم؛ حيث نلاحظ في هذا المقطع ثلاثة أعمال وتصرفات يقوم بها العبد الصالح كلها تبدو في ظاهرها أنها بعيدة عن العدل والمصلحة، الأمر الذي يثير استغراب موسى الى الحد الذي يجعله يتخلى عن التزامه السابق بعدم السؤال، ثم يشرح العبد الصالح هذه الاعمال ويبين مدى انسجامها مع العدل والمصلحة العامة.

فالسباق العام للسورة هو الذي فرض الاتيان بالقصة في هذا المورد، ولا حاجة الى تكراره في مواضع أخرى مستقلاً أو في سرد الحوادث لأنه، لا يحقق الغرض الذي جيء به في هذا المورد.

الموضع العاشر :

الآيات التي جاءت في سورة مريم وهي قوله تعالى: ﴿ واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً وكان رسلاً نبياً ﴾ وناديناه من جانب الطور الايمن وقريناه نجيا * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴿^(١).

وقد جاءت هذه اللمحة من القصة في عرض قصصي مشترك عن الأنبياء، وذلك بصدد تعداد من أنعم الله عليهم من عباده وانبيائه، ومقارنتهم بمن خلف بعدهم ممن أضاع الصلاة واتبع الشهوات : ﴿ اولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل ومن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة

واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً^(١).

فالسباق العام هو الذي فرض مجيء هذه القصة بهذا الشكل من العرض والاختصار وذلك لتعداد العباد الصالحين ونعمة الله عليهم.

الموضع الحادي عشر :

الآيات التي جاءت في سورة طه والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ اذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى^(٢). والتي تختتم بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تَخْلَفَنَّهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٣).

ونلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة الأمور التالية :

الأول : ان القصة جاءت في سياق بيان أن القرآن الكريم لم ينزل من أجل أن يشقى النبي ويتألم، مجرد أن قومه لم يؤمنوا به أو يظن في نفسه التخلف والتقصير أو القصور عن أداء الرسالة، وإنما نزل القرآن تذكرة لمن يخشى من الناس : ﴿طه﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى﴾^(٤).

الثاني : ان هذا المقطع القرآني ينتهي بقوله : ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾^(٥).

الثالث : ان المقطع يؤكد بشكل خاص ملامح معاناة النبي موسى عليه السلام في سبيل

(١) مريم : ٥٨ - ٥٩ .

(٢) طه : ٩ - ١٠ .

(٣) طه : ٩٧ - ٩٨ .

(٤) طه : ١ - ٣ .

(٥) طه : ٩٩ .

الدعوة، سواء في ذلك المعاناة النابعة من الذات : من الانفعالات والخاوف النفسية أو الحرص الشديد على نجاح الدعوة وسلامتها والتزام أبنائها بها، أو التي تكون نتيجة العقبات والمشاكل والصعوبات التي تثار عند المواجهة والتطبيق سواء من قبل الكافرين بالدعوة أصلاً أو المؤمنين بها، أو نعم الله وأطافه به من خلال ذلك. فهناك عدة انعكاسات لمواقف الرسالة والدعوة في ذات موسى :

الأول : مفاجأته بالرسالة، وكذلك فزعه من المعجزة وتحول العصا إلى حية. الثاني : تردده في الاقدام على الدعوة بمفرده، وطلبه انضمام أخيه هارون إليه. الثالث : خوفه مع أخيه من التحدث إلى فرعون ومواجهته بالدعوة، مع أنها أمراً أن يقولوا قولاً لنا.

الرابع : احساسه بالخوف من سحرهم وتوجسه من نتائج المباراة. الخامس : موقفه مع ربه في المواعدة ومخاطبة الله له بأنه قد أعجل عن قومه. السادس : غضب موسى وأسفه وموقفه الصارم من قومه وأخيه والسامري. وقد صاغ القرآن الكريم هذه الانفعالات من خلال طريقة العرض على الشكل الذي يؤكد معاناة النبي ويبرز ملامح شخصيته، حيث كان يؤكد في طريقة العرض ضمير المخاطبة سواء بين الله وموسى أو بين موسى والآخرين.

وإضافة إلى ذلك نجد أمام موسى عليه السلام مجموعة من العقبات والمشاكل الحقيقية المهمة مثل محاولة السحرة تضليل الناس، أو استخدام فرعون لاسلوب القمع والتهديد به، أو مطاردة فرعون وجيشه لموسى وبني اسرائيل في محاولتهم للعبور، أو فتنة السامري للاسرائيليين وقردهم على هارون.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نستنتج :

أولاً : إنَّ القصة سبقت لابرار معاناة الأنبياء في دعواتهم بصفاتها نتيجة طبيعية لعظم المسؤولية التي يتحملونها والمشاكل التي تواجههم، وبشكل خاص تشير

الى المعاناة الذاتية، ويشهد لذلك أن القصة تؤكد المواقف التي تظهر فيها انفعالات الرسول كما انها تؤكد ما ينعم به الله على الرسول خلال المجابهة، وحين ينتهي عرض دور الانفعال نجد القصة تنتقل الى عرض الدور الآخر دون أن تقف عند المشاهد الأخرى، فهي مثلاً تنتقل من العبور الى المواعدة رأساً.

كما اننا حين نقارن بين هذا المورد الطويل من القصة والمورد السابق الطويل منها الذي جاء في سورة الأعراف، أو المورد الثالث الطويل منها الذي يأتي في سورة القصص نجد هذا المورد هو الوحيد بينها يؤكد بهذا التفصيل هذه الملامح لشخصية الرسول.

ثانياً: إن السبب الذي فرض على القصة هذا الاسلوب الخاص من العرض والتصوير واقتضى في نفس الوقت بعض التكرار هو مخاطبة الرسول وتخفيف الألم والعذاب النفسي للذين كان يعانيتها تجاه الدعوة ويدلنا على ذلك ما لاحظناه في الامر الاول والثاني، حيث استهدف القرآن الكريم ابراز الصلة الوثيقة بين ما يعانيه رسول الله ﷺ في دعوته وبين ما كان الانبياء السابقون يعانونه: ﴿ما انزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ * الآ تذكرة لمن يخشى ﴿ * كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً﴾.

الموضع الثاني عشر :

الآيات التي جاءت في سورة الشعراء والتي تبدأ القصة فيه بقوله تعالى: ﴿واذ نادى ريك موسى ان ائت القوم الظالمين﴾ * قوم فرعون لا يتقون ﴿^(١) والتي تختم بقوله تعالى: ﴿ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ * وان ريك هو العزيز الرحيم ﴿^(٢).
وبلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة الأمور التالية :

(١) الشعراء : ١٠ - ١١.

(٢) الشعراء : ٦٧ - ٦٨.

الاول : أن المقطع من القصة جاء بعد عتاب من الله سبحانه لرسوله محمد ﷺ في اجهاده لنفسه وارهاقها حتى يكاد يقتلها بسبب ان قومه لم يكونوا مؤمنين : ﴿ لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين ﴾ ^(١) وبعد هذا العتاب يذكر القرآن الكريم قانوناً اجتماعياً يتحكم في التأريخ وهو أن كل ذكر جديد من الله سبحانه يحدث ردة فعل كهذه لدى الكفار حيث يقاومونه ويعرضون عنه، ولم يكن ذلك بسبب عجز الله سبحانه وعدم قدرته على اخضاعهم لرسالته وارغامهم عليها : ﴿ ان نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين * وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ ^(٢).

الثاني : أن القرآن الكريم ينبه - بعد هذا التفسير العام للتأريخ - الى أن هذا الموقف العام للكافرين تجاه الذكر لم يكن بسبب عدم توفر الدليل الصالح على صحة الرسالة : ﴿ أو لم يروا الى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم * ان في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين * وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ ^(٣).

الثالث : أن هذا المقطع جاء في عرض قصصي مشترك للانبياء يتميز بطابع خاص الى جانب هذا التفسير التأريخي للموقف العام وهو أن كل نبي نجده يبذل جهده في استعمال الاساليب المختلفة من الكلام اللين الهادئ أو التذكير بالنعم الالهية الظاهرة التي يتمتع بها أقوامهم، وقد يعضد أقواله هذه أحياناً بآية ومعجزة سبوية تشهد له على صحة دعوته، ومع كل ذلك تكون النتيجة واحدة ويختتم بقوله تعالى : ﴿ ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾.

الرابع : أن القرآن الكريم بعد أن يأتي على نهاية العرض القصصي المشترك هذا

(١) الشعراء : ٣.

(٢) الشعراء : ٤ - ٥.

(٣) الشعراء : ٧ - ٩.

يرجع فيتحدث عن (آيات الكتاب المبين) بوصفها شيئاً مرتبطاً بالسما ومنتصفاً بجميع الصفات التي تبرز هذا الاتصال، مما يسمح لذوي البصيرة والقلوب النيرة ان يطلعوا على واقعه ويهتدوا به.

وعلى أساس هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج أن القصة جاءت لتحقيق هدفين ضمن عرض قصصي مشترك :

أحدهما : ايضاح القانون الطبيعي الذي يتحكم في مواجهة الافكار الالهية الجديدة، وان تلك الكافرين في الايمان بالدعوة الاسلامية ورسالتها ليس بسبب تخلف الرسول ﷺ عن المستوى الأمثل للعمل والنضال، أو نتيجة لعدم توفر الأدلة الكافية على صحة الرسالة، وانما هو قانون عام له أسبابه النفسية والاجتماعية الأخرى وخضعت له الرسالات الالهية كلها.

والآخر : ان النهاية سوف تكون لعباد الله الصالحين وانهم هم الذين يرثون الارض، ومن أجل الفات النظر الى هذا الهدف - الذي قد يضع ضمن العرض العام للقصص - وتأكيده جاءت قصة موسى بشيء من التفصيل الذي يؤكد هذا الجانب، ويمكن أيضاً أن نفسر التكرار للقصة بأحد السببين التاليين أو كليهما :

الاول : تأكيد هدف وغرض سبق أن استهدفه القرآن الكريم من قصة موسى نفسها في سورة طه وهو التخفيف من الالم الذي يعانيه الرسول ﷺ وهذا هو السبب الثاني من الاسباب الموجبة للتكرار.

الثاني : أن القصة استهدفت غرضاً دينياً جديداً وهو تصوير المفهوم الاسلامي العام عن طبيعة موقف المشركين تجاه الرسالة، وانه هو الموقف العام لهم تجاه كل الرسالات، وهذا هو السبب الاول من الأسباب الموجبة للتكرار.

وقد جاءت القصة في اسلوبها وطريقة عرض الاحداث فيها منسجمة مع أهدافها وأغراضها حيث تناولت جوانب معينة من حياة موسى وعرضت بشكل

خاص تنتهي عند هذه الاهداف؛ فنجد الحديث في القصة مثلاً ينتهي عند العبور، كما انها أكدت شكل الأسلوب الذي سار عليه موسى وهارون في مخاطبة فرعون.

الموضع الثالث عشر :

الآيات التي جاءت في سورة النمل والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ اذ قال موسى لاهله اني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾^(١) والتي تختم بقوله تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾^(٢).

ويلاحظ في هذا المقطع القصير الذي يتحدث عن القصة بشكل عام الامور التالية :

الاول: أنَّ القصة جاءت في سياق التحدث عن الكافرين بالآخرة وما سوف يلاقون من عذاب، وعن واقع نزول القرآن وتلقيه: ﴿ ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون * اولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الاخسرون * وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾^(٣).

الثاني: أنَّ هذا المقطع يختم بقوله تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾.

الثالث: أنَّ المقطع على اختصاره يكاد يختص بذكر الحوادث والآيات الغيبية، فهو يذكر المناذرة ومعجزة العصا واليد، ويشير الى الآيات التسع.

وهذه الملاحظة تدعونا لان نستنتج: أنَّ القصة سقت لظهار حقيقة من

(١) النمل : ٧.

(٢) النمل : ١٤.

(٣) النمل : ٤ - ٦.

الحقائق التي ترتبط بالجانب النفسي للمجتمع الذي يواجه دعوة جديدة، وهذه الحقيقة هي أنّ نكران الآخرة وعدم الايمان بها انما يقوم على أساس نفسي وعاطفي لا على أساس موضوعي ودراسة علمية، هذا الشيء الذي عبر عنه القرآن الكريم بالمحود، وذلك لان الدراسة الموضوعية كانت تقتضي ان تنتهي الحالة بالناس الى الايمان بالآخرة بعد ان أكدت الآيات والمعاجز ارتباط النبي بعالم الغيب، وهذه الآيات والمعاجز توفر عناصر اليقين عند الانسان العادي الذي يعيش وضعية عاطفية مستوية ومستقيمة ونتيجة لذلك (وهو عدم الايمان بالرغم من توفر الادلة والحجج) ينزل العذاب بالكافرين بعد أن لم يستجيبوا للحقائق والأدلة.

ولا يفوتنا ان نبه هنا الى نكتة دقيقة ولطيفة وشاهد يؤكد لنا أنّ القصة سبقت لهذا الغرض هو أنّ القرآن يصور لنا خوف موسى من العصا بالشكل الذي يدعوه الى الهروب، وفي هذا تأكيد ان هذا التحول في حالة (العصا) كان نتيجة تدخل غيبي ولذا ترك أثره على موسى نفسه، لا أنه نتيجة عمل بشري قام به موسى، ولعل السر في تكرار القصة هنا هو السببان التاليان :

الاول : أنّ المقطع جاء في عرض قصصي مشترك لتأكيد تفسير اسلامي لموقف المنكرين للقرآن والدعوة على اساس عدم كفاية الآيات والمعجزات لاثباتها وقد عرفنا في هذا التأكيد السبب الثاني للتكرار كما سبق.

الثاني : أنّ القصة جاءت مختصرة في تصوير الموقف وهذا يدعونا لان نرى أنّها وردت في مرحلة متقدمة من مراحل الدعوة حين كان يعالج القرآن مشاكلها بشكل مختصر، وهذا ما ذكرناه سبباً ثالثاً للتكرار.

الموضع الرابع عشر :

الآيات التي جاءت في سورة القصص والتي تبدأ بقوله تعالى : ﴿ نتلو عليك من

نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴿^(١)﴾ والتي تختم بقوله تعالى: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ ﴿^(٢)﴾.

ويلاحظ في هذا المقطع من القصة الامور التالية :

الاول : أنَّ السورة تكاد تبدأ بالقصة دون ان يسبقها شيء عدا آيتين : هما قوله تعالى: ﴿طسم﴾ تلك آيات الكتاب المبين ﴿^(٣)﴾.

الثاني : أنَّ القرآن الكريم يأتي في سياق القصة بعدها بقوله تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين﴾ * ... وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين﴾ * وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴿^(٤)﴾.

الثالث : ان القصة تذكر تفاصيل وحوادث ذات طابع شخصي من حياة موسى عليه السلام تكاد تكون جانبية، كحادثة القائه في اليم، واستنقاذ آل فرعون له، ورفضه للرضاعة من غير أمه، وقتله الرجل ثم محاولته قتل الآخر وهروبه، ثم قضية زواجه مع تفاصيلها.

الرابع : ان القصة تبدأ بذكر أحكام عامة عن الوضع الاجتماعي حينذاك والغاية المتوخاة من تغييره: ﴿ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين﴾ * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ * ونمكن

(١) القصص : ٣.

(٢) القصص : ٤٢.

(٣) القصص : ١ - ٢.

(٤) القصص : ٤٤ - ٤٦.

لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿١١﴾.

وعلى ضوء هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج ان القصة استهدفت أمرين :

الاول : ان القرآن الكريم كتاب منزل من الله سبحانه وتعالى وانه ليس من صنع محمد ﷺ، وهذا هو الهدف الرئيس من سرد القصة في هذا المورد - كما يشير الى ذلك الأمر الأول والثاني - وهو في نفس الوقت من الأهداف المهمة التي يؤكد بها القرآن الكريم في مناسبات كثيرة لما له من تأثير في سير الدعوة.

وبهذا يمكن أن نفسر ما أشرنا إليه في الأمر الثالث، لأن في الحديث عن تفاصيل جانبية من حياة الرسول دلالة قوية على ارتباط القرآن بعالم الغيب، حيث من المفروض أن لا يطلع على هذه التفاصيل جميع الناس لأنها تعيش حياة الرسول حين كان فرداً عادياً في المجتمع، على خلاف تفاصيل حياته بعد النبوة فانها - بطبيعة الحال - تكون معروفة للناس لتسليط الأضواء على شخصيته من قبلهم.

الثاني : ايضاح أن عملية التغيير الاجتماعي قد تتم حتى في أبعد الظروف ملاءمة واحتمالاً، وفي ظل أشد ظروف الظلم والاضطهاد والطغيان، بحيث تبدأ عملية التغيير من نقطة هي في منتهى البعد والضعف نسبة لهذه العملية وذلك نتيجة للايمان الواعي بالله وما يستلزمه ذلك من الاصرار والصبر على تبني العقيدة والنضال من أجلها.

ولذلك نجد القصة في هذا الموضع تؤكد ملامح الاضطهاد الذي كان يعانيه المجتمع بشكل عام والاسرائيليون بشكل خاص، كما تؤكد الوضع القاسي الذي كان يعيشه شخص الرسول في كونه منذ البداية في معرض خطر الموت والهلاك، ثم مطارداً من المجتمع بتهمة القتل العدواني، ثم مهاجراً وبعيداً عن المواقع الطبيعية لحركة التغيير. وفي هذين الهدفين ما يبرر التكرار الذي يمكن أن يكون بالسبب

الأول أو الثاني من أسباب التكرار.

الموضع الخامس عشر :

الآيات التي جاءت في سورة المؤمن والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾ إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴿^(١) والتي تحتم بقوله تعالى: ﴿ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ فوفاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴿^(٢).

ويلاحظ في هذا المقطع من القصة ما يلي :

الاول : ان السورة التي جاء فيها هذا المقطع تتحدث في مطلعها عن مصير من يجادل في آيات الله : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغفرك تقلبهم في البلاد ﴾^(٣).

الثاني : ان القصة تأتي في سياق أن هذا المصير للمجادلين نتيجة طبيعية لعنادهم بعد أن تأتيهم البينات فيكفرون بها : ﴿ أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الارض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾^(٤).

الثالث : أن القصة تؤكد بشكل واضح موقف مؤمن آل فرعون والاساليب التي استعملها في دعوته لهم ومحاولته ذات الجانب العاطفي في هدايتهم مع تذكيرهم بمصير من سبقهم من الأمم وما ينتظرهم نتيجة لعنادهم وكفرهم. وقبالة هذا الموقف يظهر لنا موقف فرعون وقد تمادى في غيئه حتى حاول أن يطلع على اله موسى.

(١) المؤمن : ٢٣ - ٢٤.

(٢) المؤمن : ٤٤ - ٤٥.

(٣) المؤمن : ٤.

(٤) المؤمن : ٢١.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نستنتج: أن القصة سبقت لتوضيح مصير من يجادل في آيات الله، مع ايضاح الفرق بين الاسلوب الذي يستعمله الداعية والاسلوب الذي يستعمله المجادل والكافر، وان العذاب لا ينزل بهؤلاء إلا بعد أن تتم الحجة عليهم.

وان الهداية والحجة من الوضوح بحيث يمكن أن يقتنع بها حتى أولئك الأشخاص الذين يعيشون في الوسط المتنفذ والمترف - كما هو الحال بالنسبة الى مؤمن آل فرعون - كما انها تؤكد الدور الذي يجب أن يقوم به الانسان تجاه هداية الآخرين، وأنها مسؤولية شرعية وانسانية يتحملها كل الناس حتى لو كان من الوسط الضال، كما فعل مؤمن آل فرعون.

وفي هذا العرض القرآني للقصة يظهر لنا أيضاً هذا الامتزاج بين الرحمة والغفران، وبين التقمة وشدة العذاب: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾^(١) فان الله سبحانه يجعل تحت متناول عقول عباده وأنظارهم آياته وأدلتة وبراهينه، ويتوسل الى هدايتهم بالوسائل المختلفة التي لا تشل عنصر الاختيار فيهم، كل ذلك رحمة منه وفسحة لقبول التوبة والاستغفار، ولكنه مع ذلك لا يعجزه شيء عن عقابهم أو القدرة على انزال العذاب فيهم.

الموضع السادس عشر:

الآيات التي جاءت في سورة الزخرف والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فقال اني رسول رب العالمين﴾^(٢) والتي تختم بقوله تعالى: ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفاً ومثلاً

(١) المؤمن : ٣.

(٢) الزخرف : ٤٦.

لآخرين ﴿^(١)﴾.

ويلاحظ في هذا الموضع من القصة ما يلي :

ان هذا المقطع القرآني من القصة جاء في سياق الحديث عن شبهة أثارها الكفار في وجه الدعوة : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ^(٢).

وقد ناقش القرآن الكريم هذه الشبهة من ناحيتين :

الاولى: أن الرزق والمال ليس عطاء بشرياً أو نتيجة للجهد الشخصي والذكاء والعبقرية والفضل فحسب بل هو عطاء الهي له غاية اجتماعية تنظيمية : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ ^(٣).

الثانية : أن هذا العطاء الالهي المادي ليس مرتبطاً بالفضل والامتياز عند الله والقربى لديه كما هو شأن العطاء البشري ومقاييسه، بل قد يكون العكس هو الصحيح : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾ ^(٤). فان ظاهر هذه الآية الكريمة هو أنه لولا مخافة أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ... وقد يكون ذلك تعويضاً لهم عما يلحق بهم من الخسران والعذاب في الدار الآخرة فان «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» ^(٥).

ومن هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج :

(١) الزخرف : ٥٥ - ٥٦ .

(٢) الزخرف : ٣١ .

(٣) الزخرف : ٣٢ .

(٤) الزخرف : ٣٣ .

(٥) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٣٦٣ .

ان هذا المقطع جاء ليضرب مثلاً واقعياً تجاه هذه الحقيقة والفكرة التي عاشتها الانسانية، وهذا المثل هو موقف فرعون من دعوة موسى؛ حيث نزلت الرسالة على شخص فقير مطارد ويتعرض قومه الى الاضطهاد، مع أن فرعون هو صاحب الثروة والغنى.

والذي يؤكد هذا الاستنتاج إن المقطع يتبنى اظهار جانب ما يتمتع به فرعون من ثروة وملك وغنى في مقابل موسى الذي هو مهين على حد تعبير فرعون وليس في المواضع الأخرى من القرآن ما يشبه هذا الموقف من فرعون. فالتكرار فرضه السياق القرآني الى جانب تحقيق الغرض الديني.

الموضع السابع عشر :

الآيات التي جاءت في سورة الذاريات وهي قوله تعالى : ﴿ وفي موسى اذ أرسلناه الى فرعون بسطان مبين * فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو ملجم ﴾^(١).

وهذه اللمحة العابرة التي تأتي في عرض قصصي مشترك عن الانبياء من أجل تعداد آيات الله سبحانه، واثبات صدق الدعوة والنبوة، نجد اسلوب السورة المكية الذي كان يفرض طبيعة الموقف فيه ذكر القصص القرآنية بشكل مختصر وعابر. الموضع الثامن عشر :

الآية التي جاءت في سورة الصف : ﴿ واذا قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون اني رسول الله اليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾^(٢).

وفي هذه اشارة الى موقف معين لبني اسرائيل تجاه موسى، حيث آذوه مع

(١) الذاريات : ٣٨ - ٤٠.

(٢) الصف : ٥.

علمهم بنبوته، وقد كان الغرض من الإشارة إليه هو مقارنة موقف أصحاب النبي ﷺ تجاهه وموقف هؤلاء تجاه موسى، وكذلك موقف بني إسرائيل تجاه عيسى عليه السلام من تكذيبه ومخالفته بعد أن جاءهم بالبينات، وفي هذا تذكير لأصحاب النبي وتحذير لهم من الوقوع في مثل هذه المواقف والمخالفات، وإلا لساووا في طريق النفاق، وكانوا ممن يقولون ما لا يفعلون، كما يدل السياق على ذلك.

الموضع التاسع عشر:

الآيات التي جاءت في سورة النازعات، وهي قوله تعالى:

﴿ هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ (١).

وهذا المقطع القرآني من القصة ينسجم مع السياق العام للسورة التي تتحدث عن الحشر وتصور قدرة الله سبحانه على تحقيقه (بزجرة) واحدة، لأن الموقف فيها ينتقل من دعوة موسى لفرعون مع ما له من القدرة الدنيوية وتكبره وتجبره وعظمته، إلى أخذ الله سبحانه له نكال الآخرة والأولى، فان هذا الانتقال يصور لنا هذه السرعة والقدرة في الحشر والنشر، ولذا نجد القرآن يرجع بعد اعطاء هذه الصورة الواقعية عن القدرة إلى الاستدلال على هذه الحقيقة بأدلة وجدانية: ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها ﴾ (٢).

وهذا المقطع القرآني من القصة ينسجم مع السياق العام للسورة التي تتحدث

(١) النازعات: ١٥ - ٢٥.

(٢) النازعات: ٢٧ - ٣٢.

عن الحشر وتصور قدرة الله سبحانه على تحقيقه (بزجرة) واحدة، لأن الموقف فيها ينتقل من دعوة موسى لفرعون مع ما له من القدرة الدنيوية وتكبره وتجبره وعظمته، الى أخذ الله سبحانه له نكال الآخرة والأولى، فان هذا الانتقال يصور لنا هذه السرعة والقدرة في الحشر والنشر، ولذا نجد القرآن يرجع بعد اعطاء هذه الصورة الواقعية عن القدرة الى الاستدلال على هذه الحقيقة بأدلة وجدانية : ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاًها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها﴾^(١).

٢- قصة موسى عليه السلام في القرآن بحسب تسلسلها التاريخي^(٢) :

الاسرائيليون في المجتمع المصري :

لقد عاش الاسرائيليون في المجتمع المصري وتكاثروا فيه منذ هجرة يوسف وأبيه يعقوب وبقية أولاده الى مصر، وقد اضطهد الفراعنة الاسرائيليين في الحقبة السابقة على ولادة موسى، وبلغ الاضطهاد درجة مريعة حين اتخذ الفراعنة قراراً بذبح أبناء الاسرائيليين واستحياء نسائهم من أجل الخدمة والعمل، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يتفضل على هؤلاء المستضعفين وينقذهم من حلتهم هذه فهياً لهم نبيه موسى فعلم على انقاذهم من الفراعنة^(٣) وهدايتهم من المجتمع الوثني الى المجتمع التوحيدي .

ولادة موسى وارضاعه :

وحين ولد موسى عليه السلام أوحى الله سبحانه الى أمه أن ترضعه وحين تخاف عليه

(١) النازعات : ٢٧ - ٣٢.

(٢) نذكر من أحداث القصة بمقدار ما تعرض له القرآن الكريم .

(٣) الاعراف : ١٤١، ابراهيم : ٦، القصص : ٣ - ٦.

من الذبح العام فعليها أن تضعه في ما يشبه الصندوق وتلقيه في اليم، وهكذا شاءت ارادة الله أن يلقيه اليم الى الساحل، وإذا بآل فرعون يلتقطونه فيعرفون أنه من أولاد بني اسرائيل، فتدخل امرأة فرعون في شأنه وتطلب أن يتركوه لها على أن تتخذه خادماً أو ولداً تأنس به مع فرعون.

وقد عاشت والدة موسى لحظات حرجة من حين القائه في اليم، فأمرت أخته أن تقص أثره وتتبع سير الصندوق فتتعرف على مصيره. ففعلت، وحين عرض الطفل على المرضعات أبى أن يقبل واحدة منهن، فانتهزت أخته هذه الفرصة، فعرضت على آل فرعون أن تدلهم على امرأة مرضعة تتكفل رعايته وحضانتها وارضاعه، وكانت هذه المرأة بطبيعة الحال هي أم موسى، وهكذا رجع الطفل الى أمه ليطمئن قلبها وتعلم ان ما وعدھا الله سبحانه من حفظه وارجاعه اليها حق لا شك فيه. ولقد شب موسى في البلاط الفرعوني حتى إذا بلغ أشده وهبه الله سبحانه العلم والحكمة^(١).

خروج موسى من مصر :

ودخل موسى المدينة في يوم ما ﴿ على حين غفلة من أهلها ﴾ (متنكراً) فوجد فيها رجلاً من شيعته (من الاسرائيليين) يقاتل رجلاً آخر من اعدائه (الفرعونيين) فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فوكزه موسى فقضى عليه ولم يكن ينتظر موسى أن تؤدي هذه الضربة الى الموت، ولذلك ندم على هذا العمل المتسرع الذي انساق اليه، فاستغفر ربه عليه.

وأصبح موسى في المدينة خائفاً يترقب أن ينكشف أمره فيؤخذ بدم الفرعوني، فينزل الى المدينة مرة أخرى فاذا به يواجه قضية أخرى متشابهة، وإذا الذي استصره بالأمس فنصره يستصره اليوم أيضاً، فعاتبه موسى على

عمله ووصفه بأنه غوي مبين يريد توريثه واحراجه، ثم لما ﴿ أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما ﴾ (موسى والاسرائيلي) ظن الاسرائيلي أن موسى يقصد البطش به لا بالفرعوني، فقال لموسى: ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ان تريد إلا أن تكون جباراً في الارض ﴾ وبذلك كشف الاسرائيلي عن هوية قاتل الفرعوني الأول وفضح قتل موسى له، فعمل الملائ - وهم عليّة القوم - على قتله بدم الفرعوني.

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة ﴾ وأعالها يخبر موسى بالأمر يقول له: ﴿ إن الملائ يأترون بك ليقتلوك ﴾ وطلب منه المبادرة الى الخروج والهروب من الفرعونيين.

فخرج موسى من المدينة خائفاً يترقب ان يوافيه الطلب أو تصل إليه ايدي الفرعونيين فدعا ربه ان ينجيه من القوم الظالمين^(١).
موسى في أرض مدين :

وانتهى السير بموسى الى أرض مدين فلما وصلها أحسّ بالأمن وانتعش الامل في نفسه فقال: ﴿ عسى ربي ان يهديني سواء السبيل ﴾ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس ﴿ وهم الرعاة يسقون ﴾ ووجد من دونهم امرأتين ﴿ في حيرة من امرهما تذودان الاغنام وتجمعانها ولا تسقيان، فأخذه العطف عليها فقال لهما: ﴿ ما خطبكما ﴾ ولماذا لا تسقيان ؟ قالتا له: ﴿ لا نسقي حتى يصدر الرعاء ﴾ ويتنهما من السقي لاتنا امرأتان ﴿ وابونا شيخ كبير ﴾ لا يتمكن من القيام بهذه المهمة الشاقة. فتولى موسى عنها هذه المهمة، فسقى لهما، ثم انصرف الى ناحية الظل وهو يشكو ألم الجوع والغربة والوحدة فقال: ﴿ رب اني لما انزلت إلي من خير فقير ﴾.

ولما رجعت الامرأتان الى ابيهما الشيخ وعرف منها قصة هذا الانسان الغريب الذي سقى لهما بئر الى موسى احدهما لتدعوه إليه فجاءته ﴿تمشي على استحياء قالت إنَّ ابي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾. فأجاب موسى الدعوة وحين انتهى الى الشيخ طلب منه ان يخبره عن حاله فقص موسى عليه قصة هربه وسببها وحينئذ آمنه الشيخ وقال له : ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ .

وقد طلبت احدى ابنتي الشيخ من ابوها ان يستأجر موسى للعمل عنده وليقوم عنها ببعض المهام الملقاة على عاتقها نتيجة عجز الشيخ وضعفه وذلك نظراً لقوة موسى وقدرته على القيام بالعمل مع امانته وشرف نفسه.

فقال له الشيخ : ﴿اني اريد ان انكحك احدى ابنتي هاتين﴾ شريطة ان تأجرني نفسك ثمانى حجج (سنين) فاذا اتممتها عشراً فذلك من عندك، فوافق موسى على هذا الزواج وتم العقد بينهما^(١).

بعثة موسى عليه السلام ورجوعه الى مصر :

وبعد أن قضى موسى الأجل (السنوات العشر) بينه وبين صهره سار بأهله فإذا به يشاهد ناراً من جانب الطور الأيمن وهو جبل صغير، وقد كان بحاجة اليها، ﴿فقال لأهله امكثوا اني آنست ناراً لعلني آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدئ﴾ فلما أتاها ﴿وجد شجرة وجاء نداء الله سبحانه من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من جانب الشجرة : ﴿أنى انا الله رب العالمين﴾ فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى﴾ وأنا اخترتك (لوحى ورسالتى) فاستمع لما يوحى ﴿اليك . ثم قال الله له : ﴿ما تلك بيمينك يا موسى﴾ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى﴾، قال الله له : ﴿ألقها يا موسى﴾ فاذا هي تتحول الى ﴿حية تسعى﴾، ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان ولَّى مدبراً ولم يعقب﴾

فناداه الله ﴿يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمين﴾ ﴿إني لا يخاف لدي المرسلون﴾^(١) سعيدها سيرتها الأولى.

ثم قال له : ﴿ادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾^(٢) ومرض، فأدخل يده وإذا بها تخرج بيضاء، ثم ردها فعادت كما كانت.

وبعد ذلك أمره الله سبحانه أن يذهب بهاتين الآيتين المعجزتين إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى الله سبحانه، فخاف موسى من تحمل هذه المهمة، فقال : ﴿ربي اني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلوني﴾ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ﴿وذلك من أجل أن﴾ يصدقني ﴿إني أخاف أن يكذبوني﴾.

قال الله له : ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما﴾ ﴿فأتياه﴾ (فرعون) فقولا : إنا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك﴾^(٣).

وحينما عاد موسى إلى مصر توجه مع أخيه هارون إلى فرعون فقالا له : إنا رسولا من ربك رب العالمين، ولا يمكن أن نقول على الله غير الحق الذي أرسلنا به وقد جئناك ببينة من ربك فارسل ﴿معنا بني اسرائيل﴾ وارفع عنهم العذاب الذي تنزله فيهم، وقد قالوا له ذلك بشكل لين وبأسلوب استعطافي هادئ^(٤).

وكان فرعون قد استغرب هذه الرسالة من موسى وأخيه لأنه كان يعرف

(١) القصص : ٢١ والنمل : ١٠.

(٢) النمل : ١٢.

(٣) الاسراء : ٢ - ٣، طه : ٩ - ٤٧، الفرقان : ٣٥ - ٣٦، القصص : ٢٩ - ٣٥، الشعراء : ١٠ -

١٦، النازعات : ١٥ - ١٩.

(٤) الاعراف : ١٠٤ - ١٠٥، الشعراء : ١٧ و ٢٢.

موسى وأحواله، فقال لموسى: ﴿ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين﴾، ثم بعد ذلك ﴿فعلت فعلتك التي فعلت﴾ بأن قتلت رجلاً من الفرعونيين؟ فأجابه موسى: نعم لقد فعلت ذلك، ولكني لما خفتكم على نفسي فررت منكم ﴿فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾^(١).

فرعون يجادل موسى في ربوبية الله:

وبعد أن رأى فرعون اصرار موسى وهارون على الرسالة ﴿قال فمن ريكما﴾ قال له موسى ﴿ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وهو رب السماوات والارضين ﴿وما بينهما وما تحت الثرى﴾. قال فرعون ﴿فما بال القرون الاولى﴾ وما هي مصيرها؟ فأجابه موسى ﴿علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾، وهو ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وانزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى﴾ مختلف ألوانه واشكاله.

وقد استنكر فرعون هذه الدعوة الجديدة وهو يعتقد بنفسه الالهية فتوجه لمن حوله مستكراً وقال: الا تسمعون؟ ولما رأى الاصرار من موسى وأخيه اتهم موسى بالجنون وهدهد بالسجن اذا اتخذ الهاً غيره^(٢). ولم يستسلم موسى واخوه امام هذه التهمة والتهديد وانما حاولا ان يسلكا الى فرعون طريقاً آخر لا قناعه أو احراج، وهذا الطريق هو استثمار السلاح الذي وضعه الله بيد موسى (معجزة العصا واليد)، فقال موسى لفرعون: اني قد جئتكم من ربي بآية تبين لك الحق الذي انا عليه؛ قال فرعون: اذا كنت صادقاً فانت بهذه الآية والحجة ﴿فالتقى موسى عصاه فاذا هي ثعبان مبين﴾ ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين. ولم يتمالك فرعون وملؤه انفسهم امام هذا الموقف الا ان اتهموه بالسحر والشعوذة

(١) الشعراء: ١٨ - ٢١.

(٢) طه: ٤٩ - ٥٥، الشعراء: ٢٤ - ٢٩.

وانه انما جاء بهذا السحر من أجل ان يخرجهم من ارضهم ويملوهم عنها^(١).

مباراة موسى مع السحرة :

وقد أشار قوم فرعون وخاصته عليه بأن يواجه موسى بالسحرة من بلاده فيجمعهم في يوم يشهده الناس جميعاً ليتباروا، وسوف يغلبونه وهم كثيرون فيفتضح أمره ويترك دعوته، وعمل فرعون بهذه النصيحة فطلب من موسى وأخيه أن يعطياه مهلة الى وقت معين لمواجهة بالسحرة.

وجمع فرعون كيده وحشد جميع السحرة من بلادهم وعرض عليهم الموقف وطلب منهم أن يخرجوا موسى ويغلبوه، وجمع الناس لهذه المباراة ظناً منه أنه سوف ينتصر، وقد شجعه على ذلك تأكيد السحرة أنهم سوف يغلبون موسى وما طلبه منه السحرة من أجر واعطيات اذا كانوا هم الغالبين.

وحين اجتمع موسى بالسحرة خيره بين أن يلقي قبلهم أو يكونوا هم الملقين قبله، فاختر أن يكونوا هم الملقين، فألقى السحرة ﴿ حبالهم وعصيهم ﴾ واذا بها تبدو لأعين الناس - من سحرهم - كأنها تسعى كالحيات، وعندئذ أوجس موسى ﴿ في نفسه خيفة ﴾ إذ لم يكن ينتظر أن يواجه بالاسلوب الذي اتبعه في معجزته مع فرعون، فأوحى الله سبحانه له أن لا تخف فانك أنت الذي سوف تنتصر عليهم، وانما عليك ان تلقي عصاك وحينئذ تتحول الى حية تلقف جميع ما صنعوا، لأن ما صنعوه ليس إلا ﴿ كيد ساحر ولا يفلح الساحر ﴾.

وعندما رأى السحرة هذا الصنع من موسى انكشفت لهم الحقيقة التي أرسل بها، وأن هذا العمل ليس عمل ساحر وانما هو معجزة الالهية، فأمنوا وقالوا: ﴿ آمنا برب هارون وموسى ﴾.

وأمام هذا الموقف الرائع من السحرة في هذا المشهد العظيم من الناس وجد

فرعون نفسه في وضع مخز ومخرج، الأمر الذي اضطره لأن يلجأ الى الانذار والوعيد والتهديد باستخدام أساليب القمع والارهاب؛ فقال للسحرة : ﴿ آمنتُم له قبل أن أذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلا تقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل وتعلمن اينا أشد عذاباً وأبقي ﴾ ، ولم يكن موقف السحرة - بعد أن انكشفت لهم الحقيقة وهدهم الله اليها - إلا ليزداد صلابة وثباتاً واستسلاماً لله رجاء مغفرته ورحمته^(١).

اصرار فرعون وقومه على الكفر ومجيء موسى بالآيات :

وقد أصر فرعون وقومه على الكفر وصمموا على مواصلة خط اضطهاد بني اسرائيل وتعذيبهم، حيث قال الملأ من قومه ﴿ أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ؟ قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وانا فوقهم قاهرون ﴾ . وواجه موسى وبني اسرائيل ذلك بالصبر والثبات انتظاراً للوقت الذي يحقق الله سبحانه فيه وعده لهم بوراثه الأرض .

ولكن الله سبحانه أمر موسى أن يعلن لفرعون وقومه بأن العذاب سوف ينزل بهم عقاباً على تكذيبهم له وتعذيبهم لبني اسرائيل وامتناعهم عن اطلاقهم وارسالهم، فجاءت الآيات السماوية يتلو بعضها بعضاً فأصابهم الله بالجذب، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والصفادع، والدم، وكانوا كلما وقع عليهم العذاب والرجز، ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾^(٢).

(١) الاعراف : ١١٠ - ١٢٦، يونس : ٨٠ - ٨٩، طه : ٥٧ - ٧٦، الشعراء : ٣٤ - ٥٢.

(٢) الاعراف : ١٢٧ - ١٣٥، غافر : ٢٣ - ٢٧، الاسراء : ١٠١ - ١٠٢، طه : ٥٩، التل : ١٣ -

١٤، القصص : ٣٦ - ٣٧، الزخرف : ٤٦ - ٥٠، القمر : ٤١ - ٤٢، النازعات : ٢٠ - ٢١.

الاثتار بموسى ﷺ لقتله وطغيان فرعون :

وأمام هذه الآيات المتتاليات التي جاء بها موسى لم يجد فرعون وقومه اسلوباً يعالج به الموقف، غير الاثتار بموسى لقتله وادعاء القدرة على مواجهة آلهته، فنجد فرعون يأمر هامان بأن يتخذ له صرحاً ليطلع منه على أسباب السماوات ويتعرف على حقيقة إله موسى.

ولكن فرعون يفشل في كلا الجانبين، فلم يتمكن من أن يحقق غايته من وراء بناء الصرح، كما لم تصل يده الى موسى، لأن أحد المؤمنين من آل فرعون يقف فيعظهم ويؤنبهم على موقفهم من موسى، ويبادر الى اخباره بنبا المؤامرة فينجو^(١).

خروج موسى ﷺ ببني اسرائيل من مصر :

وحين واجه موسى محاولة اغتياله ورأى اصرار فرعون وقومه على اضطهاد بني اسرائيل وتعذيبهم، ووجد أنه لم تنفع بهم الآيات والمواعظ، صمم على الخروج ببني اسرائيل من مصر والعبور بهم الى جهة الارض المقدسة، وقد نفذ موسى هذه العملية وسار ببني اسرائيل متجهاً الى سيناء.

ولم يقف فرعون - وقومه معه - امام هذه الهجرة مكتوف اليدين، بل جمع جنده من جميع المدائن وقرر ملاحقة موسى وبني اسرائيل وارجاعهم الى عبوديته بالقوة. ووجد موسى وبني اسرائيل - نتيجة هذه المطاردة - أنفسهم أن البحر من امامهم وفرعون وجنوده من خلفهم، وارتاع بنو اسرائيل من الموقف وكادوا يكذبون ما وعدهم به موسى من الخلاص، ولكن موسى بايمانه الوطيد اخبرهم أن الله سبحانه سوف يهديه طريق النجاة، وتحقق ذلك اذ أوحى الله ﴿ فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانقلب كل فِرْق كالطود العظيم ﴾^(٢)، ويظهر بينهما طريق

(١) القصص : ٣٨، غافر : ١٨ - ٤٦.

(٢) الشعراء : ٦٣.

ييس يعبر من خلاله بنو اسرائيل ويحاول فرعون وجنوده أن يتبعوهم من هذا الطريق أيضاً، واذا بجانبي البحر يلتقيان فيغرق مع جنده^(١).

موسى مع بني اسرائيل :

وتتوالى بعد ذلك الأحداث على موسى واذا به يواجه المشاكل الداخلية منفرداً مع قومه بني اسرائيل، فيسمع طلبهم وهم يرون على قوم يعبدون الأصنام بأن يتخذ لهم أصناماً يعبدونها كما أن هؤلاء اصناماً، ثم بعد ذلك يتفضل الله سبحانه على بني اسرائيل عندما استسقوا موسى، فيأمره بضرب الحجر فتفجر منه العيون كما ينزل عليهم المن والسلوى ويبدلهم عنه بعض المأكّل الأخرى، ويواجه موسى ردة من بني اسرائيل عند ذهابه لميقات ربه لتلقي الشريعة في ألواح التوراة، فيخبره الله تعالى بعبادتهم للعجل الذي صنعه السامري، فيرجع ﴿الى قومه غضبان اسفاً﴾ ويعتب بقسوة على أخيه هارون، حيث كان قد استخلفه عليهم مدة ذهابه، ويطرد السامري ويفرض عليه عقوبة المقاطعة، ويحرق العجل وينسفه، ثم يتوب الله على بني اسرائيل بعد أن فرض عليهم عقاباً صارماً.

وعلى هذا المنوال يذكر لنا القرآن الكريم أحداثاً مختلفة عن حياة موسى مع بني اسرائيل، كفضية البقرة ونتق الجبل والدعوة للدخول الى الأرض المقدسة وذهابهم للمواعدة عندما طلبوا رؤية الله جهرة، وقصة قارون وتأمره مع المنافقين على موسى، وفي بعض هذه الأحداث لا نجد القرآن الكريم يحدد المتقدم منها على الأحداث الأخرى بشكل واضح.

(١) الاعراف : ١٣٦ - ١٣٧، يونس : ٩٠ - ٩٢، الاسراء : ١٠٣ - ١٠٤، طه : ٧٧ - ٧٩،

الشعراء : ٥٢ - ٦٦، القصص : ٣٩ - ٤٠، الزخرف : ٥٥ - ٥٦، الدخان : ١٧ - ٣١،

الذاريات : ٣٨ - ٤٠.

وهذا القدر نكتفي من سرد القصة حسب تسلسلها الزمني^(١).

٣- دراسة عامة مختصرة لقصة موسى عليه السلام :

بعد أن انتهينا من بحث قصة موسى بحسب ذكرها في القرآن الكريم وعرضها بتسلسلها التاريخي، يجدر بنا أن ندرسها من جانبين مختلفان عن جانب دراستنا السابقة للقصة :

الجانب الأول : هو ملاحظة مييزات وخصائص المراحل العامة التي مر بها موسى في حياته.

الجانب الثاني : هو ملاحظة الموضوعات التي تحدثت عنها القصة بشكل عام.
الأول : مراحل حياة موسى عليه السلام :

وبصدد الجانب الاول نجد موسى عليه السلام قد مر بمراحل ثلاث رئيسة خلال حياته؛ حيث تبدأ المرحلة الاولى بولادته وتنتهي ببعثته الى فرعون وقومه، وتبدأ الثانية من البعثة وتنتهي بالعبور، وتبدأ الثالثة بالخروج وتنتهي بنهاية حياته.

ويعتمد هذا التحديد في المراحل الثلاث على المقدار الذي تحدث القرآن الكريم فيه عن حياة موسى عليه السلام.

وتتمثل المرحلة الاولى من حياة موسى في دورين :

الأول : ينتهي بخروجه من مصر خائفاً.

الثاني : هو الذي ينتهي برؤيته النار عند بعثته.

وحين نلاحظ الظواهر العامة في هذين الدورين يبرز لنا موسى في شخصيته

(١) تراجع «قصص الانبياء» لعبد الوهاب النجار بصدد الاحداث التي وقعت لموسى مع قومه بني اسرائيل، وان كنا قد لا نتفق معه في بعض الخصوصيات التي يسردها.

ذلك الانسان الذي يريد الله سبحانه أن يعده لأعباء مهمة تخليص بني اسرائيل من الظلم الاجتماعي الذي حاق بهم وتخليص شعب مصر من عبودية الأوثان وهدايتهم لوحداية الله سبحانه.

وتتلخص هذه الظواهر بميزات ثلاث لها دور كبير في شخصية الانسان القائد، وهي كالتالي :

الأولى: المركز الاجتماعي الذي كان يتمتع به موسى دون بني اسرائيل نتيجة لتبني العائلة المالكة في مصر تربيته ورعايته.

وهذا المركز الاجتماعي الفريد وان كان قد فقد تأثيره - الى حد كبير - بعد هروب موسى من مصر بسبب قتله الفرعوني، ولكننا يمكن أن نتصوره عاملاً مهماً في اظهار موسى - في المجتمع بشكل عام والاسرائيلي بشكل خاص - شخصية تتبنى قضية الدفاع عن بني اسرائيل وتعمل من أجلها.

ولعل ضياع هذا المركز الاجتماعي المهم بسبب قتل الفرعوني هو الذي يفسر لنا نظرة موسى الى قتل الفرعوني - نظرتة - الى ذنب يستحق الاستغفار والتوبة منه الى الله تعالى، حيث ضيع موسى بهذا العمل الارتجالي - الذي صدر منه بدوافع نبيلة وصحيحة - فرصة ثمينة كان من الممكن استثمارها في سبيل استنقاذ الشعب الاسرائيلي، خصوصاً اذا أخذنا بنظر الاعتبار أن موسى كان يتصف بالعلم والحكمة في هذه المرحلة كما وصفه القرآن الكريم.

الثانية: الشعور الانساني والحس النبيل الذي كان يحس به موسى بوصفه انساناً يتحلى بالأخلاق الكاملة، ويتمثل لنا هذا الخلق الانساني في ثلاثة مواقف لموسى جاءت ضمن هذه المرحلة من حياته، وهي: قتله الفرعوني، ومحاولته لضرب الفرعوني الآخر، وتبرعه بمعاونة ابنتي الشيخ الذي اصبح صهراً له بعد ذلك وما يشعر به وصف ابنة الشيخ له بأنه قوي أمين.

فان هذه المواقف تعبر عن المحتوى الداخلي والشعور الانساني الذي كان يعيشه موسى عليه السلام، فهو يبادر لنجدة المظلوم بالرغم من تربيته في البيت الفرعوني المالك، هذه التربية التي كان من الممكن أن تعطيه الشعور بالتميز الطبقي الذي يختلف عن عمله الانساني هذا، ثم لا يكتفي بأن يرتكب ذلك مصادفة بل يندفع ليقوم بنفس العمل حين يجد من يستصرخه إليه مع شعوره بحاجة موقفه الاجتماعي نتيجة لهذا العمل.

وفي موقفه من ابنتي الشيخ نجد موسى تدفعه ذاته الخيرة النبيلة للسؤال عن تلكتهما في السقاية ويعرض المعاونة عليهما في حالة الحاجة اليها، ونجده يخفّ الى تنفيذ ذلك دون أن ينتظر منها أجراً أو مثوبة مادية، على الرغم من ظروفه الموضوعية الخاصة الصعبة.

الثالثة: القوة البدنية والشجاعة التي كان يتمتع بها موسى، ويكشف لنا عن ذلك موقفه من الفرعوني وقضاؤه عليه بوكرة واحدة، والالتزام الذي أخذه على نفسه بأن لا يكون ظهيراً للمجرمين حتى بعد قتله الفرعوني الأول وشعوره بحاجة موقفه، ووصف ابنة الشيخ له بأنه (قوي)، خصوصاً إذا اخذنا بالتفسير الذي يقول: إن موسى حين سقى لابنتي الشيخ طرد السقاة عن البئر من أجل أن يعجل بالسقاية لهما.

وهذه الميزات الثلاث تحقق شروطاً ضرورية لحمل أعباء الرسالة التي أراد الله سبحانه لنبيه موسى القيام بها، ولعل في الامداد الالهي في قصة مولده ونجاته من الذبح عاملاً جديداً في خلق الأجواء النفسية والاجتماعية والروحية والظروف المناسبة لتأهيل هذا الانسان لقيادة شعبه المضطهد.

وتمثل المرحلة الثانية مسؤوليتين:

احدهما: هداية قوم فرعون الى وحدانية الله والايان بربوبيته.

والأخرى: دعوة بني اسرائيل للخلاص من الاضطهاد والظلم الذي كانوا يعانونه في مصر.

وقد توسل موسى من أجل تحقيق هذين الهدفين البارزين في حياة دعوته بأساليب مختلفة ومتعددة، كانت تبديء بالمناقشة الهادئة والكلام اللين والحجة التي تعتمد على المنطق والعقل، وتنتهي بالعذاب والرجز الذي أنزله الله سبحانه وتعالى عليهم في آيات عديدة.

كما انه من جانب آخر كان يدعو بني اسرائيل الى الاستعانة بالله والصبر على المكاره ومواصلة الطريق من أجل الخلاص.

والقرآن الكريم وإن كان لا يتحدث عن المدة التي عاشها موسى من أجل تحقيق ذلك، ولكن من الممكن أن نتبين أن هذه المدة كانت طويلة نسبياً، خصوصاً إذا لاحظنا الآيات القرآنية التي تشير الى المعجزات التي جاءت على يد موسى وأنها كانت في سنين متعددة.

كما يؤيد ذلك أيضاً أمر الله سبحانه لموسى بأن يتخذ بيوتاً مع قومه ويجعلها قبلة تنطلق منها الدعوة.

ويبدو أن موسى لم يصل الى نتيجة واضحة بصدد تحقيق الهدف الأول مع فرعون وقومه، لذا قرر الهجرة ببني اسرائيل والعبور بهم الى الجانب الآخر من البحر.

ولا يشير القرآن بشكل قاطع الى أن هذه الحركة في بدايتها كانت برضا فرعون بعد أن شاهد هذه المعجزات وآيات العذاب، أو أنها كانت بدون رضاه، ولكن قد يكون في قصة مطاردة فرعون بجنوده لموسى وبني اسرائيل دلالة على أن الحركة كانت رغماً على فرعون وبدون رضاه.

ونحن يمكن ان نلاحظ في هذه المرحلة أموراً ثلاثة:

الأول: أن بني إسرائيل كانوا يلتفون حول موسى دون أن يكون هناك خلاف في صفوفهم أو دون أن يبرز هذا الخلاف إلى السطح الاجتماعي، والقرآن وإن كان لا يصريح بشيء من ذلك، ولكن تدعونا إلى هذا الحكم طبيعة الأشياء، حيث كان الاسرائيليون بالأصل أهل كتاب ونبوات، كما أنهم كانوا يتعرضون لأشد ألوان العذاب، وبذلك هم ينشدون الخلاص. إضافة إلى سكوت القرآن عن إبراز أي خلاف بين بني إسرائيل وبين موسى في هذه المرحلة، واستجابة بني إسرائيل إلى متابعة موسى في هذه الهجرة من مصر. نعم يشير القرآن إلى نقطتين قد يفهم الخلاف منها؛ هما: قلة الأشخاص الذين آمنوا بموسى من قومه، واعتراضهم عليه بنزول الأذى، فيهم قبل موسى وبعده.

الثاني: أن موسى كان يعمل بوسائل شتى من أجل انجاح دعوته، فكان يتوصل إلى ذلك بالمناقشات الهادئة مرة وبالمعاجز والآيات ذات الطابع الانتقامي الشديد ثانية، وبالصبر والصمود والانتظار ثالثة.

وقد توصل نتيجة لذلك إلى تحقيق بعض أهدافه، حيث نجد الدعوة تحقق نجاحاً في صفوف بعض الفرعونيين أيضاً كإيمان السحرة له ووجود ظاهرة مؤمن آل فرعون وإيمان زوجة فرعون.

الثالث: أن موسى كان يعتمد للحماية من الغضب والانتقام الفرعوني على جهات متعددة يمكن أن نلاحظ منها التفاف بني إسرائيل حوله وهم يمثلون أمة كبيرة من الناس وإن كانت مضطهدة، ومركزه الاجتماعي السابق في البيت الفرعوني المتميز، واستجابة بعض الفرعونيين لدعوته وخصوصاً زوجة فرعون؛ ولعل موقف مؤمن آل فرعون من الانتار بموسى لقتله يشير إلى العنصر الأخير من الحماية؛ وكذلك قبول فرعون بالدخول معه في مناقشة ومباراة تمثل العنصر الثاني، إضافة إلى قضية الآيات والمعاجز وإيمان السحرة به.

وتمثل المرحلة الثالثة: جانب استقلال الجماعة والحكم وما يستتبعه من مضاعفات وخلافات، ذلك لأن الدعوة في مرحلتها الأولى تعمل من أجل تحقيق أهداف عامة وترفع شعارات معينة، وفي هذه الأهداف والشعارات قد تلتقي آمال الشعب كله وتتجمع تدريجاً، وأما حين يأتي دور تحديد هذه الأهداف في صيغ معينة وطريقة خاصة، وتطبيق هذه الشعارات في نهج واسلوب خاص وتجسيدها عملياً فقد نجد بعض الأعضاء في المجموعة لا يلتقي مع هذا التحديد والتطبيق في مصالحه الخاصة أو أفكاره وعقليته الاجتماعية، بل قد تتعارض المصالح الخاصة أو المنافع التي يحصل عليها الانسان في مسيرة عمله أو المواقع التي ينتهي اليها مع هذه الأهداف والشعارات، حيث إنّ الأهداف والشعارات الالهية الرسالية تنطلق من المبادئ ومبنيات الفطرة الانسانية التي أودعها الله تعالى في الانسان وهي في البداية لا تبدو أنّها متناقضة مع رغبات الانسان وميوله، بل هي محبوبة وحسنة في نظر الانسان خصوصاً المظلومين من الناس. وأما في دور التطبيق والتجسيد حيث تتحول هذه المبادئ الى واقع خارجي وحدود وقيود لهذه الحركة أو ذلك الموقف أو لتلك المصلحة، فعندئذ تتناقض مع الهوى والشهوات والطموحات الذاتية للانسان.

ولذلك نجد في هذه المرحلة بوادر الخلاف تبدو في الشعب الاسرائيلي، وتطفو على السطح اتجاهات شتى: فكرية ومصليحية ونفسية و... حتى إنّها تتحول أحياناً الى المروق عن الدين أو الى التمرّد على الجماعة والنظام.

ففي جانب الفكر والعقيدة مثلاً نجد تأثيرات المجتمع الوثني على الاسرائيليين تظهر بشكل واضح، حيث يطلبون من موسى - عندما مروا على جماعة يعبدون الأوثان - أن يتخذ لهم أصناماً وآلهة كما هؤلاء القوم آلهة، مع ان الاسرائيليين بالأصل هم ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذين حملوا رسالة التوحيد ورفضوا

الوثنية والأصنام؛ كما تبرز هذه الرواسب والمخلفات مرة أخرى عندما اتخذوا العجل إلهاً لمجرد أنهم رأوا فيه ظاهرة غير طبيعية، وفي موقفهم في الميقات عند الاستغفار أيضاً حينما طلبوا أن يروا الله جهرة.

وفي جانب المصالح نجد موقف قارون وجماعته وايداءهم موسى وتمردهم على أوامره وغير ذلك من الاشارات القرآنية التي تشير الى عوامل النفاق والمعارضة.

وفي جانب الواقع الروحي والنفسي تشير قصة الدخول الى الارض المقدسة وغيرها من الاشارات القرآنية الى رواسب الضعف والاستخذاء والخوف.

فالميزة الرئيسة لهذه المرحلة هي ظهور هذه الخلافات المتعددة ومعاناة النبي موسى منها على اختلاف اتجاهاتها ودوافعها، وهذه الظواهر هي من مستلزمات المجتمع الذي تتحكم فيه عقيدة جديدة ونظام جديد.

ونجد موسى في كل هذه الخلافات مثال القائد الحكيم والنبي العطوف الذي يأخذ قومه بالشدة في مروقهم عن الدين كما في قضية العجل، وباللين في جوانب أخرى فيدعو الله سبحانه لهم بالرحمة والمغفرة كما في قضية الميقات.

الثاني: موضوعات القصة :

وبصدد الجانب الثاني من دراسة القصة: نجد القصة تحدثت عن ستة موضوعات رئيسة، وهي كالتالي :

- ١ - بعثة موسى ومعاجزه .
- ٢ - أساليب الدعوة وأدلتها .
- ٣ - مواجهة الكافرين له من فرعون واتباعه .
- ٤ - التحريفية في العبادة .
- ٥ - الحياة الشخصية لموسى .

٦- الأوضاع العامة للشعب الاسرائيلي.

وقد جاءت هذه الموضوعات الرئيسة المتعددة في مواضع من القرآن مختلفة ومتفرقة، ويجدر بنا أن نشير الى الأهداف العامة التي توخاها القرآن الكريم من وراء الاشارة أو تأكيد هذه الموضوعات مع بيان المهم منها .

١- بعثة موسى ومعجزه :

لا شك أنَّ من الأهداف الرئيسة التي توخاها القرآن الكريم هو ربط الانسان بعالم الغيب وتأكيد ايمانه وتوجيه فطرته الاصيلة التي فطره الله تعالى على الايمان به وجهة صحيحة، لأن الانسان بدأ من الغيب وينتهي بعالم الآخرة الذي هو غيب ويبقى مرتبطاً ومتفاعلاً من الناحية الواقعية مع الغيب في كل أدوار حياته وشؤونها. ومن أجل هذا الهدف الرئيس نجد القرآن يتحدث في مواضع كثيرة عن عالم الغيب وجوانبه المتعددة وبعض القوانين العامة التي تتحكم فيه، والعلاقات التي تسوده، إضافة الى طرحه مفاهيم معينة عن هذا العالم قد لا يكون لها أثر كبير في حياته الدنيوية غير هذا الربط الذي يهدف إليه القرآن الكريم، كما عرفنا ذلك في طرح مفاهيم اللوح والقلم والكرسي والعرش عندما تناولنا تفسير المعنى. وعلى هذا الأساس يمكن أن نرى أنَّ هذا الهدف مما استهدفه القرآن من قصة موسى.

ولعل في هذا ما يبرر الاهتمام القرآني في تكرار هذا الموضوع واعطاء تفصيلات كثيرة عنه في القصة، وإذا أردنا أن نقارن بين الآيات التي جاءت تتحدث عن هذا الموضوع والآيات التي تحدثت عن بقية الموضوعات الأخرى في القصة لوجدنا هذا الموضوع يكاد يطغى على بقية الموضوعات، من حيث ما ذكر فيه من تفصيلات.

فقد وجدنا أنَّ هذا الموضوع يشار إليه في مواطن عديدة منها : كيفية البعثة،

وفي معجزة العصا واليد، وفي توالي الآيات على الفرعونيين من الدم والجراد والقمل والطوفان ونقص السنين، وفي انفلاق البحر لبني اسرائيل، وفي موت الأشخاص الذين اختارهم موسى لميقات ربه ثم بعثهم، وفي قضية قارون وخسف الأرض به، وفي نتق الجبل وغيرها من الآيات الأخرى، وتكاد قصة موسى تستوعب هذه الأمور أكثر من غيرها.

وإضافة الى هذا الهدف القرآني العام لاحظنا في دراستنا السابقة أهدافاً ثانوية فرضها السياق القرآني، وكان من أهمها :

ايضاح فكرة أنّ صدود الكافرين عن الدعوة وعدم انخراطهم فيها لم يكن نتيجة سبب موضوعي مرتبط بالدعوة نفسها أو شخصية النبي، وإنما يكون بسبب الظروف النفسية والاجتماعية التي يعيشها الكافرون أنفسهم، حيث تتحول المواقف السلبية اليومية من خلال الصراع، أو العادات والتقاليد الموروثة، أو الانحرافات الجزئية، الى حالة نفسية تغلف القلب والعقل، وتختم عليه فيصبح الجحود هو الموقف العام دون أن يستخدم الانسان عقله أو فطرته.

وبذلك يكون ايضاح هذا القانون الاجتماعي له تأثير كبير على فهم المواجهة بين المسلمين والكافرين أيام النبي محمد ﷺ وما بعدها.

كما ان الإشارة الى تفاصيل الآيات بشكل خاص في عصر موسى وغيره يبين بوضوح المبرر لعدم مجيء الآيات في عهد رسول الله ﷺ، كما أشار القرآن الكريم الى ذلك، حيث يصبح من الواضح أنّ الأنبياء السابقين بالرغم من أنهم جاؤا بالآيات ولكنهم لم يتمكنوا من خلالها أن يكسروا هذا الحاجز النفسي والقلبي، وأن هذه الآيات انما جاءت للعذاب والانتقام.

٢- أساليب الدعوة وأدلتها :

لا شك أنّ العقيدة في الدعوة الالهية تمثل جانبين :

الجانب الالهي فيها وهو الايمان بوجود الله تعالى ووحدانيته وصفاته، وهذا جانب يمكن أن يعتمد في معرفته على العقل والدليل والبرهان.

والجانب الآخر الذي يعبر عن ارتباط الداعية (الرسول) بالله سبحانه وصدوره عن أمره تعالى، وهذا الجانب قد لا يمكن اثباته مبدئياً إلا عن طريق المعجزة^(١)؛ فالمعجزة تعبير عن الاستجابة الى الحاجة في هذا الجانب من الدعوة - كما شرحنا ذلك في بحث المعجزة - بخلاف الجانب الأول الذي يمكن فيه الاعتماد على اسلوب الأدلة والبراهين المنطقية والوجدانية.

وعلى هذا الأساس أيضاً لم يترك الأنبياء هذه الأدلة المنطقية والوجدانية في مخاطبتهم للناس بالدعوة الى الله وتوحيد الاله، ولم يكتفوا بالاثبات بالمعجزات على أساس أنها الدليل الوحيد لاثبات ذلك وإن كنا لا ننكر ما للمعجزة من تأثير كبير في الجانب الأول من العقيدة أيضاً.

وفي قصة موسى نجد في الموضوعات التي تحدثت عنها القصة هذه الأساليب والأدلة وأكدتها في مواضع عديدة، حيث تناولت بعض الأدلة والبراهين التي اعتمدها موسى في مخاطبة فرعون إضافة الى المعجزات.

بل نجد أن هذه المخاطبة (مخاطبة العقل والوجدان) جاءت قبل أن يستند موسى الى دليل آخر من الآيات والمعجزات لأن التسلسل المنطقي للتفكير والانفعال كان يفرض ذلك، فان النبي يخاطب العقل والوجدان في بداية الأمر، ثم يعمل بعد ذلك على كسر الحواجز النفسية والروحية التي تمنع العقل والوجدان من الادراك والفهم.

(١) قد يكون اخبار النبي وهو انسان عاقل وموثوق، وعلى مستوى عال من الكمال كافياً في تصديقه والايمان به، ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يكون عاماً، لأنه قد يكون في موضع الاتهام ولذا احتاج الأنبياء الى المعجزة.

كما نجد موسى في هذه المخاطبة يتبع الأساليب المختلفة التي كانت تتصف باللين والرفق تنفيذاً لأمر ربه، فكان يتوسل الى فرعون أحياناً، ويذكره بآيات الله أحياناً أخرى، كما قد يشير الى عذاب الآخرة وعاقبة الاصرار على الكفر والطغيان، كل ذلك من أجل أن يحقق النبي غايته التي يرمي اليها وهي هداية الناس الى الله سبحانه.

ويهدف القرآن الكريم من تناول هذا الموضوع في القصة وغيرها الى هدف من أهدافه الرئيسية وهو تأكيد أن مسألة الايمان بالله سبحانه ليست مسألة غريبة في حياة الانسان، غرابة المعاجز والآيات، وانما هي شيء فطري ينبع من ذات الانسان ويهديه اليها عقله وحسه ووجدانه، ولذلك اعتمد الأنبياء مخاطبة الناس عن هذا الطريق قبل أن يخاطبهم عن طريق المعجزة والآية.

كما انه يهدف أيضاً الى أن الرسول ﷺ حين يدعو الناس الى الله لا يكتفي بطرح الفكرة فحسب، ويطلب منهم الايمان المقلد الساذج نتيجة لوجود المعجزة، وانما يحاول أن يصل اليهم ويتوسل الى ايمانهم عن طريق الدليل والبرهان العقلي والمخاطبة الوجدانية.

وإضافة الى الأدلة والبراهين نجد في القصة اشارات الى عدة قضايا مهمة ترتبط بالدعوة ونجاحها :

الأولى : قضية الصبر والصمود والأمل بالمستقبل والثقة بالله والتوكل عليه .

الثانية : قضية الطاعة للقيادة والنظم في العمل .

الثالثة : الاطلاع على موقف الأعداء وحركتهم، كما يظهر ذلك في قضية مؤمن آل فرعون ومجيء الرجل من أقصى المدينة .

٣ - مواجهة الكافرين والمنافقين :

يعطينا القرآن الكريم صوراً وألواناً من المواجهة التي تحصل بين النبي وجماعته

من جانب، والكافرين بدعوته أو أولئك المنافقين المتظاهرين بقبولها، ولكنهم يعادونها في مواقفهم وأعمالهم من جانب آخر.

وتتخذ هذه المواجهة صوراً وألواناً مختلفة متفاوتة على اختلاف مدى نجاح النبي في الدعوة، وسعة أهدافه، ومقدار معارضته للمفاهيم الاجتماعية السائدة. وتكاد تكون هذه المواجهة شيئاً طبيعياً نتيجة الصراع الذي يدور بين الفكرة الجديدة وأنصارها والفكرة السائدة في المجتمع وحمايتها.

والقرآن الكريم حين يعرض هذا الموضوع في قصة موسى يريد أن يؤكد هذا المفهوم الاجتماعي والسنة التاريخية في الصراع، وأن هذه المعارضة التي حصلت للنبي ﷺ ليست بدءاً في التأريخ، وإنما هي النتيجة الطبيعية للصراع الفكري والسياسي؛ كما أننا نجد في هذا العرض للموضوع في القصة أيضاً للأعباء التي يتحملها النبي في سبيل الدعوة، وأنها ليست أعباء عادية يتمكن أي إنسان من أن يتحملها، وإنما هي تحتاج إلى إرادة قوية وعزم شديد وتصميم عميق الجذور على السير في خط الدعوة حتى في أشد الظروف الموضوعية قسوة وأبعدها ملأمة، ويتعرض فيها الرسول إلى ألوان من العذاب النفسي والجسدي والأخطار التي ترتبط بحياته وسمعته وشخصيته، بل قد ينتهي الأمر بأن يتعرض النبي إلى القتل والاعتقال نتيجة لذلك.

وهذه الآلام قد تكون بسبب الموقف الخارجي للاعداء الظاهرين العلنيين، وقد تكون من مرضى القلوب والنفوس أو ضعفاء الإيمان والبسطاء والجهال من الناس.

وحين يشير القرآن إلى ألوان المواجهة وأساليبها في هذه القصة نجد أنفسنا أمام الواقع الاجتماعي الذي كان يواجهه به النبي ﷺ في دعوته وأمام الأساليب

والألوان نفسها، فكأن قصة موسى عليه السلام انما هي تعبير عن مسيرة دعوة النبي وآلامه، ولعل هذا هو الذي يفسر لنا مجيء قصة موسى بهذا القدر من التفصيل في القرآن الكريم.

٤- الجانب التحريفي في العبادة :

من الموضوعات المهمة التي تعرضت لها القصة هو الجانب التحريفي في العبادة، فان بني اسرائيل وغيرهم - كما يبدو من انقيادهم لموسى - آمنوا به وبدعوته، ولكن هذا الايمان بالشعارات العامة التي كان يرفعها موسى لا يعني أنهم كانوا يعرفون محتواها الأصيل بأدق معانيه، الأمر الذي لو حصل كان من الممكن أن يصدهم عن الانسياق وراء أفكار وثنية أخرى، لذلك نجدهم وهم قد خلصوا من عذاب فرعون ومطارده تطفو على أفكارهم ومشاعرهم الكثير من الرواسب الوثنية ذات المدلول المنحرف، هذه الرواسب التي كانوا قد تأثروا بها في المجتمع الفرعوني الذي كانوا يعيشون فيه.

وهي حين تطفو على السطح لا يعني أنهم كانوا قد تنازلوا عن شعاراتهم السابقة ومدلولاتها أو تخلّوا عن عقيدة التوحيد، وانما يعني ذلك أنهم كانوا يفهمون مدلول الشعارات بالشكل الذي ينسجم مع هذا العمل المنحرف؛ فالحجل في نظرهم هو تجسيد للاله الذي دعا إليه موسى، والأصنام هي الوسائط المادية للتعبير عن العبادة للاله الذي دعا إليه موسى ... وهكذا.

ولعل القرآن الكريم يهدف في هذه الإشارة الى ناحيتين :

الأولى: مناقشة أفكار الجاهليين المعاصرين لزول القرآن، حين كانوا يقولون في أصنامهم ويعلمون عبادتهم لها: بأنهم اتخذوها واسطة وزلفى الى الله. الثانية: أن الانسان حين يؤمن بالرسول ويحظى بصحبته ويستمع إليه لا يعني انه قد تجرد دفعة واحدة عن جميع محتوياته الداخلية، وقضى على كل الرواسب

التي لا تلتقي في واقعها مع أصالة الرسالة والدعوة التي يدعو اليها الرسول، وإنما غاية ما يدل عليه ذلك هو الايمان بالمدلول الحرفي للشعار مما أشار إليه القرآن في بعض الموارد حين ميز بين ادعاء الاسلام والايمان :

﴿ قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم... ﴾^(١).

وهذه المظاهر من أخطر الظواهر التي واجهت الأديان الالهية حيث تعرضت للتحريف في العبادة والعلاقة مع الله تعالى مع الاحتفاظ بنفس المفاهيم والشعارات الأصلية، ووجد المحرفون دائماً المسوغات والذرائع والعناوين التي يوجهون فيها هذه الانحرافات.

ومن أجل ذلك تبنى الاسلام مبدأ التوقيفية في العبادة والتزم بأنها منهج معين يضعه الله سبحانه للانسان ليصوغ به غريزة الدين واحساسه بالدين، ويحدد فيه شكل العلاقة بالله تعالى وصيغتها، ولا يصح للانسان أن يتصرف في هذا الأمر بحسب ميوله أو اجتهاده للتعبير عن هذه العلاقة، والسرف في ذلك كله هو أن طبيعة هذه العلاقة بين الله تعالى والانسان إنما هي علاقة غيبية، لأن طرفها الآخر هو الله تعالى ولا يمكن للانسان - وهو موجود مادي - أن يدرك الطريق الذي يوصله للتقرب الى الله تعالى بنفسه، فلا بد له من أجل تحقيق ذلك أن يشخص الله تعالى هذا الطريق، فقد يكون ما يتصوره الانسان مقرباً الى الله مبعداً عنه، كما جاء ذلك في بعض النصوص التي وردت عن أهل البيت عليه السلام.

٥ - الحياة الشخصية لموسى :

لقد تناولت الموضوعات السابقة من قصة موسى بعض التفاصيل عن الحياة والسيرة الشخصية لموسى خصوصاً الوقت الذي سبق بعثته عليه السلام.

ولعل القرآن الكريم استهدف من وراء عرض هذا الموضوع في قصة موسى هدفين :

الأول : ما أشرنا إليه سابقاً في تحليلنا مقاطع القصة من سورة القصص من أنَّ هذه التفصيلات قد تدل على جانب من اعجاز القرآن، حيث يدل الاطلاع عليها على مدلول يختلف عن مدلول الاطلاع على أحوال موسى (الرسول) لأن أحوال موسى (الرسول) كانت تتحرك في المجتمع العام، وبذلك تكون معروفة بشكل طبيعي ويتناقلها التاريخ، على خلاف أحوال موسى (الرسول) قبل البعثة، خصوصاً اذا كانت هذه التفاصيل مما ينفرد به القرآن الكريم عن الكتب السماوية الأخرى.

الثاني : ما أشرنا إليه في بحث مراحل الدعوة من أنَّ هذا الجانب يبرز لنا موسى في صورة الانسان الذي قد أعدّه الله تعالى للقيام بأعباء الرسالة، وانه يتمكن بما يتمتع به من خلق وعاطفة وجراً ومكانة على تحمل أعباء الدعوة.

ويمكن أن نضيف الى ذلك أيضاً أنَّ من خلال تعرّف حياة موسى الشخصية سوف تتكشف لنا بعض الأوضاع الاجتماعية السائدة حينذاك في المجتمع الفرعوني، ومستوى الظلم الذي كان يعاني منه الاسرائيليون واستسلامهم لهذا الواقع المرير، وما أنعم الله به سبحانه على بني اسرائيل عامة وموسى بشكل خاص.

٦- الأوضاع العامة للشعب الاسرائيلي :

لقد تناول القرآن الكريم بعض الأوضاع والصفات العامة للشعب الاسرائيلي، وأشرنا الى بعضها عند دراستنا للمرحلة الثالثة من دعوة موسى، ويمكن أن نلخص ما تكشف عنه هذه الاوضاع والصفات التي تناولها القرآن في : أنَّ الشعب الاسرائيلي كان يتصف بازدواجية مريبة نتيجة لمختلف الظروف التاريخية

والاجتماعية التي مر بها، والتي تراكمت آثارها المتنوعة والعميقة في سلوكه الاجتماعي ومحتواه النفسي والروحي.

وكانت تتمثل هذه الازدواجية في الشعور بالعظمة والامتياز والقربى من الله بوحى من تأريخه المجيد الذي عاشه أبائوه وأجداده، كتأريخ النبوات والمقام الاجتماعي المتميز الذي كان ليوسف عليه السلام وانقاذه للمجتمع من الكوارث الطبيعية، والتخطيط الاقتصادي الرائع الذي قام به، في الوقت الذي قاسى هذا الشعب حياة طويلة من الاضطهاد والاستعباد ورزح في ظل مستلزمات من جهل وفقر وانحطاط خلقي ونفسي واجتماعي.

ولعل هذه الازدواجية هي التي تفسر لنا تملل الاسرائيليين وعدم تحملهم لأعباء الرسالة وعملية الخلاص والانقاذ من ناحية، وتمادي الاسرائيليين في الطلبات وكثرة تمنياتهم على موسى وعدم استجابتهم للخط الذي رسمه لهم لانقاذهم من ناحية أخرى، على ما يتمتع به موسى من مكانة عظيمة عندهم لأنه كان مخلصهم ومنقذهم من الظلم الفرعوني.

وقد استهدف القرآن من وراء اعطاء هذه الصورة للشعب الاسرائيلي تسليط الأضواء على واقع اليهود الذين كانوا يعيشون المسلمين، وكان ينظر اليهم قبل ظهور الاسلام على أنهم أهل الكتاب والمعرفة بالأديان وبكل ما يتصل بعالم الغيب؛ وحيث تتكشف هذه الصورة الواقعية لهذا الشعب (الازدواجية) وتتضح معالمها فسوف يظهر للمسلمين مدى امكان الاعتماد عليهم وعلى نظرهم للأشياء، ويتضح تفسير موقفهم من الرسالة والنبي صلى الله عليه وسلم.

كما يمكن أن نلاحظ أيضاً مدى الأثر الذي تركته سنوات الاضطهاد والظلم على الأوضاع النفسية والروحية للاسرائيليين، والشعور بالضعف والحذر، ومعاناة موسى عليه السلام في محاولة التغلب على ذلك. حيث يظهر هذا الامر بشكل واضح في

قضية دعوة موسى قومه للدخول الى الأرض المقدسة التي كانت هدفهم وأملهم، خصوصاً أنّ هذه الدعوة جاءت بعد الانتصارات العظيمة التي حققها لهم موسى والاستقلال والعزة والكرامة الانسانية، ومع ذلك رفضوا هذه الدعوة بسبب الخوف.

ويبدو هذا الأمر واضحاً - بالمقارنة - مع دعوة النبي للمسلمين الى قتال الروم في معركة «تبوك» حيث استجاب عامة المسلمين لذلك باستثناء نفر منهم كانوا يشعرون بهذا اللون من الخوف والضعف.

فواتح السور^(١)

من الموضوعات القرآنية التي تناولها الباحثون هو فواتح السور، ونعني بفواتح السور هذه الحروف المقطعة الموجودة في فاتحة بعض السور القرآنية؛ وتزداد أهمية هذا الموضوع عندما نلاحظ ما أثير حوله من مشاكل وشبهات قد تؤدي الى الشبهة في القرآن الكريم نفسه. وسوف يعالج هذا البحث تفسير هذه الظاهرة في القرآن الكريم، ومن خلال ذلك نعرف الجواب الاجمالي على الشبهات التي أثيرت حول هذا الموضوع، ونترك معالجة الشبهات حولها تفصيلاً الى بحث قرآني آخر.

وقد جاءت هذه الحروف المقطعة في سور متعددة من القرآن وعلى أشكال مختلفة:

منها ما هو ذو حرف واحد مثل: ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ و﴿ق والقرآن المجيد﴾ و﴿ن والقلم وما يسطرون﴾.

ومنها ما هو ذو حرفين مثل: ﴿طه﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿و﴾ يس ﴿والقرآن الحكيم﴾ و﴿حم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم.

ومنها ما هو ذو ثلاثة حروف أو أكثر مثل ﴿ألم﴾ و﴿المص﴾ و﴿المر...﴾

(١) يراجع في هذا البحث: التبيان ١: ٤٧ - ٥١، والكشاف ١: ٢١ - ٢٥، والتفسير الكبير

٢: ٨٠٢، وابن كثير ١: ٦٤ - ٦٩، والمنار ١: ١٢٢ - ١٢٣، ومناهل العرفان ١: ٢١٩ -

٢٢٠، وتفسير القرآن لثلثوت ٣٥: ٦٤.

﴿كهيعص﴾ و﴿حم﴾ عسق ﴿^(١)﴾...

وحين تأتي لمعالجة هذه الظاهرة في القرآن الكريم لا نجد العرب قد عرفوا الاسلوب عند افتتاح كلامهم، كما اننا لا نجد لهذه الحروف معنى' بازائها غير مسمياتها من الحروف الهجائية.

ولم يؤثر عن الرسول ﷺ شيء صحيح في تفسير هذه الحروف بل يكاد لا يؤثر عنه شيء في ذلك مطلقاً -إلا النذر القليل - ليكون هو القول الفصل فيها، ولعل هذا هو السبب في تعدد آراء العلماء واختلاف وجهات النظر فيما بينهم بصدد تفسير هذه الحروف الأمر الذي زاد من غموض هذه الظاهرة.

وهناك اتجاهان رئيسان في تفسير هذه الحروف :

الاتجاه الاول : هو الذي يرى أن هذه الحروف من الأشياء التي استأثر الله سبحانه بعلمها، ولذا فليس من الممكن لأحد أن يصل الى معرفة المراد منها، ويؤيد هذا الاتجاه ما روي عن عدد من الصحابة والتابعين من أن الفواتح سر القرآن وأنها سر الله فلا تطلبوه، وذهب إليه كثير من العلماء والمحققين، كما جاء ذلك أيضاً في بعض الروايات عن طريق أهل البيت عليهم السلام ^(٢).

والاتجاه الثاني : هو الذي يرى أنه ليس في القرآن الكريم شيء غير مفهوم لنا أو غير معروف لدى العلماء والمحققين، وذلك انطلاقاً من حقيقة أن الله سبحانه وتعالى وصف القرآن الكريم بصفات متعددة لا تتفق مع هذا الخفاء والاستتار، فهو جاء ﴿بلسان عربي مبين﴾ ^(٣)، كما أنه نزل ﴿... تبياناً لكل

(١) في السور الآتية على الترتيب : ص : ١، ق : ١، القلم : ١، طه : ١ - ٢، يس : ١ - ٢،

الجاثية : ١ - ٢، البقرة : ١، الاعراف : ١، الرعد : ١، مريم : ١، الشورى : ١ - ٢.

(٢) التبيان : ١ : ٤٨، مجمع البيان : ١ : ٣٢.

(٣) الشعراء : ١٩٥.

شيء...»^(١) وهدي للناس وغير ذلك، وحين يكون القرآن بهذه الصفة لا يمكن إلا أن يكون مفهوماً للناس وواضحاً لهم. وقد نسب هذا الاتجاه إلى المتكلمين من علماء الاسلام^(٢).

وعلى أساس هذا الاتجاه نجد كثيراً من العلماء يحاولون تفسير هذه الحروف المقطعة، الأمر الذي استلزم تعدد مذاهبهم في ذلك؛ وقد ذكر الشيخ الطوسي مذاهب مختلفة في تفسير هذه الحروف، وعد منها الفخر الرازي واحداً وعشرين تفسيراً، وسوف نقتصر على ذكر المهم منها، إضافة إلى أن بعضها يمكن إرجاعه إلى بعض الآخر.

مذاهب تفسير فواتح السور :

المذهب الاول : ما نسب إلى ابن عباس من أن هذه الحروف ترمز إلى بعض أسماء الله وصفاته وأفعاله، فقد روي عنه في ﴿ألم﴾ : «أنا الله أعلم»، وفي ﴿المر﴾ : «أنا الله أعلم وأرى»^(٣) إلى غير ذلك. ويؤيده ما روي عن معاوية بن قرة عن النبي ﷺ من أنها حروف من أسماء الله^(٤).

الثاني : أنها أسماء للقرآن الكريم كالكتاب والفرقان والذكر؛ وإلى هذا المذهب صار جماعة من التابعين كقتادة ومجاهد وابن جريج والكلبي والسدي^(٥). ويتناقش هذان المذهبان بأنهما لا يستندان إلى دليل علمي أو قرينة معتمدة،

(١) النحل : ٨٩.

(٢) التفسير الكبير ٢ : ٣، وقد فصلنا هذا الموضوع في بحث التفسير.

(٣) المصدر السابق : ٦.

(٤) التبيان ١ : ٥١.

(٥) التفسير الكبير ٢ : ٦، والتبيان ١ : ٤٧.

وانما هما من الرجم بالغيب فلا مناسبات الظروف الموضوعية، ولا مناسبات الكلام اللغوية هي التي تشير الى هذا المعنى، وحالهما حال كل تفسير أو فرضية أخرى يمكن أن تذكر في هذا المجال، شريطة أن لا تتنافى مع بديهيات العقيدة القرآنية.

الثالث: أن هذه الحروف مقتطعة من أسماء لها دلالة معينة بحسب الواقع، وهي مجهولة لنا معلومة للنبي ﷺ، ويؤيد ذلك أن هذه الطريقة كانت معروفة لدى بعض العرب في مخاطبتهم وأحاديثهم؛ وقد روي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة^(١).

كما ان ماذهب إليه الطبري وروي عن ابن أنس يكاد يتفق مع هذا المذهب أيضاً، وهذا المذهب قريب الى المذهب الاول الذي روي عن ابن عباس أيضاً.

ويمكن ان يُناقش هذا المذهب بنفس مناقشتنا للمذهبين السابقين.

الرابع: انها اسماء للصور التي جاءت فيها، ف﴿الم﴾ اسم لسورة البقرة و﴿كهيعص﴾ اسم لسورة مريم و﴿ن﴾ اسم لسورة القلم وهكذا... وقد أختار هذا الرأي أكثر المتكلمين وجماعة من اللغويين^(٢) واستحسنه الشيخ الطوسي كما رجحه الطبرسي ودافعا عنه بعد ان أوردا عليه بعض الشبهات^(٣) كما اختاره أيضاً الشيخ محمد عبده^(٤).

وتحمس الفخر الرازي في تأييده وأطنب في بيان الشبهات التي أوردوها عليه

(١) التبيان ١: ٤٧ - ٤٨.

(٢) التفسير الكبير ٢: ٥.

(٣) التبيان ١: ٤٩.

(٤) المنار ١: ١٢٢.

ونقضها^(١) وأهم ما اورد عليه الشبهتان التاليتان :

الشبهة الأولى :

أن الاسم انما يوضع للتمييز بين المسميات، وهذا لا يتفق مع تسمية عدة سور باسم واحد كما حدث في البقرة وآل عمران، فإنه ورد في اولها ﴿الم﴾ وحدث في السجدة وغافر وفصلت فإنه في اولها ﴿حم﴾.

الشبهة الثانية :

أن الاسم لا بد ان يكون غير المسمى في الوقت الذي قام الاجماع على أن هذه الحروف جزء من السور التي جاءت فيها.

وقد اجاب الشيخ الطوسي عن الشبهة الأولى : بأنه لا مانع من تسمية عدة أشياء باسم واحد مع التمييز بينها بعلامة مميزة، وقد وقع هذا في الاعلام الشخصية كثيراً.

كما أجاب عن الشبهة الثانية بأنه لا مانع من تسمية الشيء ببعض ما فيه، كما حدث في تسمية سورة البقرة وآل عمران والأعراف من السور.

ولكن مع كل هذا - قد يلاحظ على هذا الرأي - : ان الحروف تقرأ مقطعة بذكر أسمائها (ألف - لام - ميم) لا مسمياتها، وهذا لا يناسب أن تكون أسماء للسور، وإلا لكانت قراءتها بمسمياتها كما هي مكتوبة، وهذه الكيفية من القراءة تناسب أن تكون الحروف مقصودة في نفسها بالذكر لا أنها أسماء لأشياء أخرى وقد أشار الزمخشري^(٢) الى هذه الملاحظة ولكن بصياغة أخرى ثم ردها.

فقد قال الزمخشري : فان قلت فما بالها مكتوبة في المصحف على صور الحروف أنفسها لا على صور أسمائها ؟

(١) التفسير الكبير ٢ : ٨ - ١١ .

(٢) الكشف ١ : ٢٨ .

قلت : لأنّ الكَلِم لما كانت مركبة من ذوات الحروف ، واستمرت العادة حتى تهجيت ، وحتى قيل للكاتب اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء وتقع في الكتابة الحروف أنفسها عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة الفواخ^(١).

وهذا الرد الذي ذكره الزمخشري يؤكد ملاحظتنا - بصيغتها الصحيحة - في أنّ هذه الكيفية من النطق تعني أنّ الحروف هي المقصودة بذاتها لا أن المقصود الاشارة الى السورة المسماة بهذه الحروف ، وإلا لنطقت الحروف بنفسها لا بأسمائها ، ولذا نرى صحة هذه الملاحظة بهذه الصيغة.

الخامس : أنّ هذه الحروف إنما جيء بها ليفتح بها القرآن الكريم وليعلم بها ابتداء السورة وانقضاء ما قبلها ، وقد اختار هذا الرأي البلخي وروي عن مجاهد أيضاً ، وذكر له الشيخ الطوسي بعض الأمثلة من استعمالات العرب^(٢) ، ويؤيده قول أحمد ابن يحيى بن ثعلب : إنّ العرب اذا استأنفت كلاماً فن شأنهم أن يأتوا بشيء غير الكلام الذي يريدون استئنافه فيجعلونه تنبيهاً للمخاطبين على قطع الكلام الأول واستئناف الكلام الجديد^(٣).

وقد يلاحظ على هذا الرأي بعدم شمول هذه الطريقة لجميع سور القرآن الكريم ، ويبقى الاختصاص حينئذ سرّاً نحتاج الى ايضاحه والكشف عنه .

نعم قد يقال : إنّ هذه الطريقة انما كانت الحاجة اليها موجودة في السور الطوال التي كانت تنزل تدريجياً وليس في جميع سور القرآن الكريم ، حيث كان بعضها ينزل دفعة واحدة ، كما في السور القصار .

ولكن الملاحظة الأساسية الأخرى على هذا الرأي هي أنّ البسملة يمكن أن

(١) الكشف ١ : ٢٨ .

(٢) التبيان ١ : ٤٧ .

(٣) التفسير الكبير ٢ : ٧ .

تقوم بهذا الدور في تمييز الانتهاء من السورة والشروع بالسورة الأخرى، حيث وردت الأحاديث التي تؤكد ان البسملة كان لها دور تمييز انقضاء السورة من ابتدائها^(١).

السادس: أنها أسماء للحروف الهجائية المعروفة، وإنما جيء بها تنبيهاً للناس على أن القرآن الكريم الذي عجزوا عن مباراته والاتيان بمثله ليس إلا مؤلفاً من هذه الحروف ومركباً منها، فلم يكن التحدي به لأنه يحتوي على مادة غريبة عنهم وإنما كان بشيء مركب من هذه الحروف التي يتكلمون ويتحدثون بها، وقد عجز عن الاتيان بمثله أهل الفصاحة والبلاغة؛ وقد ذهب المبرد وجمع كبير من المحققين إلى هذا المذهب^(٢).

وقد يناقش هذا المذهب بأن مجرد ذكر الحروف في أول السورة بهذا الشكل المتقطع لا يكفي في ايضاح هذه الحقيقة، وقد لا يشعر الناس بذلك فلا يحقق حينئذ القرآن هدفه من ذكرها، إلا إذا كانت القرائن الخارجية والحالية التي تحيط بالكلام لها دور في الافهام وتحقيق هذا الهدف، وهذا ما لا يمكن أن نعرفه من نفس هذه الحروف.

وقد كان من الممكن أن يصل القرآن إلى ذلك عن طريق ايضاح الفكرة ببيان قضية عامة تستوعب هذا المضمون وتشرحه؛ فالفكرة التي يتبناها هذا المذهب

(١) الدر المنثور ١ : ٧. أخرج أبو داود والبزار والطبراني والحاكم وصححه البيهقي في المعرفة عن ابن عباس؛ قال: كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة (يعني خاتمتها) حتى تنزل ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وزاد البزار والطبراني فاذا نزلت عرف أن السورة قد ختمت واستقبلت أو ابتدأت سورة أخرى، إضافة إلى أحاديث أخرى لها مثل هذه الدلالة.

وإن كانت صحيحة ولكنها تحتاج الى ابراز القرائن الحالية التي كانت تؤدي دور الالفهام، كما سوف نشير الى ذلك.

السابع: أنَّ هذه الحروف انما جاءت في اول السور ليفتح القرآن اسماع المشركين الذين تواصلوا بعدم الانصات اليه، كما أشار القرآن الكريم الى ذلك في قوله تعالى - على لسانهم -: ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾^(١) فكانت هذه الحروف - بطريقة عرضها وغموضها - سبباً للفت أنظار المشركين الى استماع القرآن الكريم رجاء أن يتضح لهم منه هذا الغموض والابهام عند استماعهم له.

ويزداد هذا المذهب وضوحاً اذا لاحظنا الحالة النفسية التي كان يعيشها المشركون آنذاك، حيث ينظرون الى القرآن الكريم على أنه صورة المعجزة المدعاة وانه ذو صلة بالغيب وعوالمه العجيبة، فهم ينتظرون في كل لحظة ان تحدث ظاهرة غريبة تفسر لهم الموقف وتأتيهم بالأمور العجيبة.

الثامن: أنَّها حروف من حساب الجمل، لان طريقة الحساب الابددي المعروفة الآن كانت متداولة بين أهل الكتاب آنذاك، فهذه الحروف تعبر عن أجال اقوام معينين.

ومن هنا نجد - كما روي عن ابن عباس - ابا ياسر ابن اخطب اليهودي يحاول ان يتعرف على أجل الأمة الاسلامية وعمرها من خلال هذه الحروف^(٢).

وقد لاحظ ابن كثير على هذا الرأي بقوله: «واما من زعم أنَّها دالة على معرفة العدد وأنه يستخرج من ذلك اوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك

(١) فصلت : ٢٦.

(٢) الذر المنثور ٢ : ٧.

ادل على بطلان هذه المسلك من التمسك به على صحته ...»^(١).

كما لاحظ عليه السيد رشيد رضا بمثل هذه الملاحظة حيث قال : «إنَّ اضعف ما قيل في هذه الحروف واسخفه إنَّ المراد بها الاشارة باعداها في حساب الجمل الى مدة هذه الأمة أو ما يشابه ذلك»^(٢).

التاسع : أن ذكر هذه الحروف في القرآن الكريم يدل على ناحية اعجازية تشبه دلالة بقية الآيات القرآنية، وذلك لأن النطق بهذه الحروف وإن كان متيسراً بالنسبة الى كل من يتكلم العربية، ولكن أسماءها لم تكن تتيسر إلا للمتعلم من العرب، ولما كان النبي ﷺ أمياً - كما يعرفه بذلك معاصروه - فقد رته على معرفة أسمائها قرينة على تلقيه ذلك من قبل الغيب، ويكون ذلك من قبيل ذكر القصص القرآني الذي لم يكن للنبي ﷺ طريق للاطلاع عليه غير الوحي الالهي لعدم اطلاع قريش عليه قبل هذا، وأيضاً هو بمنزلة من يتكلم باللغة الأجنبية من دون أن يسمعا أو يتعلما من أحد، ولعل هذا هو السبب في تقديم ذكرها على السورة كلها.

وقد أوضح الزمخشري هذه الفكرة بابداء ملاحظة أخرى هي : أن ظاهرة غريبة تلاحظ حين نريد أن ندرس هذه الحروف بدقة تدعونا الى الحكم بأن هذه الحروف قد أختيرت بعناية فائقة لا تتوفر إلا لدى المتخصصين من علماء العربية، ذلك أن هذه الحروف تمثل نصف أسامي الحروف العربية، حيث إنَّ عددها أربعة عشر، كما انها جاءت في تسع وعشرين سورة هي عدد حروف المعجم كلها باضافة الهمزة، ثم اذا نظرت في هذه الحروف الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف اجناس الحروف من المهموسة والمجهورة، والشديدة والرخوة، والمطبقة

(١) تفسير القرآن العظيم ١ : ٦٨.

(٢) المنار ١ : ١٣٢.

والمنفتحة، والمستعلية والمنخفضة.

وقد أضاف أحمد بن المنير في شرحه للكشاف اضافات أخرى عديدة^(١). وهذه الملاحظة يمكن أن تكون مؤكدة هذه الفكرة، كما يمكن أن تؤيد أيضاً القول السادس الذي أشار إليه الزمخشري أيضاً، في ذيل هذه الملاحظة وكأنه حاول أن يوائم بين القول : السادس والتاسع^(٢).

العاشر : ما ذكره ابن كثير وأوضحه السيد رشيد رضا وحاصله : أنّ من الملاحظ أنّه قد جاء بعد هذه الحروف ذكر الكتاب الكريم ونبأ تنزيله، ولم تتخلف عن ذلك إلا سور أربع هي مريم والعنكبوت والروم والقلم، وفي كل واحدة منها نجد أمراً مهماً يشبه مسألة الكتاب وانزاله.

فاننا نجد في فاتحة سورة مريم خلق يحيى من امرأة عاقر كبيرة ومن شيخ عجوز وهو أمر يخالف القوانين التجريبية السائدة، وفي فاتحة العنكبوت والروم نجد أمرين مهمين يرتبطان بالدعوة ومصيرها، حيث جاء في فاتحة العنكبوت بيان قانون اجتماعي وضعه الله لاختبار الناس وتمييز الصالح منهم عن غيره، ولهذا القانون تأثير كبير على سير الدعوة، حيث يوضح أنّ الفتنة والعذاب لا يمكن أن يكونا دليلاً على خذلان الله لأحبابه وانما هما اختبار لصدق ايمانهم ورسوخه.

وفي فاتحة الروم قضية الاخبار بغلبة الروم على الفرس في بضع سنين. وفي فاتحة القلم وخاتمتها تبرئة الرسول من تهمة الجنون التي كانت من أول ما رمي به النبي ﷺ من تهمة، كما ان السورة كانت من أول ما نزل من القرآن. ومن الواضح ان هذه القضايا ترتبط جميعاً بالوحي الالهي أو الرسالة بصورة مباشرة، وهذا الارتباط بين الحروف المقطعة وبين تأكيد الكتاب وانزاله من

(١) الزمخشري، الكشاف ١ : ٢٣ - ٢٤. وقرأ تعليق أحمد بن المنير الاسكندري أيضاً.

(٢) المصدر السابق : ٢٩ - ٣٠.

السماء والرسالة وعلاقتها بالسماء يدعوننا للقول: إنه انما جيء بها لغاية قرع الأسماع وهز القلوب ودفع الناس الى استماع القرآن الكريم والانصات اليه^(١). وهذا المذهب يكاد ينطلق من المذهب السابع - كما اعترف بذلك السيد رشيد رضا - كما ان السيد رشيد رضا يخطئ حين يتصور أنه انفرد به حيث سبقه للإشارة إليه ابن كثير، وان كان قد اختار تضعيفه.

موقفنا من هذه المذاهب :

وموقفنا من هذه المذاهب يتحدد في ضوء بعض الظواهر العامة التي عاشتها مسألة (فواتح السور) وهي :

- ١ - عدم ورود تفسير واضح للفواتح عن الرسول.
 - ٢ - سكوت الصحابة بشكل عام عن سؤال الرسول بصدد هذا الموضوع.
 - ٣ - عدم تعارف استعمال العرب لهذا الاسلوب في كلامهم.
- وهذه الظواهر الثلاث تجعلنا نؤمن بأن الموقف تجاه هذه الحروف من قبل معاصري الوحي والنبوة كان واضحاً وجلياً، الأمر الذي أدى الى سكوت النبي عن بيانه والصحابة عن سؤاله، وحينئذ فاما أن يكون هذا الوضوح نتيجة توضيح النبي بأنها من المتشابهات التي يحسن السكوت عنها والتسليم بها. أو أنه كان نتيجة أن الغاية من استعمالها كانت جارية على نهج المذهب السادس أو السابع؛ فانهما المذهبان الوحيدان اللذان يفسران هذه الظاهرة بشكل ينسجم مع هذه الظواهر المسلمة بدون الحاجة الى السؤال والاستفسار.

(١) تفسير القرآن العظيم ١ : ٦٨، والمنار ٨ : ٢٥٦ - ٢٨٩. ولكن ابن كثير يذكر هذه الملاحظات بصدد التنبيه على ارتباط الحروف بالاعجاز كما ذكره في الوجه السادس حيث اختاره.

أما المذهب السادس فباعتبار ان هذه الألفاظ هي أسماء للحروف ومن الطبيعي أن نفترض أن العرب كانوا يفهمون منها مسمياتها، وكانوا يفسرون ذكرها في أوائل السور على أساس هذا الترابط بين هذه الحروف وقضية التحدي في القرآن.

وأما المذهب السابع فباعتبار أن هذا الأسلوب كان يمثل عملية خارجية يارسها النبي ﷺ لاسكاتهم وإلفات أنظارهم وكانت بوجودها الخارجي والقرائن الحالية تدل على مضمونها وهدفها من دون حاجة الى تفسير، نظير بعض الاشارات باليد أو العين أو الأفعال التي كان يقوم بها النبي ﷺ وكان يفهمها المشاهدون مباشرة دون حاجة الى سؤال أو استفسار أو شرح.

ويكون هذا الأسلوب في الإلفات من الأساليب التي برع القرآن في استعمالها.

استخلاف آدم (الانسان)

﴿ وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبثوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى وأستكبر وكان من الكافرين * وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعاً فإنا يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿^(١).

هذه الآيات العشر تتحدث عن قضية استخلاف الله سبحانه لآدم على الأرض، وقضية الاستخلاف تشتمل على جانبين وفصلين :
الفصل الأول منها يتناول معنى الاستخلاف والحكمة والعلة فيه، وهذا الجانب

من قصة آدم يكاد ينحصر ذكره والحديث عنه في القرآن الكريم بهذا المقطع القرآني فقط^(١)، وإن كان من الممكن أن تكون جميع آيات الاستخلاف مؤكدة هذا المقطع وإن لم تكن بهذا الوضوح.

والفصل الثاني يتناول العملية التي تم بها انجاز هذا الاستخلاف، وهذا الجانب تحدث عنه القرآن في مواضع متعددة لا بد من دراستها بشكل عام.

الفصل الأول : الحكمة في استخلاف آدم :

وما يعيننا من دراسته في هذا الفصل من هذا المقطع القرآني الشريف هو الآيات الأربع الأولى، والبحث فيها وما تضمنته من معلومات ومفاهيم له جانبان: الجانب الأول : تحديد الموقف العام تجاه دراسة هذا المقطع القرآني وتصوير ما يعنيه القرآن الكريم منه.

الجانب الثاني : تحديد الموقف القرآني والاسلامي تجاه بعض المفاهيم التي جاءت في المقطع بالشكل الذي ينسجم مع المسلمات القرآنية والظهور اللفظي لهذا المقطع بالخصوص.

وفيما يتعلق بالجانب الأول نجد الشيخ محمد عبده تبعاً لبعض الدارسين المتقدمين يذكر رأيين مختلفين بحسب الشكل وإن كانا يتفقان في النهاية، حسب ما يقول :

الرأي الأول : هو الذي سار عليه السلف واختاره الشيخ محمد عبده نفسه

(١) بالإضافة الى بعض الاشارات الأخرى مثل قوله تعالى : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان انه كان ظلوماً جهولاً﴾ الأحزاب : ٧٢، و قوله تعالى : ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم﴾ الأنعام : ١٦٥، وفاطر : ٣٩، والزخرف : ٦٠، وغيرها.

أيضاً، حيث يقول: «وأما ذلك الحوار في الآيات فهو شأن من شؤون الله مع ملائكته، صوره لنا في هذه الفصول بالقول والمراجعة والسؤال والجواب، ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول، ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا، وإن هناك معاني قصدت افادتها بهذه العبارات، وهي عبارة عن شأن من شؤونه تعالى قبل خلق آدم وأنه كان يعد له الكون، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الانسان، وشأن آخر في بيان كرامة هذا النوع وفضله»^(١).

والرأي الثاني: الرأي الذي سار عليه الخلف من المحققين وعلماء الاسلام الذين بذلوا جهدهم في دراسة القرآن والتعرف على مقاصده، حيث يرون أن هذه القصة بمواقفها المختلفة انما جاءت على شكل التمثيل ومحاولة تقريب النشأة الآدمية الانسانية واهميتها وفضيلتها، وأن جميع المواقف والمفاهيم التي جاءت فيها لا يمكن تحديد المعاني والاهداف التي قصدت منها.

فالرأي الاول والثاني وإن كانا يلتقيان في حقيقة تنزيه الله سبحانه وتعالى وعالم الغيب عن مشابهة المخلوقات المادية المحسوسة في هذه المواقف المختلفة، وكادا يتفقان أيضاً في الاهداف والغايات العامة المقصودة من هذا المقطع القرآني ولكنها مع ذلك تختلفان في امكانية تحديد بعض المفاهيم التي وردت في المقطع، كما سوف يتضح ذلك عند معالجتنا للمقطع القرآني من جانبه الآخر.

وفما يتعلق بالجانب الثاني نجد السلف انسجماً مع موقفهم في الجانب الاول يقفون من دراسة المقطع موقفاً سلبياً، ويكتفون - في بعض حالات الانفتاح - بذكر الفوائد الدينية التي تترتب على ذكر القرآن لهذا المقطع القرآني (المتشابه).

وقد أشار الشيخ محمد عبده الى بعض هذه الفوائد، ونكتفي بذكر فائدتين منها: الأولى: أن الله سبحانه وتعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده ان يسألوه عن

حكيمته في صنعه وما يخفى عليهم من أسرارهِ في خلقهِ.

الثانية: أن الله سبحانه لطيف بعباده رحيم بهم، يعمل على معالجتهم بوجوه اللطف والرحمة، فهو يهدي الملائكة في حيرتهم ويحييهم عن سؤالهم عندما يطلبون الدليل والحجة بعد أن يرشدهم إلى واجبهم من الخضوع والتسليم: ﴿... اني اعلم ما لا تعلمون﴾* وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة...﴿^(١).

وأما الخلف فقد حاولوا ايضاح المفاهيم التي وردت في هذا المقطع القرآني ليتجلى بذلك معنى استخلاف الله سبحانه وتعالى لآدم، وسوف نعرض هنا اهم هذه المفاهيم المرتبطة بقضية الاستخلاف، مع ذكر الاراء المختلفة فيها ثم نتحدث عن المعنى العام للمقطع القرآني:

مفاهيم حول الاستخلاف:

١- الخلافة:

الخلافة بحسب اللغة: من خلف من كان قبله وقام مقامه وسد مسده، وتستعمل أيضاً بمعنى النيابة^(٢)، ومن هذا المنطلق يطرح هذا السؤال: لماذا سمي آدم خليفة؟ توجد هنا عدة آراء:

الأول: أن آدم سمي خليفة لأنه خلف مخلوقات الله سبحانه في الأرض، وهذه المخلوقات إما أن تكون ملائكة أو يكونوا الجن الذين أفسدوا في الأرض وسفكوا فيها الدماء، كما روي عن ابن عباس، أو يكونوا آدميين آخرين قبل آدم هذا. الثاني: أنه سمي خليفة لانه وابناءه يخلف بعضهم بعضاً، فهم مخلوقات تتناسل ويخلف بعضها بعضاً الآخر، وقد نسب هذا الرأي الى الحسن البصري.

الثالث: أنه سمي خليفة لانه يخلف الله سبحانه في الأرض؛ وفي تفسير هذه

(١) البقرة: ٣٠-٣١.

(٢) مفردات الراغب: مادة (خلف).

الخلاقة لله سبحانه وارتباطها بالمعنى اللغوي تعددت الآراء واختلفت :

أ - انه يخلف الله في الحكم والفصل بين الخلق.

ب - يخلف الله سبحانه في عمارة الارض واستثمارها، من انبات الزرع واخراج الثمار وشق الانهار وغير ذلك^(١).

ج - يخلف الله سبحانه في العلم بالاسماء كما ذهب الى ذلك العلامة الطباطبائي^(٢).

د - يخلف الله سبحانه في الارض بما نفخ الله فيه من روحه ووهبه من قوة غير محدودة، سواء في قابليتها أو شهواتها أو علومها؛ كما ذهب الى ذلك الشيخ محمد عبده^(٣).

ولعل المذهب الثالث هو الصحيح من هذه المذاهب الثلاثة، خصوصاً إذا أخذنا في مدلوله معنى 'واسعاً لخلاقة الله في الأرض بحيث يشمل مجمل الآراء الأربعة التي أشرنا إليها في تفسيره، لأن دور الانسان في خلافة الله في الأرض يمكن أن يشمل جميع الأبعاد والصور التي ذكرتها هذه الآراء، فهو يخلف الله في الحكم والفصل بين العباد بما منح الله هذا الانسان من صلاحية الحكم بين الناس بالحق : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ... ﴾^(٤).

وكذلك يخلفه في عمارة الارض واستثمارها من انبات الزرع واخراج الثمار والمعادن وتفجير المياه وشق الأنهار وغير ذلك : ﴿ ... فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾^(٥) ولعل أكثر موارد استعمال (خلائف و خلفاء واستخلاف)

(١) هذا الرأي وما قبله ذكره الطوسي في التبيان ١ : ١٣١ .

(٢) الميزان ١ : ١١٨ .

(٣) المنار ١ : ٢٦٠ .

(٤) ص : ٢٦ .

(٥) الملك : ١٥ .

أريد منه هذا النوع من الاستخلاف : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعنوا في الأرض مفسدين ﴾^(١).

وكذلك يخلف الانسان الله في الأرض بعلمه بالأسماء والمعارف والكمالات التي يتكامل من خلالها ويسير بها نحو الله تعالى.

ولعل ما ذكره الشيخ محمد عبده انما يمثل السر في منح الانسان هذه الخلافة لأنه يتميز بهذه المواهب والقوى والقابليات.

٢- كيف عرف الملائكة أن الخليفة يفسد في الأرض :

لقد ذكر المقطع القرآني أن جواب الملائكة عن اخبارهم بجعل آدم خليفة في الأرض أنهم تساءلوا عن سبب انتقاء هذا الخليفة الذي يفسد في الأرض، فكيف عرف الملائكة هذه الخصيصة في هذا الخليفة، وهنا عدة آراء :

الأول : أن الله سبحانه وتعالى أعلمهم بذلك، لأن الملائكة لا يمكن أن يقولوا هذا القول رجماً بالغيب وعملاً بالظن^(٢).

الثاني : أنهم قاسوا ذلك على المخلوقات التي سبقت هذا الخليفة الذي سوف يقوم مقامها، كما يشير الى ذلك بعض الروايات والتفاسير^(٣).

الثالث : أن طبيعة الخلافة تكشف عن ذلك بناء على الرأي الأول من المذهب الثالث في معنى الخلافة، حيث يفترض الاختلاف والنزاع، ولازمه الفساد في الأرض وسفك الدماء، كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره.

الرابع : أن طبيعة الخليفة نفسه تقتضي ذلك، وهنا رأيان :

أ - ان المزاج المادي والروحي لهذا المخلوق الذي يريد ان يجعله الله خليفة،

(١) الأعراف : ٧٤.

(٢) التبيان : ١ : ١٣٢.

(٣) المصدر السابق : ١٣٣.

والاساس الاجتماعي للعلاقات الارضية التي سوف تحصل بين ابناء هذه المخلوقات هي التي جعلت الملائكة يعرفون ذلك، يقول العلامة الطباطبائي «ان الموجود الارضي بما انه مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية والدار دار التزام محدود الجهات وافرة المراحات، مركباتها في معرض الانحلال وانتظاماتها واصطلاحاتها مظنة الفساد ومصّب البطلان، لا تتم الحياة فيها الا بالحياة النوعية ولا يكمل البقاء فيها الا بالاجتماع والتعاون فلا تخلو من الفساد وسفك الدماء»^(١).

ب - ان الارادة الانسانية بما أعطيت من اختيار يتحكم في توجيهه العقل بمعلوماته الناقصة هي التي تؤدي بالانسان الى أن يفسد في الأرض ويسفك الدماء، قال محمد عبده: «اخبار الله الملائكة بأنه جاعل في الارض خليفة، نفهم من ذلك أن الله يودع في فطرة هذا النوع الذي يجعله خليفة ان يكون ذا ارادة مطلقة واختيار في عمله غير محدود، وان الترجيح بين ما يتعارض من الاعمال التي تعن له تكون بحسب علمه، وان العلم اذا لم يكن محيطاً بوجوه المصالح والمنافع فقد يوجه الارادة الى خلاف المصلحة والحكمة، وذلك هو الفساد وهو معين لازم الوقوع لان العلم المحيط لا يكون إلا الله تعالى»^(٢).

ويبدو أن الرأي الاول هو الصحيح، حيث إنه تعالى لا بد وأنه قد أعلم الملائكة بحال وطبيعة هذا المخلوق الذي ينتهي به الحال إلى هذه النتائج.

وأما ما يُبين من هذه الطبيعة فلعل الصحيح هو بيان أمرين: أحدهما الخصوصية المادية التي أشار إليها العلامة الطباطبائي والهوى في طبيعة هذا الخليفة.

والآخر: هو أن هذا الانسان مريد ومختار يعمل بارادته، كما ذكر الشيخ محمد عبده، ويمكن أن نفهم ذلك من قرينة تعقيب الملائكة أنفسهم، الأمر الذي

(١) الميزان ١: ١١٥، والتفسير الكبير ١: ١٢١، والميزان ١: ١١٩.

(٢) المنار ١: ٢٥٦.

استدعى التوضيح الإلهي الذي يشتمل على بيان الخصوصية التي تجعل هذا الوجود مستحقاً لهذه الخلافة وهو العلم.

٣- الأسماء :

والأسماء من المفاهيم التي وقع الخلاف فيها بين علماء التفسير حول حقيقتها والمراد منها، والآراء فيها تسير في الاتجاهين التاليين :

الأول : أن المراد من الأسماء الألفاظ التي سَمَّى الله سبحانه بها ما خلقه من أجناس وأنواع المحدثات وفي جميع اللغات، وهذا الرأي هو المذهب السائد عند علماء التفسير ونسب إلى ابن عباس وبعض التابعين^(١).

وينطلق أصحاب هذا المذهب في تفكيرهم إلى أن الله سبحانه كان قد علَّم آدم جميع اللغات الرئيسة. وقد كان ولده على هذه المعرفة، ثم تشعبت بعد ذلك واختص كل جماعة منهم بلغة غير لغة الجماعة الأخرى.

الثاني : أن المراد من الأسماء : المسميات، أو صفاتها وخصائصها، لا الألفاظ وحينئذ فنحن بحاجة إلى القرينة القرآنية أو العقلية التي تصرف اللفظ إلى هذا المعنى الذي قد يبدو أنه يخالف ظاهر الإطلاق القرآني لكلمة (الأسماء) الدالة على الألفاظ. ويمكن أن تتصور هذه القرينة في الأمور التالية :

أ - كلمة (علم) التي تدل على أن الله سبحانه منح آدم (العلم) وبما «أن العلم الحقيقي إنما هو ادراك المعلومات أنفسها والألفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضع والاصطلاح فهي تتغير وتختلف والمعنى لا يتغير فيه ولا اختلاف»^(٢). فلا بد أن يكون هو المسميات التي هي المعلومات الحقيقية.

ب - قضية التحدي المطروحة في الآيات الكريمة؛ ذلك أن الأسماء حين يقصد

(١) التبيان ١ : ١٣٨، والتفسير الكبير ٢ : ١٧٦.

(٢) المنار ١ : ٢٦٢.

منها الألفاظ واللغات فهي اذن من الأشياء التي لا يمكن تحصيلها إلا بالتعليم والاكتساب، فلا يحسن تحدي الملائكة بها، إذ لا دلالة في تعليمها آدم على وجود موهبة خاصة فيه يتمكن بها من معرفة الأسماء، وهذا على خلاف ما اذا قلنا: إنَّ المقصود منها المسميات، فانها مما يمكن ادراكه ولو جزئياً - عن طريق اعمال العقل الذي يُعَدُّ موهبة خاصة فيكون لمعرفة آدم بها دلالة على موهبة خاصة منحه الله اياها.

قال الطوسي: «إنَّ الاسماء بلا معان لا فائدة فيها ولا وجه لا يثاره الفضيلة بها»^(١). وقال الرازي: «وذلك لان العقل لا طريق له الى معرفة اللغات البتة، بل ذلك لا يحصل الا بالتعليم فان حصل التعليم حصل العلم به والا فلا، اما العلم بحقائق الاشياء فالعقل متمكن من تحصيله فصح وقوع التحدي فيه»^(٢).

ج - عجز الملائكة عن مواجهة التحدي؛ لأن هذه الاسماء لو كانت الفاظاً لتوصل الملائكة الى معرفتها بانباء آدم لهم بها، وهم بذلك يتساوون مع آدم فلا تبقى له مزية وفضيلة عليهم، فلا بد لنا من ان نلتزم بأنَّها أشياء تختلف مراتب العلم بها، الامر الذي أدى الى أن يعرفها آدم معرفة خاصة تختلف عن معرفة الملائكة لها حين اخباره لهم بها، وهذا يدعوننا لان نقول إنَّها عبارة عن المسميات لا الالفاظ؛ قال العلامة الطباطبائي بصدد شرح هذه الفكرة: «ان قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم...﴾ يشعر بان هذه الاسماء أو ان مسمياتها كانت موجودات احياء عقلاء محجوبين تحت حجاب الغيب، وان العلم بأسمائهم كان غير العلم الذي عندنا بأسماء الاشياء والآ كانت بانباء آدم اياهم بها عالين بها وصائرين مثل آدم مساوين معه»^(٣).

(١) التبيان ١: ١٣٨.

(٢) التفسير الكبير ٢: ١٧٦.

(٣) الميزان ١: ١١٧.

وحين يصل اصحاب هذا الاتجاه الى هذه النقطة نجدهم يحاولون أن يتعرفوا على العلاقة التي صححت استعمال لفظ (الاسماء) محل لفظ (المسميات) ويذكرون لذلك قرائن متعددة :

١- فالرازي يرى هذه المناسبة والعلاقة في مصدر اشتقاق الاسم، فانه اما أن يكون من السمه أو السمو «فان كان من السمة كان الاسم هو العلامة، وصفات الاشياء خصائصها دالة على ماهياتها، فصح ان يكون المراد من الاسماء: (الصفات) وان كان من السمو فكذلك لأن دليل الشيء كالمرتفع على ذلك الشيء فان العلم بالدليل حاصل قبل العلم بالمذلول»^(١) والصفات تدل على الموصوف وهي كالظاهر المرتفع بالنسبة الى الشيء.

٢- والشيخ محمد عبدة يرى هذه العلاقة في «شدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له وسرعة الانتقال من احدهما الى الآخر».

٣- كما أنه يرى في ذلك وجهاً آخر يكاد يغنيه عن هذه العلاقة حيث : إن الاسم قد يطلق اطلاقاً صحيحاً على صورة المعلوم الذهنية (اي ما به يعلم الشيء عند العالم) فاسم الله مثلاً هو ما به عرفناه في اذهاننا لا نفس اللفظ بحيث يقال : اننا نؤمن بوجوده ونسند إليه صفاته، فالاسماء هي ما يعلم بها الاشياء في الصور الذهنية وهي العلوم المطابقة للحقائق الخارجية الموضوعية، والاسم بهذا المعنى هو الذي جرى الخلاف بين الفلاسفة في انه عين المسمى أو غيره، الامر الذي يدعونا لأن نقول : إن للاسم معنى آخر غير اللفظ اذ لا شك بان اللفظ غير المعنى. والاسم بهذا الاطلاق أيضاً هو الذي يتبارك ويتقدس : ﴿سبح اسم ربك الاعلى﴾^(٢) اذ لا معنى لان يكون اللفظ هو الذي يتبارك ويتقدس^(٣).

(١) المصدر السابق : الموضوع نفسه .

(٢) الأعلى : ١ .

(٣) المنار : ١ : ٢٦٢ .

ما هي هذه الاسماء ؟

وبعد هذا كله نجدهم يختلفون في حقيقة هذه المسميات والمراد منها في الآية الكريمة :

فالعلامة الطباطبائي يراها - كما في النص السابق - موجودات احياء عقلاء، ولعله يفهم هذه الحياة لها والعقل من قوله تعالى: ﴿ثم عرضهم﴾ حيث استعمل ضمير الجماعة المختص بمن يعقل، وهذا الاتجاه نجده في بعض الآراء المتقدمة على العلامة الطباطبائي نفسه، كما في حكاية الطبري عن الربيع بن زيد انها قالوا: علمه الله اسماء ذريته واسماء الملائكة^(١).

ولكن الشيخ الطوسي يناقش فكرة الاعتماد على الضمير بقوله: «وهذا غلط لما بيناه من التغليب وحسنه، كما قال تعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على اربع...﴾»^(٢). والشيخ محمد عبده يرى أنها تعني: جميع الأشياء وجميع ما يتعلق بعبارة الدين والدنيا من غير تحديد ولا تعيين^(٣) ولعل هذا الاتجاه هو الذي يظهر من كلام الشيخ الطوسي والرازي في تفسيرهما^(٤)، وحكاية الطبرسي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعليه اكثر المتأخرين.

وهذا الرأي هو الصحيح الذي ينسجم مع واقع الانسان من ناحية وصحة التمييز به والفضل على الملائكة لأنه يعبر عن خط التكامل الذي يمكن أن يسير به الانسان ويمتاز به على جميع المخلوقات.

(١) التبيان ١: ١٣٨.

(٢) النور: ٤٥.

(٣) المنار ١: ٢٦٢.

(٤) التبيان ١: ١٣٨، والتفسير الكبير ٣: ١٧٦.

نظرية الاستخلاف :

بعد أن تعرّفنا آراء العلماء المختلفة تجاه المفاهيم البارزة التي جاءت في هذا المقطع القرآني، لا بد لنا من معرفة الصورة الكاملة للمقطع القرآني لنستخلص نظرية استخلاف آدم منها.

صورتان لهذه النظرية :

وهنا صورتان لهذه النظرية بينهما كثير من وجوه الشبه :

الأولى : الصورة التي ذكرها السيد رشيد رضا في تفسيره عن استاذة الشيخ محمد عبده : حيث يرى أن القصة وردت مورد التمثيل لغرض تقريبها من تناول افهام الخلق لها لتحصل لهم الفائدة من معرفة حال النشأة الأولى.

وعلى هذا الاساس يمكننا ان نفهم كثيراً من جوانب هذه المحاورة والالفاظ التي استعملت فيها دون ان تنقيد بالمعنى اللغوي العرفي لها :

١ - فالله سبحانه أخبر الملائكة بأنه بصدد أن يجعل في الأرض خليفة عنه يودع في فطرته الارادة المطلقة التي تجعله قادراً على التصرف حسب قدرته ومعلوماته التي لا يمكن أن تصل الى مرتبة الكمال.

وعلى أساس هذه الارادة المطلقة وهذا العلم الناقص عرف الملائكة ان هذا الخليفة سوف يسفك الدماء ويفسد في الأرض لأن ذلك نتيجة طبيعية لما يتمتع به من ارادة مطلقة يسير بها حسب علمه الذي لا يحيط بجميع جوانب المصالح والمنافع، الأمر الذي قد يوجه الارادة الى خلاف الحكمة والمصلحة فيقع في الفساد.

وحين عرف الملائكة ذلك تعجبوا من خلق الله لهذا النوع من الخلق الذي يسفك الدماء ويفسد في الارض فسألوا الله سبحانه (عن طريق النطق، أو الحال، أو غير ذلك) أن يتفضل عليهم باعلامهم عن ذلك وبيان الحكمة لهم.

وكان الجواب لهم عن ذلك هو بيان وجوب الخضوع والتسليم لمن هو بكل

شيء عليم، لأن هذا هو موقف جميع المخلوقات تجاهه لأنه العالم المحيط بكل المصالح والحكم.

٢- على أن هذا النوع من الخضوع والتسليم الذي ينشأ من معرفة الملائكة باحاطة الله بكل شيء قد لا يذهب الحيرة ولا يزيل الاضطراب، وانما تسكن النفس باظهار الحكمة والسر الذي يختفي وراء الفعل الذي حصل منه تعجب الملائكة.

ولذلك تفضل الله سبحانه على الملائكة بأن أوضح لهم السر، وأكمل علمهم ببيان الحكمة في هذا الخلق، فأودع في نفس آدم وفطرته علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين الأمر الذي جعل لآدم امتيازاً خاصاً استحق به الخلافة عن الله في الارض.

ويظهر هذا الامتياز حين تقارن بين الانسان وبين المخلوقات لله سبحانه، فقد نطق الوحي ودل العيان والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم انواعاً مختلفة وخص كل نوع منها بقدرات ومواهب، ولكن الانسان مع ذلك يختلف عنها في أنه لما منحه الله من قدرات ومواهب ليست لها حدود معينة لا يتعدها على خلاف بقية المخلوقات.

فالملائكة -الذين لا يتمكن من معرفة حقيقتهم الا عن طريق الوحي - لهم وظائف محدودة - كما دلت الآيات والاحاديث - فهم يسبحون الله ليلاً ونهاراً وهم صافون ويفعلون ما يؤمرون الى غير ذلك من الاعمال المحدودة.

٣- وما نعرفه بالنظر والاختبار عن حال الحيوان والنبات والجماد، فانها بين ما يكون لا علم له ولا عمل كالجماد، أو يكون له عمل معين يختص به نفسه دون ان يكون له علم وارادة، ولو فرض ان له علماً أو ارادة فهما لا أثر لهما في جعل عملها مبيناً لحكم الله وسنته في الخلق ولا وسيلة لبيان احكامه وتنفيذها.

فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية - عدا الانسان - له استعداد محدود وعلم إلهامي محدود وما كان كذلك لا يصلح ان يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه واراادته .

واما الانسان فقد خلقه الله ضعيفاً وجاهلاً ولكنه على ضعفه وجهله فهو يتصرف في الموجودات القوية، ويعلم جميع الاسماء بما وهبه الله من قدرة على النمو والتطور التدريجي في احساسه ومشاعره وادراكه، فتكون له السلطة على هذه الكائنات يسخرها ثم يذلها بعد ذلك كما تشاء قوته الغريبة التي يسمونها العقل ولا يعرفون حقيقتها ولا يدركون كنهها؛ فهذه القوة نجدها تغني الانسان عن كل ما وهب الله للحيوان في أصل الفطرة والإلهام من الكساء والغذاء والاعضاء والقوة .

فالانسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل .

وكما اعطاه الله تعالى هذه المواهب اعطاه احكاماً وشرائع حدد فيها اعماله واخلاقه، وهي في الوقت نفسه تساعده على بلوغ كماله لأنها مرشد للعقل الذي كان له كل تلك المزايا .

وبهذا كله استحق الانسان خلافة الله في الارض وهو خلق المخلوقات بها، ونحن نشاهد في عصرنا آثار هذه الخلافة بما فعله الانسان من تطوير وسيطرة وتصرف في الكون .

وحين أودع الله في فطرة آدم علم الاشياء من غير تحديد عرض الاشياء على الملائكة وأطلعهم عليها اطلاعاً اجمالياً، ثم طالبهم بمعرفتها والانباء بها واذا بهم يظهرون التسليم والخضوع والعجز والاعتراف .

وعند ذلك أمر الله آدم أن ينبئهم بالاشياء ففعل، وذلك لتكشف لهم الحقيقة

باوضح صورها واشكالها.

واما الصورة الثانية : فهي التي عرضها العلامة الطباطبائي وهي تختلف عن الصورة السابقة في بعض الجوانب، ونحن نقصر على ذكر جوانب الخلاف التي سبق أن أشرنا الى بعضها :

١ - إن خليفة الله موجود مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية والدار دار تراحم محدودة الجهات وافرة المزاومات لا يمكن أن تتم فيها الحياة الا بايجاد العلاقات الاجتماعية وما يستتبعها من تصادم وتضاد في المصالح والرغبات، الامر الذي يؤدي الى الفساد وسفك الدماء.

٢ - إن الملائكة حين تعجبوا كانوا يرون أن الغاية من جعل الخلافة هي أن يحكي الخليفة مستخلفه بتسبيحه بحمده وتقديسه له بوجوده، والارضية اي الانتماء الى الأرض وشهواتها لا تدعه يفعل ذلك بل تجره الى الفساد والشر والغاية من هذا الجعل يمكن ان تتحقق بتسبيحهم بحمد الله وتقديسهم له.

٣ - إن آدم استحق الخلافة لقدرته على تحمل السر الذي هو عبارة عن تعلم الاسماء التي هي اشياء حية عاقلة محجوبة تحت حجاب الغيب محفوظة عند الله. وقد انزل الله كل اسم في العالم بخيرها وبركتها واشتق كل ما في السماوات والارض من نورها وبهائها، وانهم على كثرتهم وتعدددهم لا يتعددون تعدد الافراد وانما يتكاثرون بالمراتب والدرجات.

الموازنة بين الصورتين :

ويحسن بنا ان نوازن بين هاتين الصورتين لنخرج بالصورة الكاملة التي نراها صحيحة لتصوير هذا المقطع القرآني، ولناخذ النقاط الثلاث التي خالف فيها العلامة الطباطبائي الشيخ محمد عبدة.

ففي النقطة الاولى قد نجد العلامة الطباطبائي على جانب من الحق كما نجد

الشيخ محمد عبدة على جانب آخر منه، ذلك لان العلامة الطباطبائي أكد ما فطر عليه الانسان من غرائز وعواطف مختلفة، وهذا شيء صحيح لما لهذه الغرائز من تأثير كبير في حصول التراحم والتنافس في المجتمع الانساني الامر الذي يؤدي الى الفساد وسفك الدماء، واساس هذه الغرائز غريزة حب الذات التي جاءت الاديان السماوية ومنها الاسلام من اجل توجيهها توجيهاً صالحاً يدفعها الى تجنب الفساد والسفك للدماء، ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد دور الهوى في الفساد وسفك الدماء.

والشيخ محمد عبدة حين يغفل هذا الجانب - في مسألة معرفة الملائكة للفساد وسفك الدماء - يؤكد جانباً آخر له دور كبير أيضاً في الفساد وسفك الدماء، وهو الارادة المطلقة والمعرفة الناقصة فلولا هذه الارادة ولولا هذا النقص في العلم لما كان السفك والفساد.

وعلى هذا الاساس يمكن ان نعتبر كلا الجانبين مؤثراً في معرفة الملائكة لنتيجة هذا الخليفة.

وفي النقطة الثانية نجد الشيخ محمد عبدة يحاول أن يذكر أن الشيء الذي أثار السؤال لدى الملائكة هو قضية أن هذا المخلوق المرید ذا العلم الناقص لابد أن يكون مفسداً في الأرض وسافكاً للدماء، ومن ثم فلا مبرر لجعله خليفة مع ترتب هذه الآثار على وجوده.

وأما العلامة الطباطبائي فهو يحاول أن يذكر في أن الشيء الذي أثار السؤال هو أن الخليفة لابد أن يكون حاكياً للمستخلف (الله) بخلاف الملائكة، حيث يمكن أن يحكوا المستخلف من خلال تسبيحهم وحمدهم.

وفي هذه النقطة قد يكون الحق الى جانب العلامة الطباطبائي، ذلك لأن التفسير الالهي لهذه الخلافة كان من خلال بيان امتياز هذا الخليفة بالعلم، كما قد

يفهم من الآية، وأشار إليه الشيخ محمد عبدة، مع أن هذا التفسير لا ينسجم مع النقطة التي ذكرها الشيخ عبدة لأنه افترض في أصل إثارة السؤال وجود العلم الناقص الى جانب الادارة؛ فكيف يكون هذا العلم - بالشكل الذي ذكره الشيخ محمد عبدة، وهو علم ناقص على أي حال - جواباً لهذا السؤال؟

نعم لو افترضنا أن العلم الذي علّمه الله تعالى لآدم هو الرسائل الالهية الهادية للصالح والرشاد والحق والكمال - كما أشار الشيخ محمد عبدة الى ذلك في النقطة الثالثة - فقد يكون جواباً لسؤال الملائكة، لأن مثل هذا العلم يمكن أن يصلح شأن الارادة والاختيار الذي أثار المخاوف، ولكن هذا خلاف الظاهر، حيث يفهم من ذيل هذا المقطع الشريف: ﴿...فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾^(١) أن هذا الهدى الذي هو الرسائل الالهية الهادية جاء بعد هذا التعليم لآدم.

وأما لو افترضنا أن الذي أثار السؤال لدى الملائكة هو الارادة والاختيار فقط - كما اختاره أستاذنا الشهيد الصدر رحمته - أصبح بيان الامتياز بالعلم والمعرفة جواباً للسؤال وتهدة للمخاوف التي انتشرت لدى الملائكة، لأن هذا العلم يهدي الى الله تعالى ويتمكن هذا الانسان بفطرته من أن يسير في طريق التكامل.

وأما العلامة الطباطبائي فقد اعتبر الانتماء الى الأرض والتزاحم بين المصالح فيها هو الذي يؤدي الى الفساد، ويكون العلم بالاسماء طريقاً وعلاجاً لتجنب هذه الأخطار، لأن الاسماء بنظره موجودات عاقلة حية.

وفي النقطة الثالثة يفترض الشيخ محمد عبدة أن العلم هو الذي جعل الانسان مستحقاً للخلافة، وهذا العلم ذو بعدين :

أحدهما : العلوم الطبيعية التي يمكن للانسان أن يحصل عليها من خلال

التجارب والبحث، والتي يتمكن الانسان بواسطتها من الهيمنة على العالم المادي الذي يعيش فيه، كما نشاهد ذلك في التأريخ وفي عصرنا الحاضر بشكل خاص. والآخر: العلم الالهي المنزل من خلال الشريعة، والذي يمكن للانسان من خلاله أن يعرف طريقه الى الكمالات الالهية ويشخص المصالح والمفاسد والخير والشر.

وهذا التصور ينسجم مع اطلاق كلمة العلم في الآية الكريمة، ومع فرضية أن الجواب الالهي للملائكة انما هو تفسير لجعل الانسان خليفة، لان الجواب ذكر خصوصية (العلم) كامتياز لآدم على الملائكة.

كما ينسجم هذا التصور مع ما أكدته القرآن الكريم في مواضع متعددة من دور العقل ومدركاته في حياة الانسان ومسيرته وتسخير الطبيعة له، وكذلك دور الشريعة في تكامل الانسان ووصوله الى أهدافه.

ولكن هذا التصور نلاحظ عليه - ما ذكرنا - من أن الشريعة قد افترض نزولها في هذا المقطع الشريف بعد هذا الحوار: ﴿... فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

كما أن الظاهر أن الارادة والاختيار يمثلان ميزة أخرى لآدم والانسان بشكل عام على الملائكة، وأن هذه الخصوصية هي التي أثارت مخاوف الملائكة وسؤالهم، كما نهنأ عليه وأشار إليه الشيخ محمد عبدة.

وبذلك يكون استحقاق آدم للخلافة وجود هاتين الخصوصيتين فيه. وأما العلامة الطباطبائي فهو افترض أن هذا الاستحقاق انما كان باعتبار العلم بالاسماء، ولكنه فسر الاسماء بأنها موجودات عاقلة لها مراتب من الوجود، حيث يمكن من خلال العلم بها أن يسير الانسان في طريق التكامل.

ولكن هذا التفسير فيه شيء من الغموض ولعله يعتمد على بعض المذاهب

الفلسفة التي تؤمن بوجود العقول التي هي واسطة في العلم والخلق والتكامل بين الله تعالى والوجود ومنه الانسان.

نعم هناك فرضية تشير اليها بعض الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام وهي أن الأسماء عبارة عن أسماء العناصر والذوات الانسانية الموجودة في سلسلة امتداد الجنس البشري من الأنبياء والربانيين والأخبار الذين جعلهم الله تعالى شهوداً على البشرية والانسانية، واستحفظهم الله تعالى على كتبه ورسالاته^(١)، ويكون وجود هذا الخط الانساني الالهي الكامل هو الضمان الذي أعده الله تعالى لهداية البشرية والسيطرة على الهوى وتوجيه الارادة نحو الخير والصلاح والكمال.

ويكون العلم بهذه الأسماء معناه تحقق وجودها في الخارج باعتبار مطابقة العلم للمعلوم، وتعليم آدم الاسماء انما هو اخباره بوجودها.

أو يكون العلم بالأسماء معناه معرفة هذه الكمالات التي يتصف بها هؤلاء المخلوقون وهي صفات وكمالات تمثل نفحة من الصفات والكمالات الالهية، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن كلمة الأسماء في القرآن تطلق على الصفات الالهية بنحو من الاطلاق.

والظاهر أن هذه الفرضية هي التي ذهب اليها استاذنا الشهيد الصدر رحمته الله.

الفصل الثاني : مسيرة الاستخلاف :

وهي مسيرة تحقق الخلافة في الأرض، فيقع الكلام فيه أيضاً في جانبين :
الأول : تشخيص مجموعة من المفاهيم والتصورات التي وردت في القرآن

(١) «انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار

الكريم حول هذه المسيرة.

الثاني: بيان الصورة النظرية الكاملة حول هذه المسيرة.

الجانب الأول: المفاهيم والتصورات:

السجود لآدم:

في البداية يواجهنا السؤال عن الأمر الإلهي للملائكة في السجود لآدم، حيث إنّه في الشريعة المقدسة يحرم السجود لغير الله تعالى، فكيف صح أن يطلب من الملائكة السجود لآدم؟ وما هو المقصود من هذا السجود؟

وهذا السؤال ينطلق من فكرة وهي أنّ السجود بحذاءه عبادة، والعبادة لغير الله شرك وحرام؛ حيث تقسم الأفعال العبادية إلى قسمين:

أحدهما: الأفعال التي تتقوم عباديتها بالنية وقصد القربة كالانفاق (الزكاة والخمس) أو الطواف بالبيت الحرام أو القتال، أو غير ذلك، فإن هذه الأفعال إذا توفرت فيها نية القربة وقصد رضا الله تعالى تكون عبادة لله تعالى، وبدون ذلك لا تكون عبادة، ومن ثمّ فهي تتبع نيتها في تشخيص طبيعتها.

والآخر: الأفعال التي تكون بذاتها عبادة ويذكر (السجود) منها، حيث إنّ عبادة بذاته، ولذا يحرم السجود لغير الله لأنه يكون بذاته عبادة لغير الله.

ولكن هذا التصور غير صحيح، فإن السجود شأنه شأن الأفعال الأخرى التي تتقوم عباديتها بالقصد والنية، ولذا فقد يكون السجود سخرية واستهزاء، وقد يكون لمجرد التعظيم، وقد يكون عبادة إذا كان بنيته.

ولذا نجد في القرآن الكريم في بعض الموارد الصحيحة يستخدم السجود تعبيراً عن التعظيم كما في قصة اخوة يوسف: قال تعالى:

﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا...﴾ (١).

وانما كان السجود لغير الله حراماً لأنه يستخدم عادة في العبادة، فأريد للانسان المسلم أن يتنزه عما يوهم العبادة لغير الله تعالى
وأما اذا كان السجود للتعظيم وبأمر من الله تعالى، فلا يكون حراماً، بل يكون واجباً.

ولكن يبقى السؤال : أن هذا السجود ماذا كان يعني ؟
فقد ذكر بعض المفسرين - انطلاقاً من فكرة أن هذا الحديث لا يراد منه إلا التريبة والتمثيل وليس المصاديق المادية لمفرداته ومعانيه - أن السجود المطلوب انما هو خضوع هذه القوى المتمثلة بالملائكة للانسان، بحيث إن الله تعالى أودع في شخصية هذا الانسان وطبيعته من المواهب ما تخضع له هذه القوى الغيبية وتتأثر بفعله وارادته : ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا... ﴾^(١).

كما أنه يمكن أن يكون هذا السجود سجوداً حقيقياً بالشكل الذي يتناسب مع الملائكة، ويكون طلب السجود منهم لآدم من أجل أن يعبروا بهذا السجود عن خضوعهم أو تقديسهم لهذا المخلوق الالهي المتميز، بما أودع الله فيه من روحه ووهبه العلم والارادة والقدرة على التكامل والصعود الى الدرجات الكمالية العالية.

ولعل هذا المعنى الثاني هو الظاهر من مجموعة الصور والآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا الموضوع، حيث نلاحظ أن امتناع ابليس عن السجود انما كان بسبب الاستكبار لتفضيل هذا المخلوق، حيث كان يطرح في تفسير عدم السجود أنه أفضل من آدم : ﴿ ... قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾^(٢)، كما أن

(١) فصلت : ٣٠.

(٢) الاعراف : ١٢.

القرآن الكريم يشير الى أنّ الانسان الصالح المخلص يكون خارجاً عن قدرة ابليس ومكره، ومن ثمّ فهو مهيمن على هذه القوة الشيطانية :

﴿ قال فبعتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين ﴾^(١).

ابليس من الملائكة أم لا :

وهناك سؤال آخر عن حقيقة ابليس وأنه من الملائكة أو الجن، حيث ورد في القرآن الكريم وصفه بكلا هذين العنوانين :

فاذا كان من الملائكة فكيف يعصي الله تعالى، وقد وصف الله تعالى الملائكة بأنهم ﴿... عباد مكرمون ﴾^(٢) لا يخالفون و ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ﴾^(٣)، وهم بأمره يعملون.

واذا كان من الجن فلماذا وضع الى جانب الملائكة في هذه القصة؟

وتذكر عادة للاستدلال على أنّ ابليس من الجن وليس من الملائكة ويختلف عن طبيعة الملائكة عدة شواهد، إضافة الى وصف القرآن الكريم له بذلك، ومن هذه الشواهد أنّ أوصاف الملائكة لا تنطبق على ابليس، حيث إنّهم وُصفوا بالطاعة وقد ترمد ابليس، ووصفوا بأنّهم رسل : ﴿... جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع... ﴾^(٤)، ومن هذه الشواهد أنّ الملائكة لا ذرية لهم، إذ لا يتناسلون ولا شهوة لهم، وأما ابليس فله ذرية كما أشار القرآن الكريم الى ذلك : ﴿ أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني ... ﴾^(٥).

(١) ص : ٨٢ - ٨٣.

(٢) الانبياء : ٢٦.

(٣) التحريم : ٦.

(٤) فاطر : ١.

(٥) الكهف : ٥٠.

ولكن هذه الشواهد لا تكفي في عدّ ابليس من الجن في مقابل الملائكة، وذلك لأن وصف القرآن الكريم لابليس بأنه من الجن يمكن أن يكون من ناحية أن بعض الملائكة يوصف بأنه جن، إن لم يكن هذا الوصف عاماً لهم، لأن الجن مأخوذ من الخفاء والستر، والملائكة مستترون عن عوالمنا ومشاهدنا.

كما نلاحظ هذا الوصف في نسبة الملائكة الى الله تعالى عند المشركين، حيث افترضوا ان الملائكة هم بنات الله - على ما ورد في القرآن الكريم - وفي نفس الوقت يصف القرآن الكريم هؤلاء الملائكة بأنهم جنة: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً...﴾^(١).

كما أنّ الطاعة ليست صفة لازمة لعنوان الملائكة، بل نلاحظ في القرآن الكريم حصول التمرد لدى بعض الملائكة كما في الملكين هاروت وماروت^(٢).

وكذلك موضوع (الذرية) فانها يمكن أن تكون من الخصوصيات التي أختص بها ابليس ليقوم بهذا الدور الخاص له في حياة الانسان.

نعم يوجد في بعض الروايات ما يشير الى أنّ ابليس كان من الجن وليس من الملائكة، وانما كان يعاشرهم وانهم كانوا يظنون أنّه منهم، ولكن لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الروايات.

هل خلق آدم للجنة أم للأرض؟

وهناك سؤال آخر وهو أنّ آدم هل خلق للأرض كما يبدو ذلك في أول المقطع الشريف: ﴿وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة...﴾^(٣)، أو انه مخلوق للجنة وبعد العصيان طرد للأرض، كما يفهم ذلك من القسم الثاني من هذا

(١) الصفات: ١٥٨.

(٢) البقرة: ١٠٢.

(٣) البقرة: ٣٠.

المقطع الشريف : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلَا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .

وقد حاول بعض الملحدّين أن يثير الشبهات حول هذا الموضوع بدعوى أن هذا المقطع القرآني يبدو وكأن ادخال آدم للجنة والتوبة عن فعله انما هما عملية شكلية وصورية لطرده منها وانزاله الى الأرض .

ولكن الجواب عن هذا السؤال واضح وهو : أن آدم انما خُلِقَ للأرض وخلافة الله فيها، وكان وجوده في الجنة هو مرحلة متقدمة (تأهيلية) تؤهله للقيام بدور الخلافة، حيث لم يكن من الممكن لآدم أن يقوم بهذا الدور بدون هذا التأهيل والتجربة التي خاضها في الجنة، على ما سوف نوضح هذا الأمر في بيان الجانب الآخر .

على أن هذه الجنة يمكن أن تكون جنة أرضية وليست جنة (الخلد)، إذ لا يوجد دليل على أنها جنة الخلد، وكان هبوطه واخراجه منها يعني بداية دور تحمّل المسؤولية والتعب والمجهود من أجل الحياة واستمرارها؛ فهو منذ البداية كان على الأرض ولكن في مكان منها لا تعب ولا عناء فيه، وقد تهيأت له جميع أسباب العيش والراحة والاستقرار، وبعد المعصية بدأت حياة جديدة تختلف عن الحياة السابقة في خصوصياتها ومواصفاتها وان كانت على الأرض أيضاً .

وبذلك يمكن أن نجيب على سؤال آخر هو أنه كيف تسنى لابلis أن يغوي آدم في الجنة مع أن دخولها محرّم على ابلis ؟

حيث يمكن أن تكون هذه الجنة أرضية ولم يمنع من دخولها، ولعل ضمير الجمع في قوله تعالى : ﴿ ... وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو... ﴾ ^(١) يشير الى ذلك .

على أن عملية الاغواء يمكن أن تكون من خلال وجوده في خارج الجنة، لأن

الخطاب بين أهل الجنة وغيرهم ممن هو في خارج الجنة ميسور، كما دل على ذلك القرآن الكريم في خطاب أهل الجنة وأهل النار: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفوضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمهما على الكافرين﴾^(١).

وفي خطاب أصحاب الجنة لأصحاب النار:

﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾^(٢).

خطيئة آدم :

والسؤال الآخر هو عن خطيئة آدم وغوايته وعصيانه: ﴿...وعصى آدم ربه فغوى﴾^(٣).

حيث دلت بعض الروايات على أن آدم كان نبياً، وان لم يذكر ذلك في القرآن الكريم، والأنبياء معصومون من الذنب والزلل والغواية منذ بداية حياتهم.

ومع غض النظر عن الشك والمناقشة في صحة هذه الفرضيات (فرضية أن يكون آدم نبياً) و(فرضية أن يكون الأنبياء معصومين من الذنب منذ بداية حياتهم)، يمكن أن نفسر جدية هذه المخالفة والعصيان على أساس اتجاهين :

الاتجاه الأول: أن يكون النهي الالهي هنا هو نهى (ارشادي)^(٤) أريد منه

(١) الاعراف : ٥٠.

(٢) الأعراف ٤٤.

(٣) طه : ١٢١.

(٤) تقسم الأوامر والنواهي في الشريعة الى قسمين : مولوي وارشادي؛ والمراد من (المولوي) ما يصدر من المولى، باعتباره مولى له حق الطاعة ويكون فيه ارادة جدية للطلب والتحرك نحو المطلوب أو الزجر عن المنهي عنه، كما في أوامر الصلاة والزكاة والجهد والحج والنهي

الارشاد الى المفسدات الموجودة في أكل الشجرة وليس نهياً (مولوياً) يراد منه التحريك والطلب الجدي، والمعصية المستحيلة على الأنبياء والتي توجب العقاب هي في الأوامر المولوية وليست الارشادية.

الاتجاه الثاني: أن يكون النهي الالهي هنا نهياً مولوياً كما - هو الظاهر - وحينئذ يفترض بأن الأنبياء معصومون من الذنوب المتعلقة بالأوامر والنواهي التي يشتركون فيها مع الناس، وأمّا الأوامر والنواهي الخاصة بهم فلا يتمتع عليهم صدور الذنب بعصيانها وليسوا معصومين تجاهها، وهذا النهي الذي صدر لآدم انما هو خاص به، ولذا لم يحرم على ذريته من بعده أكل الشجرة.

ومن هنا نجد القرآن الكريم ينسب الظلم والذنب أحياناً لبعض الأنبياء باعتبار هذه الأوامر الخاصة، كما حصل لموسى عليه السلام: ﴿قال ربي اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم﴾^(١). مع أنّ قتل الفرعوني الظالم الكافر ليس ذنباً وحراماً على الناس بشكل عام، وانما كان حراماً على موسى لخصوصية في وضعه. ومن هنا ورد أنّ حسنات الابرار سيئات المقربين باعتبار أنّ لهم تكاليف خاصة بهم تتناسب مع مستوى الكمالات التي يتصفون بها.

وهذا التفسير للعصمة أمر عرفي قائم في فهم العقلاء لمراتب الناس، فبعض

عن شرب الخمر والزنا والسرقة؛ و(الارشادي) هو الذي يكون للارشاد إلى المصلحة أو المفسدة، كما في الأوامر والنواهي في موارد المعاملات غالباً، حيث يكون ارشاداً لبطلان المعاملة أو صحتها، أو كما في أوامر الأطباء والمهندسين والعلماء التجريبيين فانهم لا يستحقون الطاعة بما هم سادة، وأولوا الأمر والولاية، بل لأن متعلقات أوامره ونواهيهم فيها مصالح ومفاسد، فعندما يأمر بشرب الدواء فهذا يعني أنّ شرب الدواء فيه مصلحة، وكذا عندما ينهى عن أكل شيء فانه يعني أنّ أكله فيه ضرر ومفسدة.

الأمر هي من العلماء والفضلاء ذنب يؤخذون عليه، ولكنه ليس كذلك بالنسبة الى العامة من الناس، وبعض الانفاقات القليلة ذنب من الاغنياء يؤخذون عليها وليست كذلك بالنسبة الى الفقراء.

الجانب الثاني: التصور العام لمسيرة الخلافة :

وهنا نشير الى تصورين :

التصور الأول: ما ذكره العلامة الطباطبائي رحمه الله في الميزان، حيث يفترض أن هذه المسيرة بدأت من وضع آدم وزوجه في الجنة من أجل أن ينتقل الى الأرض بعد ذلك، وكان لا بد له من التعرض الى المعصية من أجل أن يتحقق هذا النزول الى الأرض، إذ لا يمكن أن يحصل على التكامل الانساني الذي يؤهله لهذه الخلافة ما لم يتعرض الى المعصية والنزول الى الأرض بعد ذلك.

وذلك لأن تكامل الانسان انما يحصل من خلال توفر عنصرين وعاملين

أساسيين :

أحدهما: شعور الإنسان بالفقر والحاجة والمسكنة والذلة، أو بتعبير آخر شعور الانسان بالعبودية لله تعالى الذي يدفعه للحركة والتوجه الى الله تعالى والمصير اليه.

والآخر: هو عفو الله تعالى ورضوانه ورحمته وتوفيقه لهذا الانسان، وامداده بالعتاء والفضل الالهي.

فشعور الانسان بالحاجة يجعله يتحرك لسد هذه الحاجة، والفضل والعتاء الالهي هو الذي يحقق الغنى النسبي للانسان ويسد النقص والحاجات لدى هذا الانسان فيتكامل.

واذا لم يشعر الانسان بالحاجة فلا يسعى الى الكمال حتى لو كان محتاجاً في واقع الحال، واذا لم يتفضل الله على هذا الانسان بالعفو والرحمة والعتاء يبقى هذا

الانسان ناقصاً ومتخلفاً في حركته.

وما ذكر في قصة آدم إنما يمثل هذين الأمرين معاً.

فلو لم ينزل الانسان الى الأرض لا يشعر بالحاجة، حيث كان يعيش في الجنة يأكل ويشرب بدون تعب أو عناء، فطبيعة هذه الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ (١).

ولو لم تصدر من آدم المعصية فلا يمكن أن يحصل على تلك الدرجات العالية من الرحمة والمغفرة التي حصل عليها الانسان في حالات الرجوع والتوبة، حيث يفترض العلامة الطباطبائي وجود درجات من الرحمة والمغفرة مرهونة بالتوبة والانابة؛ قال:

«فلله تعالى صفات من عفو ومغفرة وتوبة وستر وفضل ورأفة ورحمة لا ينالها إلا المذنبون... فهذه التوبة هي التي استدعت تشريع الطريق الذي يتوقع سلوكه وتنظيف المنزل الذي يرجئ سكونه، فورها تشريع الدين وتقويم الملة» (٢).

فالقصة وراءها قضاءان قضاها الله تعالى في آدم:

القضاء الأول: الهبوط والخروج من الجنة والاستقرار على الأرض وحياة الشقاء فيها، وهذا القضاء لازم حتمي لأكل الشجرة، حيث بدت سواتهما، وظهور السوء لا يناسب حياة الجنة، بل الحياة الأرضية، ومن هنا كان اخراجهما من الجنة بعد العفو عنها، ولولا ذلك لكان مقتضى العفو هو بقاءهما في الجنة.

القضاء الثاني: اكرام آدم بالتوبة حيث طيب الله تعالى بها الحياة الأرضية التي هي شقاء وعناء، وبها ترتبت الهداية الى العبودية الحقيقية، فتألفت الحياة من

(١) طه: ١١٨ - ١١٩.

(٢) تفسير الميزان ١: ١٣٤، طبعة جماعة المدرسين - قم.

حياة أرضية وحياة سماوية^(١).

فنزول آدم الى الأرض وإن كان فيه ظلم للنفس وشقاء، إلا أنه هياً لنفسه بنزوله درجة من السعادة ومنزلة من الكمال ما كان يناها لو لم ينزل، وكذلك ما كان يناها لو نزل من غير خطيئة.

التصور الثاني: ما ذكره أستاذنا الشهيد الصدر رحمته: أن الله سبحانه قدر لآدم الذي يمثل أصل الجنس البشري أن يمر بدور الحضانة التي يمر بها كل طفل ليتعلم الحياة وتجاربها، فكانت هذه الجنة الأرضية التي وجدت من أجل تربية الاحساس الخلقى لدى الانسان والشعور بالمسؤولية وتعميقه من خلال امتحانه بما يوحيه إليه من تكاليف وأوامر.

وقد كان النهي عن تناول الشجرة هو أول تكليف يوجه الى هذا الخليفة ليتحكم في نزواته وشهواته، فيتكامل بذلك ولا ينساق مع غريزة الحرص وشهوة حب الدنيا التي كانت الأساس لكل ما يشهده مسرح التاريخ الانساني من ألوان الاستغلال والصراع.

وقد كانت المعصية التي ارتكبها آدم هي العامل الذي يولد في نفسه الاحساس بالمسؤولية من خلال مشاعر الندم فتكامل وعيه بهذا الاحساس، في الوقت الذي كانت قد نضجت لديه خبرات الحياة من خلال وجوده في الجنة.

وكان الهدى الاهلي يتمثل بخط الشهادة وهو الوحي الاهلي الذي يتحمل مسؤوليته الأنبياء لهداية البشرية.

وبذلك تتكامل المسيرة البشرية ويتطور الانسان ويسمو على المخلوقات من خلال التعليم الرباني والهدى الاهلي الذي يجسده شهيد رباني معصوم من الذنب يحمل الى الناس من أجل تحصينهم من الضلال: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع

هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١﴾.

ويمكن أن نشير في نهاية هذا العرض لهذين التصورين الى عدة ملاحظات :
 الملاحظة الأولى : انه يمكن تكيل الصورة : بأن الإسكان في الجنة في الوقت
 الذي يمثل مرحلة الاعداد والتهيؤ يعبر في نفس الوقت عن هدف إلهي وهو : أن
 مقتضى الرحمة الالهية بالانسان هو أن يعيش حياة الاستقرار والسعادة بعيداً عن
 الشقاء، وأن مسيرة الشقاء انما هي اختيار الانسان؛ ولذا بدأ الله تعالى حياة
 الانسان بالجنة وشمله برحمته الواسعة من خلال التوبة والسداد الالهي بالهدى
 الذي أنزله على الأنبياء.

كما أن الخطيئة هي التي فجّرت في الانسان - إضافة الى احساسه بالمسؤولية -
 ادراكه للحسن والقبح والخير والشر، ولعل هذا هو الذي أشار إليه القرآن الكريم
 بقوله تعالى :

﴿... فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة...﴾.

وكان هذا الادراك ضرورياً للانسان من أجل أن يكون قادراً على مواجهة
 مشكلات الحياة وألوان الصراع فيها وتمييز الحق من الباطل، والخير من الشر،
 والمصلحة من المضرّة، ويخلق فيه حالة التوازن الروحي والنفسي في مقابل
 ضغوط الشهوات والغرائز.

وقد كان من الممكن أن يحصل هذا الادراك من خلال الحضانة الطويلة
 والتجربة الذاتية في حياته في الجنة، ولعل هذا هو الهدف من وضعه في الجنة لير
 بهذه الحضانة الطويلة، كما يحصل للانسان في تجاربه في الطفولة، حيث تنمو فيه
 هذه المعرفة تدريجاً، ولكن كان هناك طريق أقصر محفوف بالمخاطر وبالخطيئة
 والذنب.

ولم يكن الله سبحانه وتعالى ليختار للانسان طريق الخطيئة بالرغم من قصره لأنه طريق خطير، ولكن عندما اختار الانسان ذلك وأصبح يدرك هذه الحقائق صار مؤهلاً للبدء في الحياة الدنيا.

وقد فتح الله سبحانه وتعالى امامه باب التوبة والرجوع إليه ليتمكن الانسان من مواصلة طريقه عندما يضعف ويقع في الخطيئة، وبذلك يتكامل عندما يكون قادراً على التغلب على شهواته والسيطرة على رغباته.

الملاحظة الثانية: أنَّ العلامة الطباطبائي لم يوضح دور الخطيئة في معرفة السوءات، كما لم يوضح عدم انسجام السوءات مع حياة الجنة، ولعله يريد من دور الخطيئة في معرفة السوءات ما أشرنا إليه من دورها في الاحساس الخلقي للانسان في ادراكه للحسن والقبح، وكذلك لأن حياة الجنة يراها حياة طاهرة ونظيفة لا تتسجم مع السوءات، وهو معنى عرفاني حيث لم يشر القرآن الكريم الى أنَّ آدم عليه السلام لم تكن لديه سوءة قبل الخطيئة، أو أنَّها وجدت بعد الخطيئة، وانما أشار الى أنَّ ادراكه للسوء انما كان بعد الخطيئة والذنب.

الملاحظة الثالثة: أنَّ الشهيد الصدر رحمه الله لم يذكر في تكون مسار الخلافة على الأرض دور التوبة في هذا المسار، مع أنَّ التوبة لها دور أساس يمكن من خلاله أن يستأنف الانسان عمله وتجربته في هذه الحياة ويصعد بسببها في مدارج الكمال.

الملاحظة الرابعة: أنَّ الكمال الانسانية يمكن أن تتصورها بدون خطيئة ويتكامل فيها الانسان من خلال الطاعة والاحساس بالعبودية لله سبحانه وتعالى، إلا اذا كان مقصوده من الخطيئة ليس مجرد المخالفة، وانما احساس الانسان بالحاجة والتقصير في حق الله تعالى وشكره لنعمه، الأمر الذي يدفعه الى الاستزادة من الأعمال الصالحة والرجوع الى الله تعالى والانابة إليه.

الملاحظة الخامسة: أنَّ العلامة الطباطبائي قدَّيَّرَ تصور ان الجنة سماوية، والشهيد الصدر قدَّيَّرَ تصورها أرضية، وهذا التصور الثاني في الوقت الذي ينسجم مع بعض الروايات، يتوافق أيضاً مع فرضية خلق الانسان للأرض، والله سبحانه أعلم^(١).

(١) الاسلام يقود الحياة : ١٥٢ - ١٥٣.

الفهارستُ
الفنّية

دليل الفهارس

٤٨٥	١- فهرس الآيات
٥٠٩	٢- فهرس الأحاديث
٥١٧	٣- فهرس أسماء المعصومين عليهم السلام
٥٢١	٤- فهرس الأعلام
٥٢٧	٥- فهرس المذاهب والفرق
٥٢٩	٦- فهرس الامم والقوميات والجماعات
٥٣٣	٧- فهرس البلدان والأماكن
٥٣٥	٨- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات الكريمة

الفاتحة (١)

رقم الآية	رقم الصفحة
٧، ٦ ﴿اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين انعمت عليهم...﴾	٥٤

البقرة (٢)

٢	﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾	٢٣٩، ١٧
١٨ - ٦	﴿ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم... لا يرجعون﴾	٨٤
٢٣ - ٢٥	﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على... خالدون﴾	٣٤، ٥
٢٤	﴿فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار...﴾	٨٢
٣٠	﴿وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة...﴾	٤٧١
٣٠ - ٣١	﴿... اني اعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الاسماء...﴾	٤٥١
٣٠ - ٣٩	﴿وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل... تكتمون﴾	٤٤٩
٣٤	﴿واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس...﴾	٢٩٩
٣٦	﴿... وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو...﴾	٤٧٢
٣٨	﴿... فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا...﴾	٤٧٧، ٤٦٥
٤٠	﴿يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي واثقوا بعهدي اوف...﴾	٣٨١

رقم الآية	رقم الصفحة
٥١-٤٩	﴿ واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم ... ظالمون ﴾ ٣٨٠
٦١	﴿ ... وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأوا بغضب من الله ... ﴾ ٨٤
٧٤	﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد ... ﴾ ٣٨٠
٧٥	﴿ ... وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ... ﴾ ٢٣٤
١٢٢-٧٥	﴿ أفطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان ... العالمين ﴾ ٣٨١
٩٠	﴿ بثسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا ... ﴾ ٨٥
٩٨	﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل ... ﴾ ٢٩٥
١٠٦	﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها ... ﴾ ٢٥٨، ١٩٣
١٠٩	﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم ... ﴾ ٢٠٧
١٢٧-١٢٩	﴿ واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت ... الحكيم ﴾ ٣٧٥
١٣٥	﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ... ﴾ ٣٧٥
١٤٤	﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ... ﴾ ١٦٣
١٥١	﴿ كما ارسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم ... ﴾ ٢٥٣
١٥٨	﴿ ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو ... ﴾ ٣٩
١٥٩	﴿ إن الذين يكتُمون ما انزلنا من البينات والهدى ... ﴾ ٨٥
١٧٠	﴿ واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله ... ﴾ ٦٨
١٨٥	﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه ... هدى للناس ... ﴾ ٢٢٠، ٢٧
١٨٧	﴿ ... وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض ... ﴾ ٢٥٠
١٨٩	﴿ ... وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ... ﴾ ٢٧١، ١٧٥
١٩٠	﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان ... ﴾ ٢٠٨
١٩١	﴿ ... والفتنة اشد من القتل ... ﴾ ٢٠٨

رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ... ﴾	٢١٣ ، ٥٨ ، ٣٦٤
﴿ والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين ... ﴾	٢٣٣ ، ٢٧٨
﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ... ﴾	٢٥٧ ، ٥٠ ، ٥٢
﴿ ... الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ... ﴾	٢٥٩ ، ٣٦٥
﴿ أيود احدكم ان تكون له جنة من نخل واعداب ... ﴾	٢٦٦ ، ٢٤٩
﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون ... ﴾	٢٧٥ ، ٨٢
﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله ... لا تظلمون ... ﴾	٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٨٢
﴿ ... ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ... ﴾	٢٨٦ ، ٩

آل عمران (٣)

﴿ نزل عليك الكتاب بالحق ... وأنزل الفرقان ... ﴾	٤ ، ٣ ، ١٨
﴿ هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات ... ﴾	٧ ، ١٦٨ ، ٢٢٨ ، ٣٢٦
﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ... ﴾	٧ ، ١٧٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢
﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في ... ﴾	٧ ، ١٨٣ ، ٣٢٨ ، ٣٤٠
﴿ ... يقولون آمنا به كل من عند ربنا ... ﴾	٧ ، ٣٤٠
﴿ ان الذين كفروا لن تغني عنهم ... المهاد ﴾	١٠ - ١٢ ، ٨٣
﴿ زين للناس حب الشهوات من ... بالعباد ﴾	١٥ ، ١٤ ، ٧٠
﴿ ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم ... ﴾	٣٣ ، ١٢٣
﴿ ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت ... ﴾	٤٤ ، ١٣٣ ، ٣٥٥
﴿ اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ... ناصرين ﴾	٥٥ و ٥٦ ، ٨٥
﴿ إن مثل عيسى كمثّل آدم خلقه من ... الحكيم ﴾	٥٩ - ٦٢ ، ٣٧٨

رقم الآية	رقم الصفحة
٦٤	﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ... ﴾ ٦٥
٦٧ - ٦٨	﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا ... المؤمنين ﴾ ٣٧٥
١٠٢	﴿ ... اتقوا الله حق تقاته ... ﴾ ١٧٥
١٢٨	﴿ ليس لك من الامر شيء أو يتوب عليهم أو ... ﴾ ٣٠٣
١٣٨	﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ ٣٢٤
١٩٥	﴿ فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل ... ﴾ ٤١

النساء (٤)

٣	﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم ... ﴾ ١٧٤
١٢	﴿ ولكم نصف ما ترك ازواجكم ... ﴾ ٢١٢
١٥ - ١٦	﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم ... رحيماً ﴾ ٢٠٩
٢٤	﴿ ... فما استمتعتم به منهن فاتوهن اجورهن ... ﴾ ٢١١
٤٣	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم ... ﴾ ٣٠٣
٥١	﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ... ﴾ ٣٨
٥٩	﴿ ... اطيعوا الله واطيعوا الرسول ... ﴾ ٣١٧، ٣٠٥، ٢٢٨، ١٢٣
٧٦	﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ... ﴾ ٥١
٨٢	﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير ... ﴾ ٢٤٠، ٢٠٦، ١٦٨
٨٣	﴿ ولو رددوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم ... ﴾ ٣١٧
١٢٣	﴿ ... سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ ٣٠٤
١٣٨	﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾ ٣٨٢
١٥٠	﴿ ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ... ﴾ ٣٨٢

رقم الآية	رقم الصفحة
١٥٣ ﴿... فقالوا أرنا الله جهرة...﴾	٣٠٠
١٥٣ - ١٦١ ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً... عذاباً اليماً﴾	٣٨٢
١٦٣ - ١٦٤ ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح... تكليماً﴾	٣٧٠، ٢٥
١٦٥ ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس...﴾	٣٧٤، ٣٧٠، ٣٦٤
١٧١ ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في... وكلمته القاها الى...﴾	٣٨٣، ١٧٧
١٧٤، ١٧٥ ﴿يا ايها الناس قد جاءكم... صراط مستقيماً﴾	٦٠، ٤٨

المائدة (٥)

١٣ ﴿... يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به...﴾	٢٣٤
١٦، ١٥ ﴿... قد جاءكم... مبين * يهدي به الله...﴾	٢٣٨، ٢٢٠، ٥٠
١٩ ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين...﴾	٣٨٤
٢٠ - ٢٦ ﴿واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة... الفاسقين﴾	٣٨٣
٤٤ ﴿انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون...﴾	٤٦٧
٤٨ ﴿وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه...﴾	٣٧٧، ٤٨
٥٤ ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه...﴾	٥٧
٦٠ ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله...﴾	٨٥
٦٤ ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم...﴾	٢٠١، ٨٥
٩٠ ﴿يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر...﴾	٢٧١، ٢٥٠، ٧٠
٩٣ ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح...﴾	٢٥٠
١٠٣ ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة...﴾	٢٨٣

الانعام (٦)

رقم الآية	رقم الصفحة
١٩	﴿... وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...﴾ ٤٧
٣٣	﴿قَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ...﴾ ٣٠
٤٢	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبِأْسَاءِ...﴾ ٣٦٤
٤٨	﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ...﴾ ٣٦٤
٥٠	﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ...﴾ ١٥٩
٧٤-٨٣	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِزْ أَتَتَّخِذُ... الْمُحْسِنِينَ﴾ ٨٨
٨٢	﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمْ...﴾ ٢٧١
٩٢	﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾ ٢٢٣، ٥٦
١٠٨	﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ ٨٤
١٥١، ١٥٢	﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ... أَشَدُّهُ﴾ ٨٧
١٥٥، ١٥٦	﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا... لِغَافِلِينَ﴾ ٤٧
١٦١	﴿قُلْ إِنِّي هِدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ...﴾ ٦٢، ٥٥

الاعراف (٧)

١٢	﴿... قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ٤٦٩
٣٨	﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ...﴾ ٣٨٥
٤٢-٤٣	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... تَعْمَلُونَ﴾ ٣٨٥
٤٤	﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا...﴾ ٤٧٣
٥٠	﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا...﴾ ٤٧٣
٥٢-٥٣	﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَفَصَّلْنَاهُ عَلَى... بِالْحَقِّ...﴾ ٢٢٨

رقم الآية	رقم الصفحة
٥٩ ﴿ لقد ارسلنا نوحاً الى قومه فقال : يا قوم اعبدوا ... ﴾	٣٥٩
٦٥ ﴿ والى عاد اخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ... ﴾	٣٥٩
٧٣ ﴿ والى ثمود اخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا ... ﴾	٣٥٩
٧٤ ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في ... ﴾	٤٥٣
٨٥ ﴿ والى مدين اخاهم شعيباً قال : يا قوم اعبدوا الله ... ﴾	٣٥٩
١٠٣ - ١٧١ ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا ... تتقون ﴾	٣٨٥
١٢٧ ﴿ أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك ... ﴾	٤١٧
١٣٤ - ١٣٥ ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما ... ينكثون ﴾	٤١٧
١٥٧ ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي ... ﴾	٣٨٦ ، ٥٨ ، ٥٢
١٧٢ ﴿ واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ... ﴾	٢٩٣
١٨٨ ﴿ قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء ... ﴾	١٥٩

الانفال (٨)

٥٣ ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى ... ﴾	٥٠
--	----

التوبة (٩)

٥ ﴿ ... فاقتلوا المشركين ... ﴾	١٧٥
٢٩ ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ... ﴾	٢٠٧
٣١ ﴿ اتخذوا احبارهم وورهبانهم ارباباً من دون الله ... ﴾	٦٦
٣٧ ﴿ انما النسيء زيادة في الكفر ... ﴾	٢٧١ ، ١٧٥
٤٣ ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا ... ﴾	١٥٩

رقم الآية	رقم الصفحة
١٠٧ ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين ... ﴾	٣٨
١١٥ ﴿ وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما ... ﴾	٣٧١
١١٧ - ١١٨ ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ... الرحيم ﴾	١٦٢
١١٩ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾	٣٠٢

يونس (١٠)

١ ﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾	١٦٧
١٥ ﴿ ... قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع إلا ما ... ﴾	١١٢
١٥ - ١٦ ﴿ واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ... تعقلون ﴾	١٥٨
١٦ ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراككم به فقد لبثت ... ﴾	١٣١
٣٧ ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترئ من دون الله ... ﴾	١٧
٣٨ ﴿ أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله ... ﴾	٣٤
٣٩ ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ... ﴾	٢٢٨
٤٧ ﴿ ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط ... ﴾	٣٧١
٥٧ ﴿ ... قد جاء تكلم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ... ﴾	٥٨
٦٣ - ٧٠ ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم ... يكفرون ﴾	٣٨٨
٦٥ ﴿ ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعاً ﴾	٣٠
٧٢ ، ٧١ ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ... من المسلمين ﴾	٦٠
٧٥ ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون ... ﴾	٣٨٧
٩٠ ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل ... ﴾	٢٩٤
٩٢ ﴿ فالיום نجيك ببذنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيراً ... ﴾	١٥٧

رقم الآية	رقم الصفحة
٩٣	﴿ ولقد بوأنا بني اسرائيل مبعاً صدق ... ﴾ ٣٨٧
١٠١	﴿ قل انظروا ماذا في السماوات والارض ﴾ ٦٨

هود (١١)

١	﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن ... ﴾ ٣١٩ ، ١٦٧ ، ٢٨
١٣	﴿ أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله ... ﴾ ٣٤
٣٢ - ٢٥	﴿ ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه : إني لكم نذير ... الصادقين ﴾ ٣٥٩
٤٩	﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها ... ﴾ ١٣٣ ، ٣٥٦
٥٥ - ٥٠	﴿ والى عاد اخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ... تنظرون ﴾ ٣٦٠
٦٢ - ٦١	﴿ والى ثمود اخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ... ﴾ ٣٦٠
٩٩ - ٩٦	﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ... الرد العرفود ﴾ ٣٨٩
١٠٢ - ١٠٠	﴿ ذلك من انباء القرى نقصه عليك منها ... اليم شديد ﴾ ٣٩٠
١٢٠	﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت ... ﴾ ٣٧٤ ، ٣٦٠

يوسف (١٢)

٣	﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك ... ﴾ ٣٥٥
٦	﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ... ﴾ ٣٣٧ ، ٢٢٩
٣٧	﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله ... ﴾ ٣٣٨
١٠٠	﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سُجّداً ... ﴾ ٤٦٨
١٠١	﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ... ﴾ ٣٣٨
١١١	﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الأبالباب ... ﴾ ٣٧٤ ، ٣٢٤

الرعد (١٣)

رقم الآية	رقم الصفحة
١١	﴿... ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾ ٥٠
٣٩	﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ ٢٠٢، ١٩٣

ابراهيم (١٤)

١	﴿ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات...﴾ ٥٣، ٥٠
٤	﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه...﴾ ٣٩١، ٣٣
٨-٥	﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ان أخرج... لغني حميد﴾ ٣٩٠، ٥٣

الحجر (١٥)

٢٢	﴿وأرسلنا الرياح لواقح...﴾ ١٨٦
٥٠، ٤٩	﴿نبي عبادي أتتني انا الغفور... الليم﴾ ٣٦٢
٥٣، ٥١	﴿ونبئهم عن ضيف ابراهيم * اذ دخلوا عليه...﴾ ٣٦٢
٦٢-٦١	﴿فلما جاء آل لوط المرسلون * قال... مقطوع مصبحين﴾ ٣٦٢
٨٤-٨٠	﴿ولقد كذب أصحاب الحجر... يكسبون﴾ ٣٦٣
٨٨-٨٧	﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني... جناحك للمؤمنين﴾ ٨٣

النحل (١٦)

٣٦	﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله...﴾ ٣٧٠، ٥١
٤٤	﴿... وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم...﴾ ٢٥٣، ١٩
٤٧	﴿أو يأخذهم على تخوف...﴾ ٢٤٩

رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا ... ﴾	٦٤
﴿ ... ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ... ﴾	٨٩
	٤٥ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨ ، ٤٣٨
﴿ واذا بدلنا آية مكان آية - والله اعلم بما ينزل - قالوا ... ﴾	١٠١
﴿ ... لسان الذي يلحدون إليه اعجمي وهذا ... ﴾	١٠٣
﴿ ان ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ... صراط مستقيم ﴾	١٢٠ ، ١٢١
	٥٥

الاسراء (١٧)

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... ﴾	٩
﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ... ﴾	٣٦
﴿ وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا ... نصيراً ﴾	٧٣ - ٧٥
﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ... ﴾	٨٢
﴿ ... قل الروح من أمر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلاً ﴾	٨٥
﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من ... قبلاً ﴾	٨٩ - ٩٢
﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ... لفيماً ﴾	١٠١ - ١٠٤
﴿ وبالحق أنزلناه وبحق نزل وما ارسلناك الا ... ﴾	١٠٥
	٣٩٢ ، ٣٢٤ ، ٤٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣

الكهف (١٨)

﴿ ... أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً ... ﴾	١ و ٢
﴿ واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... أفقتخذونه ... ﴾	٥٠
﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ... هزوا ﴾	٥٥ - ٥٦
﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا ... موعداً ﴾	٥٨ - ٥٩
	١٧٤ ، ٣٠٠ ، ٤٧٠ ، ٣٦٤ ، ٣٩٤

رقم الآية	رقم الصفحة
٦٠ - ٦١	﴿ وإذ قال موسى لفتهاه لا أبرح حتى أبلغ ... سرباً ﴾ ٣٩٤ ، ٢٧٩
٦٥	﴿ ... من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ ٣٦٥
٨٢	﴿ وأما الجدار فكان لغلامين ... ذلك تأويل ما لم ... ﴾ ٣٩٤ ، ٣٣٧
١١٠	﴿ قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد ... ﴾ ١٥٩

مريم (١٩)

٣٩	﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ... ﴾ ٢٩٦
٥٣ - ٥١	﴿ واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصاً ... هارون نبياً ﴾ ٣٩٥
٥٩ - ٥٨	﴿ اولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ... يلقون غيًّا ﴾ ٣٩٥

طه (٢٠)

٣ - ١	﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن ... يخشى ﴾ ٣٩٦
٥	﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ١٨٦ ، ١٧١
١٠ - ٩	﴿ وهل أتاك حديث موسى * اذ رأى ناراً ... ﴾ ٣٩٦
٤٧	﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل ... ﴾ ٤١٤
٧١	﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم ... ﴾ ٤١٧
٩٨ - ٩٧	﴿ قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول ... شيء علماً ﴾ ٣٩٦
٩٩	﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك ... ﴾ ٣٩٦
١١٤	﴿ ... ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يلقى إليك وحيه وقل ... ﴾ ١٦١
١١٩ - ١١٨	﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وانك لا تظمأ فيها ... ﴾ ٤٧٦
١٢١	﴿ ... وعصى آدم ربه فغوى ﴾ ٤٧٣

(٢١) الانبياء

رقم الآية	رقم الصفحة
١٠	﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ... ﴾ ١٩
٢٢ - ٢٤	﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ... فهم معرضون ﴾ ٨٩
٢٦	﴿ ... عباد مكرمون ﴾ ٤٧٠
٣٠	﴿ ... وجعلنا من الماء كل شيء حي ... ﴾ ١٨٦
٤٨ - ٨٠	﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ... شاكرون ﴾ ٣٥٧
٥٠	﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ... ﴾ ١٩
٦٣	﴿ ... بل فعله كبيرهم هذا ... ﴾ ٢٩٥
٨١ - ٩٢	﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره ... فاعبدون ﴾ ٣٥٨
١٠٥	﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض ... ﴾ ٥٧

الحج (٢٢)

٤٦	﴿ أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب ... ﴾ ٦٨
٧٣ ، ٧٤	﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ... لقوي عزيز ﴾ ٦٥
٧٨	﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو ... وما جعل عليكم ... ﴾ ٣٧٥ ، ٢٤٢

المؤمنون (٢٣)

١٨	﴿ وانزلنا من السماء ماءً بقدر فاسكنناه في الارض ... ﴾ ٢٢٣
٩١	﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ... ﴾ ٨٩
١١٥	﴿ افحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون ﴾ ٩٠

النور (٢٤)

رقم الآية	رقم الصفحة
٢	﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة... ﴾ ٢٠٩
٦	﴿ والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء... ﴾ ٤٠
٣٥	﴿ الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة... ﴾ ٥١
٤٥	﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه... ﴾ ٤٥٩

الفرقان (٢٥)

١	﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده... ﴾ ١٨
٥	﴿ وقالوا أساطير الاولين اكتبها فهي ثملى... ﴾ ١٣٣
٣٢ - ٣٥	﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن... وزيراً ﴾ ٣٦٨، ٢٩
٣٣	﴿ ولا يأتوك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ ٢١٧، ٣١

الشعراء (٢٦)

٤، ٣	﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا... خاضعين ﴾ ٣٩٩، ٥٩
٤ - ٥	﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت... معرضين ﴾ ٣٩٩
٧ - ٩	﴿ أو لم يروا الى الارض كم انبتنا فيها... العزيز الرحيم ﴾ ٣٩٩
١٠ - ١١	﴿ واذا نادى ربك موسى ان اتت القوم... يتقون ﴾ ٣٩٨
١٨ - ٢١	﴿ ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا... من المرسلين ﴾ ٤١٥
٦٣	﴿ فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان... ﴾ ٤١٨
٦٧ - ٦٨	﴿ ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وان ربك... ﴾ ٣٩٨
١٥٨، ١٥٩	﴿ ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم... الرحيم ﴾ ٣٦٥

رقم الآية رقم الصفحة

١٩٢ - ١٩٥ ﴿ وانه لتنزىل رب العالمين * نزل به الروح...مبين ﴾ ٣٥

١٩٥ ﴿ بلسان عربى مبين ﴾ ٤٣٨ ، ٢٨١

١٩٨ ، ١٩٩ ﴿ لو نزلناه على بعض الاعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا... ﴾ ٣٢

النمل (٢٧)

٤ - ٦ ﴿ ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم اعمالهم... حكيم عليهم ﴾ ٤٠١

٧ ﴿ اذ قال موسى لاهله انى آنت ناراً سأتيكم... ﴾ ٤٠١

١٠ ﴿ انى لا يخاف لذي المرسلون ﴾ ٤١٤

١٢ ﴿ ادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ ٤١٤

١٤ ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف... ﴾ ٤٠١

القصص (٢٨)

١ - ٢ ﴿ طسم * تلك آيات الكتاب المبين ﴾ ٤٠٣

٣ ﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ ٤٠٢

٤ - ٦ ﴿ ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً... يحذرون ﴾ ٤٠٣

١٦ ﴿ قال ربي انى ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه... ﴾ ٤٧٤

٣٣ - ٣٤ ﴿ ربي انى قتلتنهم نفساً فأخاف... معي ﴾ ٤١٤

٣٥ ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا... ﴾ ٤١٤

٤٢ ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم... ﴾ ٤٠٣

٤٤ - ٤٦ ﴿ وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا... يتذكرون ﴾ ١٣٣ ، ٣٥٥ ، ٤٠٣

٥٦ ﴿ انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء... ﴾ ٦٠

رقم الآية	رقم الصفحة
٨٥	﴿ ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد... ﴾
	٢٣

العنكبوت (٢٩)

١٦ - ١٤	﴿ لقد ارسلنا نوحاً الى قومه فلبث الف سنة... تعلمون ﴾	٣٦١
٢٠	﴿ قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق... ﴾	٦٨
٢٤	﴿ فما كان جواب قومه الا ان قالوا : اقتلوه... ﴾	٣٦١
٢٨	﴿ ولوطاً اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها... ﴾	٣٦١
٤٠ - ٣٤	﴿ انا منزلون على اهل هذه القرية رجزاً... ﴾	٣٦١
٥١ - ٤٨	﴿ وماكنت تتلو من قبله من كتاب... لقوم مؤمنون ﴾	١٣١، ٨٩

الروم (٣٠)

٤ - ٢	﴿ غلبت الروم * في ادنى الارض... سنين... ﴾	١٣٤
-------	---	-----

لقمان (٣١)

١٣	﴿ ... يا بني لا تُشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾	٢٧٨، ٣٥
----	--	---------

الاحزاب (٣٣)

٣٥	﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات... ﴾	٤١
----	--	----

سبأ (٣٤)

٤٠، ٤١	﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة... بهم مؤمنون ﴾	٦٤
--------	---	----

(٣٥) فاطر

رقم الآية	رقم الصفحة
١	﴿... جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع...﴾ ٤٧٠
٢٤	﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وان من أمة إلا خلا...﴾ ٣٧١

يس (٣٦)

٣٨	﴿والشمس تجري لمستقر لها...﴾ ١٨٦
----	---------------------------------

الصفات (٣٧)

٨٩	﴿... اني سقيم...﴾ ٢٩٥
١٥٨	﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً...﴾ ٤٧١

ص (٣٨)

٢٦	﴿يا داود إنا جعلناك خليفة... بما نسوا يوم الحساب﴾ ٤٥٣، ٣٠٠
٢٩	﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر...﴾ ٢٤٠
٦٧ - ٧٠	﴿قل هو نبأ عظيم * انتم عنه... نذير مبين﴾ ٣٥٥
٨٢ - ٨٣	﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾ ٤٧٠

الزمر (٣٩)

٣	﴿إلا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء...﴾ ٦٣
١٨، ١٧	﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها... أولوا الألباب﴾ ٥١
٢٣	﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني...﴾ ١٦٧
٢٧	﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل...﴾ ٦٠، ٤٧

المؤمن (٤٠)

٣ ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله ... ﴾ ٤٠٦

٤ ﴿ ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم ... ﴾ ٤٠٥

٢١ ﴿ أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة ... ﴾ ٤٠٥

٢٣ - ٢٤ ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * الى فرعون ... ﴾ ٤٠٥

٤٤ - ٤٥ ﴿ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري ... سوء العذاب ﴾ ٤٠٥

٥١ ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ... ﴾ ٥٧

فصلت (٤١)

٢٦ ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ ٤٤٤

٣٠ ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم ... ﴾ ٤٦٩

٣٣ - ٣٥ ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله ... حظ عظيم ﴾ ٨٣

٤١ ﴿ ... وانه لكتاب عزيز ﴾ ١٩

٤٢ ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من ... ﴾ ٢٠٣

٤٤ ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ... ﴾ ٣٢

٥٣ ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم ... ﴾ ٦٩

الشورى (٤٢)

٧ ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ... ﴾ ٥٦، ٣٣

رقم الآية	رقم الصفحة
١١ ﴿... ليس كمثله شيء...﴾	١٨٦، ١٧٤، ١٧١
٤٣-٣٦ ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا... عزم الامور﴾	٨٣
٥١ ﴿وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً...﴾	٢٦
٥٢ ﴿وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري...﴾	٢٣٨

الزخرف (٤٣)

٣ ﴿انا جعلناه قرآناً عربياً...﴾	٢٨١
٤ ﴿وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾	١٩
٣١ ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾	٤٠٧
٣٢ ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم... مما يجمعون﴾	٤٠٧
٣٣ ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر...﴾	٤٠٧
٤٦ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فقال...﴾	٤٠٦
٥٦-٥٥ ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم... للآخرين﴾	٤٠٦
٨٧ ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله...﴾	٦٢

الدخان (٤٤)

٣ ﴿انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين﴾	٢٧
---	----

البجائية (٤٥)

٢٢، ٢١ ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم... لا يظلمون﴾	٩٠
--	----

الاحقاف (٤٦)

رقم الآية	رقم الصفحة
٩	﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل... ﴾ ٣٥٦
١٥	﴿ ... وحمله وفصاله ثلاثون شهراً... ﴾ ٢٧٨
٣٥	﴿ ... فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل... ﴾ ٣٠

محمد (٤٧)

٢٤	﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ ٢٣ ، ٢٤٠
٣٨	﴿ ... وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ ٥٧

الفتح (٤٨)

٢	﴿ ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر... ﴾ ١٥٩
٢٥	﴿ ... ولولا رجال مؤمنون... ﴾ ١٧٥

الحجرات (٤٩)

١٤	﴿ قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا... ﴾ ٤٣٣
----	---

ق (٥٠)

٩ - ١١ و ١٥	﴿ ونزلنا من السماء ماءً... الخروج * ... خلق جديد ﴾ ٩٠
-------------	---

الذاريات (٥١)

١	﴿ والذاريات ذرواً ﴾ ٢٥١
---	-------------------------

فهرس الآيات الكريمة ٥٠٥

رقم الآية	رقم الصفحة
٤٠ - ٣٨	﴿ وفي موسى اذ أرسلناه الى فرعون ... وهو مليم ﴾
٤٠٨	

النجم (٥٣)

٢٨	﴿ ... ان الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾
٣١٢	

الواقعة (٥٦)

٧٩	﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾
٣٤٠	

الحديد (٥٧)

٩	﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم ... ﴾
٥٠	
٢٥	﴿ ... وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ... ﴾
٢٢٣	

المجادلة (٥٨)

٢١	﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾
٥٧	

الحشر (٥٩)

٧	﴿ ... ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ... ﴾
٣١٩ ، ٢٦٢	
٨	﴿ للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم ... ﴾
٣٠٢	

الصف (٦١)

٥	﴿ واذا قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون ... ﴾
٤٠٨	

الجمعة (٦٢)

رقم الآية	رقم الصفحة
٢	٥٦، ٥٣

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا... ﴾

المنافقون (٦٣)

٤	٢٦١
---	-----

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم... ﴾

الطلاق (٦٥)

١	٢١٢
---	-----

﴿ يا ايها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن... ﴾

التحريم (٦٦)

٦	٤٧٠
---	-----

﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ﴾

الملك (٦٧)

١٥	٤٥٣
----	-----

﴿ ... فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾

الحاقة (٦٩)

٤٤ - ٤٧	١٦٠
---------	-----

﴿ ولو تقول علينا بعض الاقاويل * لأخذنا... حاجزين ﴾

المزمل (٧٣)

١٠	٣٠
----	----

﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأ جميلاً ﴾

المذثر (٧٤)

رقم الآية	رقم الصفحة
١٨ - ٢٤	﴿ انه فكر وقدر * فقتل ... سحر يؤثر ﴾
	١٣٢

القيامة (٧٥)

١٦ - ١٩	﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل ... علينا بيانه ﴾	١٦١
١٧ - ١٩	﴿ ان علينا جمعه وقرآنه * فاذا قرأناه ... بيانه ﴾	٢٥٢

النازعات (٧٩)

١٥ - ٢٥	﴿ هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه ... الآخرة والأولى ﴾	٤٠٩
٢٧ - ٣٢	﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء ... سمكها ... ارساها ﴾	٤٠٩ ، ٤١٠

عبس (٨٠)

٢٧ - ٣١	﴿ فأنبتنا فيها جبالاً * وعنباً ... وأباً ﴾	٢٤٩
---------	--	-----

البروج (٨٥)

٢١	﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾	١٩
----	---------------------	----

الاعلى (٨٧)

١	﴿ سبح اسم ربك الاعلى ﴾	٤٥٨
---	------------------------	-----

الغاشية (٨٨)

١٧ - ٢٠	﴿ افلا ينظرون الى الابل ... الارض كيف سطحت ﴾	٦٩
---------	--	----

الفجر (٨٩)

رقم الآية	رقم الصفحة
١ و ٢ ﴿ والفجر * وليالٍ عشر ﴾	٢٥١

العلق (٩٦)

١ ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾	١٦٢
------------------------------	-----

القدر (٩٧)

١ ﴿ انا انزلناه في ليلة القدر ﴾	٢٧
---------------------------------	----

العاديات (١٠٠)

١ ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾	٢٥١
-----------------------	-----

فهرس الاحاديث

آيات القرآن خزائن العلم... علي بن الحسين عليه السلام

٢٤

إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما... الصادق عليه السلام

٣١٢

اعربوا القرآن واتمسوا غرائبہ. النبي صلی اللہ علیہ وآلہ

٢٣

الا لا خير في علم ليس فيه تفہم... علي عليه السلام

٢٤

الرسول: الذي يأتيہ جبرئیل عليه السلام قبلاً فيراه... ابو جعفر عليه السلام

١٥٠

القرآن نزل على أربعة أرباع: ربع فينا... امير المؤمنين عليه السلام

١٢١

المسلمون عند شروطهم إلا كل شرط خالف كتاب الله... الصادق عليه السلام

٣١١

النجوم أمان لأهل الارض من الغرق، وأهل بيتي... رسول الله صلی اللہ علیہ وآلہ

٢٥٦

الوقوف عند الشبهة خير من اقتحام الهلكة ... الصادق عليه السلام

٣١١، ١٢٢

إن أصحاب العربية يحرفون كلام الله عز وجل عن مواضعه ... أبو عبد الله عليه السلام

١٢٠

إن الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، ويمحو ما يشاء ... أبو عبد الله عليه السلام

٢٠٢

إن للقرآن تأويلاً، فنه ما قد جاء، ومنه ما لم يجرى ... أبو عبد الله عليه السلام

٣٢٨

إن أبا الخطاب كذب على أبي عبد الله عليه السلام، لعن الله ... الرضا عليه السلام

٣٣٠

إن الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء ... الصادق عليه السلام

٣٢٣

إن الله علم نبيه ﷺ التنزيل والتأويل، فعلمه ... جعفر بن محمد طيحه

٣١٦

إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً ... رسول الله ﷺ

٣١٠

إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً وصدقاً وكذباً ... علي عليه السلام

٢٦٠

إن كل آية أنزلها الله - جل وعلا - على محمد عندي ... علي عليه السلام

١١٦

إن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب ... في الخبر

٢٥٩

إنّ علياً مر عليّ قاضي فقال له أتعرف الناسخ من المنسوخ ... في الخبر

٣٣٦

انا دار الحكمة وعلي بابها ... النبي ﷺ

٢٥٧

انا مدينة العلم وعلي بابها فن أراد ... رسول الله ﷺ

٢٥٧

انت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه بعدي ... النبي ﷺ

٢٥٧

اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي ... رسول الله ﷺ

٢٥٥

اني لأعرف اصوات رفقة الأشعرين حين يدخلون بالليل ... رسول الله ﷺ

١١٥

ايها الناس إنّي تارك فيكم الثقلين ... رسول الله ﷺ

١١٩

أوتمنوا على كتاب الله فحرفوه وبدلوه ... ابو الحسن عليه السلام

١٢٠

ترد أمتي عليّ يوم القيامة على خمس رايات ... رسول الله ﷺ

١١٩

تفسير القرآن على سبعة أوجه، منه ما كان ... ابو جعفر عليه السلام

٣٢٨

حلال محمد حلال أبداً الى يوم القيامة، وحرامه حرام ... الصادق عليه السلام

٣٢٣

خطب النبي ﷺ : «أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله ... الصادق عليه السلام

٣١٠

ذلك بأنهم ضربوا القرآن بعضه ببعض واحتجوا بالمنسوخ ... الصادق عليه السلام

٣٣٧

رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار ... النبي ﷺ

٢٥٧

سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ... علي عليه السلام

٢٦٧

سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلى ... علي عليه السلام

٢٥٨

ضل علم (ابن شبرمة)، عندنا (الجامعة) ... الصادق عليه السلام

٣٢٣

ظهره (القرآن) الذين نزل فيهم القرآن، وبطنه الذين ... أبو جعفر عليه السلام

٣٢٨

ظهره وبطنه تأويله، ... أبو جعفر عليه السلام

٣٢٨

علي مع الحق والحق مع علي ولن يفترقا حتى ... النبي ﷺ

٢٥٧

علي مع القرآن والقرآن مع علي ولن يفترقا حتى ... النبي ﷺ

٢٥٧

فأما من قال بأن الله تعالى لا يعلم الشيء إلا بعد كونه ... الرضا عليه السلام

٢٠٢

قال بعض أصحابنا : اصلحك الله أكان رسول الله ﷺ ... ابو عبد الله عليه السلام

١٥٠

قال دفع الى أبو الحسن عليه السلام مصحفاً ... في الخبر

١٢٤

كان الرجل اذا هاجر دفعه النبي ... في الخبر

١١٥

كان النبي ﷺ اذا أنزل عليه الوحي ... في الخبر

١٤٩

لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن ... الصادق عليه السلام

٣٣٠

لا وانما ذلك (اي الغشية) عند مخاطبة الله عز وجل ... الصادق عليه السلام

٢٦

لم يعنوا أنه هكذا ولكنهم قالوا فرغ عن الامر ... الصادق عليه السلام

٢٠١

لما أغرق الله فرعون قال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا ... ﴾ النبي ﷺ

٢٩٤

لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط كل نسمة هو خالقها ... رسول الله ﷺ

٢٩٤

لو قرىء القرآن كما نزل لأفئتنا فيه مسمين ... الصادق عليه السلام

١٢١

ليس شيء من كتاب الله إلا عليه دليل ناطق ... ابو جعفر عليه السلام

٣٢٠

ما من شيء إلا وفيه كتاب وسنة...
ابو عبد الله عليه السلام

٣٢٣

ما ادعى احد من الناس أنه جمع القرآن كله...
الباقر عليه السلام

١١٧

ما بدا الله في شيء إلا كان في علمه قبل ان يبدو له...
الصادق عليه السلام

٢٠٢

ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله اصل في كتاب الله...
الصادق عليه السلام

٣١١

ما لكم والقياس، انما هلك من قبلكم بالقياس...
الكاظم عليه السلام

٣١٧، ٣١٨

ما ورد عليكم من خبرين مختلفين فاعرضوهما على...
رسول الله صلى الله عليه وآله

٣١٢

مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا...
النبي صلى الله عليه وآله

٢٥٦

من أفتى الناس بغير علم ولا هدى من الله لعنته...
الباقر عليه السلام

٣١٧

من زعم أن الله عز وجل يبدو له في شيء...
الصادق عليه السلام

٢٠١

نحن حزب الله الغالبون وعترته نبيه الأقربون...
الحسين عليه السلام

٣١٧

نزلت ﴿... وأولي الامر...﴾ في علي والحسن والحسين...
ابو عبد الله عليه السلام

١٢٣

والله لو وجدته قد تزوج به النساء ...
الامام علي عليه السلام

١١٤

والله ما نزلت آية الا وقد علمت فيم نزلت، واين نزلت ...
علي عليه السلام

٢٦٧

وأقضاهم علي بن ابي طالب ...
في الخبر

٢٥٩

ورجل سمع من رسول الله فلم يحفظه على وجه ...
الامام علي عليه السلام

٢٦٦

وكان من نبذهم الكتاب أن اقاموا حروفه وحرفوا حدوده ...
الباقر عليه السلام

١٢٠

ولاية علي بن ابي طالب مكتوبة في جميع صحف الانبياء ...
الحسن عليه السلام

١٢١

هو ﴿ ان الله اصطفى آدم ... ﴾ آل ابراهيم وآل محمد ...
ابو عبد الله عليه السلام

١٢٣

يا علي أنت تعلم الناس تأويل القرآن مما لا يعلمون ...
النبي صلى الله عليه وآله

٣٣٧

فهرس اسماء المعصومين عليه السلام

٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥،

٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٥،

٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٦،

٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١،

٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٢،

٣٠٣، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦،

٣٠٨، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤،

٣١٧، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٥،

٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٣٨،

٣٣٩، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٥،

٣٦٠، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦،

٣٨٤، ٣٨٦، ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٣،

٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٤، ٤٢٨،

٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٨، ٤٤٧،

٤٣، ١٢ أهل البيت

١١٦، ١١٨، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤،

١٧٦، ٢١٥، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤١،

٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٨٦، ٣٠٧،

الرسول.. رسول الله - النبي محمد ٩،

١٤، ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣،

٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٧،

٣٨، ٣٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٥،

٥٦، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٩،

٧٠، ٧٣، ٧٤، ٨١، ٨٢، ٨٦، ٨٨،

٨٩، ٩٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢،

١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧،

١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٤، ١١٥،

١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢١،

١٢٢، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩،

١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤١، ١٤٤،

١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٣،

١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨،

١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ٢٠٥،

٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٣٠، ٢٣٢،

٢٣٤، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٢،

٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩،

٣١٧، ٣٢٠، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣٦
 أبو عبد الله (الصادق) ٢٦، ٤٣، ١٢١،
 ١٢٢، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٤٠، ٣١٠،
 ٣١١، ٣١٢، ٣١٦، ٣٢٣، ٣٣٠، ٣٣٧
 أبو الحسن موسى (الكاظم) ١٢٠،
 ١٢٤، ٣١٧
 أبو الحسن (الرضا) ٢٠٢، ٣١٢، ٣٣٠
 الحسن العسكري ٣٣١
 نبيه (نبي الله) ١٥٩
 النبي ٣٦٨
 ٣٨٨، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠٩، ٤٢٩،
 ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٩،
 ٤٤٠، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨
 ٥٣ أنبياء الرسالات
 الانبياء ٢٥، ٢٦
 ٣٣، ٣٩، ٥٨، ٦٢، ٦١، ٩٢،
 ١٣٨، ١٣٩، ١٥٢، ١٨٤، ٢٧٢،
 ٢٨٣، ٢٩٣، ٣٢٥، ٣٣٣، ٣٤٩،
 ٣٥٦، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٣،
 ٣٧٤، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٧، ٣٨٨،
 ٣٩٠، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٨، ٤٢٩،
 ٤٣٠، ٤٦٧، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٧، ٤٧٨
 المعصومون ٢٣٧، ٢٣٨

٣١٠، ٣١١، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٦،
 ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣،
 ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٣٠،
 ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٦،
 ٣٣٨، ٣٣٩، ٤٣٣، ٤٣٨، ٤٦٧
 الائمة ٤٣، ١١٧، ١٢٤،
 ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤١، ٣٢٧، ٣٣٨
 أئمة أهل البيت ١٢١
 أهل بيته (النبي) ١٠٠
 الامام علي - أمير المؤمنين ... ٢١،
 ٢٢، ٢٣، ٢٤، ١١١، ١١٤، ١١٦،
 ١١٧، ١٢١، ١٢٢، ١٦٠، ٢٠٢،
 ٢١٣، ٢١٤، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩،
 ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٨، ٣٠٢،
 ٣٠٣، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٢،
 ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٣٣، ٣٣٦، ٣٣٧
 الحسن ١٢١، ١٢٣
 ابو عبد الله - الحسين ١٢٠،
 ١٢٣، ١٤٩، ٣١٧، ١٥٠، ٢٠٢،
 ٢٤٢، ٣١٠، ٣٢٣، ٣٢٨، ٣٣٠،
 علي بن الحسين ٢٠٢، ٢٤
 ابو جعفر الباقر - محمد بن علي ٤٣،
 ١١٧، ١١٩، ٢٠٢، ١٢٠، ١٥٠،

آدم	٣٤٩، ٢٩٥	موسى	٢٦
ابراهيم	٣٥٥، ٣٦٥، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٢	نوح	٣٥، ٥٣، ١٤٦، ١٥٦، ٢٧٩
ادريس	٤٥٤، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٦١، ٤٦٢	هود	٣٢٥، ٣٥٥، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٦٦
اسحاق	٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩	يحيى	٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٣، ٣٧٦
اسماعيل	٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧	يعقوب	٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٧
الخضر	٥٧، ١٥٠، ١٩٥	يوسف	٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٣
المسيح - عيسى	٣٢٥، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٧٣	يونس	٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠٠، ٤٠١
داود	٣٧٤، ٣٧٥، ٣٨٧، ٣٩٠، ٤٢٥		٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤٠٨، ٤٠٩
زكريا	٣٧٣		٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤
سليمان	٤٢٥		٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩
شعيب	١٩٥		٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤
صالح	٢٧٩		٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١
لوط	١٣٩، ١٥٢		٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٧٤
مريم	١٥٣، ١٥٧، ١٧٧، ٣٢٥، ٣٦٣		١٥٣
	٣٦٥، ٣٧٣، ٣٧٨، ٣٨٧، ٤٠٩		٣٥٦، ٣٢٥
	١٣٩، ٣٦٣		٣٧٣، ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٠
	٣٦٣		٣٧٣، ٣٨٥
	٣٦٣		٤٤٦
	٣٧٣، ٣٨٥		٤١٠، ٤٢٥
	٣٧٣		٣٩
	١٣٩، ٣٨٥		٣٣٤، ٣٣٩، ٤٦٨، ٤١٠، ٤٣٥
	١٥٧، ٣٥٥، ٣٦٣، ٣٧٨، ٣٩٥		٣٦٣، ٣٧٣

فهرس الاعلام

٢٥٨	ابن عبد البر	٢٧٨	ابن ابي حاتم
٣٢٩	ابن عبيد	٢١	ابن النديم
١٠٧	ابن عساكر	١٠٦	ابن أبي شيبة
٤٥٤، ٤٤٧، ٤٤٦، ٤٤٤	ابن كثير	٤٤٠	ابن أنس
٢٥٨	ابن ماجه	٢٨٠، ١٧٦	ابن تيمية
٤٤٠، ٢٥٩	ابن مسعود	٤٣٩	ابن جريج
٢٢	ابو الاسود الدؤلي	٢٢٦، ٢٥٨	ابن جرير الطبري
٢٤٩	ابو الجلد	١٠٦	ابن حبان
١٠٧	ابو الدرداء	٢٥٨	ابن حجر
٢١٤	ابو الزبير	٢٤٧	ابن خلدون
٣١٦	ابو الصباح (الكناني)	٢٥٩	ابن داود
٢٦٧	ابو الطفيل	٢٥٨	ابن سعد
٣٢٠	ابو الوليد البحراني	٢٧٣	ابن صبيغ
٣٠٥	ابو اليقظان	٢٠٩، ١٧٦، ١٠٦، ٢٣	ابن عباس
١٢٣	ابو بصير	٢٥٧، ٢٥٦، ٢٥٠، ٢٤٩، ٢١١	
١٠٤	ابو بكر	٢٧٦، ٢٧٤، ٢٧٣، ٢٦٥، ٢٥٨	
٣٠٤، ٣٠٢، ٢٥٩، ٢١٤، ١١٦		٣٠٠، ٢٩٤، ٢٩١، ٢٨١، ٢٧٩	
٢٨١	ابو بكر بن الانباري	٤٥٦، ٤٥٢، ٤٤٤، ٤٤٠، ٤٣٩، ٣٠٤	

١١٨	احمد بن محمد الباري	٢٣٥	ابو حنيفة
١٢٤	احمد بن محمد بن ابي نصر	٣٣٧	ابو داود
٣٣٦، ٣٢٨	اسحاق بن عمار	٢٦٠، ١١٩	ابو ذر
٣٣٧	اسماعيل بن جابر	٦٣	ابو رجاء العطاردي
١٥٠	الاحول	١٠٧	ابو زيد
١٢١	الاصمغ بن نباتة	٢٩٦، ٢٥٥	ابو سعيد الخدري
٢٥٥	الأعمش	٣٠٣	ابو سفيان
٣٢٠	البحري	٣٢٣	ابو شيبه
١٠٨،	البخاري	١٥٤	ابو طالب
٣٠٩، ٢٧٣، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥٠		٢٣	ابو عبد الرحمن السلمي
٣٢٠، ٣١١، ٣١٠	البرقي	٣١٧	ابو عبيدة (الحذاء)
٢٥٢	البزار	٨٤	ابو لهب
٤٤٢	البلخي	٢٠٤، ٢٠٣	ابو مسلم الاصفهاني
٢٧٨، ٢٥٩، ١٠٦، ٢١٤	البيهقي	٢٧٣، ٦٦	ابو موسى الاشعري
٢٥٧، ٢٥٥، ١٠٦	الترمذي	٢٥٩	ابو نعيم
٢٥٠	الجارود	٣٠٢، ٢٩٥، ٢٩٣، ٢٥٠	ابو هريرة
١٤٩	الحارث بن هشام	٤٤٤	ابو ياسر ابن اخطب اليهودي
١٠٦،	الحاكم	٢٧٩، ١٠٧	أبي بن كعب
٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٤٩		٤٤٢	احمد بن يحيى بن ثعلب
١٠٨،	الحجاج بن يوسف الثقفي	٣١٢	احمد بن الحسن الميثمي
٢٥٩، ١١٤		٤٤٦	احمد بن المنير
٣٠٣	الحريث بن هشام	٢٥٩، ٢٥٨، ١٠٦	احمد بن حنبل

٤٨٠، ٤٧٩، ٤٧٧، ٤٦٥، ٣٤٥	٤٥٢	الحسن البصري
٢٠١	١٩٤	الحنوفي
٣٣٢، ٣٢٨، ٣١٦، ٣١٢، ٣١٠، ٢٦٠	١١٩، ١٠٠، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٦، ٢٠٤	
٣٢٨	٦٩	الدوري
١٠٦	٢٧٨	الدولي
الضياء المقدسي	٤٥٩، ٤٥٨، ٤٥٧، ١٧٣	الرازي
الطباطباتي	٣٦٦، ١٧٤	الراغب الاصفهاني
١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٠	٤٥٩	الربيع بن زيد
٣٢٦، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٩، ٤٥٣	٢١٣	الربيع بن سبرة
٤٥٧، ٤٥٩، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥	١٥٥	الرومي الحداد
٤٦٦، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٩، ٤٨٠	٤٤٦، ٤٤٥، ٤٤١، ١٣٦	الزنجشري
الطبرسي	٢٤	الزهري
١٣٦، ٤٤٠	٤١٩، ٣٩٧	السامري
١٠٧	٤٣٩	السدي
٢٩٥، ٣١٧، ٤٤٠، ٤٥٩	٣١٠	السكوني
٢٠٢، ٣٣٢، ٣٦٦، ٤٣٩	٢٨١، ٢٨٠، ٢٥٢	السيوطي
٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٥٧، ٤٥٩	١٩٤	الشافعي
١٢١، ٢٠٢، ٣٣٦	١٠٧	الشعبي
العياشي	١٠٨	الشيخان
١٧٢	١١٥، ١١٢، ١١١، ١٠٩	
الفخر الرازي	٩	الصدر
١٧٤، ١٨٢، ٤٣٩، ٤٤٠	١٠، ١٣، ١٧، ٦٢، ٧٣، ٣٣٢	
الفضيل بن يسار		
٢٩٨		
القعقاع التيمي		
٣٢٩		
الكشي		
٤٣٩، ٦٣		
الكلبي		

٣٢٨، ٣١١	جميل بن دراج	١١٧،	محمد بن يعقوب الكليني
٢٥٥	حبيب بن ثابت	٢٦٠، ٢٦٦، ١٢٠، ١٢٤،	
١٢٣	حرير	٣١٠، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢٣، ٣٣٢،	
٣٢٨	حمران بن أعين	٤٤٣	المبرد
٢٨١	حميد الأعرج	٢٥٨	المتقي
٣٠٦، ٣٠٥، ٣٠٤	خالد	٢٤	المجلسي
١٥٤	درمنغام	٢٦٠	المقداد
٦٦	ربيع بن عامر	٢٥٧	المنائي
٦٦	رستم	٦٦	النجاشي
١٥٣،	رشيد رضا	١٠٦، ١٠٧،	النسائي
٤٦٠، ٤٤٧، ٤٤٦، ٤٤٥		٣٣٧	النعمان
٣٣٦، ٣٢٨، ١٤٩	زرارة	٣١٠	النوفلي
٢٥٥	زيد بن ارقم	٢٨٠	الواحدى
١٠٧، ١٠٤، ١٠٧	زيد بن ثابت	١٣١	الوليد بن المغيرة
٢٩٥	سارة	٣٩	ام سلمة
١٠٧	سالم	١٠٧،	انس بن مالك
٦٦	سعد بن مالك الزهري	٢٤٩، ٢٥٨، ٣٣٧،	
١٢٠	سعد الخير	١٣٤، ١٥٤،	بحيرا
٢٩٥	سعيد بن المسيب	١١٩	جابر الجعفي
٤٥٩، ٢٧٩، ٢٥٨	سعيد بن جبير	٢١٤، ٢٣، ٢١٤	جابر بن عبد الله
١٠٧	سعيد بن عبيد	٢٦، ١٥٠، ١٦٢، ٢٩٥،	جبرئيل
٣١٢	سعيد بن هبة الله الراوندي	٦٦	جعفر

٢٥٩، ١١٣، ١٠٨	٢٦٠	سلمان
٢٦٥، ٢٥٠	٤٢	سلمة بن صخر
٣٠٠	٣١٦، ٢٦٠	سلم بن قيس الهلالي
٣١٠	٣٩	شريك بن سمحاء
١١٨	٢٦٧	شقيق بن سلمة
١٢٠	٣٠٣	صفوان بن امية
٣٠٦، ٣٠٥، ٣٠٤	١١٦	طلحة
٦٦	٢٩١، ٢٥٢، ٢٠٥، ١٤٩	عائشة
، ٢١٤، ٢٠٥	٣٩	عاصم بن عدي
، ٢٦٥، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥١، ٢٤٩	١٤٩، ١١٥	عبادة بن الصامت
٣١٣، ٣٠٤، ٣٠٣، ٢٩١، ٢٧٨، ٢٧٣	٢٨١	عبد الله بن ابي بكر بن محمد
٣١٣	٢٩٨	عبد الله بن سبأ
٦٦	٢٨٢، ٢١٤	عبد الله بن عباس
٢١٤	٢٥٩، ١٠٧	عبد الله بن عمر
٢٩٨	، ١٠٧	عبد الله بن مسعود
٣٩	٢٧٧، ٢٦٧، ٢١٤	
، ٣٨٢، ٣٧٩، ٣٦٧، ٢٩٥	١٢٠	عبد الاعلى
، ٤٠١، ٣٩٧، ٣٩٣، ٣٨٧، ٣٨٦	٣٣٦، ٢٦٧	عبد الرحمن السلمي
، ٤١١، ٤١٠، ٤٠٩، ٤٠٨، ٤٠٥	٣١٢	عبد الرحمن بن ابي عبد الله
، ٤١٨، ٤١٧، ٤١٦، ٤١٥، ٤١٤	٣٠٣	عبد الرحمن بن عوف
٤٣٢، ٤٣٠، ٤٢٩، ٤٢٦، ٤٢٣، ٤٢٠	٢٨٢	عبيد بن الابرص
٣٢٨	، ١٠٦	عثمان بن عفان
		عدي بن حاتم
		عكرمة
		علي بن ابراهيم
		علي بن احمد الكوفي
		علي بن سويد
		عمار بن ياسر
		عمارة
		عمر بن الخطاب
		، ٢٦٥، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥١، ٢٤٩
		، ٣١٣، ٣٠٤، ٣٠٣، ٢٩١، ٢٧٨، ٢٧٣
		عمر بن عبد العزيز
		عمر بن العاص
		عمر بن حريث
		عنتر بن شداد
		عويمر
		فرعون
		، ٤٠١، ٣٩٧، ٣٩٣، ٣٨٧، ٣٨٦
		، ٤١١، ٤١٠، ٤٠٩، ٤٠٨، ٤٠٥
		، ٤١٨، ٤١٧، ٤١٦، ٤١٥، ٤١٤
		٤٣٢، ٤٣٠، ٤٢٩، ٤٢٦، ٤٢٣، ٤٢٠
		فضيل بن يسار

٣٠٩، ٣٠٤، ٢١٤	مسلم	٤٢٨، ٤٢٦، ٤١٩	قارون
١٠٧	معاذ بن جبل	٤٣٩	قتادة
٣١٧، ٢٥٩	معاوية بن أبي سفيان	٢٨٠، ٢٥٠	قدامة بن مظعون
٤٣٩	معاوية بن قرّة	٢٨٤	كعب الأحبار
٣١٧	موسى بن عقبة	١٣٩	كورش
١٣٤	ميسرة	٢٧٨	لقمان
٢٨٢	نافع بن الأزرق	٤٧١	ماروت
٢٨٢	نجدة بن عويمر	٢٥٩	مالك بن أنس
٢٦٧	نصير بن سليمان الاحمسي	٢٢٦	مجاهد
٢٧٩	نوف	٤٥٩، ٤٤٢، ٤٣٩، ٢٩١	
٤٧١	هاروت	١٠٧	مجمع بن جارية
٣٨٧	هارون	١٤	محمد باقر الحكيم
٤١٥، ٤١٤، ٤٠١، ٣٩٧		٣٢٨	محمد بن الحسن الصفار
٣٠٥	هاشم بن المغيرة	١٢١	محمد بن الفضيل
٤١٨	هامان	٣١٢	محمد بن عبد الله السمعي
٣٣٠، ٣١٠	هشام بن الحكم	٣٢٩	محمد بن عيسى بن عبيد
١٥٠، ١٢٣	هشام بن سالم	١٣٦	محمد جواد البلاغي
٤٢، ٣٩	هلال بن امية	٤٥٠، ٤٤٠، ١٨٤، ١٨٣	محمد عبدة
٢٢	يحيى بن يعمر العدواني	٤٥٩، ٤٥٨، ٤٥٥، ٤٥٤، ٤٥١	
٣٣٠، ٣٢٩	يونس بن عبد الرحمن	٤٦٦، ٤٦٥، ٤٦٤، ٤٦٣، ٤٦٠	
		١١	مرتضى العسكري
		٢٦٩، ١٠٧	مسروق

فهرس المذاهب والفرق

الاسلام	١٧، ١٤، ١٠	الشريعة المسيحية	١٩٩، ١٩٨
١٨، ٢٤، ٣٠، ٣٢، ٧٠، ٨٨، ٩٢		النصرانية	٦٤
٩٧، ١٠٠، ١١٠، ١١٣، ١٤٤			٨٧، ٢٣٤، ٢٤٥، ٣٧٤، ٣٧٦
١٤٧، ١٩٥، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨		الواقفية	٣٣١
٢٦٥، ٢٨٨، ٣١٥، ٣٣٥، ٣٤٥		الوثنية	٦٥
٣٤٦، ٣٤٧، ٣٧٤، ٣٨٧، ٤٣٣، ٤٦٤			٩٠، ٩٤، ١٣٥، ١٥٢
الاسماعيلية	٣٣١	اليهودية	٨٧، ١٥٦
الجاهلية	١٧، ٣٠، ٣٢، ٣٩، ٦٨		١٩٥، ٢٣٤، ٢٤٥، ٣٧٤، ٣٧٦
٧٠، ٩٦، ٢٤٤، ٢٩٧، ٣١٤، ٣١٥		سنة	٣٠٨
الزيدية	٣٣١	شيعة	٣٠٨
الشريعة الاسلامية	١٩٨	مذهب أهل البيت	٣٠٩
٣١١، ٣٢٧، ٣٤٩			
الامامية	٢٠٣، ٢٠٢		
مذهب الامامية	٢٠٠		
مذهب الامامية الاثني عشرية	٢٠٠		
البوذية	٢٣٤		
الشريعة الموسوية	١٩٩، ١٩٨		
المسيحية	١٩٥، ١٥٦، ٦٤		

فهرس الامم والقوميات والجماعات

٤٧٣	اصحاب الجنة	٤١١، ٤٠٣	آل فرعون
٤٧٣	اصحاب النار	٤١٠، ٣٧٦	الفراعنة
١٣٢	اعجمياً	٤٢٨، ٤٢٤	الفرعونيون
٢٨٦	اعراب	٤٣٢، ٣٨٨	المجتمع الفرعوني
٤٦٧	الاحبار	٤٢٢	قوم فرعون
٣٣٢	الاخباريون	٣٧٦،	الاسرائيليين
٣٠٩	الاستكبار العالمي	٤٣٥، ٤٢٥، ٤١١، ٤١٠، ٣٩٧، ٣٨٢	
١١٢	الامة الاسلامية	٢٩٣،	الاسرائيليون
٢٣٤	المجتمع الاسلامي	٤٣٤، ٤٢٤، ٤١٠، ٤٠٤، ٣٩١	
١٠٥، ١٠١، ٩٦، ٨٦، ٧١	المسلمين	٣٧٦،	الشعب الاسرائيلي
١٤٣، ١٢٠، ١١٣، ١١٠، ١٠٩		٤٣٤، ٤٢٧، ٣٨١	
٢٠٠، ١٩٥، ١٦١، ١٥٨، ١٤٤		١٩٩، ١٥٢	بنو اسرائيل
٢٣٤، ٢١٣، ٢٠٨، ٢٠٥، ٢٠٣		٣٨٤، ٣٨١، ٣٦٧، ٣٦٥، ٣٣٩	
٣١١، ٣٠٩، ٣٠٨، ٢٨٦، ٢٤٠		٤٠٨، ٣٩٧، ٣٩٣، ٣٨٨، ٣٨٦	
٣٣١، ٣٢٦، ٣٢١، ٣١٤، ٣١٣		٤١٩، ٤١٨، ٤١٧، ٤١٤، ٤١١	
٤٣٦، ٣٨١، ٣٦٧، ٣٤٩، ٤٢٨، ٣٤٧		٤٣٤، ٤٣٢، ٤٢٨، ٤٢٤، ٤٢٣، ٤٢١	
٤٥١	علماء الاسلام	٦٤	اسد
٣٥٥	الامم السالفة	٣٦٥	اصحاب الاخدود

٤٣٢	الجاهليون	١٠٨	الامويون
٣٢١، ١٤٧	المجتمع الجاهلي	٣٠٣، ٢٩٨، ١٤٤، ١١٤	
١٢٩	الحجازي	٣٠٢	الانصار
٤٦٧	الربانيون	٦٩	البربرية
٤٠٧، ٣٩٩، ٣٩٣، ٣٩٢	الكفار	٤٣٦، ١٣٤	الروم
٣٠٩	المبشرون	٦٥، ٦٤	الرومان
٤١٠	المجتمع الوثني	١٦٣	الريية
٣٠٩	المرتدون	٣٧٢	الشعب العربي
٣٠٩، ٢٤٣، ١٥١، ١٤٧	المستشرقون	١٧	العرب
١٣٩	المسيحيون	٦٧، ٦٤، ٦٣، ٦٢، ٣٤، ٣٢، ٢١	
٧٨، ٧٧، ٦٤، ٣١	المشركون	١٣٦، ١٣٢، ١٠٩، ٩٦، ٨٦، ٧٠	
١٣٥، ١٣٣، ١٣١، ١٠٤، ٩٧		٢٩٧، ١٦٦، ١٦٥، ١٤٦، ١٤٤	
٤٠٠، ٣٩٢، ٣٧٧، ٣٧٤، ١٥٤، ١٤٤		٤٤٨، ٤٤٥، ٤٤٢، ٤٤٠، ٣٧٧، ٣٦٩	
٦٤	جذام	١٣٥	امة العرب
٦٤	حمير	١٥٢	عرب الحجاز
٦٤	طي	٦٩	قبائل العرب
٦٤	كنانة	٣٧٢	الشعب الهندي
٦٤	لحم	٣٠٩	الصهاينة
٣٨	مشركو مكة	٣٧٢	الصيني
٩٠	مشركو العرب	١٣٥، ١٣٤	الفرس
٤١٠	المصري	١٠٤، ٣٠	الكافرون
٣٩٣، ٣٨٩، ٣٨٦	المكذبون	٤٣١، ٤٢٨، ٤٢٦، ٤٠١، ٣٩٧، ٣٨٨	

المكيون	١٣٠	اليهود	١٦٤
الملاحدة	٣٠٩		١٤٤، ١٥٣، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٠،
الملحدون	٤٧٢		٢٠١، ٢٠٣، ٢٩٤، ٣٧٤، ٣٧٥،
المنافقون	١٦٠، ٧٨، ٣٨		٣٧٧، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥،
	٤٣١، ٤١٩، ٣٨٣، ٣٨٢، ٣٧٦، ٢٨٦	اهل السنة	٣٢٥
المنحرفون	٣٨٩، ٣٨٦	اهل الكتاب	٨٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٥،
المؤمنون	٣٩٧، ٣٨٨		١٥٦، ٧٨، ٩٧، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٨٨،
النصارى	١٤٤، ١٣٥، ٦٤		٢٩٣، ٢٩٦، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨١، ٣٨٢،
	٢٠٣، ٢٠٠، ١٩٨، ١٩٥، ١٥٣	ثمود	١٥٤
	٣٨٥، ٣٨٤، ٣٨٣، ٣٨٢، ٣٧٥، ٣٧٤	عاد	١٥٤
نصارى الشام	١٥٥، ١٥٤	قريش	١٣٢، ٤٤٥،

فهرس البلدان والاماكن

٤١٣	الوادي المقدس	١٥٤	ارض الاحقاف
٧١	الولايات المتحدة الاميركية	٤١٢	ارض مدين
٣٧٢، ٦٥	الهند	٣٨٤	الارض المقدسة
٦٩، ٦٥	اوربا	٤٣٦، ٤٢٦، ٤١٨	
٦٥	ايران	٤١٣	البقعة المباركة
١٣٤	بصرى	٤١١	البلاط الفرعوني
١٤، ٩	بغداد	١٦٣	البيت الحرام
٦٤	بلاد الروم	٣٢	الجزيرة العربية
٦٥، ٦٤	بلاد العرب	١٣٠، ٦٢، ٥٧، ٥٦	
٣٦٥	سد مأرب	١٤٤، ١٣٤، ٦٤	الشام
٤١٨	سيناء	٣٦٩	الشرق الأوسط
٤١٣	شاطئ الوادي الأيمن	٣٩	الصفاء
١٥٥	غار حراء	٣٧٢، ٦٥	الصين
٣٨	مسجد ضرار	٣٣٠	العراق
٤١٤	مصر	٢٠٣	القبلة الأولى
٤٢٤، ٤٢٣، ٤٢١، ٤٢٠، ٤١٨		١٦٣	الكعبة
٣٩	مكة	٧٤، ٧٣، ٣٩، ٢٨	المدينة
٨٨، ٨٧، ٨٢، ٧٤، ٧٣		٣٢١، ١٠٦، ١٠٢، ٩٧، ٨٨، ٨٢	
٣٢١، ١٥٥، ١٣٤، ١٣٢، ١٣٠، ٩٦		٣٩	المروة
٨٦	يثرب	٢٠٣، ١٣١	المسجد الحرام

فهرس الموضوعات

٧	 مقدمة المجمع
٩	 مقدمة الطبعة الثالثة
١٤	 مقدمة الطبعة الثانية

القسم الاول

موضوعات عامة حول القرآن

١٧	 تمهيد
١٧	 القرآن واسماؤه
١٩	 علوم القرآن
٢١	 تأريخ علوم القرآن
٢٢	 الحث على التدبر في القرآن
٢٥	 نزول القرآن الكريم
٢٥	 نزول القرآن عن طريق الوحي
٢٦	 صور الوحي
٢٧	 نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ مرتين

٢٨ التدرج في التنزيل

٣١ نزول القرآن الكريم باللغة العربية

٣٧ أسباب النزول

٣٧ معنى سبب النزول

٣٩ الفائدة من معرفة السبب

٤٠ تعدد الاسباب والمنزل واحد والعكس

٤٢ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

٤٥ الهدف من نزول القرآن

٤٥ المقدمة : أهمية الموضوع

٤٧ القرآن وتشخيص الهدف من نزوله

٤٩ ابعاد الهدف الرئيس من نزول القرآن

٤٩ أ - التغيير الجذري

٥٣ ب - المنهج الصحيح للتغيير

٥٥ ج - خلق القاعدة الثورية

٦٢ القرآن الكريم يحقق الهدف من نزوله

٦٢ ابعاد التغيير في مجتمع الجزيرة العربية

٦٢ أ - تحرير القرآن للانسان من الوثنية

٦٧ ب - تحرير القرآن للعقول

٦٩ ج - تحرير القرآن للانسان من عبودية الشهوة

٥٣٧	فهرس الموضوعات
٧٣	المكّي والمدني
٧٣	الاتجاهات في معنى المكي والمدني
٧٤	ترجيح أحد الاتجاهات الثلاثة
٧٦	طريقة معرفة المكي والمدني
٧٨	موقفنا من خصائص السور المكية والمدنية
٧٩	شبهات حول المكّي والمدني
٧٩	المقدمة
٨٢	أ - اسلوب القسم المكي يمتاز بالشدة والعنف والسباب
٨٥	ب - اسلوب القسم المكي يمتاز بقصر السور والآيات
٨٧	ج - لم يتناول القسم المكي في مادته التشريع والاحكام
٨٨	د - لم يتناول القسم المكي في مادته الأدلة والبراهين
٩١	الفروق الحقيقية بين المكي والمدني
٩٣	التفسير الصحيح للفرق بين المكي والمدني

٩٩	ثبوت النص القرآني
١٠١	تدوين القرآن في زمن النبي ﷺ
١٠٤	الشبهة حول طبيعة الأشياء
١٠٨	تحريف القرآن
١١٤	جمع القرآن على عهد النبي ﷺ
١١٦	شبهتان حول الجمع في عهد الشيخين ومناقشتها
١١٦	الشبهة الاولى
١١٨	الشبهة الثانية

القسم الثاني أبحاث في القرآن

اعجاز القرآن	١٢٧
ماهي المعجزة	١٢٧
الفرق بين المعجزة والابتكار العلمي	١٢٨
القرآن هو المعجزة الكبرى	١٢٩
بعض أدلة اعجاز القرآن	١٢٩
شبهات حول اعجاز القرآن ومناقشتها	١٣٦
شبهة المستشرقين حول الوحي ومناقشتها	١٤٨
مقدمة	١٤٨
ما هو الوحي ؟	١٤٨
الشبهة حول الوحي	١٥٢
القرآن وحي نفسي لمحمد ﷺ	١٥٢
مناقشة الشبهة	١٥٤
المحكم والمتشابه في القرآن	١٦٥
المحكم والمتشابه بمعناها اللغوي	١٦٥
أ- المحكم	١٦٥
ب- المتشابه	١٦٦
القرآن محكم ومتشابه	١٦٧
مختارنا في المحكم والمتشابه	١٦٩
الاتجاهات الرئيسة في المحكم والمتشابه	١٧٢

٥٣٩	فهرس الموضوعات
١٨٢	الحكمة في وجود المتشابه في القرآن الكريم
١٩١	النسخ في القرآن
١٩١	توطئة عن فكرة النسخ
١٩٢	النسخ لغةً واصطلاحاً
١٩٥	جواز النسخ عقلاً ووقوعه شرعاً
٢٠٠	الفرق بين النسخ والبداء
٢٠٣	النسخ في الشريعة الاسلامية
٢٠٤	هل للنسخ أقسام؟
٢٠٧	نماذج من الآيات التي أدعي نسخها مع مناقشتها

القسم الثالث

التفسير والمفسرون

٢١٧	التفسير والتأويل
٢١٧	التفسير
٢١٧	١- التفسير بمعناه اللغوي
٢١٩	أهمية التمييز بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى
٢٢١	٢- التفسير معنى' اضافي أم موضوعي
٢٢٢	٣- تفسير اللفظ وتفسير المعنى
٢٢٤	التفسير بوصفه علماً
٢٢٦	التأويل
٢٢٧	موقفنا من هذه الاتجاهات

التدبر والتفسير بالرأي ٢٣١

المفسّر ٢٤٢

الشروط التي يجب توفرها في المفسر ٢٤٢

التفسير في عصر الرسول ﷺ ٢٤٧

الشواهد على عدم توفر الفهم التفصيلي ٢٤٨

دور الرسول الأعظم ﷺ في التفسير ٢٥١

المرجعية الفكرية لأهل البيت: ٢٥٥

التفسير في عصر التكوين ٢٦٢

بذور تكوّن علم التفسير ٢٦٧

التفسير في عصر الصحابة والتابعين ٢٧١

١- طبيعة التفسير في هذا العصر ٢٧١

٢- مصادر المعرفة التفسيرية في هذا العصر ٢٧٧

٣- نقد التفسير في عصر الصحابة والتابعين ٢٨٥

مظاهر هذه النتائج في المعرفة التفسيرية ٢٨٧

نماذج للتفسير بدوافع مختلفة ٣٠٢

أ- نماذج من التفسير لاغراض سياسية ٣٠٢

ب- نماذج من التفسير لاغراض شخصية ٣٠٣

التفسير في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ٣٠٧

تمهيد ٣٠٧

نقطتان مميزتان للتفسير في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ٣٠٧

٥٤١	 فهرس الموضوعات
٣١٨	 معالم نظرية أهل البيت عليه السلام في التفسير
٣١٨	 الأول: الوحدة البيانية للقرآن
٣٢١	 الثاني: الاحاطة بطروف النص القرآني
٣٢٢	 الثالث: الاعتماد على السنة الصحيحة في التفسير
٣٢٤	 الرابع: القرآن تحدث عن كل عصر وزمان
٣٢٥	 نظرية أهل البيت عليه السلام في فهم القرآن الكريم
٣٢٩	 ملاحظات واستنتاجات عامة

القسم الرابع

التفسير الموضوعي

٣٤٣	 التفسير الموضوعي
٣٤٣	 تمهيد: التعريف بالتفسير الموضوعي
٣٤٦	 حاجة العصر الى التفسير الموضوعي
٣٤٨	 الموضوعات التي عرض لها القرآن اجمالاً وطريقته في هذا العرض

٣٥٣	 القصص القرآني
٣٥٣	 الفرق بين القصص القرآني وغيره
٣٥٤	 أغراض القصة في القرآن الكريم
٣٥٤	 أ- اثبات الوحي والرسالة
٣٥٦	 ب- وحدة الدين والعقيدة لجميع الأنبياء
٣٥٩	 ج- تشابه طرق الدعوة والمجاهدة
٣٦٠	 د- النصر الالهي للأنبياء
٣٦٢	 هـ- تصديق التبشير والتحذير

- ز - عداوة الشيطان ٣٦٣
- و - اللطف الالهي بالانبياء ٣٦٣
- ح - أهداف بعثة الانبياء ٣٦٤
- ط - أهداف تربوية أخرى ٣٦٥
- ظواهر عامة في القصة القرآنية ٣٦٦
- أ - تكرار القصة في القرآن الكريم ٣٦٦
- ب - اختصاص القصة بأنبياء الشرق الأوسط ٣٦٩
- الرسالات الالهية لا تختص بمنطقة الشرق الأوسط ٣٦٩
- تفسير الاختصاص بالمنطقة المحدودة ٣٧١
- ج - ظاهرة تأكيد دور ابراهيم وموسى عليهما السلام ٣٧٣
- أهمية تأكيد دور ابراهيم عليه السلام ٣٧٤
- أهمية تأكيد دور موسى عليه السلام ٣٧٦
- الحديث عن عيسى عليه السلام ٣٧٧
- دراسة قصة موسى عليه السلام ٣٧٩
- ١ - قصة موسى عليه السلام بحسب مواضعها من القرآن الكريم ٣٨٠
- ٢ - قصة موسى عليه السلام في القرآن بحسب تسلسلها التاريخي ٤١٠
- الاسرائيليون في المجتمع المصري ٤١٠
- ولادة موسى وارضاعه ٤١٠
- خروج موسى من مصر ٤١١
- موسى في أرض مدين ٤١٢
- بعثة موسى عليه السلام ورجوعه الى مصر ٤١٣
- فرعون يجادل موسى في ربوبية الله ٤١٥

فهرس الموضوعات ٥٤٣

- ٤١٧ اصرار فرعون وقومه على الكفر ومجيء موسى بالآيات
- ٤١٨ الانتار بموسى عليه السلام لقتله وطغيان فرعون
- ٤١٨ خروج موسى عليه السلام ببني اسرائيل من مصر
- ٤١٩ موسى مع بني اسرائيل
- ٤٢٠ ٣- دراسة عامة مختصرة لقصة موسى عليه السلام
- ٤٢٠ الأول: مراحل حياة موسى عليه السلام
- ٤٢٦ الثاني: موضوعات القصة
- ٤٢٧ ١- بعثة موسى ومعجزه
- ٤٢٨ ٢- أساليب الدعوة وأدلتها
- ٤٣٠ ٣- مواجهة الكافرين والمنافقين
- ٤٣٢ ٤- الجانب التحريفي في العبادة
- ٤٣٣ ٥- الحياة الشخصية لموسى
- ٤٣٤ ٦- الأوضاع العامة للشعب الاسرائيلي

فواتح السور ٤٣٧

- ٤٣٩ مذاهب تفسير فواتح السور
- ٤٤٧ موقفنا من هذه المذاهب

استخلاف آدم (الانسان) ٤٤٩

- ٤٥٠ الفصل الأول: الحكمة في استخلاف آدم
- ٤٥٢ مفاهيم حول الاستخلاف
- ٤٥٢ ١- الخلافة
- ٤٥٤ ٢- كيف عرف الملائكة أن الخليفة يفسد في الأرض

٤٥٦	٣- الأسماء
٤٥٩	ماهي هذه الاسماء ؟
٤٦٠	نظرية الاستخلاف
٤٦٠	صورتان لهذه النظرية
٤٦٣	الموازنة بين الصورتين
٤٦٧	الفصل الثاني : مسيرة الاستخلاف
٤٦٧	الجانب الاول : تشخيص مجموعة من المفاهيم والتصورات
٤٦٨	السجود لآدم
٤٧٠	ابليس من الملائكة أم لا
٤٧١	هل خلق آدم للجنة أم للأرض ؟
٤٧٣	خطيئة آدم
٤٧٥	الجانب الثاني : التصور العام لمسيرة الخلافة
٤٨١	الفهارس الفنية
٤٨٥	فهرس الآيات
٥٠٩	فهرس الأحاديث
٥١٧	فهرس أسماء المعصومين عليهم السلام
٥٢١	فهرس الأعلام
٥٢٧	فهرس المذاهب والفرق
٥٢٩	فهرس الامم والقوميات والجماعات
٥٣٣	فهرس البلدان والأماكن
٥٣٥	فهرس الموضوعات